سيليسْت إنْج

حرائق صغيرة في كل مكان

رواية

ترجمتها عن الإنجليزية
سها السباعي



https://t.me/fantazynov



لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي:

Little Fires Everywhere

حقوق النشر © سيليست إنج ٢٠١٧

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

حقوق الترجمة © سها السباعي

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

Copyright © 2017 by Celeste Ng

This book is published in collaboration with the Arabic Book Program (ABP), U.S. Embassy Cairo. ABP works with Egyptian publishers to translate and publish books that reflect U.S. culture and values.

نُشر هذا الكتاب بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية في القاهرة، وهو برنامج يعمل مع دور نشر مصرية على ترجمة ونشر كتب تعبر عن الثقافة والقيم الأمريكية.

إنج، سيليست.

حرائق صغيرة في كل مكان: رواية / سيليست إنج؛ ترجمة سها السباعي - القاهرة: الكرمة للنشر ٢٠٢٠.

٤٣٢ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789776743151

١- القصص الأمريكية

أ- السباعي، سها (مترجمة)

ب- العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٠٤٨ / ٢٠١٩

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

https://t.me/fantazynov

إلى هؤلاء السَّاعين لإيجاد دروبهم الخاصة،
مُضرمين حرائق صغيرة.

https://t.me/fantazynov



https://t.me/fantazynov

سواء اشتريتَ قطعة أرض لبناء منزل حول «الأرض المخصصة للمدارس»، فدادين شاسعة في «عقارات «شايكِر» الريفية»، أو أحد المنازل التي تقدمها هذه الشركة في أحياء مختارة، فإن ما اشتريتَه يتضمن منشآتٍ للعب الجولف، وركوب الخيل، والتنس، وركوب الزوارق، كما يتضمن مدارس لا يمكن التفوق عليها، وأيضًا حمايةً للأبد ضد انخفاض القيمة والتغيير غير المُرحَّب به.

ـ إعلان، «ذي فان سوِيرينْجِن كومباني»
مُنشِئو ومُطوِّرو قرية «شايكِر»

* * *

في الحقيقة، على أي حال، بأخذ كل شيء في الاعتبار، الناس في «شايكِر هايتْس» يشبهون كثيرًا الناس في كل مكانٍ آخر في أمريكا. ربما لديهم ثلاث أو أربع سيارات بدلًا من واحدة أو اثنتين، وربما لديهم جهازًا تلفزيون بدلًا من جهازٍ واحد، وحين تتزوج إحدى فتيات «شايكِر هايتْس» قد تقيم حفل استقبالٍ لثمانمائة شخص، تحييه فرقة «ماير دايفيز» الموسيقية التي قدِمت بالطائرة من نيويورك، بدلًا من حفل زفاف لمائة شخص تحييه فرقة محلية، لكن كل هذه على الأحرى اختلافات في الدرجة وليست اختلافات أساسية. «نحن أناسٌ ودودون ونقضي وقتًا رائعًا!»، هكذا قالت امرأة في «نادي شايكِر هايتْس الريفي» مؤخرًا، وكانت مُحقة، لأن سكان اليوتوبيا، يبدو حقًّا أنهم يحيون حياةً سعيدة.

«الحياة الرغيدة في «شايكِر هايتْس»»،
جريدة «كوزموبوليتان»، مارس ١٩٦٣.

https://t.me/fantazynov

١

كان الجميع في «شايكِر هايتْس» يتحدثون عن الأمر في ذلك الصيف: كيف فقدت «إيزابيل»، الابنة الصغرى لعائلة «ريتشاردسون»، صوابها وأحرقت المنزل. انتشرت النميمة طوال الربيع عن الصغيرة «ميرابيل ماكولا» ـ أو «ماي لينج تشو»، وفقًا لانحيازك لأي من الجانبين ـ أمَّا الآن، وأخيرًا، فأصبح هناك شيء جديد ومثير للحديث بشأنه. سمع المتسوِّقون الذين يدفعون عربات البقالة في متجر «هايِنِز»، بعد ظهيرة ذلك السبت بقليلٍ في شهر مايو، صافرات عربات الإطفاء وهي تُبعث إلى الحياة وتتحرك مبتعدةً بسرعة باتجاه بركة البط. وبحلول الساعة الثانية عشرة والربع كانت هناك أربع عربات مصطفة كيفما اتفق في خط أحمر بطول «باركلاند درايف»، حيث كانت النيران مشتعلة في جميع غرف النوم الست في بيت عائلة «ريتشاردسون»، وتمكن كل شخص على مسافة نصف ميل من رؤية الدخان المتصاعد فوق الأشجار مثل سحابةٍ رعديةٍ كثيفةٍ سوداء. سوف يقول الناس فيما بعد إن العلامات كانت جليَّة طوال الوقت: إن «إيزي» كانت معتوهةً صغيرة، إنه كان هناك دائمًا شيء غريب بشأن عائلة «ريتشاردسون»، وإنهم بمجرد أن سمعوا صافرات الإنذار ذلك الصباح عرفوا أن شيئًا رهيبًا قد حدث. في ذلك الوقت، بالطبع، ستكون «إيزي» قد رحلت منذ وقت طويل، من دون أن تترك أي شخص للدفاع عنها، وكان بوسع الناس أن يقولوا ـ بل قالوا ـ

ما طاب لهم. على أي حال، وفي لحظة وصول عربات الإطفاء، بل وبعد ذلك بقليل، لم يعرف أحد ماذا حدث. تجمَّع الجيران قريبًا من الحاجز المؤقت قدر استطاعتهم ـ الذي كان عبارة عن سيارة شرطة تقف بالعرض على بعد عدة مئات من الياردات ـ وشاهدوا رجال الإطفاء وهم يحرِّرون خراطيمهم بوجوه متجهمة لرجالٍ أدركوا حالةً ميؤوسًا منها. عبر الشارع، كانت طيور الإوز تغطس رؤوسها في البركة طلبًا للحشائش المائية، غير منزعجة على الإطلاق من الهرج الدائر على مقربة منها.

وقفت السيدة «ريتشاردسون» على مرجة الشجرة، متشبثةً بياقة ردائها الأزرق الباهت لتغلقه. وعلى الرغم من أن الوقت كان بعد الظهيرة بالفعل، فإنها كانت لا تزال نائمة حين انطلقت صافرات أجهزة كشف الدخان. كانت قد ذهبت للنوم في وقت متأخر، وظلت نائمةً عن عمد، قائلةً لنفسها إنها تستحق هذا بعد ذلك اليوم العصيب. في الليلة السابقة، رأت من نافذة الطابق العلوي سيارةً توقفت أخيرًا أمام المنزل. كان ممر السيارات طويلًا ودائريًّا، على شكل قوس حدوة حصانٍ عميقة تنحني من حافة الطريق حتى الباب الأمامي ثم تعود، ولهذا كان الشارع يبعد مائة قدم، وهي مسافة بعيدة لا تسمح لها بالرؤية بوضوح، وبالإضافة إلى ذلك وحتى في شهر مايو، كان الظلام يخيم في الساعة الثامنة. ولكنها تعرفت على سيارة مستأجرتها، «مِيا»، الـ«فولكس فاجن» الضاربة إلى الصفرة بأضوائها اللامعة. فُتح الباب إلى جوار السائق وخرج منه شخص ذو قوام ممشوق، تاركًا الباب مفتوحًا. إنها «بيرْل» ابنة «مِيا» المراهقة. أضاء النور الداخلي ما في داخل السيارة كأنها صندوق ظل، لكن السيارة كانت مكدَّسةً بحقائب تصل إلى السقف تقريبًا ولم يكن بوسع السيدة «ريتشاردسون» أن ترى إلا الصورة الظلية الباهتة لرأس «مِيا»، وعقدة شعرها المشوَّشة القابعة على قمَّتها. انحنت «بيرْل» فوق صندوق البريد، وتخيلت السيدة «ريتشاردسون» سماع الصرير الخافت الذي يصاحب فتح بابه ثم إغلاقه. بعد ذلك قفزت «بيرْل»

داخل السيارة وأغلقت الباب. وأُضيء ضوء المكابح الأحمر، ثم انطفأ، ثم انطلقت السيارة في الليل المتنامي. وبشعورٍ مفعمٍ بالراحة، هبطت السيدة «ريتشاردسون» إلى صندوق البريد ووجدت مجموعةً من المفاتيح معلَّقةً في حلقة بسيطة، من دون أي ملاحظة مرفقة. وعزمتْ على الذهاب في الصباح لتفَقُّدِ المنزل المؤجَّر على طريق «وينسلو»، على الرغم من معرفتها بأنهما قد رحلتا بالفعل.

كان هذا سبب سماحها لنفسها بالنوم لوقتٍ متأخر، والساعة الآن تشير إلى الثانية عشرة والنصف وهي واقفةٌ على المرجة مرتديةً رداءها وحذاء التنس الخاص بابنها «تريب»، تشاهد منزلهم بينما تلتهمه النيران. حين استيقظت على الصرخة الحادة لجهاز كشف الدخان، هرعتْ من غرفة إلى أخرى بحثًا عنه وعن «ليكسي» وعن «مودي». صدمها أنها لم تبحث عن «إيزي»، كأنها عرفت أن «إيزي» هي الملومة. كانت كل الغرف خاليةً إلا من رائحة البنزين وشعلة نار صغيرة متأججة في منتصف كل فراش مباشرة، كما لو أن فتاة مخبولة من فتيات الكشافة كانت تخيم هناك. وفي الوقت الذي استغرقتْه في تفَقُّد غرفة المعيشة، وغرفة العائلة، وغرفة الاسترخاء والتسلية، والمطبخ، كان الدخان قد بدأ بالانتشار، ثم هرعتْ باتجاه الخارج أخيرًا لتسمع صافرات عربات الإطفاء، التي استدعاها نظام الأمن بمنزلها، والتي كانت تقترب بالفعل. بالخارج وفي ممر السيارات، أدركت اختفاء السيارة «الجيب» الخاصة بـ«تريب» والسيارة «الإكسبلورر» الخاصة بـ«ليكسي» ودراجة «مودي»، وبالطبع، سيارة زوجها. عادةً ما يذهب زوجها إلى المكتب في صباحات السبت لاستكمال الأعمال المتأخرة. ينبغي أن يتصل به أحد في العمل. تذكرتْ أن «ليكسي»، شكرًا لله، قد قضت الليلة الماضية بمنزل «سيرينا وونج». تساءلت إلى أين ذهبت «إيزي». وتساءلت أين كان ولداها، وكيف تجدهما لتخبرهما بما حدث.

* * *

لم يكن المنزل قد احترق تمامًا بحلول الوقت الذي أُخمد فيه الحريق على الرغم من مخاوف السيدة «ريتشاردسون». انتهت جميع النوافذ، لكن قرميد المنزل ظل صامدًا، رطبًا ومسودًّا ويتصاعد منه البخار، وكانت أغلب ألواح السقف المتداخلة لامعةً كحراشف السمك الخارج من الماء للتَّو. لن يُسمح لعائلة «ريتشاردسون» بدخول المنزل لعدة أيامٍ أخرى، حتى يختبر مهندسو إدارة الإطفاء قدرة احتمال جميع دعاماته، ولكن حتى من مكانهم على المرجة ـ أقرب مكانٍ يسمح لهم شريط التحذير الأصفر بالدُّنوِّ من المنزل ـ كان بوسعهم أن يروا أنه لم يتبقَّ شيء بالداخل يمكن إنقاذه.

قالت «ليكسي»:

ـ يا يسوع المسيح.

جلستْ على سقف سيارتها، التي توقفت الآن عبر الشارع، على العشب المتاخم لبركة البط. كانت و«سيرينا» ما زالتا نائمتين متكوِّرتين وقد أولتْ إحداهما ظهرها إلى الأخرى في فراش «سيرينا» الضخم، حين هز الدكتور «وونج» كتفها بعد الساعة الواحدة مباشرة، هامسًا:

ـ «ليكسي». «ليكسي»، حبيبتي. استيقظي. اتصلت والدتك حالًا.

ظلتا ساهرتين إلى ما بعد الثانية صباحًا، تتحدثان ـ كما اعتادتا طوال الربيع ـ عن الصغيرة «ميرابيل ماكولا»، تتجادلان حول صواب قرار القاضي أو خطئه، وحول وجوب منح حق الحضانة لوالديها الجديدين أو وجوب عودتها إلى والدتها.

قالت «سيرينا» في النهاية:

ـ حتى إن اسمها الحقيقي ليس «ميرابيل ماكولا» بحق الله.

خيَّم عليهما صمتٌ كئيبٌ مضطربٌ حتى استسلمت كلتاهما للنوم.

الآن شاهدت «ليكسي» غيمة الدخان المتصاعدة من نافذة غرفة نومها، الغرفة الأمامية المطلة على مرجة الشجرة، وفكرت أن كل شيء بداخلها

قد ضاع. كل تيشيرت في أدراج خزانتها، وكل جينز في دولاب ملابسها، وكل الملاحظات التي كتبتها «سيرينا» لها منذ الصف السادس، ما زالت مطوية في مثلثات ورقية متداخلة، احتفظتْ بها في صندوق أحذية تحت الفراش، والفراش نفسه، والملاءات واللحاف، احترقت حتى تفحمت، والصدار الوردي الذي أهداه لها صديقها «برايان» عند عودتها إلى الوطن، معلَّق ليجف على منضدة الزينة، ووريقات الورد التي قتم لونها من الياقوتي إلى الأحمر القاني بلون الدماء الجافة، لم يبقَ إلا الرماد. أدركت «ليكسي» فجأة أثناء تبديل الملابس التي أحضرتها إلى منزل «سيرينا» أنها كانت أحسن حالًا من بقية أفراد أسرتها، لديها في المقعد الخلفي حقيبة قماشية وبنطال من الجينز وفرشاة أسنان وملابس للنوم. ألقت نظرة على إخوتها ووالدتها التي لا تزال ترتدي رداء الاستحمام على مرجتهم الخضراء وفكرت، **لم يعد لديهم شيء حرفيًّا سوى الملابس التي تسترهم**. كانت كلمة **حرفيًّا** الكلمة المفضلة لدى «ليكسي»، والتي تكثر من قولها حتى لو أن الموقف حرفيٌّ بالفعل. في هذه الحالة، كان الوصف صحيحًا إلى حدٍّ ما.

مرَّر «تريب»، من مكانه بجوارها، يده بذهول خلال شعره. ارتفعت الشمس فوق رؤوسهم الآن وجعل العرقُ خصلاتِه المجعدة منتصبة بدلًا من انسدالها بأناقة. كان يلعب كرة السلة في المركز الاجتماعي حين سمع عويل عربات الإطفاء، ولكن لم يفكر في شيء من هذا. (كان مشغول البال هذا الصباح على وجه الخصوص، ولكن في الحقيقة، من المحتمل أنه لم يكن ليلاحظ على أي حال). ثم قاد سيارته إلى المنزل حين شعر الجميع بالجوع وقرروا إنهاء اللعب. وكما هو متوقع، ومع أن النوافذ مفتوحة، لم يلاحظ سحابة الدخان المنبعثة باتجاهه، ولم يبدأ بالشعور أن شيئًا ما على غير ما يرام إلا حين وجد شارعه مسدودًا بسيارة الشرطة. بعد عشر دقائق من الشرح، سُمح له أخيرًا بإيقاف سيارته «الجيب» على الجانب الآخر من

المنزل، حيث ينتظر كلٌّ من «ليكسي» و«مودي» بالفعل. جلس ثلاثتهم على سقف السيارة بالترتيب، كما فعلوا في جميع الصور الشخصية للعائلة والتي كانت معلَّقة فيما مضى على الجدار الملاصق للسلَّم والتي تحولت الآن إلى رماد. «ليكسي» ثم «تريب» ثم «مودي»؛ طالبة في السنة الثانوية الأخيرة ثم طالب في السنة قبل الأخيرة ثم طالب في السنة الثانية. شعروا بالفجوة التي خلَّفتها «إيزي»، طالبة السنة الأولى، البطة السوداء، التي لا يمكن توقُّع أفعالها، على الرغم من أنهم كانوا متأكدين، جميعًا، أن تلك الفجوة سوف تكون مؤقتة.

تمتم «مودي»:

ـ فيمَ كانت تفكر؟

قالت «ليكسي»:

ـ حتى هي عرفت أنها تمادت كثيرًا هذه المرة، لذلك هربت. سوف تقتلها أمي حين تعود.

سأل «تريب»:

ـ أين سنُقيم؟

حلَّت لحظة صمت بينما تفكَّروا في موقفهم.

قالت «ليكسي» في النهاية:

ـ سوف نجد غرفة في فندق أو شيئًا من هذا القبيل. أعتقد أن هذا ما فعلته أسرة «جوش ترامِل».

علم الجميع بتلك القصة. منذ عدة سنوات مضت، نام «جوش ترامِل» الطالب في السنة الثانية في وجود شمعة مشتعلة أحرقت منزل والديه عن آخره. قالت الشائعة التي دامت طويلًا في المدرسة الثانوية إنها لم تكن شمعة، بل سيجارة حشيش، لكن النيران التهمت المنزل تمامًا ولم تترك مجالًا للتأكد، والتزم «جوش» بقصة الشمعة. ما زال الجميع يعتقدون أنه الغبي الذي أحرق منزله حتى بعد مرور سنوات طويلة، وبعد تخرُّج «جوش»

في جامعة «ولاية أوهايو» مع مرتبة الشرف. الآن، بالطبع، لم يعد حريق «جوش ترامِل» الحريق الأشهر في «شايكِر هايتْس».

ـ غرفة فندق واحدة؟ لنا جميعًا؟

ـ أيًّا كان. غرفتان. أو سنقيم في فندق «إمباسي سويتْس». لا أعرف.

نقرت «ليكسي» بأصابعها على ركبتها. أرادت تدخين سيجارة، ولكن بعد الذي حدث للتَّو ـ وعلى مرأى من والدتها وعشرة من رجال الإطفاء ـ لم تجرؤ على إشعال واحدة.

ـ سوف تجد أمي وأبي حلًّا ما. وسوف تتكفل شركة التأمين بالتكاليف.

بدا ذلك أمرًا منطقيًّا على الرغم من أنه لم يكن لديها إلا شعور مبهم بكيفية عمل التأمين. تبدَّد أغلب الدخان، لكن الرطوبة ظلت عالقة في كل مكان، مثل الهواء في الحمَّام بعد استحمامٍ طويلٍ بماء ساخن. بدأ سقف السيارة يسخن، ومدَّد «تريب» ساقيه على الزجاج الأمامي، ناكزًا مسَّاحة الزجاج بطرف خُفِّه الخفيف. ثم بدأ في الضحك.

قالت «ليكسي»:

ـ ما المضحك في الأمر؟

ـ فقط أتصور «إيزي» تجري وتشعل الكبريت في كل مكان.

ثم أطلق شخيرًا وقال:

ـ تلك المخبولة.

دقَّ «مودي» بإصبعه على إطار حمل الأمتعة على السقف وقال:

ـ لماذا يثق الجميع تمامًا بأنها الفاعلة؟

قفز «تريب» من فوق السيارة وقال:

ـ بحقِّك، إنها «إيزي». نحن جميعًا هنا، أمي هنا، أبي في طريقه إلى هنا. من الشخص المفقود؟

ـ إذن «إيزي» ليست هنا، فهي الشخص الوحيد الذي قد يكون المسؤول؟

قالت «ليكسي»:
ـ مسؤول؟ «إيزي»؟
قال «تريب»:
ـ كان أبي في العمل، و«ليكسي» عند «سيرينا»، وأنا في نادي «سوسيكس» ألعب الكرة. وأنت؟
تردَّد «مودي»:
ـ قدتُ دراجتي إلى المكتبة.
ـ هكذا إذن، أترى؟
كانت الإجابة واضحة بالنسبة لـ«تريب»:
ـ الشخصان الوحيدان اللذان كانا هنا «إيزي» وأمي. وأمي كانت نائمة.
ـ ربما حدث ماسٌ كهربائي، أو ربما ترك أحدهم الموقد مشتعلًا.
قالت «ليكسي»:
ـ قال رجال الإطفاء إنهم وجدوا حرائق صغيرة في كل مكان.
ـ نشأ الحريق من عدة نقاط، مع استخدام محتمل لمادة محفزة. ليس حادثًا.
مال «تريب» بظهره على باب السيارة وقال:
ـ نعرف جميعًا أنها كانت دائمًا مجنونة.
قال «مودي»:
ـ جميعكم متحاملون عليها، ربما هذا ما جعلها تتصرف بجنون.
عبر الشارع، بدأت عربات الإطفاء في لفِّ خراطيمها. شاهد أطفال «ريتشاردسون» الباقون رجال الإطفاء يضعون فؤوسهم وينزعون معاطفهم الصفراء التي اسودَّت بفعل الدخان.
قالت «ليكسي»:
ـ ينبغي أن يذهب أحد إلى هناك ويبقى مع أمي.
ولكن لم يتحرك أحد.

قال «تريب» بعد دقيقة:

ـ حين تعثر أمي وأبي على «إز» سوف يحبسانها في جناح في مصحة نفسية لبقية حياتها.

لم يفكر أحد في رحيل «مِيا» و«بيرْل» مؤخرًا من المنزل على طريق «وينسلو». نسيت السيدة «ريتشاردسون»، في مراقبتها لقائد المطافئ وهو يدوِّن الملاحظات بدقة شديدة على خزانته، كلَّ شيءٍ عن مستأجرتيها السابقتين. لم تذكر الأمر بعد لزوجها أو لأطفالها، اكتشف «مودي» غيابهما فقط في وقتٍ سابقٍ هذا الصباح، وما زال غير متأكد مما يعنيه ذلك. بعيدًا على طريق «باركلاند درايف» بدأت النقطة الزرقاء لسيارة والدهم «البي إم دبليو» في الاقتراب.

سأل «مودي»:

ـ ما الذي يجعلك متأكدًا أنهم سوف يجدونها؟

٢

في شهر يونيو الماضي، حين انتقلت «مِيا» و«بيرْل» إلى المنزل المؤجَّر على طريق «وينسلو»، لم ينشغل بال السيدة «ريتشاردسون» (التي تملك المنزل فعليًّا) ولا السيد «ريتشاردسون» (الذي سلَّمهما المفاتيح) بهما كثيرًا. عرفا أنه لا وجود للسيد «وارِن»، وأن «مِيا» في السادسة والثلاثين من عمرها، وفقًا لرخصة القيادة الصادرة من ولاية ميشيجان التي قدمتها لهما. لاحظا أنها لا ترتدي خاتمًا في يدها اليسرى، على الرغم من أنها ترتدي كثيرًا من الخواتم الأخرى: خاتمًا كبيرًا من حجر الجمشت الأرجواني في سبابتها، وآخر مصنوعًا من مقبض ملعقة فضية في خنصرها، وآخر في إبهامها، بدا للسيدة «ريتشاردسون» على نحوٍ مثير للريبة أنه خاتمٌ يتغير لونه وفقًا للحالة المزاجية. ولكنها بدت لطيفةً بما يكفي، وكذلك ابنتها، «بيرْل»، فتاةٌ هادئةٌ في الخامسة عشرة من عمرها لها جديلةٌ طويلةٌ داكنة. دفعت «مِيا» إيجار الشهرين الأول والأخير، والدفعة المقدمة، بحزمة أوراق من فئة العشرين دولارًا، وتهادت السيارة الـ«فولكس فاجن رابِتْ» ـ المتهالكة بالفعل، حتى في ذلك الوقت ـ بعيدًا في «باركلاند درايف» باتجاه الطرف الجنوبي لـ«شايكِر هايتْس»، حيث المنازل أقرب لبعضها والأفنية أصغر مساحةً.

كان طريق «وينسلو» عبارة عن صف طويل من المنازل المزدوجة، ولكن

https://t.me/fantazynov

ليس بوسعك أن تعلم ذلك بمجرد وقوفك على حافة الرصيف. سترى من الخارج بابًا أماميًّا واحدًا ومصباحًا أماميًّا واحدًا وصندوق بريد واحدًا ورقم منزل واحدًا. ربما بوسعك، أن تلحظ اثنين من العدَّادات الكهربائية، ولكنهما ـ حسب تشريعات المدينة ـ مخفيَّان في خلفية المنزل إلى جانب الجراج. سترى البابَين الداخليَّين فقط إذا تقدمتَ إلى المدخل، يؤدي أحدهما إلى الشقة العلوية، والآخر إلى شقة الطابق الأرضي، وقبوهما المشترك بالأسفل. ضمَّ كل منزلٍ في طريق «وينسلو» عائلتين، ولكن يظهر من الخارج أنه يضمُّ عائلةً واحدةً. لقد صُمِّمت المنازل بهذه الطريقة عن عمد. سمحتْ للسكان أن يتجنبوا وصمة العيش في منزلٍ مزدوجٍ ـ بالإيجار، بدلًا من الامتلاك ـ وسمحت لمخطِّطي المدينة بالحفاظ على مظهر الشارع، كما عرف الجميع، ليست الأحياء ذات المساكن الإيجارية جذابةً بهذا القدر.

هكذا كانت «شايكِر هايتْس». لقد وُضعت القواعد، الكثير من القواعد، حول ما بوسعك أو ما ليس بوسعك فعله، كما بدأت «مِيا» و«بيرْل» بالتعلم بمجرد استقرارهما في منزلهما الجديد. تعلمتا كتابة عنوانهما الجديد: ١٨٤٣٤ طريق «وينسلو» علوي، تؤكد هذه الكلمة أن بريدهما يصل إلى شقتهما بالأعلى، وليس إلى شقة السيد «يانج» بالأسفل. تعلمتا أن الشريط العشبي الصغير بين الرصيف والشارع يسمى **مرجة الشجرة** ـ بسبب شجرة القيقب الصغيرة التي تزينها، شجرةٌ واحدةٌ لكل منزل ـ وأن صفائح القمامة لا تُجرُّ إليه في صباح الجمعة ولكن تُترك بدلًا من ذلك في خلفية المنزل، لتجنُّب المنظر القبيح لصفائح القمامة المبعثرة على حافة الرصيف. أصدرتْ دراجات بخارية كبيرة، يقود كل منها رجل يرتدي زيَّ عمل برتقاليَّ اللون، أزيزًا في كل درب خاص لتجمع القمامة في خصوصية الفناء الخلفي، ثم تنقلها إلى الشاحنة الأكبر المتوقفة في الشارع، وسوف تتذكر «مِيا» لشهور الفزع الذي انتابها صباح الجمعة الأولى لهما على طريق «وينسلو»، حين مرقت الدراجة البخارية مسرعةً كعربة جولف بلون اللهب بجوار نافذة

المطبخ بمحركها الذي يزأر. اعتادتا على ذلك في نهاية الأمر، كما اعتادتا على الجراج المنفصل ـ المثبَّت جيدًا في ظهر المنزل، للحفاظ على منظر الشارع مرة أخرى ـ وتعلمتا حمل مظلة لتبقيهما جافتين من السيارة إلى المنزل في الأيام الممطرة. فيما بعد، حين رحل السيد «يانج» بعيدًا لمدة أسبوعين في شهر يوليو، لزيارة والدته في هونج كونج، تعلمتا أن المرجة ذات العشب غير المجزوز سوف تؤدي إلى استلام رسالةٍ مهذبة ولكنها حازمة من المدينة، لا شيء بها سوى أن العشب صار ارتفاعه ست بوصات، وإذا لم يُصحح الوضع فسوف تجزُّ المدينة العشب ـ وتحمِّلهم التكلفة البالغة مائة دولار ـ في خلال ثلاثة أيام. كان هناك الكثير من القواعد التي ينبغي تعلمها.

كما كان هناك الكثير من القواعد الأخرى التي لم تعِها كلٌّ من «مِيا» و«بيرْل» لوقت طويل. قواعد تحكم الألوان التي ينبغي أن يُطلى بها المنزل على سبيل المثال. وفَّرت المدينة رسمًا تخطيطيًّا إرشاديًّا صنَّفَ كلَّ منزلٍ إما على طراز «تيودور» أو الطراز الإنجليزي أو الطراز الفرنسي ووُضِّحَت الألوان المناسبة للمهندسين المعماريين ومالكي المنازل على حد سواء. يمكن طلاء المنازل ذات الطراز الإنجليزي بالأزرق الرمادي أو الأخضر الطُّحلبي أو درجة معينة من اللون البني، لتأكيد التناغم الجمالي في كل شارع. تطلَّبت المنازل من طراز «تيودور» درجةً محددة من لون القشدة على الجِصِّ ودرجةً محددة من اللون البني الداكن على الألواح الخشبية. كانت هناك خطة لكل شيء في «شايكِر هايتْس». حين صُمِّمت المدينة في ١٩١٢ ـ واحد من أوائل المجتمعات السكنية المخطَّطة في الأمة ـ اختيرت مواضع المدارس لتتيح للأطفال السير من دون عبور شارع رئيسي، والأكثر، لتتيح لهم السير في شوارع جانبية تصبُّ في طريق عريض، مزوَّد بمحطات النقل السريع الموزعة استراتيجيًّا لنقل الركاب إلى وسط مدينة كليفلاند. في الحقيقة، كان شعار المدينة ـ حرفيًّا، كما قالت «ليكسي» ـ «أغلب

المجتمعات تحدث وحسب، أما أفضلها فيُخطَّط»: الفلسفة الضمنية لذلك أن كل شيءٍ يمكن ـ وينبغي ـ تخطيطه، وبفعل ذلك يمكن تجنُّب ما هو غير لائق، وغير سارٍ، وكارثيٌّ.

ولكن كانت هناك أمورٌ أخرى أيضًا يُحتفى باكتشافها في تلك الأسابيع الأولى. بين التنظيف وإعادة الطلاء وتفريغ الأمتعة، تعلمنا أسماء الشوارع المحيطة بهما: «وينتشيل» و«لاتيمور» و«لينفيلد». تعلمنا الطريق إلى متجر البقالة ومتجر «هايِنِز» الذي قالت عنه «مِيا» إنه يعاملك كما لو أنك شخص أرستقراطي. بدلًا من دفْع عربة التسوق الخاصة بك إلى ساحة انتظار السيارات، يعلِّق صبيٌّ مسؤول عن العربات، يرتدي قميصًا من قماش الـ«بوبلين» المضغوط، رقمًا عليها ويعطيك رقمًا مماثلًا على بطاقةٍ باللونين الأحمر والأبيض، ثم تعلَّق البطاقة على نافذة سيارتك وتقودها حتى واجهة المتجر، حيث يدفع صبيٌّ آخر عربة البقالة الخاصة بك ويضع محتوياتها بترتيب في صندوق سيارتك ويرفض أن يأخذ إكرامية.

تعلمنا أين أرخص محطة وقود، عند منعطف طريقي «لوموند» و«لي»، دائمًا أقل بمقدار سِنْت من أي مكان آخر، وأين الصيدليات وأي منها تمنح قسائم خصم مضاعفة. عرفنا أن المقيمين في أحياء «كليفلاند هايتْس» و«وارينسفيل» و«بيتشوود» القريبة يضعون مقتنياتهم المهمَلة على حافة الرصيف مثل الناس العاديين، وعرفنا ما أيام بيع المهملات وفي أي شوارع تُباع. عرفنا من أين تشتريان مطرقة ومفكَّ براغي وربع جالون من الطلاء الجديد وفرشاة: يمكن إيجادها جميعًا في متجر «شايكِر» للمعدات، ولكن يمكنهما ذلك فقط بين الساعة التاسعة والنصف صباحًا والسادسة مساء وقت إرسال المالك موظفيه إلى المنزل للعشاء.

وبالنسبة لـ«بيرْل»، كان هناك اكتشاف مُلَّاك بيتهما المؤجَّر، وأطفال عائلة «ريتشاردسون».

كان «مودي» أول طفلٍ من أطفال «ريتشاردسون» يغامر بالذهاب إلى

المنزل على طريق «وينسلو». سمع والدته تصف مستأجرتَيها الجديدتين لوالده، قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ إنها فنانة من نوعٍ ما.

وحين سأل السيد «ريتشاردسون» من أي نوع، أجابت مازحة:

ـ من النوع المكافح.

طمأنتْ زوجها:

ـ كلُّ شيء على ما يرام. أعطتْني دفعة مقدَّمة.

قال زوجها:

ـ هذا لا يعني أنها سوف تدفع الإيجار.

ولكنهما عرفا أن الإيجار ليس هو المهم ـ ثلاثمائة دولار فقط شهريًّا للطابق العلوي ـ كما أنهما بالتأكيد لا يحتاجان إليه لتدبير نفقاتهما. كان السيد «ريتشاردسون» محامي دفاع وعملت السيدة «ريتشاردسون» في الجريدة المحلية، جريدة «صَن برِس». كان منزل «وينسلو» ملكًا لهما من دون أي التزامات، فقد اشتراه والدا السيدة «ريتشاردسون» كاستثمارٍ عقاريٍّ حين كانت مراهقة. ساعد إيجاره في دفع نفقاتها في جامعة «دنيسون» وأصبح «دعمًا» شهريًّا ـ بحسب تعبير والدتها ـ حين بدأت عملها كمراسلة صحفية مبتدئة. ثم، بعد أن تزوجت «بيل ريتشاردسون» وأصبحت السيدة «ريتشاردسون»، ساعد الإيجار في تدبير الدفعة الأولى لمنزل جميل خاص بهما في «شايكِر»، المنزل نفسه الذي سوف تشاهده يحترق لاحقًا على طريق «باركلاند». حين مات والدا السيدة «ريتشاردسون» منذ خمس سنوات ـ مرت شهور قليلة بين وفاة أحدهما والآخر ـ ورثتْ منزل «وينسلو». كان والداها قد انتقلا للعيش في دار لرعاية المسنين لبعض الوقت، وبِيعَ المنزل الذي نشأت فيه بالفعل. ولكنهما احتفظا بمنزل «وينسلو»، فإيجاره يسدد نفقات الرعاية التي يحتاجانها. والآن احتفظت به السيدة «ريتشاردسون» أيضًا كذكرى عاطفية.

لا، لم يكن المال هو المهم. يوضع الإيجار الآن ـ بكامل قيمته الإجمالية البالغة خمسمائة دولار ـ في صندوق تمويل عطلة عائلة «ريتشاردسون» كل شهر، واستُخدم في العام الماضي لدفع نفقات رحلتهم إلى جزيرة «مارثاز فينيارْد»، حيث أتقنتْ «ليكسي» سباحة الظهر، وسحَر «تريب» جميع الفتيات المحليات، وتعرَّض «مودي» لحروق الشمس لدرجة تقشُّر بشرته، ووافقت «إيزي» أخيرًا، تحت الإكراه الشديد، على المجيء إلى الشاطئ، مرتديةً كامل ثيابها وحذاءها الضخم من نوع «دوك مارتِنز»، وبوجهٍ متجهِّم. لكن في الحقيقة كان هناك الكثير من المال لتغطية نفقات عطلة حتى من دون وجود الإيجار. لأنهم ليسوا بحاجة إلى المال الوارد من المنزل، كانت نوعية المستأجرين هي الأمر المهم بالنسبة للسيدة «ريتشاردسون»، أرادت أن تشعر أنها تقوم بعملٍ خيريٍّ بهذا البيت. رباها والداها على القيام بأعمال الخير، لقد تبرعا كل عام إلى منظمة «هيومان سوسايتي» وإلى اليونيسيف ودائمًا ما حضرا ملتقيات جمع التبرعات المحلية. ذات مرة ربحا دبًّا محشوًّا طوله ثلاث أقدام في المزاد الصامت في نادي الروتاري. اعتبرت السيدة «ريتشاردسون» المنزل أحد أشكال الإحسان. أبقت الإيجار منخفضًا ـ كانت العقارات في كليفلاند رخيصة، لكن الشقق في الأحياء الراقية مثل «شايكِر» قد تكون باهظة الثمن ـ وأجَّرت فقط للناس الذين شعرت أنهم يستحقون ولكنهم، لسبب أو لآخر، لم يحصلوا تمامًا على فرصةٍ عادلةٍ في الحياة. أسعدها أن تُحدث فرقًا.

لقد كان السيد «يانج» أول مستأجرٍ قبلتْ به بعد أن آل إليها المنزل، كان مهاجرًا من هونج كونج جاء إلى الولايات المتحدة من دون أن يعرف فيها أحدًا ويتحدث فقط إنجليزية متقطِّعة بلكنةٍ ثقيلة. بمضي السنوات لم تتلاشَ لكنته إلا قليلًا، وإذا تحدثا، اكتفت السيدة «ريتشاردسون» بالإيماء والابتسام. لكن السيد «يانج» كان رجلًا طيبًا، هكذا شعرتْ، وعمل بجد؛ قاد حافلة مدرسية إلى «لورال أكاديمي»، مدرسة خاصة قريبة للفتيات،

وأيضًا كحِرَفيٍّ. ولولا أنه يحيا بمفرده على هذا الدخل الهزيل، لم يكن قطُّ ليتمكن منَ العيش في مثل هذا الحي الراقي. لربما انتهى به الأمر في استديو رماديٍّ ضيق في مكانٍ ما على طريق «باكاي»، أو على الأرجح في مثلث شرق كليفلاند بشوارعه الممهدة بالحصى والذي يمر بـ«تشايناتاون»، حيث الإيجارات منخفضة إلى درجة تثير الريبة، وثمة مبنى مهجور بين كل مبنى وآخر، واعتادت صافرات الإنذار أن تعوي مرة واحدة على الأقل كل ليلة. بالإضافة إلى ذلك، حافظ السيد «يانج» على المنزل في حالة لا تشوبها شائبة، يصلح الصنابير التي يتسرب منها الماء، ويرمِّم أسمنت الواجهة، ويثابر لتحويل الفناء الخلفي شديد الصغر إلى حديقة غنَّاء. أحضر كل صيف للسيدة «ريتشاردسون» ثمرات البطيخ الصيني الذي زرعه، مثل زكاة العُشر، وعلى الرغم من أن السيدة «ريتشاردسون» لم يكن لديها فكرة عمَّا تفعله بها ـ كان لونها أخضر مائلًا إلى الزُّرقة، ومتجعِّدة، ومكسوَّة بالزَّغب على نحوٍ يثير القلق ـ ولكنها ثمَّنتْ مراعاته لمشاعر الآخرين على أي حال. كان السيد «يانج» من نوع المستأجر الذي تريده السيدة «ريتشاردسون» تمامًا: الشخص الذي بوسعها أن تؤدي له لفتةً كريمة، والذي سوف يثمِّن كرمها.

كانت السيدة «ريتشاردسون» أقل توفيقًا فيما يخص الشقة العلوية. أُجِّرت الشقة العلوية لساكن مختلف كل عام أو نحوه: عازف كمان وُظِّف للتَّو للتدريس في معهد الموسيقى، مطلَّقة في الأربعينيات من عمرها، عروسان شابَّان جاءا حديثًا من ولاية كليفلاند. استحق كل منهم دعمًا صغيرًا، كما رأت. عازف الكمان، الذي حُرم من المقعد الأول في أوركسترا كليفلاند، غادر المدينة تغلفه سحابة من المرارة. تزوجت المطلَّقة مرة أخرى بعد علاقةٍ رومانسيةٍ عاصفةٍ دامت أربعة شهور وانتقلت مع زوجها الجديد إلى منزل جديد على طراز «ماكمينسون» في مدينة لايكوود. أمَّا الزوجان الشابان، اللذان بدت عليهما شدة الإخلاص، وشدة التفاني، وأمارات الحب العميق، فقد خاضا شجارًا يتعذر معه الصُّلح وانفصلا بعد ثمانية عشر شهرًا فقط،

وخلَّفا وراءهما عقد إيجار مفسوخًا، وبعض المزهريات المحطَّمة، وثلاثة مواضع متصدِّعة في الجدار، على مستوى ارتفاع رأس الإنسان، حيث تحطَّمت تلك المزهريات.

كان هذا درسًا، اتخذت السيدة «ريتشاردسون» قرارها. سوف تكون أشد حرصًا هذه المرة. طلبت من السيد «يانج» أن يرمِّم الجِصَّ ولم تتعجَّل في إيجاد مستأجرٍ جديد، مستأجرٍ من النوع الصحيح. وظلت الشقة الواقعة في ١٨٤٣٤ طريق «وينسلو» علوي خاليةً لنحو ستة شهور قبل أن تأتي «مِيا وارِن» وابنتها «بيرْل». أمٌّ عزباء، فصيحة، فنانة، تربي ابنةً مهذبة وجميلة ومن المحتمل أنها عبقرية.

حين سألت السيدة «ريتشاردسون» لماذا جاءتا إلى «شايكِر» قالت «مِيا»:

ـ سمعتُ أن المدارس في «شايكِر» هي الأفضل في كليفلاند. «بيرْل» تدرس في مستوى الجامعة بالفعل. ولكن لا يمكنني تحمل نفقات المدرسة الخاصة.

ألقتْ نظرة على «بيرْل»، التي وقفت بهدوء في غرفة المعيشة الخالية بالشقة، وقد شبكت يديها أمامها، وابتسمت الفتاة بخجل. شيءٌ ما في تلك النظرة بين الأم وابنتها مسَّ شغاف قلب السيدة «ريتشاردسون». طمأنتْ «مِيا» أن نعم، كانت مدارس «شايكِر» ممتازة، بإمكان «بيرْل» الالتحاق بصفوف المستوى المتقدم في جميع المواد، كانت هناك معامل للعلوم، وقبَّة فلكية اصطناعية وبوسعها تعلُّم خمس لغات. وأضافت:

ـ هناك برنامج مسرح رائع، إذا كانت مهتمة بذلك. لعبت ابنتي «ليكسي» دور «هيلينا» في مسرحية «حلم ليلة صيف» في العام الماضي.

واقتبستْ شعار مدارس «شايكِر»: **يُعرف المجتمع بالمدارس التي يرعاها.**

كانت الضرائب على العقارات في «شايكِر» أعلى من أي مكان آخر، لكن من المؤكد أن المقيمين حصلوا على مقابلٍ لأموالهم. أضافت السيدة «ريتشاردسون» بضحكة:

ـ ولكنك سوف تؤجرين، لذلك تحصلين بالطبع على جميع المزايا من دون تحمُّل أي أعباء.

ناولت السيدة «ريتشاردسون» «مِيا» استمارة طلب تأجير، ولكنها كانت قد اتخذتْ قرارها بالفعل. منحها تخيل استقرار تلك المرأة وابنتها في الشقة شعورًا هائلًا بالرضا، تؤدي «بيرْل» واجباتها المنزلية على طاولة المطبخ، وربما تعمل «مِيا» على لوحةٍ أو منحوتةٍ ما ـ لأنها لم تذكر الخامة التي تستخدمها على وجه التحديد ـ في الشرفة المغلقة المطلة على الفناء الخلفي.

كان «مودي»، الذي يستمع إلى والدته وهي تصف مستأجرتَيها الجديدتين، أقل افتتانًا بالفنانة من ابنتها «العبقرية» التي تماثله عمرًا. تغلَّب عليه فضوله بعد انتقال «مِيا» و«بيرْل» بعدة أيام. وكما هي الحال دائمًا، أخذ دراجته، وهي دراجةٌ قديمة ذات ناقل حركة مثبت من نوع «تشوِين»، امتلكها والده منذ زمن طويل في إنديانا. لا أحد يركب الدراجة في «شايكِر هايتْس»، كما أنه لا أحد يستقل الحافلة: إما أن تقود سيارة وإما أن يوصلك أحدهم بسيارة، كانت بلدةً معدَّة للسيارات وللناس الذين يمتلكون سيارات. «مودي» يركب دراجة. لن يبلغ السادسة عشرة قبل حلول الربيع، ولم يسبق له أن طلب من «ليكسي» أو «تريب» أن يوصلاه إلى أي مكان ما دام بوسعه أن يتدبر أمره.

انطلق «مودي» متخذًا مسار منحنى «باركلاند درايف»، مرَّ بجوار بركة البط، حيث لم يسبق له أن شاهد بطة في حياته، فقط أسرابًا من الإوز الكندي المزعج، عبَر طريق «فان أكِن بوليفارد» ومسارات حافلات النقل السريع إلى طريق «وينسلو». لم يأتِ إلى هنا كثيرًا ـ لا شأن لأحد من الأطفال بالمنزل المؤجَّر ـ ولكنه عرف مكانه. جلس في السيارة المتوقفة في ممر السيارات عدة مرات، حين كان أصغر سنًّا، محدِّقًا في شجرة الخوخ في الفناء وباحثًا بين المحطات الإذاعية بينما تتوقف والدته لتضع شيئًا أو تتحقق من شيء. لم يحدث هذا كثيرًا في أغلب الحالات، عدا الأوقات التي كانت والدته تبحث فيها عن مستأجرين، غالبًا ما كان المنزل يدير نفسه بنفسه. أدرك الآن،

فيما كانت إطارات دراجته ترتجُّ فوق الفواصل بين ألواح الحجر الرملي الذي تتكون منه الأرصفة، أنه لم يسبق له دخول المنزل. ولم يكن متأكدًا إذا كان أي من الأطفال قد سبق له ذلك.

أمام المنزل، كانت «بيرْل» ترتب بحرص قطع السرير الخشبي على المرجة الأمامية. رأى «مودي»، الذي انزلق حتى توقف عبر الشارع، فتاةً نحيلة ترتدي تنورةً طويلة مجعدة وتيشيرتًا فضفاضًا مطبوعة عليه جملة لم يتمكن من قراءتها. كان شعرها طويلًا ومجعدًا ومعقودًا في جديلةٍ سميكةٍ على ظهرها ممَّا أعطى انطباعًا بالتقييد والرغبة العارمة في التحرر. وضعت اللوح الأمامي مسطحًا بجوار الزهور المحيطة بالمنزل، والقضبان الجانبية أسفله، والأضلاع الخشبية الخاصة بكل جانب في صفوف مرتَّبة، مثل الضلوع. بدا الأمر كما لو أن الفراش أخذ نفسًا عميقًا وسطَّح نفسه بأناقة على العشب. شاهدها «مودي»، من خلف الشجرة التي تخبئ نصف جسده، فيما اتخذت طريقها حول السيارة «رابِتْ» الرابضة في ممر السيارات وأبوابها مفتوحة على مصاريعها، وأخرجت لوح الفراش الذي يُثبَّت عند القدمين من المقعد الخلفي. تساءل «مودي» أي نوع من ألعاب «التِّتْرِس» اعتادتا أن تمارساه لتتمكنا من وضع جميع قطع الفراش في تلك السيارة الصغيرة. كانت «بيرْل» حافية القدمين أثناء عبورها المرجة لتضع اللوح في مكانه. ثم خطتْ داخل المستطيل الفارغ في المركز، حيث مكان المرتبة، وارتمت على ظهرها، بطريقة أدهشته.

في الطابق الثاني من المنزل، انفتحت نافذةٌ مصدرةً صريرًا وبرز رأس «مِيا» خارجًا وهي تقول:

ـ جميع القطع موجودة؟

صاحت «بيرْل»:

ـ ضلعان خشبيان ناقصان.

ـ سوف نستبدلهما. لا، انتظري، ابقي مكانكِ. لا تتحركي.

اختفى رأس «مِيا» مرة أخرى. ظهرت بعد لحظة تحمل كاميرا، كاميرا حقيقية، لها عدسةٌ سميكة مثل علبة صفيح كبيرة. ظلت «بيرْل» على وضعيَّتها نفسها، محدقةً إلى السماء نصف الغائمة، ومالت «مِيا» خارجًا حتى خصرها تقريبًا، لتتَّخذ الزاوية المناسبة لأفضل لقطة. حبس «مودي» أنفاسه، خوفًا من انزلاق الكاميرا من يديها على وجه ابنتها الواثق المتطلع إلى أعلى، أو خوفًا من أن تزِل هي نفسها من عتبة النافذة وتهوي محطَّمةً على العشب. لم يحدث شيءٌ من هذا. مال رأس «مِيا» بعدة طرق، لتؤطِّر المشهد بالأسفل في عدسة الكاميرا. أخفت الكاميرا وجهها، أخفتْ كل شيء ما عدا شعرها، المكوَّم في دواماتٍ متجعدة أحاطت برأسها كهالةٍ داكنة. فيما بعد، حين رأى «مودي» الصور بعد الانتهاء منها، اعتقد في البداية أن «بيرْل» بدت مثل حفريَّةٍ رقيقة، شيء علِق في جوف الهيكل العظمي لأحد وحوش ما قبل التاريخ. ثم ظن أنها بدتْ مثل أحد الملائكة التي تستريح وأجنحتها مفرودة خلفها. وحينها، بعد لحظة، بدت ببساطة مثل فتاة نائمة في فراش أخضر يانع، منتظرة حبيبها ليستلقي بجوارها.

صاحت «مِيا» ليصل صوتها إلى أسفل:

ـ حسنًا، لقد حصلتُ عليها.

انزلقت إلى الداخل، ونهضت «بيرْل» ونظرت عبر الشارع، مباشرة إلى «مودي»، وقفز قلبه من مكانه. قالت:

ـ هل تريد أن تساعد؟ أم أنك واقف هناك وحسب؟

لم يتذكر «مودي» قطُّ عبور الشارع، أو إسناد دراجته على الممشى الأمامي، أو تقديم نفسه. شعر أنه لطالما عرف اسمها، وأنها لطالما عرفت اسمه، بطريقة ما، لطالما عرفا بعضهما البعض.

نقلا معًا أجزاء الفراش إلى أعلى السلَّم الضيق. كانت غرفة المعيشة خالية إلا من كومةٍ من الصناديق في أحد الأركان ومسندٍ محشوٍّ كبير أحمر اللون في منتصف الغرفة.

ـ مِن هنا.

جذبت «بيرْل» ذراعها الممتلئة بأضلاع الفراش إلى أعلى لترشد «مودي» إلى غرفة النوم الكبرى، والتي لم يكن بها شيء سوى مرتبة باهتة ولكنها نظيفة تستند إلى أحد الجدران. قالت «مِيا»:

ـ هاكِ.

وضعتْ صندوق أدواتٍ من الفولاذ عند قدمي «بيرْل» وقالت:

ـ سوف تحتاجين إلى هذه.

ومنحتْ «مودي» ابتسامة، كما لو كان صديقًا قديمًا. قالت:

ـ نادياني إذا احتجتما مساعدةً إضافية.

ثم عادتْ إلى الردهة، وبعد لحظة سمعا صوت شق غطاء أحد الصناديق لفتحه.

استخدمتْ «بيرْل» الأدوات بيدين ماهرتين، رافعةً اللوحين الجانبيَّين في مكانهما في مواجهة اللوح الأمامي، وأسندتهما إلى أعلى بأحد كاحليها بينما أحكمت رتاجيهما في الأماكن المخصصة لهما. جلس «مودي» بجوار صندوق الأدوات المفتوح وراقبها برهبةٍ بادية. إذا تعطل شيء في منزله، استدعت والدته عامل الصيانة لإصلاحه ـ الموقد، الغسالة، وحدة تصريف فضلات الطعام ـ أمَّا بالنسبة لأي شيء آخر تقريبًا، فقد كان يتم التخلص منه ويُستبدل به غيره. كل ثلاثة أو أربعة أعوام، أو حين يبدأ الربيع في الأفول، اعتادت والدته أن تنتقي أثاثًا جديدًا لغرفة المعيشة، ثم يُنقل الأثاث القديم إلى غرفة الترفيه في القبو، ويوهب الأثاث الأقدم في غرفة الترفيه إلى منزل الأولاد الأحداث في «ويست سايد»، أو إلى مأوى النساء في وسط المدينة. لم يبرع والده في التعامل مع السيارة في الجراج، حين تصدر حشرجةً أو صريرًا يذهب بها إلى ورشة «لاستي رينتش» حيث اعتنى «لوثر» بكلِّ سيارةٍ امتلكتْها عائلة «ريتشاردسون» على مدار العشرين عامًا الماضية. أدرك «مودي» أن المرة الوحيدة التي تعامل فيها مع أي أدوات

بنفسه كانت في ورشة الصف الثامن: قُسموا إلى مجموعات، فريق يأخذ القياسات وفريق ينشر القطع بالمنشار وفريق يصقل بالرمل، وفي نهاية الفصل الدراسي يثبِّت الجميعُ قطعَهم معًا بإخلاصٍ باستخدام البراغي لصُنع موزِّع آلي للحلوى على شكل صندوق خشبي صغير يعطيك ثلاث قطع من حلوى «سكيتِل» كلما سحبتَ المقبض. صنع «تريب» صندوقًا مماثلًا في الورشة في العام السابق، وصنعت «ليكسي» صندوقًا مماثلًا في العام الأسبق، وصنعت «إيزي» بعدُ صندوقًا مماثلًا في العام التالي، وعلى الرغم من قضاء فصلٍ دراسيٍّ كامل في الورشة، على الرغم من صناديق التوزيع الأربعة المتماثلة المخبأة في مكانٍ ما في منزلهم، لم يكن «مودي» متأكدًا أن أحدًا من سكان منزل «ريتشاردسون» بإمكانه أن يفعل ما هو أكثر من العمل باستخدام مفك براغي.

سأل «مودي» وهو يناول «بيرْل» لوحًا آخر من أضلاع الفراش الخشبية:

ـ كيف تعلمتِ فعل كل هذا؟

هزت «بيرْل» كتفيها بلامبالاة وهي تثبِّت الضلع في مكانه بيدٍ واحدة وتسحب أحد البراغي من الكومة الموضوعة على السجادة وقالت:

ـ مِن أمي.

أثبت الفراش حين انتهى تجميعه أنه فراشٌ زوجيٌّ قديم الطراز ذو مقابض كرويَّة، من النوع الذي ربما قد نامت عليه «جولديلوكس».

وضع «مودي» المرتبة في مكانها وجربها بوثبةٍ خبيرة وقال:

ـ من أين حصلتما عليه؟

وضعت «بيرْل» مفك البراغي في مكانه في صندوق الأدوات وأغلقتْه قائلة:

ـ لقد وجدناه.

قعدت على الفراش، وأسندت ظهرها إلى لوح الفراش من جهة القدمين، ومدَّتْ ساقيها بطوله، وحدَّقتْ في السقف، كما لو كانت تختبر اللوح. جلس

«مودي» عند رأس الفراش، بجوار قدميها. التصقت ورقات من العشب بأصابع قدميها ورَبْلتي ساقيها وحافة تنورتها. رائحتها مثل الهواء المنعش وشامبو النعناع.

قالت «بيرْل» فجأة:

ـ هذه غرفتي.

قفز «مودي» ثانيةً وقال:

ـ أنا آسف.

وصعد وهجٌ ساخن إلى وجنتيه.

نظرت «بيرْل» إلى أعلى، كما لو أنها نسيتْ أنه موجود هناك. وقالت:

ـ أوه، ليس هذا ما عنيت.

التقطت ورقة عشب من بين أصابع قدميها ونقرتها بعيدًا وشاهداها تسقط على السجادة. حين بدأت بالحديث مرة أخرى، كانت نبرة صوتها متعجبة:

ـ لم تكن لديَّ غرفة خاصة بي من قبل.

قلَّب «مودي» كلماتها في ذهنه.

ـ تعنين أنه كان لزامًا عليكِ مشاركة غرفة دومًا؟

حاول أن يتخيَّل عالمًا يمكن أن يحدث فيه ذلك. حاول أن يتخيل مشاركة غرفة مع «تريب»، الذي فرش الأرض بالجوارب القذرة والمجلات الرياضية، وأول شيء فعله بعد عودته إلى المنزل تشغيل الراديو ـ دائمًا على محطة «جامين ٩٢,٣» الإذاعية ـ كأنما لن ينبض قلبه من دون هذا القرع الجهير الفارغ. دائمًا ما حجزت عائلة «ريتشاردسون» ثلاث غرف في العطلة: غرفة للسيد والسيدة «ريتشاردسون»، وغرفة لـ«ليكسي» و«إيزي»، وغرفة لـ«تريب» و«مودي»، وأثناء تناول الإفطار اعتاد «تريب» أن يسخر من «مودي» بشأن شيء تلفَّظ به أثناء نومه. بالنسبة لـ«بيرْل» ووالدتها كان عليهما مشاركة غرفة واحدة، لم يستطع «مودي» أن يصدق أن الناس قد يكونون فقراء إلى هذا الحد.

هزت «بيْرْل» رأسها قائلة:

ـ لم يكن لدينا منزل خاص بنا من قبل.

وكظم «مودي» الرغبة في أن يقول لها إن هذا ليس منزلًا، إنه فقط نصف منزل. تتبَّعت «بيْرْل» منخفضات المرتبة بطرف إصبعها، بحركات دائرية حول الزِّر المثبَّت في كل نقرة.

لم يستطع «مودي» بمراقبتها معرفة كل ما كانت تتذكره: الموقد المزعج في مدينة أربانا بولاية إيلنوي، الذي يجب إشعاله بالكبريت، الشقة في الطابق الخامس في بنايةٍ من دون مصعد في بلدة «ميدِلبُري» بولاية فيرمونت، والحديقة المختنقة بالأعشاب الضارة في مدينة أوكالا بولاية فلوريدا، والشقة المعبأة بالدخان في مدينة مونسي بولاية إنديانا، حيث ترك المستأجر السابق أرنبه يتجول في غرفة المعيشة، مخلِّفًا ثقوبًا وبقعًا مريبة، والمنزل المؤجَّر من الباطن في مدينة آن أربور بولاية ميشيجان، منذ سنوات مضت، والذي كان أكثر منزلٍ كرهت الرحيل عنه لأن الناس الذين عاشوا هناك لديهم ابنةٌ تكبرها بعام أو عامين، وفي كل يوم من أيام الشهور الستة التي عاشتها مع والدتها هناك اعتادت «بيْرْل» أن تلعب بمجموعة تماثيل الخيول المنمنمة التي امتلكتها تلك الفتاة المحظوظة، وأن تقعد على كرسي الأطفال ذي الذراعين، وأن تستلقي على فراش الفتاة الأبيض البلوري ذي العريشة لتنام، وأحيانًا، في منتصف الليل حين تكون والدة «بيْرْل» نائمة، وأن تضيء المصباح الجانبي للفراش وتفتح خزانة ملابس تلك الفتاة وتجرب ارتداء أثوابها وأحذيتها، على الرغم من أنها جميعًا كبيرة عليها قليلًا. كانت هناك صور لتلك الفتاة في كلِّ مكانٍ في المنزل ـ على رف المدفأة، وعلى الطاولات في غرفة المعيشة، وكان هناك بورتريه كبير وجميل لها في بئر السلَّم وقد أسندت ذقنها على يدها ـ وكان من السهل على «بيْرْل» أن تتظاهر بأن هذا منزلها، وأن هذه أغراضها، وغرفتها، وحياتها. حين عاد الزوجان وابنتهما من إجازة التفرغ الممنوحة لغرض البحث، لم تكن «بيْرْل» قادرة حتى على

مجرد النظر إلى الفتاة، مسمرَّةً ونحيلةً وطويلةً للغاية بالنسبة لتلك الأثواب في خزانة الملابس. بكتْ «بيرْل» طوال الطريق إلى مدينة لافاييت بولاية لويزيانا، حيث ستعيشان لثمانية شهور مقبلة، وحتى تمثال حصان «بالومينو» الخزفي المُختال الذي سرقتْه من مجموعة الفتاة لم يمنحها أي عزاء، على الرغم من أنها انتظرت متوترة، لم تكن هناك أي شكوى بخصوص غرض مفقود، وما الذي سيكون أكثر إرضاءً من السرقة من شخصٍ لديه الكثير لدرجة أنه لم يلاحظ ما أخذْتَه؟ لا بد أن والدتها فهمت، لأنهما لم تؤجِّرا من الباطن مرة أخرى. ولم تشتكِ «بيرْل» أيضًا، لعلمها الآن أنها تفضل شقةً خالية على واحدة ملأى بأغراض شخصٍ آخر.

قالت:

ـ نتنقَّل كثيرًا. كلما تحمست أمي لذلك.

نظرتْ إلى «مودي» بشراسة، تقريبًا بنظرة ساخطة، ورأى «مودي» أن عينيها اللتين ظن أنهما بلون البندق كانتا بلون أخضر داكن مائل إلى الزرقة. في هذه اللحظة فهم «مودي» فجأة وبوضوح ما حدث بالفعل هذا الصباح: انقسمت حياته إلى ما قبل وما بعد، ولسوف يقارن بين الحياتين دائمًا.

سأل «مودي»:

ـ ماذا ستفعلين غدًا؟

٣

أصبحت الأسابيع التالية سلسلةً من أيام الغد بالنسبة لـ«مودي». ذهبا إلى «فيزْنواي»، مدرسته الابتدائية القديمة، حيث صعدا إلى أعلى لعبة التزحلق، وتسلقا السَّارية، وتعثَّرا فوق الممر الضيق المعلَّق وسقطا على الرقاقات الخشبية أسفله. اصطحب «بيرْل» إلى متجر «درِيجِرْز» لتناول المثلجات بحلوى «الفاذْج» الساخنة. تسلقا الأشجار كالأطفال على بحيرة «هورْسِيشُو»، وألقيا قطع الخبز الجاف للبط المتمايل بالأسفل. جلسا في المطعم المحلي الصغير «يورْز ترُولي» في مقصورةٍ ذات ظهرٍ خشبي عالٍ، وتناولا البطاطس المقلية المغطاة بالجبن واللحم المقدَّد، ووضعا عملاتٍ معدنية من فئة ربع الدولار في صندوق الموسيقى ليشغل أغنيتَي «جريتْ بولْز أوفْ فايَر» و«هاي جود».

اقترحت «بيرْل» على «مودي» في أحد الأيام:

ـ خذني لرؤية عائلة «شايكِر».

ضحك «مودي» قائلًا:

ـ لا وجود لأي من أفراد عائلة «شايكِر» في «شايكِر هايتْس»، ماتوا جميعًا، لم يؤمنوا بالجنس، لقد أطلقوا اسمهم على البلدة وحسب.

كان «مودي» نصف مُصيب، على الرغم من أنه وأغلب أطفال البلدة لم يعرفوا الكثير عن تاريخها. تركتْ عائلة «شايكِر» بالفعل الأرض التي سوف

تصبح بلدة «شايكِر هايتْس» منذ وقت طويل مضى، وبحلول صيف ١٩٩٧ تبقى منهم اثنا عشر شخصًا بالضبط في العالم. ولكن «شايكِر هايتْس» قد تأسست بفكرة خلق اليوتوبيا نفسها، إن لم تكن قد تأسست على مبادئ «شايكِر». كان الانضباطُ ـ والنظامُ، والدُ الانضباط ـ مفتاح «شايكِر» لتحقيق التناغم. لقد نظَّموا كل شيء: الوقت المناسب للاستيقاظ في الصباح، واللون المناسب لستائر النافذة، والطول المناسب لشعر الرجل، والطريقة المناسبة لطيِّ اليدين في الصلاة (الإبهام الأيمن على الأيسر). اعتقد أعضاء عائلة «شايكِر» أنهم إذا خططوا كل تفصيلة، فبإمكانهم خلق قطعة من الجنة على الأرض، ملاذ صغير من العالم، وفكر مؤسسو «شايكِر هايتْس» بالطريقة نفسها. صوَّروا «شايكِر هايتْس» على السُّحب في الإعلانات، تطلُّ من عليائها على مدينة كليفلاند الكئيبة من فوق قمة جبل في نهاية قوس قزح. الكمال: كان هذا هو الهدف، وربما عاشته عائلة «شايكِر» بقوة لدرجة أنه تغلغل في التربة نفسها، مغذيًا الذين نشأوا هناك بالميل إلى تحقيق ما هو أكثر من المتوقَّع والحساسية المفرطة تجاه الهفوات. حتى مراهقو «شايكِر هايتْس» ـ الذين كان تعرُّضهم الأساسي لعائلة «شايكِر» غناءَ نشيد «سِمْبِل جِفْتس» في فصل الموسيقى ـ استطاعوا أن يشعروا أن النزعة لتحقيق الكمال لا تزال ماثلةً للعيان.

بينما أخذت «بيرْل» تعرف المزيد عن موطنها الجديد، بدأ مودي يعرف المزيد عن فن «مِيا»، والتعقيدات والتقلبات التي تتسم بها الموارد المالية لعائلة «وارِن».

لم يسبق أن فكر «مودي» كثيرًا بشأن المال، لأنه لم يسبق له أن احتاج إلى ذلك؛ أضاءت المصابيح حين نقر مفاتيح الإضاءة، وخرج الماء حين أدار الصنبور، وظهرت البقالة في الثلاجة في فتراتٍ منتظمة وعاودت الظهور في شكل وجباتٍ مطهية على المائدة في أوقات الوجبات، وحصل على مصروفه الخاص منذ كان في العاشرة، الذي بدأ بخمسة دولارات في الأسبوع وتزايد

بثبات مع التضخم والتقدم في العمر حتى وصل حاليًّا إلى عشرين دولارًا. بين ذلك وبين بطاقات أعياد الميلاد من العمّات والأقرباء، التي تحتوي كل منها بالتأكيد على ورقة مالية مطوية، كان لديه ما يكفي لاقتناء كتاب مستعمل من متجر «ماكْس باكْس» لبيع الكتب، أو أسطوانة الموسيقى الرائجة، أو أوتار جديدة للجيتار، أيًّا كان ما يشعر أنه يحتاج إليه.

حصلت «مِيا» و«بيرْل» على أغراض مستعملة بقدر ما أمكنهما ذلك، أو أفضل من ذلك، مجانًا. عرفتا في غضون عدة أسابيع فقط مواقع جميع متاجر منظمات «جيش الخلاص» و«سان فنسنت دو بول» و«جودويل» في منطقة كليفلاند الكبرى. حصلت «مِيا» على وظيفة في الأسبوع الذي وصلتا فيه في «لاكي بالاس»، وهو مطعم صيني محلي، لعدة أيام في الأسبوع في أوقات ما بعد الظهيرة والمساء، حيث تقوم بتعليب طلبات أخْذ الطعام إلى الخارج على منضدة البيع. سرعان ما عرفتا أنه فيما يتعلق بتناول الطعام خارج المنزل، يفضِّل الجميع في «شايكِر» مطعم «بيرْل أوفْ ذي أوريَنْت» الذي يبعد عدة أحياء سكنية فقط، لكن «لاكي بالاس» أدى عملًا جيدًا في تجهيز طلبات أخذ الطعام إلى الخارج. بالإضافة إلى ما تتقاضاه «مِيا» في الساعة، أعطاها النُّدُل حصةً من الإكرامية التي يحصلون عليها، وإذا كان هناك طعامٌ إضافي، أخذتْ بعض العبوات إلى المنزل - أرز بائتٌ قليلًا، وبقايا لحم خنزير، وخضراوات فقدت طزاجتها للتَّو - ممَّا يقيم أوَدها هي و«بيرْل» لأغلب الأسبوع. امتلكتا أقل القليل، ولكن ذلك لم يكن واضحًا مباشرة: كانت «مِيا» ماهرةً في تطويع الأشياء لاستخدامها في أغراض أخرى. في إحدى الليالي، طبق من المكرونة الصينية من دون الصلصة الخاصة به، توضع فوقه صلصة لحم «راجو» الإيطالية المعلَّبة، وفي ليلة أخرى، يُعاد تسخينه ويوضع فوقه لحم البقر بالبرتقال. تُشترى ملاءاتُ الفراش القديمة من متجر التوفير بربع دولار للواحدة وتُحوَّل إلى ستائر، ومفرش للمائدة، وأغطية للوسائد. فكر «مودي» في صف الرياضيات: تطبيقٌ عمليٌّ للرياضيات

التوافقية، كم عدد الطرق المختلفة التي يمكنك بها توليف فطائر «مو شو» وحشواتها؟ كم عدد التوليفات التي يمكن عملها من الأرز ولحم الخنزير والفلفل؟

سأل «مودي» «بيرْل» بعد ظهر أحد الأيام:

ـ لماذا لا تبحث والدتك عن وظيفة حقيقية؟ أراهن أن بإمكانها الحصول على ساعاتٍ أكثر في الأسبوع، أو ربما وظيفة بدوام كامل في مطعم «بيرْل أوفْ ذي أوريَنْت»، أو في مكان آخر.

كان يتعجب من ذلك طوال الأسبوع، منذ أن عرف طبيعة وظيفة «مِيا». فكر أنها إذا قبلت بالعمل لمزيد من الساعات، فسوف يحصلان على ما يكفي لاقتناء أريكة حقيقية، ووجباتٍ حقيقية، وربما جهاز تلفزيون.

حدَّقت «مِيا»، وقطَّبت جبينها، كما لو أنها ببساطة لم تفهم السؤال.

ـ ولكن لديها وظيفة بالفعل، إنها فنانة.

لقد عاشتا بهذه الطريقة لأعوام، تعمل «مِيا» في وظائف بدوامٍ جزئي تكسب منها ما يكفي فقط لإعالتهما. لأنه بقدر ما استطاعت «بيرْل» أن تتذكر، فقد فهمت التراتبيَّة الوظيفية: وظيفة والدتها الحقيقية هي فنها، وأيًّا كان ما يوفر المال لدفع الفواتير، فهو موجود فقط لجعل هذا الفن ممكنًا. قضتْ والدتها يوميًّا عدة ساعات تعمل، على الرغم من أن «مودي» لم يدرك في البداية أن هذا كان ما تفعله. أحيانًا كانت بالأسفل في الغرفة المظلمة المؤقتة التي ركَّبَتها في غرفة الغسيل في القبو، تحمِّض بكرات الأفلام أو تطبعها. أحيانًا بدت كأنها تقضي كل وقتها في القراءة، أشياء لم تكن ذات صلة بالنسبة لـ«مودي»، مثل مجلات طهي صادرة في ستينيات القرن الماضي، أو كتيِّبات إرشادات خاصة بالسيارات، أو سيرة ذاتية ضخمة لـ«إليانور روزفلت» ذات غلاف سميك حصلت عليها من المكتبة، أو حتى التحديق من خلال نافذة غرفة المعيشة في الشجرة المنتصبة خارجها. حين وصل «مودي» في صبيحة أحد الأيام، كانت «مِيا» تلعب بحلقة من الخيط، لعبة

«مهد القطة»، وحين عادا كانت لا تزال مستمرة في اللعب، تنسج شبكات أكثر تعقيدًا بين أصابعها ثم تفكها ثانية لتعود حلقةً واحدة وتبدأ من جديد. قالت «بيرْل» بالنغمة اللامبالية لشخصٍ محليٍّ لا تزعجه العادات الغريبة للإقليم:

ـ جزء من السَّيرورة.

أحيانًا ما خرجت «مِيا» مصطحبةً الكاميرا الخاصة بها، ولكنها غالبًا ما قضت أيامًا أو حتى أسابيع في إعداد شيءٍ لتصويره، مع أن التقاط الصور الفعلي يستغرق فقط عدة ساعات. لأن «مِيا»، كما عرف «مودي»، لا تعتبر نفسها مصوِّرة. كان التصوير، بمعناه الحقيقي، يدور حول التوثيق، وسرعان ما فهم أن التصوير بالنسبة لـ«مِيا» كان ببساطة مجرد أداة تستخدمها مثلما قد تستخدم رسامةٌ الفرشاة أو السكين.

قد تُعالَج صورة عادية فيما بعد: بأقنعة مهرجانات موشَّاة تحجب وجوه الأشخاص بداخلها، أو يُقتطع الأشخاصُ أنفسُهم من الصور على شكل دُمى، ويَلبسون ثيابًا من محلات الأزياء. في إحدى مجموعات الصور، غسلت «مِيا» الأفلام السلبية بالماء قبل طباعتها مما جعلها مشوَّهة على نحو غريب ـ صورة مطبخ نظيف مبرقشة ببقع من عصير الليمون، صورة ملابس مغسولة منشورة على حبل حُوِّلت إلى شكلٍ شبحي وحُكَّت بالمبيِّض. في مجموعة أخرى، عرَّضتْ بحرص كل إطارٍ لمعالجةٍ مزدوجة ـ تضع طبقة من صورة ناطحة سحاب بعيدة فوق إصبع يدها الوسطى، تُركِّب صورة طائر ميت على الرصيف وجناحاه مفرودان إلى جوار خصره على صورة سماء زرقاء، فيبدو كأنه يطير لولا العينان المغمضتان.

عملتْ على نحو غير تقليدي، محتفظة فقط بالصور التي أعجبتها ومتخلصة من البقيَّة. إذا استُنفدت الفكرة، احتفظتْ بصورة مطبوعة واحدة لكل لقطة وأتلفت الأفلام السلبية. قالت لـ«مودي» بهدوء نوعًا ما حين سألها لماذا لا تصنع نسخًا متعددة:

ـ لست مهتمة بنشر أعمالي في عدة صحف ومجلات في وقت واحد.

نادرًا ما صوَّرت الأشخاص. التقطت صورًا لـ«بيْرل» من حين لآخر، مثل صورة الفراش على المرجة، ولكنها لم تستخدمها في عملها. ولم تستخدم نفسها أيضًا: أخبرت «بيْرل» «مودي» ذات مرة أن «مِيا» صنعت سلسلة من الصور الذاتية مرتديةً عدة أشياء كأقنعة ـ قطعة من الدانتيلا السوداء، أوراقًا خماسية من شجرة الكستناء الهندي، نجمة بحر رطبة وليِّنة ـ وقضت شهرًا تعمل على تلك الصور، حتى قلصتها إلى مجموعة من ثماني صور. كانت جميلة وعجيبة، وحتى الآن بإمكان «بيْرل» أن تراهم بالضبط: عين والدتها اللامعة مثل لؤلؤةٍ تنظر من بين سيقان نجمة البحر. ولكن في اللحظة الأخيرة أحرقت «مِيا» الصور والأفلام السلبية، لأسبابٍ حتى «بيْرل» لم تستطع أن تفهمها تمامًا. قالت لوالدتِها:

ـ لقد قضيتِ كل ذلك الوقت، وبُف (طرقعتْ «بيْرل» إصبعيها معًا) هكذا؟

كل ما قالته «مِيا»:

ـ لم تكن صالحة.

لكن الصور التي احتفظتْ بها وباعتْها، كانت مذهلة.

في منزلهما الفاخر الذي أجَّرتاه من الباطن في مدينة آن أربور، فرَّقتْ «مِيا» عدة قطع من أثاث مضيفيها ورتبت المكوِّنات ـ براغي بسمك إصبعها، عوارض خشبية غير مصقولة، أقدام مفصولة عن القطع ـ على أشكال حيوانات. حُوِّل مكتبٌ ضخم لكتابة الخطابات من القرن التاسع عشر إلى ثور، جميع جوانب الأدراج المخلوعة مُشكِّلةً السيقان المنتفخة بالعضلات، مقابض الأدراج المصنوعة من الحديد الزَّهر مُستخدَمة كأنف الثور وعينيه وخصيتيه اللامعتين، حفنة من الأقلام من داخل المكتب نُثرت داخل الهلالين اللذين كوَّنا القرنَين. بمساعدة «بيْرل»، نسَّقتْ «مِيا» القطع على السجادة الفارسية قشديَّة اللون، والتي مثَّلتْ خلفية تشبه حقلًا مُضبِبًا بالبخار، ثم تسلقت المنضدة لتصوِّره من أعلى قبل أن تلتقطا القطع المتفرقة وتعيدا تجميعها على شكل مكتب. قفص طيور صيني قديم، محطَّم على شكل

شبكة من الأسلاك المحدَّبة، أصبح نسرًا، يمتد جناحاه البرونزيَّان الهيكليَّان كما لو أنه على وشك التحليق. أريكة متخمة بالحشو أصبحت فيلًا، خرطومه مرفوعٌ على شكل أغنية على آلة «الترومْبِت». كانت سلسلة الصور التي خرجت من هذا المشروع مثيرة للاهتمام ومربكة في آنٍ واحد، الحيوانات شديدة التعقيد ونابضة بالحياة بشكل لا يصدق، ثم تدقق النظر وتدرك مِم صُنعت. باعت «مِيا» عددًا لا بأس به من تلك الصور، من خلال صديقتها «أنيتا»، مالكة إحدى صالات عرض الفنون في نيويورك، وهي شخص لم تقابله «بيرْل» قطُّ في الصالة التي لم تزرها قطُّ. كرهت «مِيا» نيويورك، ولم تكن لتذهب إليها حتى لترويج عملها. قالت «مِيا» في الهاتف ذات مرة:

ـ «أنيتا»، أنا أحبكِ كثيرًا ولكن لا أستطيع المجيء إلى نيويورك من أجل عرضٍ ما. لا، حتى لو كان الأمر يعني أنني سوف أبيع مائة قطعة.

ثم قالت بعد سكتةٍ قصيرة:

ـ أعرف أنه كذلك، ولكنكِ تعرفين أنني لا أستطيع. حسنًا، افعلي ما بوسعك، وهذا كافٍ بالنسبة لي.

ومع ذلك، تمكنت «أنيتا» من بيع ست صور من السلسلة، مما يعني أن «مِيا» تمكنت من قضاء الشهور الستة التالية في العمل على مشروع جديد بدلًا من تنظيف المنازل.

كانت تلك هي الطريقة التي تعمل بها والدتها: مشروع واحد لمدة أربعة أو ستة شهور، ثم تبدأ في المشروع التالي. سوف تعمل وتعمل وتبتكر مجموعة من الصور، وسوف تتمكن «أنيتا» غالبًا من بيع عدد منها على الأقل في صالة العرض التي تمتلكها. في البداية كانت الأسعار متواضعة للغاية ـ عدة مئات من الدولارات للقطعة الواحدة ـ لدرجة أن «مِيا» اضطرت أحيانًا للعمل في وظيفتين، أو حتى ثلاث. ولكن بمضيٍّ الوقت، أصبح عملها يُقدَّر جيدًا بما يكفي في عالم الفن لدرجة أن «أنيتا» تمكنت من بيع المزيد من القطع لقاء المزيد من المال: ما يكفي لدفع مقابل ما احتاجته «مِيا» و«بيرْل» ـ طعام،

إيجار، وقود للسيارة «رابِتْ» ـ حتى بعد خصم نسبة «أنيتا» التي تبلغ خمسين بالمائة. أخبرتْه «بيرْل» بفخر:

ـ ألفان أو ثلاثة آلاف دولار أحيانًا.

وأجرى «مودي» حسابات ذهنية سريعة؛ إذا باعت «مِيا» عشر صورٍ في العام...

أحيانًا لم تكن الصور تُباع، بيعت صورة واحدة من مشروعٍ أنجزته «مِيا» باستخدام أوراق الشجر الهيكلية، وعملت في وظائف غريبةٍ لعدة شهور: تنظيف المنازل، تنسيق الزهور، تزيين الكعك. كانت ماهرة في أي شيء يتضمن العمل بيديها، وفضلت الوظائف التي لا تضطر فيها إلى التعامل مع العملاء، حيث تستطيع أن تبقى وحيدة تفكِّر، أو العمل كنادلة أو سكرتيرة أو موظفة مبيعات. أخبرت «بيرْل»:

ـ عملتُ كفتاة مبيعات ذات مرة، قبل أن تولَدي. بقيتُ يومًا واحدًا. واحدًا. ظل المدير يقول لي كيف أضع الأثواب على شماعات. كان العملاء يخلعون الخرز من الملابس عمدًا ثم يطلبون خصومات بسبب عيوب الصناعة. أُفضِّل أن أمسح الأرض، وحدي في المنزل، على التعامل مع ذلك.

ولكن المشاريع الأخرى بيعت، ولفتت الانتباه. أمَّنتْ إحدى السلاسل ـ التي بدأتها «مِيا» بعد أن اشتغلت في بعض أعمال الحياكة ـ معيشتهما لما يقرب من عام. ذهبتْ إلى متاجر التوفير واشترتْ حيوانات محشوَّة قديمة، دببة باهتة، كلابًا مخملية شعثاء، أرانب رثَّة، كلما كانت أرخص كانت أفضل. في المنزل، فكَّكتها من أماكن الخياطة، وغسلت فراءها، ونفشت حشوها، وأعادت تلميع أعينها. قلبت الداخل إلى الخارج، ثم خاطت الأجزاء ثانية معًا، وكانت النتائج جميلة بشكل مخيف. أخذ الفراء الرثُّ بعد قلبه شكل القطيفة التي قُصَّ وبرها. أخذ الحيوان الكامل بعد إعادة حياكته وإعادة حشوه الشكل نفسه ولكن بملمس مختلف، وأخذت الظهور والرقاب شكلًا

أكثر استقامة، وأخذت الآذان شكلًا أكثر مرحًا، وأشرقت الأعين الآن بلمعةِ المعرفة. بدا الأمر كما لو أن الحيوان قد أُعيد إحياؤه، بشكل أكبر سنًّا وأشد جرأة وأكثر حكمة. أحبت «بيرْل» مشاهدة والدتها وهي تعمل، منحنيةً على طاولة المطبخ، تشتغل بدقة جرَّاح ـ مشرط وإبرة ودبابيس ـ لتحويل هذه اللُّعب إلى فن. باعت «أنيتا» كل صورة في هذه السلسلة، حتى إن إحداها، كما قالت، وصلت إلى متحف الفن الحديث «موما». توسَّلت «أنيتا» إلى «مِيا» أن تأخذ جولة أخرى، أو أن تعيد طباعة هذه السلسلة، لكن «مِيا» رفضت قائلة:

ـ انتهت الفكرة. أنا الآن أعمل على شيء آخر.

كانت تعمل دائمًا، دائمًا شيء مختلف قليلًا، دائمًا شيء أثار اهتمامها وبهجتها. سوف تصبح مشهورة يومًا ما، كانت «بيرْل» متيقنة من ذلك. يومًا ما سوف تصبح والدتها التي تعشقها واحدة من أولئك الفنانين، مثل «دو كونِنج» أو «وارهول» أو «أوكيف»، الذين عرف الجميع أسماءهم. ولهذا كان جزءٌ منها على الأقل لا يأبه للحياة التي عاشتاها دائمًا، ملابسهما المُشتراة من متاجر التوفير، أسرَّتهما وكراسيهما المأخوذة من الخردة، واللايقين المحيط بكل ذلك. يومًا ما سوف يرى الجميع عبقرية والدتها.

كان هذا النوع من الوجود مستعصيًا على الفهم بالنسبة لـ«مودي». كانت مشاهدة عائلة «وارِن» بشكلٍ مباشر تشبه مشاهدة خدعة سحرية، إعجازية بقدر تحويل علبة صودا فارغة إلى إبريق من الفضة، أو جذب فطيرة ينبعث منها البخار من قبعةٍ حريرية عالية. فكَّر قائلًا لنفسه، لا، الأمر يشبه مشاهدة «روبنسون كروزو» يستحضر معيشةً من لا شيء. كلما طال الوقت الذي قضاه مع «مِيا» و«بيرْل»، أصبح أكثر افتتانًا بهما.

عرف «مودي» ببطء، خلال أمسياته بصحبة «بيرْل»، شيئًا عن كيفية حياتهما على الطريق. تسافران من دون أمتعة كثيرة: طبقين وكوبين وحفنة من أدوات المائدة غير المتطابقة، حقيبة قماشية للملابس لكل منهما، وبالطبع،

الكاميرا الخاصة بـ«مِيا». في الصيف، تقودان ونوافذ السيارة مفتوحة، لأن السيارة «رابِتْ» ليس بها تكييف هواء، في الشتاء، تقودان ليلًا، فتنبعث الحرارة من محرك السيارة، وفي النهار توقفان السيارة في بقعة مشمسة، وتنامان في دفء بيت السيارة الزجاجي قبل أن تبدآ القيادة مرة أخرى عند غروب الشمس. في الليل، تدفع «مِيا» الحقائب في أماكن وضع القدمين وتمدد بطانية جيش مطوية عليها وعلى المقعد الخلفي، مكوِّنةً فراشًا يمكن أن يضمهما معًا. ولتحقيق الخصوصية، تفردان ملاءة من الباب الخلفي فوق مساند الرأس في المقاعد الأمامية لعمل خيمة صغيرة. في أوقات الوجبات تتوقفان على جانب الطريق، وتتناولان الطعام من أكياس البقالة الموضوعة خلف مقعد السائق: خبزًا وزبدة فول سوداني، وفاكهة، وأحيانًا لحمًا سلاميًّا أو شريحة من البِبروني، إذا وجدته «مِيا» في التخفيضات. أحيانًا تسافران لأيامٍ قليلةٍ فقط، أحيانًا لمدة أسبوع، حتى تجد «مِيا» بقعة تشعر أنها مناسبة، ثم تتوقفان.

ستجدان شقة للإيجار: عادة استوديو، أحيانًا غرفة بمطبخ صغير، أيًّا كان ما تستطيعان تحمل تكلفته، وأينما كان باستطاعتهما الحياة شهرًا بشهر، لأن «مِيا» لم تحب أن تكون مقيَّدة. سيجهزان شقتهما كما فعلتا في «شايكِر»، بتحويل المهملات وما تعثران عليه في متاجر التوفير إلى أغراض جديدة أو على الأقل مقبولة. ستسجِّل «مِيا» «بيرْل» في المدرسة المحلية وتجد عملًا يكفي لإعالتهما. ثم تبدأ «مِيا» مشروعها الجديد، تعمل، تستغرقها الفكرة تمامًا، لمدة ثلاثة أو أربعة أو ستة شهور، حتى تصبح لديها مجموعة من الصور التي ترسلها إلى «أنيتا» في مدينة نيويورك.

ستجهِّز غرفة مظلمة في الحمَّام، بعد أن تنام «بيرْل». بعد الحركات القليلة الأولى، تبدأ في ممارسة هذا العمل كعلم: صوانٍ لغسل الصور المطبوعة في حوض الاستحمام، حبل غسيل للتجفيف مشدود من أسطوانة الدُّش، منشفة ملفوفة تحت الباب لمنع أي ضوءٍ إضافي. حين تنتهي، تكدِّس

الصواني، وتضع مكبِّر الصور في حقيبته، وتخبئ دوارق المواد الكيميائية أسفل الحوض، وتحك حوض الاستحمام حتى يلمع من أجل استحمام «بيرْل» في الصباح التالي. سوف تفتح فرجة في نافذة الحمَّام وتذهب إلى الفراش، وبحلول وقت استيقاظ «بيرْل»، سوف تكون الرائحة الحمضية لمُظهر الصور قد اختفت. بمجرد أن ترسل «مِيا» صورها بالبريد، تعرف «بيرْل» دائمًا أنهما ستعبئان السيارة مرة أخرى وستُعاد العملية بأكملها. بلدةٌ واحدة، مشروعٌ واحد، ثم يحين الوقت للمضيِّ قُدُمًا.

على الرغم من ذلك، فهذه المرة، كان الأمر مختلفًا، أخبرتْه «بيرْل»:

ـ سنستقر هنا.

وشعر «مودي» فجأة بالابتهاج لدرجة الدُّوَار، مثل بالون متخم بالهواء. قالت «بيرْل»:

ـ وعدتْ أمي أننا سنبقى إلى الأبد هذه المرة.

راقت له حياتهما الفنية المتجولة، كان «مودي» رومانسيًّا في أعماقه. وصل إلى لوحة الشرف في كل فصل دراسي، ولكنه غير محمَّل بعبء الاعتبارات العملية، كانت لديه أحلام عن ترك المدرسة، والسفر حول البلاد على طريقة الشاعر والروائي «جاك كِرْواك»، فقط يكتب الأغنيات بدلًا من الشِّعر. زوده متجر «ماكس باكس» للكتب بنسخٍ بالية من روايتَي «على الطريق» و«دارما بمز»، وقصائد «فرانك أوهارا» و«راينر ماريا ريلكه» و«بابلو نيرودا»، ولفرحته وجد في «بيرْل» روحًا شعرية أخرى. لم تقرأ كثيرًا بقدر ما قرأ، لأنهما انتقلتا مراتٍ كثيرة، ولكنها قضت أغلب طفولتها في المكتبات، لتجد ملاذًا بين الأرفف بوصفها فتاة جديدة تقفز من مدرسة إلى أخرى، تتشرَّب الكتب كما لو أنها هواء، وفي الحقيقة، أخبرتْه بخجل، أنها أرادت أن تصبح شاعرة. نسخت قصائدها المفضلة في دفترٍ سلكيٍّ مهترئ احتفظت به معها طوال الوقت. قالت:

ـ حتى تكون معي دائمًا.

وحين سمحت لـ«مودي» أخيرًا بقراءة بعضها، عجز عن الكلام. أراد أن يجدِّل نفسه مع الزخرفات الصغيرة في خطها. تنهد قائلًا:

ـ جميل.

وأضاء وجه «بيرْل» مثل قنديل، وفي اليوم التالي أحضر «مودي» الجيتار الخاص به، علمها أن تلعب على ثلاثة أوتار، وغنى لها إحدى أغنياته على استحياء، والتي لم يغنِّها لأي شخص من قبل.

سرعان ما اكتشف أن «بيرْل» لديها ذاكرة رائعة. بإمكانها أن تستعيد قِطعًا بعد قراءتها مرةً واحدة فقط. بإمكانها أن تتذكر تواريخ الـ«ماجنا كارتا» وأسماء ملوك إنجلترا وجميع الرؤساء بالترتيب. حصل «مودي» على درجاته نتيجة للدراسة المدققة وكثير من بطاقات الاستذكار، ولكن كل شيء بدا أنه يأتي بسهولة إلى «بيرْل». بإمكانها أن تلقي نظرة على مسألة حسابية وتحدس الإجابة بينما يعمل «مودي» بإخلاص ويكتب سطورًا متتالية من المعادلات الجبرية حتى يملأ الصفحة، بإمكانها أن تقرأ مقالًا وتضع إصبعها على الفور على أبرز نقطة أو أكبر عيبٍ منطقي. بدا الأمر كما لو أنها نظرت إلى كومةٍ من قطع أحجية مصوَّرة ورأت الصورة الكاملة من دون حتى أن ترجع إلى الصورة الأصلية على العلبة. أصبح واضحًا أن عقل «بيرْل» كان شيئًا استثنائيًّا، ولم يملك «مودي» سوى الإعجاب بالسرعة التي عمل بها دماغها من دون جهد. كانت مشاهدتها وهي تضع كل شيء في مكانه متعةً خالصة.

كلما طال الوقت الذي قضياه معًا، بدأ «مودي» يشعر أنه كان في مكانين في وقتٍ واحد. في أي لحظة ـ كل لحظة أمكنه تدبيرها في الحقيقة ـ كان هناك مع «بيرْل»، في المقصورة على العشاء، بين تفرُّع أغصان شجرة، يشاهد عينيها الواسعتين ترتويان من كل شيء حولهما، كما لو أنها شديدة الظمأ. سوف يلقي فكاهاتٍ غبية ويروي قصصًا ويتحدث في التفاهات، أي شيء ليجعلها تبتسم. وفي الوقت نفسه، فتش المدينة في ذهنه باحثًا بيأس عن المكان التالي الذي بوسعه أن يصطحبها إليه، العجيبة التالية من ضواحي

كليفلاند التي يمكنه إظهارها، لأنه كان متأكدًا أنها ستختفي حين تنفد الأماكن التي يمكن مشاهدتها. فكر بالفعل أنه رأى صمتها المتنامي خلال تناولهما البطاطس المقلية، وهي تنكز آخر كتلة جبن متخثرة في الطبق، تأكد بالفعل أن عينيها كانتا تنساقان عبر البحيرة إلى الشاطئ البعيد.

كانت هذه هي الكيفية التي اتخذ بها «مودي» قرارًا سوف يتساءل بشأنه طوال حياته. حتى الآن لم يخبر والدته أو عائلته أي شيء عن «بيرْل»، ليحمي صداقتهما كما يحمي تنينٌ كنزًا: بصمت، بجشع. شعر في أعماقه أن ذلك سوف يغير كل شيء بطريقة ما، بالطريقة التي يفسَد بها السحر في الحكايات الخيالية إذا أُفشي السر. لو أنه قد احتفظ به لنفسه، لربما اختلف المستقبل تمامًا. لربما لم تقابل «بيرْل» والدته أو والده، أو «ليكسي» أو «تريب» أو «إيزي» قطُّ، ولو أنها فعلت، فلربما كانوا مجرد أناسٍ حيَّتْهم فقط من دون أن تعرفهم. لربما ظلت هي ووالدتها في «شايكِر» للأبد، كما خطَّطتا. بعد أحد عشر شهرًا، لربما ظلَّ منزل «ريتشاردسون» قائمًا. لكن «مودي» لم يظن أنه شخص مثير للاهتمام بما يكفي للاحتفاظ باهتمامها بمفرده. لو أنه فرد مختلف من عائلة «ريتشاردسون»، لربما اختلف الأمر، لم يقلق شقيقه أو شقيقتاه بشأن إعجاب الآخرين بهم. «ليكسي» لديها ابتسامتها الذهبية وضحكتها السَّلِسة، «تريب» لديه طلَّته وغمازتاه: فلماذا لن يُعجَب الناسُ بهما، لِمَ يسألان حتى عن شيء كهذا على الإطلاق؟ كان الأمر أكثر بساطة حتى بالنسبة لـ«إيزي»: لم تأبه لما قد يظنه الناس بشأنها. لكن «مودي» ليس لديه دفء «ليكسي»، أو سحر «تريب» الشقي، أو ثقة «إيزي» بالنفس. شعر بأن كل ما وجب عليه أن يقدمه لها هو ما وجب على عائلته أن تقدمه، وهذا ما قاده ليقول ذات مساء في أواخر شهر يوليو:

ـ تعالي إلى منزلنا. بوسعكِ مقابلة عائلتي.

حين دخلت «بيرْل» منزل عائلة «ريتشاردسون» للمرة الأولى، توقفتْ بقدمٍ واحدة على العتبة. قالت لنفسها إنه مجرد منزل. عاش «مودي» هنا،

ولكن حتى هذه الفكرة صدمتْها صدمة سريالية قليلًا. أومأ إليها «مودي» من الرصيف تقريبًا بخجل:

ـ ها هو ذا.

وقالت:

ـ أنت تعيش هنا؟

لم يكن الحجم، المنزل كبير حقًّا، ولكن كل منزل في الشارع كبير أيضًا، وفي خلال ثلاثة أسابيع فقط في «شايكِر» رأت منازل أكبر حجمًا. لا، الأمر متعلق بلون المرجة الأخضر، والخطوط الحادة للملاط الأبيض بين مكعبات القرميد، وحفيف أوراق شجرة القيقب في النسيم اللطيف، والنسيم نفسه. الأمر متعلقٌ بالروائح الناعمة للمنظفات والطهي والعشب الذي امتزج عند المدخل، والركن ذي السجادة الملقاة التي ارتفعت مثل خصلة شعر، كما لو أن أحدهم نفشها ثم نسي أن يسوِّيها. كان الأمر كما لو أنها بدلًا من أن تدخل منزلًا تدخل فكرة المنزل، نموذج أصلي بُعث إلى الحياة هنا أمامها. شيء سمعت عنه فقط ولكنها لم ترَه من قبل. بوسعها أن تسمع إشارات الحياة من الغرف البعيدة ـ الهمهمة المنخفضة لإعلانات التلفزيون، صافرة جهاز الميكروويف تشير إلى عدَّاتِه التنازلية ـ ولكن من بعيد، كما لو أنه حلم.

قال «مودي»:

ـ تفضلي.

وخَطَتْ إلى الداخل.

فيما بعد سوف يبدو لـ«بيرْل» أن عائلة «ريتشاردسون» رتبوا أنفسهم في لوحة فنية من أجل متعتها، لأنهم بالتأكيد لا يوجدون دائمًا في تلك الحالة من الكمال المنزلي. كانت هناك السيدة «ريتشاردسون» في المطبخ تصنع الكعك، وهو من بين كل الأشياء، شيء لم تفعله والدتها قطُّ، على الرغم من أن «بيرْل» توسلت بشدة أن تشتري لهما أحيانًا قطعة من العجين المغلَّف

لتقطيعها إلى حلقات. وكان هناك السيد «ريتشاردسون»، صورة مصغرة في المرجة الخضراء الواسعة، يهز الفحم برشاقة في مشواةٍ فضية لامعة. وكان هناك «تريب»، يجلس متكاسلًا على أريكة قطاعية ملتفة طويلة ذات وحداتٍ قابلة للتجزئة، وسيمًا وسامة مستحيلة، وذراعه مدلَّاة على ظهر الأريكة كما لو أنه ينتظر فتاة محظوظة لتأتي وتجلس بجواره. وكانت هناك «ليكسي»، تجلس في مواجهته في بركة من ضوء الشمس، تُحوِّل عينيها المتألقتين من التلفزيون باتجاه «بيْرل» فيما دخلتْ إلى الغرفة، قائلة:

ـ حسنًا الآن، من يشرفنا بالزيارة؟

٤

كانت «إيزي» العضو الوحيد من عائلة «ريتشاردسون» الذي لم ترَه «بيرْل» كثيرًا في تلك الأيام الأولى المدوِّخة، لكنها لم تلحظ في البداية. كيف يمكنها ذلك، بينما يحييها أفراد عائلة «ريتشاردسون» الآخرون بأذرعهم الطويلة التي أحاطت بها؟ لقد أبهرها أفراد تلك العائلة: بثقتهم السَّلسة، وشعورهم الواضح بالهدف، بغض النظر عن توقيت اليوم. قضت ساعات في منزلهم بدعوة من «مودي»، تأتي مباشرةً بعد الإفطار وتبقى حتى العشاء.

في أوقات الصباح، تقتحم السيدة «ريتشاردسون» المطبخ بحذائها ذي الكعب العالي، بيدها مفاتيح السيارة وكوب السفر المصنوع من الـ«ستانلس-ستيل»، قائلة:

ـ لطيف جدًّا أن أراكِ ثانيةً يا «بيرْل».

ثم تطقطق بكعب حذائها هابطةً إلى الردهة الخلفية، وفي لحظة ينفتح باب الجراج هادرًا وتنزلق سيارتها «الليكزَس» في ممر السيارات الواسع؛ جيبٌ ذهبيٌّ باردٌ في هواء صيفيٍّ حار. غادر السيد «ريتشاردسون» مرتديًا سترته وربطة عنقه منذ فترة طويلة، لكنه لاح في الخلفية، صلبًا ومبهرًا ومهمًّا، مثل نطاق من الجبال في الأفق. حين سألتْ «بيرْل» «مودي» ماذا يفعل والداه طوال اليوم، هز «مودي» كتفيه:

ـ تعلمين، يذهبان إلى العمل.

عمل! حين قالت أمها هذه الكلمة، انبعثت منها رائحة الكدْح: الخدمة على الطاولات، غسل الصحون، تنظيف الأرضيات. لكن بالنسبة لعائلة «ريتشاردسون»، بدا الأمر نبيلًا: لقد فعلوا أشياء مهمة. كل خميس أودع صبي توصيل الصحف نسخة من جريدة «صَن برِس» على عتبة باب «مِيا» و«بيرْل» ـ كانت مجانيةً لجميع المقيمين ـ وحين فتحتاها وجدتا اسم السيدة «ريتشاردسون» في الصفحة الأولى أسفل العناوين الرئيسية: **المدينة تناقش فرض ضريبة جديدة، رد فعل السكان على ميزانية الرئيس «كلينتون»، تحضيرات «الحفل الراقص العام» جارية في ميدان «شايكِر»**. إثباتٌ ملموس وواضح على اجتهادها.

(قال «مودي»:

ـ ليس أمرًا مهمًّا حقًّا، جريدة «ذي بلاين ديلر» هي الجريدة الحقيقية. تنشر الـ«صَن برِس» الأخبار المحلية فقط: اجتماعات مجلس المدينة ومجالس تقسيم المناطق ومن الذي فاز بمسابقة العلوم.

لكن «بيرْل»، ناظرةً إلى السطر الثاني ـ «بقلم «إيلينا ريتشاردسون»» ـ لم تصدق أو تهتم).

عرفت عائلة «ريتشاردسون» أشخاصًا مهمين: العمدة، مديرة مستشفى «كليفلاند كلينيك»، مالك فريق «إنديانز» للبيسبول. لديهم بطاقات لحضور مباريات الموسم في ملاعب «جاكوبس فيلد» و«جَنْد».

(قال «مودي» باختصارٍ مفيد:

ـ فريق «كافْز» مقرف.

احتجَّ «تريب»:

ـ مع ذلك ربما يفوز «إنديانز» بعلم البطولة).

أحيانًا سيدق جرس الهاتف المحمول الخاص بالسيد «ريتشاردسون» ـ هاتفٌ محمول! ـ وسيمدِّد الهوائي فيما يخطو خارجًا إلى الردهة. سوف يجيب:

ـ «بيل ريتشاردسون».
العبارة البسيطة التي تحمل اسمه كافيةٌ للتحية.
حتى أصغر أفراد عائلة «ريتشاردسون» لديه الميزة نفسها، هذه الثقة في النفس. في صباح أيام الآحاد ستجلس «بيرْل» و«مودي» في المطبخ فيما عاد «تريب» ببطء من الجري، يجلس متكاسلًا، في مواجهة النَّضد المنفصل الذي يتوسط المطبخ ليصب كأسًا من العصير، طويلًا ومسمرًّا ونحيلًا مرتديًا سروالًا رياضيًّا قصيرًا، مسترخيًا تمامًا. تجعلها ابتسامته المفاجئة في حالة اضطراب. «ليكسي» جاثمة على منضدة المطبخ، غير متأنقة في بنطالٍ رياضي وتيشيرت، شعرها معقود في كعكة غير مرتَّبة، تلتقط حبات السمسم من قطعة خبز «بيجل». لم يكترثوا إذا رأتهم «بيرْل» على هذه الهيئة. كانوا متصفين بجمالٍ خالٍ من التصنع، حتى لو نهضوا من الفراش للتَّو. من أين يأتي هذا الاسترخاء؟ كيف بوسعهم أن يكونوا هكذا في المنزل، واثقين من أنفسهم، حتى في ثياب النوم؟ إذا طلبت «ليكسي» طعامًا، لم تكن لتقول:
ـ هل بإمكاني أن أطلب...؟
بل تقول:
ـ سوف آخذ...
بثقة، كما لو أن عليها أن تقول فقط ليتمَّ الأمر. أشعر هذا «بيرْل» بالقلق وفتنها. سوف تنزلق «ليكسي» من مقعدها الطويل وتمشي عبر المطبخ برشاقة راقصة، حافية القدمين على البلاطات الإسبانية. تجرَّع «تريب» ما تبقى من عصير البرتقال وتوجَّه نحو الدرج والدُّش، وشاهدته «بيرْل»، ترتعش فتحتا أنفها وهي تتنفس رائحة استيقاظه: عرق وشمس وحرارة.
في منزل عائلة «ريتشاردسون» أرائك متخمة عميقة للغاية لدرجة أنك قد تغوص فيها كما لو أنك تغوص في حمَّام رغوةٍ ثرية، وخزائن جانبية، وأسرَّة ثقيلة على شكل زلَّاجة. فكرت «بيرْل» أنه بمجرد أن تمتلك كرسيًّا ضخمًا كهذا سوف يتعين عليك ببساطة أن تظل في مكانك. سوف ينبغي

عليك أن تزرع جذورًا وأن تجعل المكان الذي يحتوي هذا الكرسيَّ منزلك. كانت هناك أرائك عثمانية وصور مؤطَّرة وخزائن تحف ممتلئة بالتذكارات، تفاهاتهم نفسها مطَمئِنة. أنت لم تجلب إلى المنزل صدَفةً منحوتة من جزيرة «كي وست» بفلوريدا أو تمثالًا منمنمًا من «سي إن تاور» في تورنتو أو زجاجة رمل بحجم الإصبع من جزيرة «مارثاز فينيارْد» إلا إذا عزمت على البقاء. علمت «بيرْل» أن عائلة السيدة «ريتشاردسون»، في الحقيقة، عاشت في «شايكِر» لثلاثة أجيال حتى الآن، تقريبًا، منذ تأسيس المدينة. أن تمتلك مثل هذا الجذر العميق في مكان واحد، أن تكون منغمسًا فيه تمامًا لدرجة أنه تغلغل في كل خيوط كيانك: لم يكن بوسعها تخيل الأمر.

كانت السيدة «ريتشاردسون» نفسها أحد مصادر الإبهار. إذا كانت على شاشة التلفزيون، سوف تشعر أنها غير حقيقية مثل السيدة «برادي» أو السيدة «كيتون». ولكن ها هي ذي أمام «بيرْل»، دائمًا تقول أشياء لطيفة. ستقول:

ـ يا لها من تنورة جميلة يا «بيرْل». هذا اللون يناسبك. تدرسين في جميع الصفوف المتقدمة؟ يا لكِ من ذكية. شعرك يبدو لطيفًا جدًّا اليوم. أوه، لا تكوني سخيفة، ناديني «إيلينا»، أنا مصرَّة.

ثم، حين استمرت «بيرْل» في مناداتها بالسيدة «ريتشاردسون»، أضمرت الفخر لاحترام «بيرْل» لها، كانت «بيرْل» متأكدة من ذلك. سارعت السيدة «ريتشاردسون» لضمِّها ـ هي، «بيرْل»، شخص غريب افتراضي ـ لأنها ببساطة إحدى صديقات «مودي». كانت «مِيا» عاطفيةً لكنها لم تكن قطُّ مسرفةً في التعبير عن نفسها، لم ترَ «بيرْل» والدتها قطُّ تعانق أي شخص عداها. ومع ذلك ها هي السيدة «ريتشاردسون» تعود إلى المنزل للعشاء، تقبِّل كلًّا من أطفالها قبلة سريعة على قمة الرأس من دون حتى أن تتوقف حين تصل إلى «بيرْل»، فتلقي قبلة على شعرها من دون لحظة تردد. كما لو أنها مجرد فرخ صغير آخر في العش.

لم يكن بوسع «مِيا» إلا أن تلاحظ ولع ابنتها بأفراد عائلة «ريتشاردسون».

قضت «بيرْل» النهار بأكمله في منزل «ريتشاردسون» في بعض الأيام. سُرَّت لذلك في البداية، وهي تشاهد «مودي» وابنتها الوحيدة، التي انتُزعت من جذورها مراتٍ عديدة، والتي لم تكن مقرَّبةً قطُّ من أي شخص. بوسعها أن ترى الآن أنها جعلت ابنتها تعيش وفقًا لهواها الشخصي: الانتقال في أي وقت كلما احتاجت «مِيا» فكرةً جديدة، في أي وقت شعرت فيه أنها عالقة أو غير مرتاحة. **انتهى الأمر الآن**، وعدتْها «مِيا» فيما تقودان باتجاه «شايكِر». **من الآن فصاعدًا سوف نستقر هنا**. بوسعها أن ترى أوجه الشبه بين هذين الطفلين الوحيدين، حتى أوضح مما يستطيعان رؤيته: الشخصيتين الحسَّاستين المخبأتين داخل كلٍّ منهما، الحكمة المولعة بالكتب التي تكوِّن طبقةً فوق سذاجة عميقة. لسوف يأتي «مودي» مبكرًا كل صباح حتى قبل أن تُنهي «بيرْل» إفطارها، وبينما يسير سوف تسحب «مِيا» الستائر لترى دراجته ممدَّدةً على المرجة الأمامية، وتدخل المطبخ لتجده يجلس مع «بيرْل» إلى الطاولة، وبقايا نخالة الزبيب في الزُّبديتين غير المتطابقتين أمامهما. سوف يغيبان طوال اليوم، فيما يدفع «مودي» دراجته من المقبضين إلى جوارهما. تغسل «مِيا» الزُّبديتين في الحوض، وتسجل ملاحظة في ذهنها للبحث عن دراجة لـ«بيرْل». ربما وجدت واحدةً مستعملة في متجر الدراجات على طريق «لي».

ولكن بينما مرَّت الأسابيع، أقلق «مِيا» بعض الشيء تأثير أفراد عائلة «ريتشاردسون» الذي بدا على «بيرْل»، وأقلقتها الطريقة التي بدا أنهم امتصوها في حياتهم، أو العكس. تحدثت «بيرْل» على العشاء عن أفراد عائلة «ريتشاردسون» كما لو أنهم عرض تلفزيوني تتعصب له. ربما تقول في أحد الأيام:

ـ سوف تُجري السيدة «ريتشاردسون» لقاءً مع «جانيت رينو» حين تأتي إلى البلدة في الأسبوع المقبل.

أو تقول:

ـ تقول «ليكسي» إن حبيبها «برايان» سوف يكون أول رئيس أمريكي أسود.

أو تقول، بحمرة خجل خفيفة:

ـ سوف يبدأ «تريب» اللعب مع فريق كرة القدم هذا الخريف. اكتشف هذا للتَّو.

أومأتْ «مِيا» وهمهمتْ، وتساءلت كل مساء إذا كان هذا من الحكمة في شيء، إذا كان أمرًا سليمًا بالنسبة لابنتها أن تقع تمامًا تحت سحر عائلة على هذا النحو. ثم فكرت في الربيع الماضي، حين أصيبت «بيرْل» بسعالٍ شديد لدرجة أن «مِيا» اصطحبتها في النهاية إلى المستشفى، حيث عرفتا أنه تحول إلى التهابٍ رئوي. سمحت «مِيا» لنفسها بالتخيل وهي جالسة إلى جوار فراش ابنتها في الظلام، تراقبها وهي نائمة، منتظرة أن تؤتي المضادات الحيوية التي أعطاها لها الطبيب مفعولها: إذا حدث الأسوأ، فأي نوعٍ من الحياة قد عاشته «بيرْل»؟ حياة المتجولين، المنعزلين، الوحيدين. قالتْ لنفسها انتهى الأمر. وحين تعافت «بيرْل» انتهى بهما الأمر في «شايكِرِ هايتْس» حيث وعدت «مِيا» أنهما سوف تستقران. ولهذا لم تقل شيئًا، وفي اليوم التالي سوف تنقضي أمسية أخرى فيما «بيرْل» في منزل عائلة «ريتشاردسون» مرة أخرى، لتصبح أكثر افتتانًا.

بدأت «بيرْل» الدراسة في مدارس جديدة لمراتٍ عديدة بما يكفي، أحيانًا مرتين أو ثلاثًا في العام نفسه، مما جعلها تفقد إحساسها بالخوف من الأمر، لكنها شعرت هذه المرة بوجلٍ شديد. عندما تبدأ الدراسة في مدرسة تعلم أنك سوف تغادرها، فليس عليك أن تقلق بشأن رأي الآخرين عنك، لأنك سرعان ما ترحل. انتقلت عبر كل صفٍّ هكذا، لم تكترث للتعرف على أحد. أما أن تبدأ الدراسة في مدرسة وأنت تعلم أنك سوف ترى هؤلاء الناس طوال العام، والعام الذي يليه، والعام الذي بعده، فقد كان أمرًا مختلفًا.

لكن كما تبيَّن الأمر، تزاملت مع «مودي» في كل المواد تقريبًا، من

الأحياء إلى اللغة الإنجليزية للمتفوقين إلى الصحة. أرشدها عبر الأروقة في الأسبوعين الأولَين من الدراسة بثقة لا يملكها إلا طالب في الصف الثاني، يخبرها أي نوافير مياه الشرب أكثر برودة، أين تجلس في الكافيتريا، أيًّا مِن المعلمين سوف يعطيكِ تذكرة تأخير إذا أمسك بكِ في القاعات بعد رنين جرس التأخير [كي يُسمح لك بدخول الفصل]، وأيُّهم سوف يلوِّح لكِ بابتسامة متساهلة. بدأتْ «بيرْل» في التجول في المدرسة مستعينةً بالجداريات التي رسمها الطلبة عبر الأعوام: منطاد «هيندنبرج» المنفجر يميز جناح العلوم، و«جيم موريسون» يفكر بتمعُّنٍ بجوار شرفة المدرَّج، وفتاة تنفخ فقاعات وردية تقود الطريق إلى ما سُمِّي بغموض «مخرج»، وهو رواقٌ كهفيٌّ تتضاعف سعته فيما يفيض بمقاعد الجلوس في وقت الغداء. يميِّز صفٌّ من خزائن الطلبة المزينة برسومات من طراز «ترومب لوي» الرواقَ حتى القاعة الاجتماعية، وهي ردهة استراحة مخصصة للطلبة في صف التخرج، تحتوي على جهاز ميكروويف لصنع الفشار خلال الفترات الحرة، وماكينة بيع «الكولا» بخمسين سنتًا فقط بدلًا من خمسة وسبعين سنتًا مثل تلك الموجودة في الكافيتريا، وصندوق موسيقى مكتنز يعود لعقد السبعينيات ومحمَّل الآن بأغنيات «سير مِكس ألوت» و«سماشِنْج بامْبكِنْز» و«سبايس جيرلز». في العام الماضي، رسم أحد الطلاب نفسه مع ثلاثة أصدقاء، يختلسون النظر على طريقة ««كيلروي» كان هنا» على السقف المقبَّب قرب المدخل الرئيس، كان أحدهم يغمز بعينه، وكلما مرَّت «بيرْل» أسفل القبة شعرت أنهم يرحبون بها في المكان.

كثيرًا ما ذهبت بعد المدرسة إلى منزل عائلة «ريتشاردسون» وتمدَّدت على الأريكة في غرفة العائلة مع الأطفال الأكبر سنًّا وشاهدت برنامج «جيري سبرِنْجِر» الحواري. كان هذا أقرب لطقسٍ اعتاد عليه أطفال عائلة «ريتشاردسون» على مدى السنوات القليلة الماضية، إحدى المرات القليلة التي اتفقوا فيها على أي شيء. أمر لم يسبق التخطيط له ولم تسبق مناقشته

قطُّ، لكن كل مساء، إذا لم يكن لدى «تريب» تمرين ولم يكن لدى «اليكسي» لقاء، فإنهم يجتمعون في غرفة العائلة ويشاهدون القناة الثالثة. بالنسبة لـ«مودي»، كان الأمر دراسة نفسية مشوِّقة، كل حلقة مثال آخر يدلِّل على المدى الذي يمكن أن تصل إليه غرابة البشر. بالنسبة لـ«ليكسي»، كان الأمر مشابهًا للأنثروبولوجيا، الأمهات العاريات والزوجات المتعددات والأطفال مروِّجو المخدرات ليسوا سوى نافذةٍ على عالم بعيد عن عالمها لدرجة أنه مثل أحد أعمال عالمة الأنثروبولوجيا «مارجريت ميد». بالنسبة لـ«تريب»، كان الأمر بأكمله عبارة عن كوميديا خالصة، عرض هزلي متألق، مكتمل بشتائم محجوبة بصوت الصفير وكثير من التراشق بالمقاعد. كانت لحظاته المفضلة حين تُنتزع شعور الضيوف المستعارة. رأت «إيزي» أن الأمر برمَّته معتوه لا يمكن وصفه، وحصَّنتْ نفسها في الطابق العلوي للتمرن على الكمان. وضَّحتْ «ليكسي»:

ـ إنه الأمر الوحيد الذي تأخذه «إيزي» بجدية.

تابع «تريب»:

ـ لا. «إيزي» تأخذ كل شيء بجدية كبيرة، هذه مشكلتها.

قالت «ليكسي» في إحدى الأمسيات:

ـ المثير للسخرية أننا في غضون عشر سنوات سوف نرى «إيزي» في برنامج «سبرِنْجِر».

قال «تريب»:

ـ سبع، ثمانٍ على الأكثر. ««جيري»، أخرِجْني من السجن!».

وافقت «ليكسي» قائلة:

ـ أو «عائلتي تريد أن تحتجزني في مصحة نفسية».

تململ «مودي» في مقعده بانزعاج. عامل «تريب» و«ليكسي» «إيزي» كما لو أنها كلبٌ قد تصيبه نوبة سعار في أي لحظة، لكنهما كانا دائمًا ودودَين. قال لـ«بيرْل»:

ـ إنها مندفعة قليلًا فحسب. هذا كل شيء.

ضحكت «ليكسي»:

ـ «مندفعة قليلًا؟»، أنتِ لا تعرفينها جيدًا بعدُ يا «بيرْل». سوف ترَين.

وبدأت الحكايات في التدفق، ونُسي «جيري سبرِنْجِر» مؤقتًا.

في العاشرة من عمرها، أُلقي القبض على «إيزي» وهي تتسلل إلى مقر «هيومان سوسايتي» في محاولة لتحرير جميع القطط الضالة. قالت:

ـ إنهم مثل السجناء في انتظار عقوبة الإعدام.

في الحادية عشرة من عمرها، سجَّلتْها والدتها ـ المقتنعة أن «إيزي» كانت خرقاء إلى درجة كبيرة ـ في حصص دراسية لتعلُّم الرقص لتحسين قدرتها على استخدام أجزاء جسدها بتناسق. أصر والدها على تجربة الأمر لفصل دراسي واحد قبل أن يمكنها الانقطاع عنها. قعدت «إيزي» على الأرض في كل حصة ورفضت التحرك. حين جاء وقت العرض الموسيقي، كتبت «إيزي» عبارة لستُ دميتكم المتحركة على جبهتها ووجنتيها ـ بالاستعانة بمرآة وقلم سميك ذي حبر دائم من طراز «شاربي» ـ قبل أن تصعد على خشبة المسرح مباشرة، حيث وقفت ساكنةً بلا حراك والآخرون يرقصون حولها بارتباك. قالت «ليكسي»:

ـ اعتقدتُ أن أمي سوف تموت من الحرج. ثم في العام الماضي؟ اعتقدتْ أمي أن «إيزي» تبالغ في ارتداء الملابس السوداء فاشترت لها كل تلك الأثواب الرائعة. لفّتها «إيزي» ووضعتها في كيس بقالة واستقلت الحافلة إلى وسط المدينة وأعطتها لشخص ما في الشارع. عاقبتها أمي لمدة شهر.

احتجَّ «مودي» قائلًا:

ـ إنها ليست مجنونة. هي فقط لا تفكر.

أطلقت «ليكسي» صوت شخير، وضغط «تريب» زر إعادة الصوت في جهاز التحكم عن بُعد، وعاد «جيري سبرِنْجِر» إلى الحياة مرة أخرى.

كانت الأريكة تكفي لجلوس ثمانية أشخاص، لكن حتى مع وجود ثلاثة فقط من أطفال عائلة «ريتشاردسون»، كان هناك قدر لا بأس به من التسابق للحصول على أماكن الجلوس التي تؤمِّن أفضل مشاهدة للتلفزيون. الآن، مع إضافة «بيرْل»، أصبح هناك مزيد من المناورات المعقدة. سوف تجلس «بيرْل» ـ بلا تطفل، وبلامبالاة، كما تمنَّت ـ على المقعد المجاور لـ«تريب» كلما تمكنت من ذلك. وضعت طوال حياتها مسافة بينها وبين جميع من أُعجبت بهم، لم تجد في نفسها الشجاعة للحديث مع أي من الصِّبية الذين شعرت بالولع تجاههم. لكن بما أنها ووالدتها ستستقران في «شايكِر» إلى الأبد، وبما أن «تريب» كان هنا، في هذا المنزل، جالسًا على الأريكة نفسها، حسنًا، من الطبيعي تمامًا، كما قالت لنفسها، أن تجلس إلى جواره بين آن وآخر، ليس بإمكان أحد أن يتبيَّن الأمر، «تريب» على الأقل من بينهم جميعًا. في هذه الأثناء، شعر «مودي» أنه استحق الجلوس بجوار «بيرْل»، كان هو من قدمها إلى هذا القطيع، وشعر أنه أحق ـ بما أنه قد عرفها لفترة أطول ـ من جميع أفراد عائلة «ريتشاردسون». كانت النتيجة النهائية أن «بيرْل» سوف تستقر بجوار «تريب»، وسوف يلقي «مودي» نفسه بجوارها، مما يجعلها مثل حشو الشطيرة بينهما، وسوف تتمدد «ليكسي» على الركن، تبتسم بتصنُّع لثلاثتهم، وتشغل التلفزيون، ويولي الأربعة انتباههم للشاشة بينما يظلون حريصين على الوعي بكل ما يحدث حولهم في الغرفة.

سرعان ما عرفت «بيرْل» أن أكثر مناقشات أطفال عائلة «ريتشاردسون» سخونةً دارت حول «جيري سبرِنْجِر». قالت «ليكسي» ذات يوم أثناء عرض حلقة استفزازية بعنوان «كفوا عن اصطحاب الفتيات البيضاوات إلى المنزل للعشاء!»:

ـ حمدًا لله أننا نعيش في «شايكِر»، أعني أننا محظوظون. لا أحد ينتبه للعِرق هنا.

قال «مودي»:

ـ الجميع ينتبه للعِرق يا «ليكسي»، الفرق الوحيد يكمن فيمن يتظاهر بأنه لا يفعل.
قالت «ليكسي»:
ـ انظر إليَّ أنا و«برايان»، نحن معًا منذ الصف الأول ولا أحد يأبه لكوني بيضاء وهو أسود.
قال «مودي»:
ـ ألا تعتقدين أن والديه يفضلان أن يواعد فتاة سوداء؟
فتحت «ليكسي» علبة «دايت كولا» أخرى وقالت:
ـ بصراحة لا أعتقد أنهما يكترثان، لا يعبِّر لون البشرة عن حقيقة المرء.
قال «تريب»:
ـ ششششش، لقد عاد.
أثناء إحدى تلك الأمسيات ـ أثناء عرض حلقة «سوف أنجب طفل زوجك!» ـ التفتت «ليكسي» إلى «بيرْل» فجأة وسألتها:
ـ هل سبق أن فكرتِ في محاولة العثور على والدكِ؟
حدقت «بيرْل» فيها بنظرة متعمَّدة خاوية، لكن «ليكسي» تابعت على أي حال:
ـ أعني، أين هو، ألم ترغبي قطُّ في لقائه؟
حوَّلت «بيرْل» عينيها إلى شاشة التلفزيون حيث يصارع رجال أمنٍ أقوياء البنية امرأةً برتقالية الشعر تشبه كرسيًّا ضخمًا من طراز «باركا لاونجر» لإبقائها في مقعدها، وقالت:
ـ يجب أن أبدأ بمعرفة هويته. ثم، أعني، انظري إلى مدى نجاح هذا الأمر، لماذا لن أرغب في ذلك؟
لم تتمكن من التهكم طبيعيًّا، بل حتى بالنسبة لنفسها بدا صوتها مفعمًا بالأسى أكثر من كونه ساخرًا.
تفكَّرت «ليكسي»:

ـ قد يكون أي أحد، حبيبًا قديمًا. ربما انفصل عن والدتك حين أصبحت حبلى. أو ربما لقي مصرعه في حادث قبل أن تولدي.

نقرت بإحدى أصابعها على شفتها، وقد عصفت بذهنها جميع الاحتمالات، وتابعت:

ـ ربما تركها من أجل امرأة أخرى، أو...

اعتدلت في جلستها كما لو أن أحدهم نغزها قائلة:

ـ ربما اغتصبها. ثم حملت واحتفظت بالجنين.

قال «تريب» فجأة:

ـ «ليكسي».

انزلق فوق الأريكة، وألقى ذراعه حول كتفي «بيزْل» قائلًا:

ـ اخرسي!

لم يكن من المعتاد بالنسبة لـ«تريب» أن يصغي إلى أي حوار لا يدور حول الرياضة، ناهيك عن الانتباه لمشاعر شخص آخر، وجميعهم يعرفون ذلك.

أدارت «ليكسي» عينيها قائلة:

ـ كنتُ أمزح فحسب، «بيزْل» تعرف هذا، أليس كذلك يا «بيزْل»؟

قالت «بيزْل»:

ـ بلى، بالطبع.

أرغمت نفسها على الابتسام:

ـ آه.

شعرت بدفقة مفاجئة من البلل تحت ذراعيها، وتسارعت ضربات قلبها، ولم تكن واثقة ما إذا كان السبب ذراع «تريب» حول كتفيها، أم تعليقات «ليكسي»، أم كليهما. فوقهم، في الطابق العلوي، كانت «إيزي» تتمرن على عزف أحد أعمال المؤلف الموسيقي «لالو» على الكمان. على الشاشة، قفزت المرأتان من مقعديهما مرة ثانية وبدأت كل منهما في جذب شعر الأخرى.

لكن تعليق «ليكسي» اعتمل في صدرها. لم يكن ما قالته شيئًا لم تفكر فيه «بيرْل» بينها وبين نفسها على مر السنين، لكن سماعه منطوقًا بصوتٍ عالٍ من فم شخصٍ آخر جعلها تشعر أن الأمر أكثر إلحاحًا. لقد تساءلت حول هذه الأمور بين الحين والآخر، لكنها حين سألت وهي طفلة ردت والدتها بإجابات هزلية. قالت «مِيا» ذات مرة:

ـ أوه، لقد وجدتكِ في صندوق البضائع المخفضة في أحد منافذ بيع منظمة «جودويل».

وقالت في مرة أخرى:

ـ التقطتكِ من قطعة أرض مزروعة بالملفوف، ألم تعرفي ذلك؟

وحين بلغتْ سِنِي المراهقة، كفت عن السؤال. هذا المساء، ظل السؤال يتمخض في ذهنها، عادت إلى المنزل ووجدت والدتها في غرفة المعيشة تطلي صورة دراجة بسيطة الشكل. بدأت الحوار قائلة:

ـ أمي.

ثم وجدت أنها لن تستطيع تكرار كلمات «ليكسي» الفظة. بدلًا من ذلك سألت السؤال الذي يسري أسفل جميع الأسئلة الأخرى مثل نهر عميق تحت الأرض:

ـ هل كنتُ مرغوبة؟

بلمسة حريصة من الفرشاة وضعت «مِيا» إطارًا بلونٍ أزرق «بروسي» على عمود توجيه الدراجة، وسألت:

ـ مرغوبةً أين؟

ـ هنا، أعني، هل رغبتِ بي حين كنتُ طفلة رضيعة؟

لم تقل «مِيا» شيئًا لفترةٍ طويلة لدرجة أن «بيرْل» لم تكن متأكدة أنها قد سمعت. لكن بعد سكون استمر طويلًا، التقطت «مِيا»، فرشاة الرسم في يدها، ومما أثار دهشة «بيرْل»، كانت عينا والدتها دامعتين. هل بوسع والدتها أن تبكي؟ والدتها الهادئة ثابتة الجنان التي لا تُقهر، التي لم تُرَ باكية

قطُّ، ليس حين تعطلت السيارة «رابِتْ» على جانب الطريق وتوقف رجل في شاحنة صغيرة زرقاء متظاهرًا بالمساعدة، واستولى على حقيبة «مِيا» وقاد سيارته مبتعدًا، ليس حين أوقعت هيكل فراش ثقيلًا ـ مأخوذًا من على جانب الطريق ـ على إصبع قدمها الصغيرة، مما سحقها بشدة لدرجة أن الظفر تحول إلى لونٍ باذنجاني داكن ثم سقط. لكن كان هناك لمعان يغطي عيني والدتها، كما لو كانت تتطلع في مياه متموجة، وقالت:

ـ هل كنتِ مرغوبة؟ أوه، نعم. لقد كنتِ مرغوبة. كثيرًا جدًّا، جدًّا.

وضعت الفرشاة في الصينية وخطَتْ مسرعة إلى خارج الغرفة من دون أن تنظر إلى ابنتها مرة أخرى، تاركةً «بيرْل» لتتأمل الدراجة نصف المكتملة، والسؤال الذي سألته، وخليط الطلاء الذي كوَّن ببطء طبقة فوق شعيرات الفرشاة.

٥

بدأت «ليكسي» تُبدي نوعًا جديدًا من الاهتمام بصديقة أخيها الصغير كما لو أن حلقة «جيري سبرِنْجِر» نبَّهتْها إلى حضور «بيرْل»، «بيرْل» اليتيمة الصغيرة، كما قالت لـ«سيرينا وونج» في الهاتف ذات مساء. تعجبت «ليكسي» قائلة:

ـ إنها هادئة للغاية، كما لو أنها تخشى أن تتحدث. وحين تنظرين إليها، تتحول بشرتها إلى لونٍ أحمر لامع، أحمر، أحمر مثل حبة طماطم. طماطم حرفيًّا.

قالت «سيرينا»:

ـ إنها شديدة الخجل.

قابلت «سيرينا» «بيرْل» عدة مرات في منزل عائلة «ريتشاردسون»، لكنها لم تسمعها تنطق أي كلمة حتى الآن. وتابعت:

ـ من المحتمل أنها لا تعرف كيف تكوِّن صداقات فحسب.

قالت «ليكسي»:

ـ الأمر أكبر من ذلك. يبدو كما لو أنها تحاول ألا تكون مرئية، كما لو أنها تريد أن تختفي على مرأى من الجميع.

فتنتْ «بيرْل» «ليكسي» على الرغم من شدة خجلها وهدوئها وانعدام ثقتها في نفسها. ولأنها «ليكسي»، فقد بدأت بما هو ظاهر، قالت لـ«سيرينا»:

ـ إنها ظريفة، وتبدو خلَّابة في تلك التيشرتات الفضفاضة.

وهكذا، عادت «بيرْل» ذات مساء بحقيبة ممتلئة بالملابس الجديدة. ليست جديدة تمامًا كما اكتشفت «مِيا» حين قامت بغسلها: بنطال جينز مرقَّع يعود إلى حقبة السبعينيات مُحلَّى بشريط على الجانب، بلوزة قطنية منقوشة بالزهور قديمة كالبنطال، تيشيرت بلون القشدة يحمل وجه «نيل يانج» على صدره. شرحت «بيرْل» الأمر حين عادت «مِيا» إلى الأعلى من غرفة الغسيل:

ـ أنا و«ليكسي» ذهبنا إلى متجر التوفير، أرادت أن تذهب للتَّسوُّق.

في الحقيقة، أخذت «ليكسي» «بيرْل» في البداية إلى المجمع التجاري. شعرت أنه من الطبيعي أن ترجع إليها «بيرْل» طلبًا للنصيحة، اعتادت «ليكسي» أن يطلب الناس سماع رأيها، إلى درجة أنها تفترض أنهم يريدون ذلك، وإن لم يقولوا ذلك بالضبط. وكان واضحًا أن «بيرْل» فتاة صغيرة محبَّبة: هاتان العينان الداكنتان الواسعتان، اللتان تبدوان على نحوٍ ما أكثر اتساعًا وأغمق لونًا من دون أي مساحيق تجميل على الإطلاق، هذا الشعر الداكن الطويل المجعد، حين يصبح أملس من جديلته، كما أقنعت «ليكسي» «بيرْل» أن تصفِّفه ذات مساء، بدا الأمر كما لو أنها قد تلتهمها، الطريقة التي نظرت بها «بيرْل» إلى كل شيء في منزلهم ـ كل شيء، كل شيء بالفعل ـ كما لو أنها لم تره من قبل. حين زارتهم «بيرْل» للمرة الثانية، تركها «مودي» في الغرفة المشمسة وذهب لإحضار المشروبات، وبدلًا من أن تجلس، دارت في المكان دورةً بطيئة، كما لو أنها في أرض «أوز» الخيالية بدلًا من منزل عائلة «ريتشاردسون». توقفت «ليكسي» التي جاءت من الردهة تحمل آخر عدد من مجلة «كوزمو» وعلبة «دايت كولا» عند المدخل بعيدًا عن الأنظار وراقبت «بيرْل». ثم مدت «بيرْل» إحدى أصابعها بهيبةٍ لتتحسس فرعًا مرسومًا على ورق الحائط، وشعرت «ليكسي» بدفقة تأسٍّ دافئة من أجل «بيرْل»، الفأرة الصغيرة التعيسة. حينها قدِم «مودي» من المطبخ يحمل علبتين من مشروب «فيرنور» وقال:

ـ لم نعلم أنكِ هنا. كنا على وشك مشاهدة فيلم.
قالت «ليكسي»:
ـ لا مانع لديَّ.
ووجدت أنها لا تمانع، جلست على المقعد الكبير في الركن، وإحدى عينيها على «بيرْل» التي جلست أخيرًا وفتحت علبة مشروبها الغازي. وضع «مودي» شريطًا في جهاز الفيديو، وفتحت «ليكسي» مجلتها بحركةٍ حادة من أصابعها. خطر لها شيء ما، عمل صالح ربما تستطيع فعله. قالت:
ـ «بيرْل»، يمكنكِ أن تأخذي المجلة بعد أن أنتهي من تصفحها.
وشعرت بالتوهج الداخلي الغامض الناتج عن كرم فتاةٍ مراهقة.
وهكذا قررت في ذلك المساء في بدايات أكتوبر أن تأخذ «بيرْل» في رحلة تسوُّق. قالت:
ـ هيا يا «بيرْل»، سوف نذهب إلى المجمع التجاري.
حين قالت «ليكسي» **المجمع التجاري**، لم تفكر لحظة في «راندال بارك مول»، بعيدًا عن طريق «وارينزفيل» المزدحم، الذي كان فيما مضى مكانًا لبيع وتصليح إطارات السيارات، ومتجرًا للاستئجار بقصد التملُّك، ومركز رعاية نهارية للأطفال يعمل طوال الليل، «راندال دارك مول» كما يسميه بعض الأطفال. لأنها تعيش في «شايكِر»، فكرت فقط في المكان الذي تتسوق منه كل احتياجاتها: «باتشوود بلايس»، مركز تجاري صغير أنيق يقع بعيدًا عن الشارع في مساحته البيضاوية الصغيرة، المعتمِد على فروع متاجر التجزئة الكبرى مثل «ديلاردس» و«ساكس» ومتجر «نوردستورم» الجديد. لم يسبق لها أن سمعت مصطلح «بليتش-وايت بلايس» ولربما ارتعبت إذا سمعتْه. لكن على الرغم من ذهاب «بيرْل» إلى متاجر «جاب» و«إكسبرس» و«بادي شوب»، فإنها لم تشترِ إلا بعضًا من البسكوت المملح ومرطبًا للشفاه بنكهة الكيوي. سألتْ «ليكسي»:
ـ ألم يلفت نظركِ شيء يعجبك؟

بعد برهة سكوت قالت «بيرْل» التي لم يكن معها سوى سبعة عشر دولارًا، مع علمها أن مصروف «ليكسي» يبلغ عشرين دولارًا أسبوعيًّا:

ـ إنها دائمًا الأشياء نفسها، أتفهمين؟

ثم لوَّحت بيدها في اتجاه عام نحو مطعم الوجبات السريعة «تشيك-فيل-إيه» والمجمع التجاري الواقع خلفه:

ـ يحضر الجميع إلى المدرسة وهم يبدون كالنُّسخ المكررة.

هزَّت كتفيها في لامبالاة ونظرت إلى «ليكسي» من زاوية عينها، متسائلةً إذا بدت حُجَّتها مقنعة. وتابعت:

ـ أفضِّل التسوق من أماكن مختلفة قليلًا وحسب، حيث يمكنني الحصول على شيء لن يقتنيه أي شخص آخر.

سكتت «بيرْل» وهي ترمق حقيبة «جاب» ذات اللونين الأزرق والأبيض متدليةً من ذراع «ليكسي» بواسطة أربطتها، متسائلةً فجأة إذا كانت قد شعرت بالإساءة. لكن «ليكسي» نادرًا ما تشعر بالإساءة، ولا في أي وقت مضى. تقافزت التلميحات الماكرة والخبايا في تلافيف دماغها. أمالت رأسها إلى أحد الجانبين وسألت:

ـ أين مثلًا؟

وهكذا وجَّهت «بيرْل» «ليكسي» قريبًا من طريق «نورثفيلد» بعد مضمار السباق إلى متجر التوفير، حيث عاملات مطعم «تاكو بيل» القريب من الشارع يستعرضن البضائع بجانبهما حينما يكن في وقت استراحتهن أو يتجهَّزنَ للوردية الليلية. زارت «بيرْل» عشرات من متاجر التوفير في عشرات المدن طوال حياتها، وعلى نحوٍ ما تفوح من كل منها الرائحة نفسها ـ رائحة التراب والعرق ـ وكانت متأكدة دائمًا أن بوسع الأطفال الآخرين أن يشموا تلك الرائحة على ملابسها، حتى بعد غسلها مرتين، كما لو أن الرائحة تغلغلت في جلدها. لم يكن هذا المتجر، حيث فتَّشت هي ووالدتها في الصناديق عن ملاءات قديمة لاستخدامها كستائر، مختلفًا. لكنها بعد سماع صيحة

«ليكسي» المسرورة ترى المتجر بعينين مختلفتين: مكان يمكنك أن تجد فيه أثواب حفلات «كوكتيل» من الستينيات، تصلح لحفل جمع شمل الطلاب القدامى، زيَّ جراحين للتسكع أو للأيام الناعسة، تشكيلة واسعة منوَّعة من التيشيرتات المصممة للترويج لِفرقٍ موسيقية قديمة، وإذا كنتَ محظوظًا، أجراسًا، بناطيل أصلية تتسع بدءًا من الركبتين على شكل جرس، ليست تلك النسخ المستعادة التي تجدها في كاتالوج «دِليا» للملابس بل النسخة الأصلية، بشكلها المخروطي الواسع، ونسيج الـ«دنيم» القطنيِّ الرقيق عند الركبتين بسبب ارتدائها لعشرات السنوات.

تنهدت «ليكسي» قائلة:

ـ ملابس كلاسيكية.

وانقضَّت على حامل أرفف الملابس في تبجيل. وجدت «بيرْل» لنفسها كومة ملء ذراعيها من التيشيرتات الغريبة، تنورة مصنوعة من زوج قديم من بنطال جينز من طراز «ليفايز»، سترة بحرية ذات سحَّاب وقلنسوة بدلًا من البلوزات والتنورات الهِيبِيَّة التي تختارها «مِيا» لها. علَّمتْ «ليكسي» كيف تقرأ بطاقات السعر ـ أيام الثلاثاء أي شيء يحمل بطاقةً خضراء بنصف السعر، أيام الأربعاء تصبح البطاقة صفراء ـ وحين وجدت «ليكسي» جينزًا يناسبها، نزعت «بيرْل» بخبرة بطاقة السعر البرتقالية ووضعت مكانها بطاقة خضراء أخذتها من سترة فضفاضة قبيحة من الثمانينيات. وبإرشادات «بيرْل»، أصبح سعر جينز «ليكسي» ٤ دولارات، ومشتريات «بيرْل» ١٣,٧٥ دولار، وكانت «ليكسي» مسرورة لدرجة أنها توقفت في مطعم «ويندي» للخدمة في داخل السيارة وطلبت كوبين من حلوى «فروستي» المثلجة على حسابها لكل منهما. قالت «بيرْل» ردًّا على ذلك:

ـ هذا الجينز يناسبك كما لو أنه قد صُنع من أجلك. كان مقدَّرًا لكِ أن تحصلي عليه.

تركت «ليكسي» ملء ملعقة من الشوكولاتة تذوب على لسانها وقالت بعينين نصف مغلقتين كما لو أنها تستدعي من «بيرْل» مزيدًا من التركيز:
ـ هل تعلمين؟ هذه التنورة سوف تكون رائعة مع قميص مقلَّم ذي ياقة. لديَّ واحد قديم يمكنكِ الحصول عليه.

حين عادتا إلى منزلها، سحبت إلى الخارج نصف دزينة قمصان من الخزانة:
ـ أترَين؟

وأخذت تسوِّي الياقة حول عنق «بيرْل»، مغلقةً بعناية زرًّا واحدًا بين نهديها لمراعاة أقل قدرٍ من الحشمة، على الطريقة التي ترتدي بها الفتيات اللاتي على وشك التخرج هذه القمصان في ذلك العام. أدارت «بيرْل» باتجاه المرآة وأومأت باستحسان. قالت:
ـ يمكنكِ الحصول عليها. يبدو شكلها لطيفًا عليكِ. لديَّ كثير من الملابس بالفعل.

حزمتْ «بيرْل» القمصان في حقيبتها. إن لاحظت والدتها، قررت أن تخبرها أنها حصلت عليها من متجر التوفير مع كل الأشياء الأخرى. لم تكن متأكدة من السبب لكنها شعرت أن والدتها لن توافق بالتأكيد على أخذها ملابس «ليكسي» القديمة، حتى لو كانت «ليكسي» لا تريدها. حين وضعت «مِيا» الملابس للغسيل، لاحظت أن الملابس تفوح برائحة مسحوق «تايد» والعطر بدلًا من التراب، وأن الأنسجة بدت كما لو أنها قد سبق كيُّها. لكنها لم تقل شيئًا، وفي المساء التالي ظهرت جميع ملابس «بيرْل» الجديدة في كومة مرتبة عند نهاية فراشها، وتنفست «بيرْل» الصعداء.

بعد عدة أيام، لاحظت «بيرْل» أثناء وجودها في مطبخ عائلة «ريتشاردسون» مرتديةً أحد قمصان «ليكسي» أن «تريب» ينظر إليها مرةً بعد أخرى بزاوية عينه وسوَّت ياقتها بابتسامة صغيرة معتدَّة. لم يكن «تريب» نفسه مدركًا لماذا يرمقها، لكن لم يكن بوسعه ألا يلاحظ ما يبدو من بشرتها على شكل الساعة

الرملية الصغيرة التي يكشفها قميصها: المثلث العاري المؤطَّر بعظمتَي ترقوتَيها، المثلث العاري لجذعها مع الحافة الدقيقة لسرَّتها، الوميض المتقطع لحمالة الصدر ذات اللون الأزرق البحري أعلى وأسفل ذلك الزر الوحيد المغلق. قال:

ـ تبدين جميلةً اليوم.

كما لو أنه يلاحظها للمرة الأولى، وتحولت بشرة «بيرْل» إلى لونٍ ورديٍّ داكن حتى جذور شعرها. بدا محرَجًا أيضًا كما لو أنه أبدى إعجابًا ببرنامجٍ تلفزيونيٍّ غير مثير للإعجاب.

لم يستطع «مودي» ترك المسألة تمر. قال:

ـ إنها تبدو جميلةً دائمًا. اخرس يا «تريب».

كالعادة، لم يلحظ «تريب» غيظ أخيه فقال:

ـ أعني أكثر جمالًا. هذا القميص يناسبكِ. يظهر لون عينيكِ.

قالت «بيرْل» باندفاع:

ـ إنه ملك «ليكسي».

وابتسم «تريب» ابتسامة عريضة قائلًا بشيءٍ من الخجل:

ـ إنه يبدو أفضل عليكِ.

وتوجَّه إلى الخارج.

في اليوم التالي، أغار «مودي» على مدَّخراته وقدَّم لـ«بيرْل» دفتر «مولسكين» نحيلًا أسود يُغلق برباطٍ مطاطي. قال لها:

ـ استخدم «هيمنجواي» هذا النوع نفسه بالضبط.

شكرتْه «بيرْل» ووضعت الدفتر في حقيبة الكتب الخاصة بها. فكر أنها سوف تنسخ قصائدها فيه بدلًا من ذلك الدفتر الزنبركي القديم المهلهل، وارتاح قليلًا ـ حين ابتسمتْ لـ«تريب» وتورَّدتْ خجلًا لمجاملته ـ لأن يعلم أنه أعطاها الدفتر الذي سوف يحتوي كلماتها وأفكارها المفضَّلة.

في الأسبوع التالي، قررت السيدة «ريتشاردسون» أنها سوف تطلب

تنظيف السجاد بالبخار، وطُلِب من جميع الأطفال أن يبقوا خارج المنزل حتى موعد العشاء. قالت:

ـ إذا رأيتُ أي أثر لحذاء ثقيل ـ يا «إيزي» ـ أو أي علامة لحذاء الكرة ـ يا «تريب» ـ على هذه السجاجيد سوف تفقدان مصروفكما لمدة عام. مفهوم؟

كان لدى «تريب» مباراة كرة بعيدة، ولدى «إيزي» درس الكمان، ولكن تصادف أن «ليكسي» لم يكن لديها شيء لتفعله. كان لدى «سيرينا وونج» تمرين في البريَّة وجميع أصدقائها الآخرين مشغولون على نحوٍ ما. بعد الحصة العاشرة، تبعتْ «ليكسي» «بيرْل» حتى خزانتها. سألت وهي تضع قطعة علك في يد «بيرْل»:

ـ ما الذي تنوين فعله؟ لا شيء؟ إذن لنذهب إلى منزلكِ.

امتنعت «بيرْل» في السنوات السابقة عن دعوة أصدقائها إلى منزلها. دائمًا ما كانت الشقق التي عاشوا فيها مزدحمة ومحتوياتها مبعثرة، عادة في أجزاء خرِبة من البلدة، وكانت الاحتمالات واردةً بشدة في أي يوم من الأيام أن «مِيا» تعمل على أحد مشاريعها، التي تعني لعين شخصٍ غريب أنها تفعل شيئًا غريبًا وغير مفهوم. لكن ظهور «ليكسي» بجانبها، وطلبها أن تأتي إلى منزلها، وطلبها أن تقضي الوقت معها، جعلها تشعر أنها سندريلا تتطلع إلى يد الأمير الممدودة نحوها. قالت:

ـ بالطبع.

لفرحة «بيرْل» ـ وغيظ «مودي» الشديد ـ استقل ثلاثتهم سيارة «ليكسي» «الإكسبلورر» وتوجهوا قريبًا من «باركلاند درايف» نحو البيت على طريق «وينسلو»، تتفجر المحبة والتعاطف من النوافذ المفتوحة. حين توقفوا أمام المنزل، قاومت «مِيا»، التي كانت بالخارج تروي نباتات الـ«أزاليا»، الباعث المُلح المفاجئ والقاهر لترك الخرطوم والركض إلى داخل المنزل وإغلاق الباب خلفها. تمامًا كما لم تطلب «بيرْل» من الأصدقاء المجيء إلى المنزل،

لم تدعُ «مِيا» الغرباء أيضًا. قالت لنفسها **لا تكوني سخيفة. هذا ما أردتِه، أليس كذلك؟ أن يصبح لـ«بيرْل» أصدقاء.** بحلول الوقت الذي انفتحت فيه أبواب «الإكسبلورر» وخروج المراهقين الثلاثة، كانت قد أغلقت مصدر الماء وحيَّتْهم بابتسامة.

فيما تُعِدُّ «مِيا» كمية من الفشار ـ طبق «بيرْل» المفضل، والوجبة الخفيفة الوحيدة المتاحة في خزانة المطبخ ـ تساءلت ما إذا كانت المحادثة سوف تتقيَّد بسبب حضورها. ربما سيجلسون هناك في صمتٍ مُحرَج. ولن ترغب «ليكسي» أبدًا في المجيء مرة أخرى. لكن بحلول الوقت الذي بدأت فيه الحبوب الأولى تصدر صوت الفرقعة في مواجهة غطاء القِدْر، كان المراهقون الثلاثة قد ناقشوا بالفعل أمر سيارة «أنتوني بريكِر» الجديدة، سيارة «فولكس فاجن» قديمة من طراز الخنفساء مطليَّة باللون البنفسجي، وكيف جاءت «مِجْ كورمان» إلى المدرسة ثمِلة الأسبوع الماضي، وإلى أي مدى تبدو طلَّة «آنا لامونت» أفضل الآن بعد أن فردَت شعرها، وما إذا كان فريق «إنديانز» سوف يغيرون شعارهم. قالت «ليكسي»:

ـ إن «تشيف واهو» شعارٌ عنصريٌّ سافر.

فقط حين انتقل الحديث إلى طلبات الالتحاق بالجامعة توقفت المحادثة. سمعت «مِيا» وهي تحرِّك القِدْر كي لا يحترق الفشار تأوُّه «ليكسي» وصوتًا ربما نتج عن ارتطام جبهتها بالطاولة.

تزايدت هيمنة موضوع طلبات الالتحاق بالجامعة على ذهن «ليكسي». «شايكِر» تأخذ موضوع التعليم الجامعي على محمل الجد. امتازت المنطقة بتخرج تسعة وتسعين بالمائة من أبنائها، وعمليًّا التحق جميع الأطفال بجامعة من نوعٍ ما. تقدم كل شخصٍ تعرفه «ليكسي» بطلب التحاق في وقتٍ مبكر، ونتيجةً لذلك، كل ما يمكن للجميع الحديث بشأنه في القاعة الاجتماعية كان مَن قدَّم طلب التحاق وأين قدَّمه. قدَّمت «سيرينا وونج» طلب التحاق

إلى جامعة «هارفارد». قالت «ليكسي» إن «برايان» يتمنى أن يُقبل في جامعة «برينستون». قال:

ـ كما لو أن «كلِف» و«كلير» سوف يسمحان لي بالذهاب إلى أي مكان آخر.

كان والداه يدعوان «جون» و«ديبورا آفري»، لكن، والحق يُقال، ينضح والده الطبيب ووالدته المحامية بطاقةٍ معينة كتلك النابعة من شخصيات مسلسل «كوزبي»، والده رجل مجتهد وعذب المعاشرة ووالدته مؤهلةٌ ببراعة كما أنها شخصية مستقيمة. التقيا في جامعة «برينستون» قبل تخرُّجهما، ويمتلك «برايان» صورًا يظهر فيها رضيعًا يرتدي زيًّا من قطعة واحدة من متجر الجامعة.

بالنسبة لـ«ليكسي»، لم تكن تجربتا والديها في دخول الجامعة وما بعدها واضحتين تمامًا، نشأت والدتها في «شايكِر» ولم يسبق لها أن ذهبت بعيدًا، فقط إلى جامعة «دنيسون» كطالبةٍ جامعية قبل أن تعود أدراجها. جاء والدها من بلدة صغيرة في ولاية إنديانا، وبمجرد أن التقى والدتها في الجامعة، ظلَّ معها ببساطة، ليعود معها إلى مسقط رأسها، وينهي الدكتوراه في القانون في جامعة «كايس ويسترن»، ويشق طريقه من زميل مبتدئ إلى شريك في إحدى أكبر المؤسسات في المدينة. لكن «ليكسي»، مثل أغلب زملاء صفها، لم تكن لديها رغبة في البقاء في أي مكان قريب من مدينة كليفلاند. إنها جاثمةٌ على بحيرة قذرة ميتة، يغذيها نهر اشتُهر بالحرق، لقد بُنيتْ على نهرٍ يعني اسمه الحزن: «شاجرين»، الذي منح اسمه حينها لكل شيء، جيوب من العذاب مبعثرة في أرجاء المدينة، مدفونة مثل شرايين من الكرب: شلالات «شاجرين»، طريق «شاجرين»، «شاجرين» للحجوزات، «شاجرين» للعقارات، «شاجرين» لتصليح السيارات، «شاجرين» للتوالد والتكاثر، كما لو أن أعدادهم ستتناقص دائمًا. **الغلطة الواقعة على البحيرة**، كما كان الناس يسمونها

أحيانًا، وبالنسبة لـ«ليكسي»، كما هي الحال بالنسبة لأشقائها وأصدقائها، كانت كليفلاند شيئًا يستدعي الهرب منه.

وفيما اقترب الموعد النهائي لتقديم طلبات الالتحاق، قررت «ليكسي» أن تتقدَّم مبكرًا إلى جامعة «ييل». لديها برنامج قوي للدراما المسرحية، حصلت «ليكسي» على بطولة العرض المسرحي الموسيقيِّ في العام الماضي، على الرغم من أنها كانت فقط في السنة الثالثة. وعلى الرغم من الهيئة الطائشة التي تبدو عليها، كانت من الأوائل في دفعتها، رسميًّا، لا تصنِّف «شايكِر» طلبَتَها، لتخفيض حدة المشاعر التنافسية، لكنها كانت تعلم أنها بين العشرين الأوائل. كانت تدرس في أربعة صفوف متقدمة وتشغل موقع سكرتيرة في نادي اللغة الفرنسية. قال «مودي» مخاطبًا «بيرْل»:

ـ لا تدَعي السطحية تخدعكِ. هل تعلمين لماذا تشاهد التلفزيون طوال فترة بعد الظهر؟ لأنها تستطيع الانتهاء من واجباتها المنزلية في نصف ساعة قبل ذهابها للفراش، هكذا...

وطرقع أصابعه، ثم أكمل:

ـ تمتلك «ليكسي» عقلًا رائعًا. إنها فقط لا تستخدمه دائمًا في الحياة الحقيقية.

تبدو «ييل» شيئًا بعيد المنال لكن يمكن الوصول إليه من دون شك. كما قالت مستشارة التوجيه الخاصة بها. أضافت السيدة «ليبرمان»:

ـ بالإضافة إلى أنهم يعلمون أن الأطفال من «شايكِر» دائمًا يبلون بلاءً حسنًا. جميعهم يمنحونكِ ميزة الأفضلية.

كانت «ليكسي» و«برايان» معًا منذ السنة الثالثة، وأعجبتْها فكرة أن يكونا فقط على بُعد رحلةٍ بالقطار. قالت «ليكسي» فيما تطبع طلب الالتحاق المبكر بجامعة «ييل»:

ـ يمكننا أن نتزاور طوال الوقت. حتى إننا بوسعنا أن نلتقي في نيويورك.

وكانت هذه الأخيرة هي الفكرة التي تسلَّطتْ عليها في النهاية: نيويورك،

التي كان لها تأثير ساحر على مخيِّلتها منذ أن قرأت سلسلة كتب «إلويز» وهي طفلة. لم تكن تريد الذهاب لتدرس في نيويورك، طرح مستشار التوجيه الخاص بها فكرة جامعة «كولومبيا»، لكن «ليكسي» سمعت أن المنطقة سطحية. مع ذلك، أعجبتها فكرة أن تكون قادرة على القيام برحلة قصيرة للمتعة لمدة يوم ـ قضاء الصباح في متحف الـ«متروبوليتان» للاستمتاع بالفن، ربما التبذير للفت الأنظار في متجر «مايسي» للملابس النسائية أو حتى قضاء عطلة نهاية الأسبوع بعيدًا مع «برايان» ـ ثم الابتعاد عن الجموع والقذارة والضجيج.

على أي حال، قبل أن يمكن حدوث أي من هذا، يجب عليها أن تكتب مقالها. إن مقالًا جيدًا، كما شدَّدت السيدة «ليبرمان»، هي ما تحتاجه لتتميز عن زمرة المتقدمين.

تذمرت «ليكسي» ذلك المساء في مطبخ «بيرْل» وهي تخرج طلب الالتحاق المطبوع من حقيبتها:

ـ استمعوا إلى هذا السؤال الغبي: «أعِدْ كتابة قصةٍ مشهورة من منظورٍ مختلف. على سبيل المثال، أعِدْ حكي قصة «ساحر أوز» من وجهة نظر الساحرة الشريرة». هذا طلب التحاق للدراسة بالجامعة، ليس لدراسة الكتابة الإبداعية. أنا أدرس في صف متقدم للغة الإنجليزية. على الأقل اطلبوا مني أن أكتب مقالًا حقيقيًّا.

اقترح «مودي»:

ـ ماذا عن حكايةٍ خيالية.

رفع نظره عن دفتره وعن كتاب الجبر المفتوح أمامه وتابع:

ـ حكاية سندريلا من وجهة نظر بنات زوجة أبيها. ربما لم يكنَّ شريرات إلى هذه الدرجة في النهاية. ربما كانت بالفعل لئيمةً معهن.

اقترحت «بيرْل»:

ـ حكاية «ذات الرداء الأحمر» كما يرويها الذئب.

فكَّرت «ليكسي»:
ـ أو «رامبيل ستيلتسكين». أعني، لقد خدعتْه تلك الفتاة ابنة «ميللر». لقد أدى كل ذلك الغزْل من أجلها وقالت إنها سوف تمنحه طفلها ثم تراجعت عن اتفاقهما. ربما تكون هي الشريرة هنا.
نقرت «ليكسي» بظفر واحد مطليٍّ بلونٍ كستنائي غطاء علبة «دايت كولا» اشترتها بعد اليوم الدراسي مباشرة، ثم فتحت الغطاء قائلة:
ـ أعني لم يكن ينبغي عليها أن توافق على التخلي عن طفلها في المقام الأول، إذا لم تكن ترغب في ذلك.
قالت «مِيا» فجأة:
ـ حسنًا.
التفتت ووعاء الفشار في يديها، وقفز ثلاثتهم، كما لو أن قطعة من الأثاث قد بدأت في التحدث.
ـ ربما لم تعرف ما الذي تتخلى عنه إلا فيما بعد. ربما غيرت رأيها بمجرد أن رأت الطفل.
وضعت الوعاء في منتصف الطاولة وقالت:
ـ لا تتسرعي في الحكم يا «ليكسي».
بدتْ «ليكسي» مهذبةً للحظة ثم أدارت عينيها. ألقى «مودي» نظرة نحو «بيرْل» بمعنى أرأيتِ كم هي سطحية؟ لكن «بيرْل» لم تلاحظ. بعد أن عادت «مِيا» إلى غرفة المعيشة ـ محرَجةً بسبب اندفاعها ـ التفتت «بيرْل» إلى «ليكسي» قائلة بصوتٍ منخفض بما يكفي لدرجةٍ تظن معها أن «مِيا» لا تستطيع سماعها:
ـ بإمكاني أن أساعدكِ.
ثم قالت بعد لحظة لأن ذلك لم يبدُ كافيًا:
ـ أنا بارعةٌ فيما يتعلق بالقصص. حتى إنني يمكنني كتابتها من أجلك.
تهللت «ليكسي» قائلة:

ـ يا إلهي. سأكون مدينةً لك إلى الأبد يا «بيرْل».

وأحاطت «بيرْل» بذراعيها. عبر الطاولة، توقف «مودي» عن أداء واجبه المنزلي وأغلق كتاب الرياضيات بقوة، وفي غرفة المعيشة، ضغطت «مِيا» فرشاة الرسم في جرة ماء، بشفتين مزمومتين، تنظف الطلاء من شعيرات الفرشاة في دوامة مياه ترابية اللون.

٦

سلَّمتْ «بيرْل» إلى «ليكسي» في الأسبوع التالي، وفاءً بوعدها، مقالًا مكتوبًا عن قصة الأمير الضفدع من وجهة نظر الضفدع. لم تتفوَّه «مِيا»، التي لم ترغب في الاعتراف أنها كانت تسترق السمع، ولا «مودي»، الذي لم يرغب في أن يوسَم بالشخص الصالح الممل الذي لا يخرق القوانين أبدًا، بكلمةٍ عن الأمر. لكن تزايد إحساس كليهما بعدم الارتياح.

حين وصل «مودي» في الصباح كي يسيرا إلى المدرسة معًا، خرجتْ «بيرْل» من الغرفة مرتديةً أحد قمصان «ليكسي» ذات الياقة، أو صدارًا خفيفًا بحمَّالات رفيعة، أو مزينة شفتيها بطلاء داكن. وضَّحت الأمر لوالدتها ولـ«مودي»، اللذين حدَّقا بها في ارتياع:

ـ «ليكسي» أهدتني إياه. قالت إنه داكن جدًّا بالنسبة لها لكنه يبدو مناسبًا لي.

تحت لطخة طلاء الشفاه الداكن، بدت شفتاها مثل كدمة، غضَّة وساذجة.

قالت «مِيا» للمرة الأولى على الإطلاق:

ـ أزيلي هذا الطلاء.

لكن في الصباح التالي، ظهرت «بيرْل» مرتدية إحدى قلائد «ليكسي»، التي تبدو مثل الدانتيلا المشقَّقة السوداء حول عنقها. قالت:

ـ أراكِ على العشاء. سأذهب مع «ليكسي» للتسوق بعد المدرسة.

في أواخر أكتوبر، وفيما أُرسِلتْ طلبات الالتحاق بالجامعة واحدًا تلو

الآخر، سادت روح الاحتفال بين طلاب السنة النهائية. أرسل طلب التحاق «ليكسي»، وكانت في حالة مزاجية خيِّرة. كان مقالها جيدًا بفضل «بيرْل»، درجاتها في اختبار التقييم المدرسيِّ قوية، متوسط معدَّلها التراكمي أعلى من ٤,٠ بفضل دراستها في الصفوف المتقدمة، وتخيلت نفسها بالفعل في حرم جامعة «ييل». شعرت أنها يجب أن تكافئ «بيرْل» بطريقة ما على مساعدتها، وبعد شيء من التفكير، توصلت إلى الفكرة المثالية: شيء تأكدتْ أنه سوف يعجب «بيرْل»، لكن لن تُدعى إليه بمفردها. قالت لها:

ـ «ستايسي بيري» ستقيم حفلة في عطلة نهاية الأسبوع. هل تودين الحضور؟

تردَّدت «بيرْل». لقد سمعت عن حفلات «ستايسي بيري»، وفرصة الذهاب إلى إحداها كانت بعيدة المنال. قالت:

ـ لا أعرف إن كانت أمي ستسمح لي.

قال «تريب» وهو يميل فوق ذراع الأريكة:

ـ هيا يا «بيرْل». أنا سأذهب. سأحتاج لشخص يرقص معي.

بعد ذلك، لم تحتَج «بيرْل» إلى مزيد من الإقناع.

في مدرسة «شايكِر هايتْس» الثانوية، كانت حفلات «ستايسي بيري» نوعًا من الأساطير. يمتلك السيد والسيدة «بيري» منزلًا ضخمًا ويسافران في رحلاتٍ متكررة، وتستغل «ستايسي» الفرصة تمامًا. مع التحرُّر من التوتر المصاحب للتقديم المبكر لطلبات الالتحاق بالجامعة، وأسابيع باقية حتى الامتحانات النهائية، كان طلاب السنة الأخيرة مستعدين للمرح. أصبح حفل «الهالوين» الموضوع الأساسي للنقاش: من الذي سيحضر ومن الذي لن يحضر؟

بالطبع، لم يُدعَ «مودي» و«إيزي»، عرفا «ستايسي بيري» فقط عن طريق السمعة، وكانت أغلب قائمة المدعوين من طلاب السنة النهائية. ما زالت «بيرْل»، على الرغم من تدخُّل «ليكسي»، لا تعرف أي أحد ما عدا عائلة

«ريتشاردسون»، وكان «مودي» على الأغلب الشخص الوحيد الذي تتحدث معه أثناء اليوم الدراسي. مع ذلك، دعت «ستايسي» بنفسها «ليكسي» و«سيرينا وونج»، وهكذا صار من حقهما أن يصطحبا ضيفًا، حتى لو كان طالبًا في السنة الثانية لم يعرفه أحد من قبل.

تذمَّر «مودي»:

- اعتقدتُ أننا سوف نستأجر فيلم «كاري»، قلتِ إنكِ لم تشاهديه من قبل.

وعدتْ «بيرْل»:

- في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. هذا «الهالوين» بالفعل على أي حال. إلا إذا كنت تريد أن تطوف على المنازل لطلب الحلوى، «ترِك - أُورْ - تريتِنْج».

قال «مودي»:

- نحن كبار جدًّا على هذا.

وضعتْ «شايكِر هايتْس»، كما فعلت مع كل شيء، قواعد منظَّمة للـ«ترِك - أُورْ - تريتِنْج»: تدوِّي صافرات الإنذار في السادسة والثامنة لتميِّز زمنَي البداية والنهاية، وعلى الرغم من عدم وجود قيود على السِّن، مال الناس إلى النظر بارتياب إلى المراهقين الذين يظهرون على أبواب المنازل. المرة الأخيرة التي خرج فيها للـ«ترِك - أُورْ - تريتِنْج» كان في الحادية عشرة من عمره، وكان يرتدي زيَّ حلوى «إم آند إم».

على أي حال، كان الزيُّ بالنسبة لحفل «ستايسي» أمرًا إلزاميًّا يخضع للموضة. لن يحضر «برايان» الحفل - كان قد تأخر في إنهاء طلب الالتحاق المبكر بجامعة «برينستون» وسوف يتزاحم في ذعر مع حفنة من المماطلين الآخرين للانتهاء من إرسال الطلب بحلول الموعد النهائي للتقديم - لذلك فلم يكن عاملًا مؤثرًا في حسابات الزيِّ. صاحت «ليكسي» في فورةٍ من الوحي:

- لنتنكر في أزياء شخصيات «تشارليز آنجِلز».

وهكذا ارتدت هي و«بيرْل» و«سيرينا» بناطيل واسعة من أسفل على شكل جرس وقمصانًا من البوليستر ونفشْنَ شعورهنَّ إلى أعلى بأقصى ما يستطعن. بتسريحات شعر متضخمة تمامًا، تموضعْنَ ظهرًا لظهر، بسبابات مفرودة كأنها مسدسات، وأحطْن أنفسهن في المرآة بضباب من البخَّاخ المثبت للشعر.

قالت «ليكسي»:

ـ ممتاز. شقراء، وسمراء، وسوداء.

وجَّهتْ سبابتها نحو أنف «بيرْل»:

ـ أجاهزةٌ لهذا الحفل يا «بيرْل»؟

الإجابة، بالطبع، كانت لا. كانت أكثر ليلة سريالية اختبرتها «بيرْل» على الإطلاق. طوال المساء، توقفت فجأة سياراتٌ يقودها متزلجون وحيوانات ومتنكرون في شخصية «فريدي كروجر» لتصطفَّ على حواف مرجة «ستايسي» الضخمة. وضع أربعة أولاد على الأقل أقنعة فيلم «الصرخة»، اتَّشح اثنان بفانلات وخوذات كرة القدم، ارتدى قليل من المبدعين ستراتٍ طويلة وقبعاتٍ صغيرة ونظاراتٍ شمسية وأشرطة طويلة من الريش حول الرقبة. (وضَّحتْ «ليكسي»: قوَّادون). ارتدت أغلب الفتيات فساتين شديدة الضيق وشديدة القِصَر وقبعات أو آذان حيوانات، مع ذلك حوَّلت إحداهن نفسها إلى الأميرة «لِيا»، ارتدت أخرى مثل روبوت «فيمبوت» معلقةً في ذراعي «أوستن باورز». ارتدتْ «ستايسي» نفسها زيَّ ملاك؛ فستانًا فضيًّا شديد القِصر بحمالات رفيعة، وأجنحة براقة، ونسيجًا على شكل شبكة صيد، وهالةً على عصابةٍ للرأس.

بحلول وقت وصول «ليكسي» و«سيرينا» و«بيرْل» في التاسعة والنصف، كان الجميع ثملين بالفعل. كان الهواء كثيفًا برائحة العرق ورائحة البيرة اللاذعة الحادة، وثنائيات تنغمس في ممارسات جنسية في أركانٍ مظلمة. كانت أرضية المطبخ زلِقةً بفعل المشروبات المنسكبة، وكانت فتاةٌ ما

مستلقيةً على ظهرها على الطاولة بين زجاجات المشروبات الكحولية، تدخِّن سيجارة حشيش وتقهقه بينما لعق فتى «الرُّم» من سرَّتها. صبَّت «ليكسي» و«سيرينا» المشروبات لنفسيهما وتلوَّتا لتشقَّا طريقهما إلى أرض الرقص المجهزة مؤقتًا في غرفة المعيشة. وقفت «بيرْل»، التي تُرِكتْ وحدها، في ركن المطبخ، تحتضن كوب «سولو» أحمر اللون يحتوي فودكا «ستولي» وكولا وتبحث عن «تريب».

بعد نصف ساعة، لمحته في الخارج على الفناء المرصوف، مرتديًا زيَّ شيطان؛ سترة حمراء من متجر التوفير وزوجًا من قرون الشيطان. صرختْ في أذن «سيرينا» حين جاءت لإعادة ملء مشروبها:

ـ لم أكن أعتقد أنه حتى قد عرف «ستايسي».

هزَّت «سيرينا» كتفيها قائلة:

ـ قالت «ستايسي» إنها رأتْه وقد خلع قميصه بعد تمرين كرة القدم في أحد الأيام واعتقدتْ أنه **لا بأس** به. قالت ـ أقتبسُ كلماتها ـ إنه كان شديد الروعة.

تناولتْ جرعة كبيرة وقهقهتْ. لاحظت «بيرْل» أن وجه «سيرينا» يتوهج. تابعت:

ـ لا تخبري «ليكسي»، اتفقنا؟ لسوف تتقيأ.

توجهتْ عائدة نحو غرفة المعيشة، متهاديةً بخفة على كعبيها الرفيعين كوتدَين، وعبر الباب الزجاجي المنزلق شاهدت «بيرْل» «تريب» وهو ينكز فتاةً صهباء بين لوحي كتفيها بمِذْراته البلاستيكية. نفشتْ شعرها ووضعتْ خطة. بعد برهة قصيرة سيصبح كوب «تريب» فارغًا. سيأتي إلى الداخل وسيراها. سيقول **كيف الحال يا** «بيرْل»؟ وحينها ستقول له شيئًا لبِقًا. ستحاول أن تفكر في شيءٍ ما. ماذا كانت «ليكسي» لتقول لفتًى يعجبها؟

لكن فيما أرهقتْ ذهنها من أجل شيء مثير وظريف، لاحظت أن «تريب» قد اختفى من الفناء المرصوف. هل دخل إلى المنزل، أم غادر بالفعل؟

تلوَّتْ لتشقَّ طريقها إلى غرفة المعيشة، ممسكةً بالكوب عاليًا، لكن كان من المستحيل أن ترى أي أحد. تدفقتْ أصوات «باف دادي» و«مايز» من جهاز الاستريو، الصوت الجهير يضرب عاليًا لدرجة أن بوسعها الشعور به في حلقها، ثم تلاشى ليفسح مجالًا لـ«نوتوريوس بي آي جي». أتى الضوء الوحيد من شموعٍ قليلة، وكل ما نجحت في رؤيته كان صورًا ظلِّية تتلوى وتنسحق بطرقٍ خليعة بلا ريب. شقت طريقًا دوديًّا خارجةً إلى الفناء الخلفي حيث حزمة من الفتيان يفرقعون علب البيرة ويتجادلون حول فرص فريق كرة القدم في التصفيات. قال أحدهم:

ـ إذا هزمنا فريق «إجناتيوس»، وهزم فريقُ «يو إس» فريقَ «مِنتور»...

في تلك الأثناء، كانت «ليكسي» تقضي ليلةً مصيرية. أحبَّت الرقص، ذهبتْ مع «سيرينا» وأصدقائهما إلى وسط المدينة في أي وقتٍ خصَّصتْ فيه الأندية الليلية ليلة للمراهقين ـ أو في أي وقت ظنَّتا أن بطاقتَي هويَّتيهما المزيفتين، اللتين تعرِّفانهما كطالباتٍ جامعيات في السنة الثالثة، سوف تسمح لهما بتجاوز الحارس. ذات مرة غرقتا في هذيانٍ في مستودعٍ غير مستعملٍ في مناطق «الشقق السكنية» ورقصتا حتى الثالثة صباحًا، القلائد اللامعة تصدر رنينًا حول معصميهما وجيدَيهما. غالبًا ما رقصتا معًا، بارتياح فتاتين عرفتا بعضهما لأكثر من نصف عمريهما، جنبًا لجنب أو حوضًا لحوض، تستدير «ليكسي» لتختلج مؤخرتها مقابل «سيرينا». الليلة كانتا ترقصان معًا حين شعرت «ليكسي» بشخصٍ ما ينضغط عليها من الخلف. كان «برايان»، ومنحتْها «سيرينا» ابتسامةً متصنَّعةً عليمة قبل أن تستدير بعيدًا.

احتجَّت «ليكسي» وهي تضربه على كتفه:

ـ أنت حتى لا ترتدي زيًّا.

أصرَّ «برايان»:

ـ أنا أرتدي زيًّا، أنا رجلٌ أرسل للتَّو طلب التحاقه بجامعة «برينستون».

طوَّق خصرها بذراعيه ووضع فمه على عنقها.

بعد نصف ساعة، غمرهما الرقصُ والمشروباتُ الكحولية والعرقُ وتهافتُ الثامنة عشرة المُسكر بتوهجٍ محموم. خلال الوقت الذي تواعدا فيه، مارسا عدة أمور، كما صاغتها «ليكّسي» باحتشامٍ لـ«سيرينا»، لكن **الشيء**، **الشيء** الكبير، ظل بينهما لفترة، مثل حوض عميق من الماء لم يغمسا فيه إلا أصابع أقدامهما. الآن، كونها منضغطةً في مواجهة «برايان»، ثملةً بعض الشيء بسبب «الرُّم» و«الكولا»، وتدفُّق الموسيقى عبر جسديهما كنبضات قلبٍ مشتركة، غمرها توقٌ مفاجئ للانغماس في هذا الحوض والغوص مباشرةً نحو القاع. راودت «ليكسي» رؤى حول مرَّتها الأولى حين كانت أصغر سنًّا وأقل خبرة، خطَّطتْ للأمر: شموع، زهور، أغنيات لـ«بويز تو مِن». على الأقل، غرفة نوم وفراش. ليس المقعد الخلفي لسيارة، مثلما فعلت بعض صديقاتها، بالتأكيد ليست بئر السلَّم في المدرسة الثانوية، كما تقول الشائعة إن «كِندرا سولومون» فعلت. لكنها شعرت الآن أنها لم تعد تكترث لهذا الأمر بعد الآن. سألت:

ـ هل تودُّ الذهابَ في جولة بالسيارة؟

عرف كلاهما ما كانت ترمي إليه.

من دون حديث، هرعا إلى الرصيف، حيث تنتظر سيارة «ليكسي».

بحلول الوقت الذي غادرت فيه «ليكسي» و«برايان»، كانت «بيرْل» قد عادت إلى مكانها في ركن المطبخ، منتظرة أن يعاود «تريب» الظهور. لكنه لم يفعل، ليس بحلول العاشرة والنصف، ليس بحلول الحادية عشرة. مع كل ساعةٍ مرت، ومع كل زجاجةٍ فرغت، صارت الأمور أشد صخبًا وأكثر تحررًا. بعد منتصف الليل تمامًا، تقيأت «ستايسي بيري» في دورقٍ من طراز «بريتا» وهي تحاول صب كأس من الماء، وقررت «بيرْل» أنه وقت العودة إلى المنزل. لكن لم يكن هناك أي أثرٍ لـ«ليكسي»، حتى حين ناضلت لشق طريقها خلال حشد الأجساد المتذبذبة في غرفة المعيشة. باختلاس النظر إلى الخارج، لم تستطع التأكد مما إذا كانت

سيارة «الإكسبلورر» الخاصة بـ«ليكسي» ما زالت مصطفَّة في صف السيارات غير المستوي.

سألت أي شخص يبدو غير ثمل عن بُعد:

ـ هل رأيت «ليكسي» أو «سيرينا»؟

أغلب الناس حدَّقوا بها كما لو كانوا يحاولون تحديد مكانها. قالوا:

ـ «ليكسي»؟ أوه، «ليكسي ريتشاردسون»؟ هل أتيتِ معها؟

أخيرًا قالت فتاةٌ تجلس منفرجةً في حضن لاعب كرة في كرسي كبير ذي ذراعين:

ـ أعتقد أنها غادرت مع حبيبها. أليس كذلك يا «كيف»؟

للإجابة وضع «كيف» يديه المكتنزتين على وجهها وسحب فمها تجاه فمه، واستدارت «بيرْل» مبتعدة.

لم تكن متأكدةً تمامًا من مكانها، وطمست الفودكا خريطة «شايكِر» الباهتة في عقلها بالفعل. هل بوسعها السير إلى المنزل من هنا؟ ما الشارع الذي عاشت فيه «ستايسي»؟ لدقيقة سمحت «بيرْل» لنفسها بالتخيل. ربما سيأتي «تريب» عبر الباب الزجاجي المنزلق، تتبعه نسمة منعشة من الهواء البارد إلى داخل المطبخ. لربما قال **هل تحتاجين إلى توصيلة إلى المنزل؟**

لكن هذا لم يحدث بالطبع، وأخيرًا، اختلست «بيرْل» الهاتف اللاسلكي من منضدة المطبخ، خفضت رأسها بجوار الجراج، حيث كان الجو أهدأ، واتصلت بـ«مودي».

بعد عشرين دقيقة توقفت سيارة أمام منزل «ستايسي». انفتحت نافذة الراكب بجوار السائق، ومن موقعها على درجات السلَّم الأمامية، رأت «بيرْل» وجه «مودي» المتجهِّم. لم يقل سوى:

ـ اركبي.

كان ما بداخل السيارة بأكمله زُبدي الملمس، ناعمًا كالجلد تحت فخذيها.

سألتْ بغباء، فيما يبتعدان عن الرصيف:

ـ سيارة مَن هذه؟

قال «مودي»:

ـ سيارة أمي، وقبل أن تسألي، إنها نائمة، لذا دعينا لا نضيع الوقت هنا.

ـ لكنك لا تملك رخصة قيادة بعد.

ـ هناك فرق بين أن يُسمح لي بفعل أمر ما وأن أعرف كيف أفعله.

اندفع «مودي» بالسيارة حول المنعطف واستدار على «شايكِر بوليفارد». قال:

ـ إذن إلى أي مدى أنتِ ثملة؟

ـ تناولتُ مشروبًا واحدًا. لستُ ثملة.

لم تكن «بيرْل» متأكدة مع أنها قالت ذلك، كان هناك كثير من الفودكا في ذلك الكوب. دار رأسها وأغلقت عينيها. قالت:

ـ لم أعرف كيف أعود إلى المنزل فحسب.

ـ سيارة «تريب» ما زالت هناك. مررنا بها في طريقنا إلى الخارج. لماذا لم تطلبي منه أن يوصلك؟

ـ لم أتمكن من العثور عليه. لم أتمكن من العثور على أي أحد.

ـ ربما كان في الطابق العلوي مع فتاةٍ ما.

قادا في صمت لبرهة. اضطربت تلك الكلمات في ذهن «بيرْل» بعنف: **في الطابق العلوي مع فتاةٍ ما**. حاولتِ تصوُّر الأمر، ما الذي حدث في تلك الغرف المظلمة، تخيلت جسد «تريب» مقابل جسدها، وزحفت فورةٌ حارَّة فوقها. وفقًا للساعة في لوحةِ العدادات، كان الوقت يقترب من الواحدة. قال «مودي»:

ـ أنتِ ترَين الآن حقيقتهم.

فيما يقتربان من المربع السكني حيث تعيش «مِيا» و«بيرْل»، أطفأ أنوار السيارة وتوقف بجوار الرصيف. قال:

ـ والدتك سوف تستشيط غضبًا.

ـ أخبرتها أنني سأخرج مع «ليكسي» وقالت إنني يمكن أن أظل خارجًا حتى الثانية عشرة. تأخرتُ قليلًا فقط.

نظرت «بيرْل» إلى أعلى إلى نافذة المطبخ المضيئة. قالت:

ـ هل تفوح مني رائحة كريهة؟

انحنى «مودي» مقتربًا منها:

ـ رائحتك تشبه قليلًا رائحة السجائر. لكن لا تشبه رائحة الخمر. هاكِ.

سحب علبة علكة «ترايدنت» من جيبه.

سيستمر حفل «الهالوين»، حسب كل الروايات، حتى الثالثة والربع صباحًا، وسينتهي بعدد من الأطفال فاقدي الوعي على السجادة الشرقية في غرفة المعيشة بمنزل عائلة «بيري». ستتسلل «ليكسي» خلسة إلى المنزل في الثانية والنصف، «تريب» في الثالثة، وفي اليوم التالي سيظلان نائمين إلى ما بعد الظهر. فيما بعد ستعتذر «ليكسي» لـ«بيرْل» في اعترافٍ هامس: إنها كانت تفكر مع «برايان» في الأمر لفترة وبدا أن الليلة هي الليلة المنشودة، إنها لم تكن متأكدة، فقط أرادت أن تخبر شخصًا ما، إنها حتى لم تخبر «سيرينا» بعد، هل بدتْ «ليكسي» مختلفةً على أي نحو؟ لسوف تبدو مختلفة بالنسبة لـ«بيرْل»؛ أكثر نحافة، أكثر حدة، شعرها مسحوبٌ إلى الخلف على شكل ذيل حصان متهدِّل، لا تزال آثار الماسكارا والنِّثار اللامع مخططة في زوايا عينيها، سيكون بإمكان «بيرْل» أن ترى في التغضُّن المرهق بين حاجبي «ليكسي» مباشرة كيف ستبدو بعد عشرين عامًا من الآن: شيئًا يشبه والدتها. من الآن فصاعدًا، سيبدو لـ«بيرْل» أن كل شيء فعلته «ليكسي» كان مشوبًا بالجنس، نوعًا من المعرفة الموحية في ضحكتها ونظراتها الجانبية، وفي الطريقة العابرة التي لمست بها الجميع، على الكتف، على اليد، على الركبة. جعلك الجنس أقلَّ تزمُّتًا، كما ستفكر «بيرْل»، جعلك مستنيرةً، سوف تقول «ليكسي» أخيرًا وهي تعتصر ذراع «بيرْل»:

ـ وكيف حالكِ؟ هل وجدتِ طريقكِ إلى المنزل من دون متاعب؟ هل استمتعتِ؟

و«بيرْل»، بحذر الشخص المنضم حديثًا، سوف تومئ ببساطة.

في الوقتِ الحالي، أزالت «بيرْل» غلاف العلكة ووضعتها بين شفتيها وشعرت بالنعناع يزهر على لسانها. قالت:

ـ شكرًا.

* * *

على الرغم من إصرار «بيرْل» على أن والدتها لن تعارض، عارضت «مِيا» تأخير «بيرْل» كثيرًا. حين وصلت «بيرْل» أخيرًا إلى الطابق العلوي ـ تفوح منها رائحة السجائر والكحول وشيء ما كانت «مِيا» متأكدة من كونه حشيشًا ـ لم تعرف «مِيا» ماذا تقول. في النهاية تمكنت من قول:

ـ اذهبي إلى الفراش.

جاء الصباح، نامت «بيرْل» لوقتٍ متأخر، وحتى حين أطلَّتْ قرب الظهر، شعثاء وبعينين رمليَّتين، ظلت «مِيا» لا تعرف ماذا تقول. ذكَّرتْ نفسها، أردتِ أن تحصل «بيرْل» على حياةٍ أكثر طبيعيةً، حسنًا، هذا ما يفعله المراهقون. شعر جزءٌ منها أنها يجب أن تتدخَّل أكثر ـ أنها تحتاج لمعرفة ما الذي تنوي «بيرْل» فعله، ما الذي ينوي جميعهم فعله ـ لكن ما الذي كان عليها فعله؟ أن ترافقهم من دون دعوة إلى حفلاتهم ومباريات الهوكي؟ أن تمنع «بيرْل» من الخروج على الإطلاق؟ انتهى بها الأمر إلى عدم قول أي شيء، وتناولتْ «بيرْل» زُبديةً من حبوب الإفطار في صمت وعادت إلى الفراش.

على أي حال، قدمتْ فرصةٌ نفسها بعد وقتٍ قصير. الثلاثاء التالي لحفل «الهالوين»، عرجت السيدة «ريتشاردسون» على المنزل ذي الطابقين على طريق «وينسلو». قالت:

ـ لأرى إن كنتما تحتاجان لأي شيء الآن، بما أنكما استقررتما تمامًا.

لكن «مِيا» رأت نظرة السيدة «ريتشاردسون» تجول حول المطبخ وفي داخل غرفة المعيشة. كانت «مِيا» معتادة على هذه الزيارات، على الرغم ممَّا تحدده عقود الإيجار من حقوق دخول المالك المحدودة، وتراجعت إلى الخلف لتسمح للسيدة «ريتشاردسون» بالحصول على رؤيةٍ أفضل. بعد ما يقرب من أربعة شهور، كان هناك قدرٌ قليلٌ من الأثاث. في المطبخ، كرسيان غير متماثلين، طاولةٌ تُفردُ وتُطوى من الجانبين ينقصها أحد المصراعين، جميعها مأخوذة من جانب الطريق، في غرفة «بيرْل»، الفراش المزدوج ومنضدة زينة ذات ثلاثة أدراج، في غرفة «مِيا» ما زالت هناك مرتبةٌ على الأرض وأكداسٌ من الملابس في خزانة. صفٌّ من المساند على أرضية غرفة المعيشة، مكسوَّة بمفرشٍ مائدة براق مزين بالزهور. لكن مشمَّع أرضية المطبخ كان مغسولًا والموقد والثلاجة كانا نظيفين، السجادة خاليةٌ من البقع، فراش «مِيا» المكوَّن من المرتبة مُرتبٌ بملاءات مقلَّمة رقيقة. على الرغم من الافتقار للأثاث، لم تُعطِ الشقة شعورًا بأنها خالية. سألت «مِيا» حين انتقلتا إليها:

ـ هل يمكننا طلاؤها؟

ترددت السيدة «ريتشاردسون» قبل أن تقول:

ـ ما دام اللون ليس شديد القتامة.

كانت تعني، في ذلك الوقت، لا أسود، لا أزرق داكن، لا أحمر داكن، على الرغم من أنها في اليوم التالي خطر لها أن «مِيا» ربما كانت تقصد صورةً جدارية ـ بما أنها فنانة، في النهاية ـ وربما حصلت في النهاية على ما يشبه أحد أعمال «دييجو ريفيرا»، أو ربما حصلت على أحد أعمال «الجرافيتي» المجيدة. لكن لم تكن هناك صورٌ جدارية. طُليتْ كل غرفةٍ بلونٍ مختلف ـ المطبخ بلونٍ أصفر كالشمس، غرفة المعيشة بلونٍ أخضر داكن كلون الكانتلوب، غرف النوم بلون الخوخ الدافئ ـ وكان التأثير الكلي كأنك تخطو إلى داخل صندوق من ضوء الشمس، حتى في يومٍ غائم.

صورٌ فوتوجرافية معلَّقة في جميع أرجاء الشقة، غير مؤطَّرة ومثبَّتة بصمغ الملصقات، لكنها مدهشةٌ على الرغم من ذلك.

كانت هناك دراساتٌ للظل على جدارٍ باهتٍ من القرميد، صورٌ فوتوجرافية لريشٍ متكتلٍ على حافة شاطئ بحيرة «شايكِر»، تجارب أجرَتْها «مِيا» بطباعة صورٍ فوتوجرافية على أسطح مختلفة: رقوق جلدية تُستخدم للكتابة، ورق ألومنيوم، جرائد. على سلاسل ممتدة عبر جدارٍ بأكمله، صور التُقطت أسبوعًا بأسبوع لموقع بناءٍ قريب. في البداية، لم يكن هناك شيء سوى تل بُني أمام براحٍ بُني. ببطء، لقطةً بعد لقطة، تحولت الرَّابية إلى اللون الأخضر بفعل الحشائش، صارت مُغطَّاة بعشبٍ كثيف وشجرٍ خفيض، وفي النهاية، تسلَّقتْ شجرةٌ خفيضةٌ إلى أعلى الرَّابية. خلفها، نشأ ببطء منزلٌ ضاربٌ إلى الصُّفرة مكوَّنٌ من ثلاثة طوابق، مثل وحشٍ ضخم يتسلق خارجًا من الأرض. أخذت الرافعات الأمامية والشاحنات تنتقل سريعًا داخل المشهد وخارجه مثل أشباحٍ التُقطت بغتة. في الصورة الفوتوجرافية الأخيرة، رفعتْ جرافةٌ التراب لتسوية الأرض، ممهدةً المشهد مثل فقاعةٍ منفجرة.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ يا إلهي، هل كل هذه الأعمال لكِ؟

ـ أحيانًا أحب أن أراها معلقةً على الجدار لفترة، قبل أن أعرف إذا كنتُ قد حققتُ شيئًا ما. قبل أن أعرف أيًّا منها يعجبني.

جالت «مِيا» ببصرها في الصور الفوتوجرافية، كما لو أنهم أصدقاء قدامى وكما لو أنها تذكِّر نفسها بوجوههم.

تفرَّست السيدة «ريتشاردسون» عن قُرب في صورة لفتاةٍ شابة عابسة ترتدي زيَّ راعية بقر. التقطتها «مِيا» في مهرجان مرَّتا به في طريقهما إلى ولاية أوهايو. قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ لديكِ موهبةٌ رائعة للتصوير. انظري إلى الطريقة التي التقطتِ بها صورة هذه الفتاة. يمكنك النفاذ لرؤية ما بداخل روحها.

لم تقُل «مِيا» شيئًا لكنها أومأت على نحوٍ قررت السيدة «ريتشاردسون» أنه تواضع.

اقترحت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ ينبغي عليكِ التفكير في التقاط الصور الشخصية بطريقة احترافية.

سكتتْ برهة. ثم تابعت:

ـ لا يعني هذا أنكِ لستِ محترفةً بالفعل، بالطبع. لكن في استوديو، ربما. أو في حفلات الزفاف والخطوبة. سوف تكونين مطلوبةً إلى درجةٍ كبيرة بعد ذلك.

لوَّحت بإحدى يديها إلى الصور الفوتوجرافية على الجدار، كما لو أن بإمكانها أن تنطق بما قصدتْه السيدة «ريتشاردسون». قالت:

ـ ربما يمكنكِ التقاط صور شخصية لعائلتنا. سوف أدفع لكِ بالطبع.

قالت «مِيا»:

ـ ربما. لكن الأمر الذي يتعلق بالصور الشخصية، أنكِ يجب أن تُظهري الناس على النحو الذي يرغبون أن يُشاهدوا به. وأنا أفضِّل أن أُظهر الناس على النحو الذي أراهم به. لذلك ربما سأُحبطُ كلينا في النهاية.

ابتسمتْ بهدوء، وارتبكت السيدة «ريتشاردسون» كَرَدٍّ على ما قالتْه «مِيا».

سألت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ هل أي من أعمالك معروضٌ للبيع؟

ـ لديَّ صديقةٌ تمتلك صالة لعرض الفنون في نيويورك، وقد باعت بعض مطبوعاتي.

مرَّرتْ «مِيا» إحدى أصابعها فوق إحدى الصور الفوتوجرافية، متابعةً انحناء جسرٍ صدئ.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ حسنًا، أودُّ أن أشتري إحداها. في الحقيقة، أنا أصر. إذا لم ندعم فنَّانينا، كيف سيتأتى لهم إبداع أعمالٍ عظيمة؟

ـ هذا كرمٌ عظيمٌ منكِ.

انزلقت عينا «مِيا» باتجاه النافذة لفترةٍ وجيزة، وشعرت السيدة «ريتشاردسون» بوخزة من الانزعاج لهذا الرد الفاتر على إحسانها. سألتْ:

ـ هل تبيعين ما يكفي لتدبير أمورك؟

فسَّرتْ «مِيا» ذلك ـ مصيبة ـ كسؤالٍ عن الإيجار وقدرتها على دفعه. قالت:

ـ نحن نتدبر أمورنا دائمًا، بطريقةٍ أو بأخرى.

ـ لكن بالتأكيد هناك أوقات لا تُباع فيها الصور الفوتوجرافية. ليس عن خطأ منكِ بالطبع. وبكم تُباع الصورة الفوتوجرافية عمليًّا؟

قالت «مِيا» مرةً أخرى:

ـ نحن نتدبر أمورنا دائمًا. أقبل بوظائف جانبية حين أحتاج إلى ذلك. تنظيف المنازل، أو الطهي. أشياء من هذا القبيل. أعمل الآن بدوامٍ جزئي في «لاكي بالاس»، ذلك المطعم الصيني على طريق «وارنسفيل». لم يكن عليَّ قطُّ دين لم أسدِّدْه.

اعترضت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أوه، بالطبع، أنا لم ألمِّح إلى ذلك.

حوَّلت انتباهها إلى المطبوعة الأكبر، التي أُلصِقت وحيدة فوق رفِّ الموقد. كانت صورة فوتوجرافية لامرأة، موليةً ظهرها للكاميرا، في منتصف رقصةٍ ما. التقطها الفيلم في حركةٍ مبهمة ـ أذرعٌ في كل مكان، ممدودةٌ إلى أعلى، إلى جانبيها، مقوسةٌ إلى خصرها ـ تشابكٌ من الأطراف لدرجة جعلتْها، كما أدركت السيدة «ريتشاردسون» وهي مصدومة، تشبه عنكبوتًا ضخمًا، مُحاطًا بشكل شبكة ضبابيٍّ، أوقع هذا السيدة «ريتشاردسون» في اضطرابٍ وحيرة، لكنها لم تستطع تحويل نظرها. قالت بصدق:

ـ لم أفكر قطُّ في تحويل امرأةٍ إلى عنكبوت.

ذكَّرت نفسها أن الفنانين لا يفكرون مثل الناس العاديين، ثم التفتت إلى «مِيا» في فضول. لم تقابل السيدة «ريتشاردسون» شخصًا مثل «مِيا» قطُّ.

عاشت السيدة «ريتشاردسون»، طوال وجودها بأكمله، حياة منظمة وصارمة. وزنتْ نفسها مرةً في الأسبوع، وعلى الرغم من أن وزنها لم يتذبذب لأكثر من ثلاثة أرطال أكد لها طبيبها أن هذا طبيعي، بذلت قصارى جهدها للحفاظ على نفسها. كل صباح عايَرَتْ نصف كوب بالضبط من شوفان «تشيريوس»، وهو حجم الحصة المحددة على العلبة، باستخدام كوب القياس البلاستيكي المزين بالزهور الذي حصلت عليه من متجر «هيجبيز» حين كانت عروسًا جديدة. كل مساء، على العشاء، سمحتْ لنفسها بكأسٍ واحدة من النبيذ ـ الأحمر، الذي قالت نشرة الأخبار إنه أكثر فائدةً لقلبك ـ حيث يحدد خدشٌ ضعيف في كأس النبيذ المستوى الصحيح للمقدار المسكوب. حضرتْ صف تمرينات آيروبكس ثلاث مرات أسبوعيًّا، متفحصة ساعة يدها خلال مدة الصف لتتأكد من أن ضربات قلبها تجاوزت مائة وعشرين ضربة في الدقيقة. لقد رُبِّيَتْ على اتباع القواعد، على الإيمان بأن حُسْن سير العمل في العالم يعتمد على امتثالها، واتبعت القواعد ـ وآمنتْ ـ بالفعل. كانت لديها خطة، منذ الصبا فما تلاه، وقد اتَّبعتْها بدقة: مدرسة ثانوية، جامعة، حبيب، زواج، وظيفة، رهنٌ عقاري، أطفال. سيارة ذات أكياس هوائية وأحزمة مقاعد أوتوماتيكية. آلةٌ لجزِّ العشب وآلةٌ لإزالة الثلج. غسالةٌ ومجفِّف من النوع نفسه. باختصار، فعلتْ كل شيء على نحوٍ صحيح وبنَتْ حياةً جيدة، حياة من النوع الذي أرادتْه، حياة من النوع الذي يريده الجميع. الآن كانت هناك «مِيا» تلك، امرأةٌ من نوعٍ مختلفٍ تمامًا تحيا حياةً مختلفةً تمامًا، بدا أنها تضع قواعدها الخاصة من دون تبريرات. مثل الصورة الفوتوجرافية للراقصة العنكبوت. وجدت السيدة «ريتشاردسون» أن هذا أمرٌ مربِكٌ لكنه آسرٌ بغرابة. أراد جزءٌ منها أن يدرس «مِيا» مثل عالمة أنثروبولوجيا، كي تفهم لماذا ـ وكيف ـ تفعل «مِيا» ما تفعله. كان جزءٌ آخر

منها ـ على الرغم من أنها كانت واعيةً به على نحوٍ مبهم فقط في ذلك الوقت ـ قلِقًا، أرادت أن تراقب «مِيا» كما قد تراقبُ وحشًا خطيرًا.

قالت السيدة «ريتشاردسون» أخيرًا، وهي تمرر إحدى أصابعها على رفِّ الموقد:

ـ إنك تحافظين على كل شيءٍ نظيفًا. ينبغي أن أوظفكِ للمجيء إلى منزلنا.

ضحكتْ وردَّدت «مِيا» صدى ضحكتها بأدب، لكنها تمكنتْ من رؤية بذرة فكرة تتشقَّق وتنمو في ذهن السيدة «ريتشاردسون». قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ ألن يكون هذا مثاليًّا، يمكنكِ المجيء لعدة ساعات فقط يوميًّا والقيام بالقليل من أعمال تدبير المنزل الخفيفة. سوف أدفع لكِ مقابل وقتكِ بالطبع. ومن ثَمَّ سيكون لديكِ بقية يومكِ بأكمله لالتقاط الصور.

بدأت «مِيا» بالبحث عن الكلمات الصحيحة، الرقيقة لاقتلاع هذه الفكرة، لكن بعد فوات الأوان. تعلقت السيدة «ريتشاردسون» بالأمر بحماسة شديدة بالفعل:

ـ الآن، حقًّا. لماذا لا تأتين للعمل لدينا؟ كانت لدينا في السابق امرأةٌ تأتي للتنظيف والقيام ببعض تحضيرات العشاء، لكنها عادت إلى ديارها في ولاية أتلانتا في الربيع، وبوسعي الاستفادة من بعض العون بالتأكيد. سوف تؤدين لي معروفًا، حقًّا.

التفتت لتواجه «مِيا» مباشرةً.

ـ في الحقيقة، أنا أُصِر. لا بد أن يكون لديكِ وقتٌ لممارسة فنِّك.

كان بإمكان «مِيا» أن ترى أنه لا جدوى من الاعتراض، ذلك الاعتراض، في الحقيقة، سيكون من شأنه أن يزيد الأمر سوءًا ويؤدي إلى الضغينة. لقد عرفت أن الناس إذا عزموا على فعل شيء يعتقدون أنه عملٌ صالح، فعادة ما يستحيل إثناؤهم. فكرت بارتياع في عائلة «ريتشاردسون»، في منزل «ريتشاردسون» الفسيح والمتلألئ، في وجه «بيرْل» إذا جرؤت والدتها

على وضع قدمها على تلك الأرض الغالية. ثم تخيلت نفسها مُنَصَّبةً بأمان في مملكة «ريتشاردسون»، نصف مستترة في الخلفية، مستمرةً في الإشراف على ابنتها. مؤكدة مرة أخرى حضورها في حياة ابنتها. قالت:

ـ شكرًا لكِ. هذا العرض كرمٌ شديدٌ منكِ. كيف بإمكاني أن أرفض.

وابتهجت السيدة «ريتشاردسون».

٧

اتُّخِذَت الترتيبات في وقت قصير: في مقابل ثلاثمائة دولار في الشهر، سوف تقوم «مِيا» بالتنظيف بالمكنسة الكهربائية، إزالة التراب، وترتيب منزل «ريتشاردسون» ثلاث مرات في الأسبوع وإعداد العشاء كل ليلة. بدتْ صفقةً ممتازة ـ ساعاتٌ قليلة من العمل كل يوم لقاء مبلغٍ مساوٍ للإيجار الذي تدفعانه ـ لكن «بيرْل» كانت مستاءة. سألت باستنكار:

ـ لماذا طلبتْ منكِ؟

وعضَّتْ «مِيا» لسانها وذكَّرتْ نفسها أن ابنتها، في النهاية، في الخامسة عشرة من عمرها.

ردَّتْ «مِيا» بحسم:

ـ لأنها تحاول أن تكون لطيفةً معنا.

ولحسن الحظ، توقفت «بيرْل» عن الحديث في الموضوع. لكنها ـ داخليًّا ـ كانت غاضبة بسبب أن «مِيا» ستغزو ما كانت «بيرْل» تعتقد أنه مساحتها الخاصة، منزل «ريتشاردسون». سوف تكون والدتها على بُعد أمتارٍ قليلة في المطبخ، تسمع كل شيء، تلاحظ كل شيء. المساءات على الأريكة، المزاح الذي أصبحت «بيرْل» تشعر أنها جزء منه، حتى الطقس السخيف لمشاهدة «جيري سبرِنْجِر»، كل شيء سوف يتحطم. قبل أيامٍ فقط تمكنت من استجماع شجاعتها لتضرب يد «تريْب» حين ألقى دعابةً

حول بنطالها، سأل: لماذا كل هذه الجيوب؟ ماذا تخبئين هناك؟ في البداية ربَّت على الجيوب على جانبي ركبتيها، ثم على تلك التي على وركيها، ثم صفعتْه حين وصل إلى التي على مؤخرتها، وسرَّها أنه قال:

ـ لا تغضبي، تعرفين أنني أحبكِ.

ثم وضع ذراعه حول كتفيها. مع وجود والدتها، على أي حال، لن تجرؤ على شيء كهذا، وظنت، أنه حتى «تريب» لن يفعل.

السيد «ريتشاردسون»، أيضًا، وجد أن الترتيبات الجديدة محرِجة. اعتقد أن توظيف مدبِّرة منزل شيء، وتوظيف شخصٍ عرفوه بالفعل، والدة إحدى صديقات أطفالهم، شيءٌ آخر. لكن كان بوسعه أن يرى أن السيدة «ريتشاردسون» شعرتْ أنها لفتةٌ كريمة، لذا بدلًا من الجدال، عبَّر عن رأيه بالحديث إلى «مِيا» في صباحها الأول بالمنزل، قال لها فيما تسحب الدَّلو الذي يحتوي مواد التنظيف من أسفل الحوض:

ـ نحن ممتنُّون جدًّا لمساعدتك لنا. إنها مساعدةٌ هائلة... هائلة لنا.

ابتسمت «مِيا» ومدَّت يدها إلى زجاجة سائل «ويندكس» لتنظيف الزجاج ولم تقل شيئًا، وبحث السيد «ريتشاردسون» عن شيءٍ آخر ليقوله:

ـ هل تعجبك «شايكِر»؟

ـ إنها مكانٌ هادئ.

رشَّت «مِيا» السائل على نضد المطبخ ومسحته بالإسفنجة، جامعةً الفتات وملقيةً به في الحوض. قالت:

ـ هل نشأتَ في «شايكِر» أيضًا؟

هزَّ السيد «ريتشاردسون» رأسه وقال:

ـ لا، فقط «إيلينا». حتى إنني لم أسمع عن «شايكِر هايتْس» قبل أن أقابل «إيلينا».

في أسبوعهما الأول في جامعة «دنيسون» وقع في حب المرأة الشابة المتحمسة التي تجمع التوقيعات في أرجاء الحرم الجامعي لإنهاء التجنيد.

بحلول وقت تخرجهما، وقع في حب «شايكِر هايتْس» أيضًا، بسبب الطريقة التي وصفتْها بها «إيلينا»: أول مجتمعٍ سكنيٍّ مخطَّط، أكثر مجتمعٍ سكنيٍّ متقدِّم، المكان المثالي للمثاليين الشباب. كان الناس في بلدته الصغيرة مرتابين فيما يتعلق بالأفكار: لقد نشأ مُحاطًا بنوع من اللامبالاة المستسلمة، على الرغم من ثقته أن العالم يمكن أن يكون أفضل. ولهذا كان متلهفًا للرحيل، ولهذا وقع في الغرام بمجرد لقائهما. كانت جامعة «نورثويسترن» اختياره الأول، ولأنه رُفِض، فقد تحتَّم عليه أن يرضى بالجامعة التي ستجعله يغادر الولاية، لكن بمجرد أن التقى «إيلينا» بدا له كأن القدَر يتدخَّل. صممت «إيلينا» على العودة إلى بلدتها بعد الجامعة، وكلما حدَّثتْه عنها، صار راغبًا في العودة معها. بدا الأمر طبيعيًّا فحسب بالنسبة له أن مكانًا كهذا قد شكَّل شخصية خطيبته ذات المبادئ، التي سعت دائمًا لتحقيق الكمال، وتبعها بسعادة إلى «شايكِر هايتْس» بعد التخرج.

إنهما الآن، بعد ما يقرب من عقدين من الزمان، مستقرَّان في مهنتيهما وعائلتهما وحياتهما، كلما ملأ سيارته «بي إم دبليو» بالوقود الممتاز، أو نظَّف مضارب الجولف الخاصة به، أو وقَّع استمارة موافقة لأطفاله للذهاب للتزلج، بدت أيام الجامعة تلك ضبابيةً وبعيدة مثل صورٍ فوتوجرافية فورية قديمة ملتقطة بكاميرا «بولارويد». «إيلينا» أيضًا لانتْ بعض الشيء: ما زالت بالطبع تتبرع للأعمال الخيرية وتصوِّت للحزب الديمقراطي، لكن أعوامًا كثيرة من العيش في الضواحي المريحة غيَّرتْ كليهما. لم يكن أي منهما راديكاليًّا قطُّ ـ حتى في أوقات الاحتجاجات والاعتصامات والمسيرات والإضرابات ـ لكنهما الآن امتلكا منزلين وأربع سيارات وقاربًا صغيرًا أرسياه في مرسى القوارب في وسط المدينة. ثمة شخص يأتي إلى المنزل لإزالة الثلج في الشتاء وجزِّ العشب في الصيف. وبالتأكيد كان لديهما مدبرة منزل لأعوام، صفٌّ طويل منهن، والآن ها هي أحدثهن، هذه المرأة الشابة في مطبخه، تنتظر أن يغادر لتتمكن من تنظيف منزله.

استجمع نفسه، ابتسم بخجل، التقط حقيبته. توقف عند الباب المؤدي إلى الجراج وقال:

ـ إذا لم يلائم العملُ هنا احتياجاتك، أرجوكِ أخبريني. لن تكون هناك ضغائن، أعدكِ بذلك.

سرعان ما استقرت «مِيا» على العمل وفقًا لجدول: وصلت صباحًا في الثامنة والنصف، بعد وقتٍ قصير من مغادرة الجميع إلى العمل أو إلى المدرسة، ولسوف تنتهي بحلول العاشرة. ثم ستذهب إلى المنزل حيث الكاميرا الخاصة بها، ثم تعود في الخامسة مساءً لتطهو. أشارت السيدة «ريتشاردسون» إلى الأمر:

ـ لا حاجة إلى الذهاب والإياب مرتين.

لكن «مِيا» أصرت على أن منتصف النهار هو الوقت المناسب للتصوير. كانت الحقيقة أنها أرادت دراسة عائلة «ريتشاردسون» في كلتا الحالتين، حين كانوا هناك وحين لم يكونوا هناك. كل يوم، بدا أن «بيرْل» تشرَّبتْ شيئًا جديدًا من عائلة «ريتشاردسون»: تغيُّر استخدامها لعبارة ما («كنتُ أموت حرفيًّا»)، إيماءة (تمرير الأصابع في الشعر، تدوير عين). قالت «مِيا» لنفسها مرارًا وتكرارًا إن «بيرْل» كانت مراهقة، كانت تجرِّب مظاهر جديدة، كما فعل جميع المراهقين، لكنها ظلَّت قلقة خصوصًا بشأن التغييرات التي رأتْها. الآن، كل مساء، لسوف تكون هناك لتتفقَّد «بيرْل»، لتراقب آل «ريتشاردسون» أولئك الذين فتنوا ابنتها إلى هذا الحد. لسوف تأخذ حريتها كل صباح للتحرِّي بنفسها.

بدأت «مِيا» الملاحظة بدقة أثناء قيامها بالتنظيف. عرفت متى رسب «تريب» في امتحان الرياضيات عن طريق قصاصات الورق الممزقة في سلة مهملاته، متى كتب «مودي» أغنيات عن طريق أكداس الأوراق المتجعدة في سلته. عرفت أنه لا أحد في عائلة «ريتشاردسون» أكل القشرة اليابسة للبيتزا أو الموز المرقَّط بالبقع البُنية، أن «ليكسي» لديها نقطة ضعف تجاه

مجلات النميمة ـ استنادًا إلى رف الكتب الخاص بها ـ و«تشارلز ديكنز»، وأن السيد «ريتشاردسون» أحب تناول حلوى «بولز آيز» المحشوة بالكريمة والكراميل بكمية كبيرة أثناء عمله في غرفة مكتبه ليلًا. بحلول وقت انتهائها بعد ساعة ونصف، أصبح البيت مرتَّبًا، وأصبح لديها إحساسٌ جيدٌ جدًّا بما كان يفعله كل فرد من أفراد العائلة.

على هذا النحو، حدث أن «مِيا» وُجِدَت في المطبخ بعد أسبوع من أدائها واجباتها الجديدة، حين تجولت «إيزي» في الطابق السفلي في التاسعة والنصف صباحًا.

في اليوم السابق، أفزعت «إيزي» عائلتها، لكنها لم تُفاجئهم، بأنها أُوقِفتْ عن الدراسة. في منتصف عزف الأوركسترا، وفقًا لما ذكره نائب المدير لطلاب السنة الأولى، كسرت «إيزي» قوس الكمان الخاص بالأستاذة على ركبتِها وألقتْ بالقطع المكسورة في وجه الأستاذة. على الرغم من الاستجوابات المتكررة والتوبيخات في كلٍّ من المدرسة والمنزل، رفضتْ أن تقول أي شيء عمَّا تسبب في هذا الهياج. كان هذا الأمر، كما صاغتْه «ليكسي»، من شِيَم «إيزي» الكلاسيكية: أن تفقد صوابها دونما سبب، أن تفعل شيئًا مجنونًا، ألا تتعلم شيئًا من ذلك. بالتالي، بعد اجتماعٍ صغير بين والدتها والمدير وأستاذة الأوركسترا المتضرِّرة، أُوقِفتْ «إيزي» عن الدراسة لمدة ثلاثة أيام. كانت «مِيا» تنظف الموقد حين دخلت «إيزي» بخطواتٍ غاضبة ـ سارت بخطواتٍ ثقيلة نوعًا بقدميها العاريتين بصوتٍ عالٍ كما لو أنها ترتدي حذاءها الثقيل من طراز «دوك مارتنز» ـ وتوقفتْ. قالت:

ـ أوه، هذا أنتِ. الخادمة المؤقتة. أعني، المستأجرة وعاملة النظافة.

سمعتْ «مِيا» نسخة منقولة عن القصة للمرة الثالثة من «بيرْل» في اليوم السابق. قالت:

ـ أنا «مِيا»، أعتقد أنكِ «إيزي».

استقرت «إيزي» على أحد المقاعد الطويلة وقالت:

ـ المجنونة.

مسحت «مِيا» نضد المطبخ بحرص وقالت:

ـ لم يقُل لي أحدٌ شيئًا كهذا.

غرقت «إيزي» في الصمت وبدأت «مِيا» في تنظيف الحوض. حين انتهت شغَّلت المشواة. ثم أخذت قطعة من الخبز من الرغيف في صندوق الخبز، فردتْ عليها الزُّبد ورشَّت عليها السكر بغزارة، ووضعتْها في الفرن حتى بدأ السكر يذوب مكونًا كراميل ذا فقاعات ذهبية. وضعتْ قطعة أخرى من الخبز فوقها، وقطعت الشطيرة إلى نصفين، ووضعتها أمام «إيزي»، كاقتراح، وليس أمرًا. كان شيئًا تفعله أحيانًا من أجل «بيرْل»، حين تمر بما تصفه «مِيا» بـ«يوم كئيب». «إيزي»، التي راقبتْ بصمت ولكن باهتمام، لم تقُل شيئًا لكنها سحبت الطبق تجاهها. بالنسبة لها، حين يفعل شخصٌ ما شيئًا من أجلها، يكون ذلك إما بدافع الشفقة أو عدم الثقة، لكن هذه اللفتة البسيطة أشعرتها بما تعنيه هذه اللفتة بالفعل: لفتة لطيفة صغيرة، من دون قيدٍ أو شرط. حين أنهت «إيزي» القضمة الأخيرة من الشطيرة، لعقت الزُّبد من أصابعها ونظرتْ إلى أعلى. سألتْ:

ـ إذن هل تريدين معرفة ما حدث؟

وظهرت القصة كاملةً.

* * *

كانت أستاذة الأوركسترا، السيدة «بيترز»، مكروهةً على نطاقٍ واسع من الجميع. كانت امرأة طويلة ونحيلة على نحوٍ مؤلم، ذات شعرٍ مصبوغ بلونٍ كتَّانيٍّ غير طبيعي ومقصوص بشكل يذكِّر ببطلة التزلج الأوليمبية «دوروثي هامِل». وفقًا لـ«إيزي»، كانت بلا فائدة كقائدةٍ للأوركسترا وعرف الجميع أن عليهم فقط مراقبة «كيري تشولمان»، عازفة الكمان الأولى، لضبط الإيقاع. انتشرت شائعة ـ ترسَّخت بعد عدة سنوات باعتبارها حقيقة ـ أن السيدة «بيترز» لديها مشكلة تتعلق بمعاقرة الخمر. لم تصدق «إيزي» الشائعة

تمامًا، حتى استعارت السيدة «بيترز» كمان «إيزي» ذات صباح لتؤدي عرضًا توضيحيًّا للعزف، حين أعادته لـ«إيزي»، كان مسند الذقن رطبًا بسبب العرق، وفاحت منه رائحة الويسكي التي لا تدع مجالًا للشك. حين تحضر السيدة «بيترز» ثرموس القهوة الكبير الخاص بها المستخدم في رحلات التخييم، قال الناس، يعرف المرء أن السيدة «بيترز» قد أفرطتْ في الشراب الليلة السابقة. فضلًا عن ذلك، كانت في كثير من الأحيان متهكمةً لاذعة، خاصةً تجاه عازفي الكمان في الصف الثاني، خاصة أولئك الذين ـ كما عبَّر أحد عازفي التشللو بجفاف ـ كانوا «مباركين لَوْنِيًّا». وصلت القصص التي تدور حول السيدة «بيترز» مصفَّاةً إلى «إيزي» حتى وهي في قلب المدرسة.

«إيزي»، التي عزفت على الكمان منذ أن كانت في الرابعة من عمرها، والتي عُيِّنت في صف العازفين الثاني على الرغم من كونها طالبةً في السنة الأولى، لم يكن لديها ما تخشاه. قال لها عازف التشللو وهو يحدق في شعرها الذهبي المجعد، «ضفائر الهندباء»، كما يحلو لـ«ليكسي» أن تسميها:

ـ سوف تكونين بخير.

لكن «إيزي» ليست من النوع الذي يتجنب التورط في المشكلات.

كانت «إيزي» جالسةً في مقعدها صبيحة إيقافها عن الدراسة، تتمرن على نغمة معقدة باستخدام الأصابع على وتر «إي» لأجل مقطوعة المؤلف الموسيقي «سان صانز» التي كانت تتمرَّن عليها في دروسها الخاصة. تعالتْ حولها دندنة آلات الفيولا والتشللو ثم تخافتتْ بينما دخلت السيدة «بيترز» دخولًا عاصفًا، الثرموس في يدها. كان واضحًا منذ البداية أنها في حالة مزاجية كريهة واستثنائية. زجرتْ «شانيتا جرايمز» لتبصق علكتها. صاحت في «جيسي ليبوفيتس» التي قطعت وتر «إيه» في كمانها للتو وكانت تبحث في حقيبتها عن وترٍ بديل. حركت «كيري تشولمان» فمها من دون صوت قائلةً لـ«إيزي» التي أومأت بوقار:

ـ صداع ما بعد الإفاقة من السُّكْر.

كان لدى «إيزي» إحساسٌ عام بمعنى ذلك ـ عاد «تريب» إلى المنزل عدة مرات من حفلات الهوكي وبدا أنه، كما اعتقدت، مفرط البلادة والترنح في الصباح ـ لكنها عرفت أن الأمر له علاقة بالصداع والمزاج المعتل. نقرت بقمة قوسها على حذائها الطويل.

على منصة قائد الأوركسترا، تجرعت السيدة «بيترز» جرعةً كبيرة من كوب قهوتها. صاحت رافعةً يدها اليمنى:

ـ «أوفِنباخ».

تصفح جميع الطلبة في الغرفة نوتاتهم الموسيقية.

اثنتا عشرة فاصلة موسيقية في معزوفة «أورفيوس»، لوَّحت السيدة «بيترز» بذراعها. قالت:

ـ شخصٌ ما يعزف بشكلٍ غير ملائم.

أشارت بقوسها إلى «ديجا جونسون» التي كانت في الخلف في صف الكمان الثاني. قالت:

ـ «ديجا»، اعزفي من المازورة ٦.

«ديجا»، التي عرف الجميع أنها خجول لدرجة التألم، نظرت إلى أعلى بمظهر أرنب مرتعب. بدأت العزف، وكان بوسع الجميع أن يسمعوا الاختلاجة الخفيفة من يديها المرتعدتين. هزَّت السيدة «بيترز» رأسها، ودقت بقوسها على الحامل الخاص بها. قالت:

ـ تحريك خاطئ للقوس. أسفل أعلى ـ أعلى، أسفل، أعلى. مرة أخرى.

تعثرت «ديجا» خلال عزف المقطوعة مرة أخرى. جاشت الغرفة بالاستياء، لكن لم يتفوَّه أحدٌ بأي شيء.

شربت السيدة «بيترز» جرعة طويلة من القهوة. قالت:

ـ قفي يا «ديجا». اعزفي جيدًا وبصوتٍ عالٍ الآن، كي يمكن للجميع أن يسمعوا ما لا يُفترض أن يفعلوه.

ارتعشت حافة فم «ديجا»، كما لو كانت على وشك البكاء، لكنها وضعت

قوسها على الوتر وبدأت مرة ثانية. هزت السيدة «بيترز» رأسها مرة أخرى، دوى صوتها فوق صوت الكمان المنفرد:

ـ «ديجا». أسفل، أعلى ـ أعلى، أسفل، أعلى. ألم تفهميني؟ هل يجب أن أتكلم بعامية السود؟

كانت هذه هي النقطة التي قفزت عندها «إيزي» من مقعدها وانتزعت قوس السيدة «بيترز».

لم يكن بوسعها أن تقول، حتى بعد أن أخبرت «مِيا» بالقصة، لماذا كان رد فعلها بهذه القوة. جزئيًّا لأن «ديجا جونسون» كان لديها دائمًا الوجه القلق لشخص يتوقع الأسوأ. عرف الجميع أن والدتها كانت ممرضة مسجَّلة، في الحقيقة، عملت مع والدة «سيرينا وونج» في مستشفى «كليفلاند كلينيك»، وأدار والدها مستودعًا في «وِست سايد». لم يكن هناك كثير من الأطفال السود في الأوركسترا، على أي حال، وإذا ظهر والداها من أجل الحفلات، جلسا في آخر صف، بمفردهما، لم يتبادلا الحديث قطُّ مع أولياء الأمور الآخرين حول التزلج أو إعادة تصميم المنزل أو خطط عطلة الربيع. لقد عاشوا طوال حياة «ديجا» في منزل صغير مريح في الطرف الجنوبي من «شايكِر»، وقد مضت في طريقها من الروضة وصولًا إلى المدرسة الثانوية من دون ـ كما يتندَّر الناس ـ أن تقول أكثر من عشر كلمات في العام.

لكن على خلاف كثير من عازفي الكمان الآخرين ـ الذين استاءوا من «إيزي» لأنها وصلت إلى صف العازفين الثاني وهي بعدُ في السنة الأولى ـ لم تشترك «ديجا» في التعليقات، أو دعتْ «إيزي» بـ«طالبة السنة الأولى». في الأسبوع الأول من الدراسة، انحنتْ «ديجا» للأسفل، فيما يخرجون من غرفة الأوركسترا، لتغلق سحَّاب جيبٍ مفتوح في حقيبة كتب «إيزي»، يحوي ملابس الرياضة المكشوفة الخاصة بها. بعد عدة أسابيع، كانت «إيزي» تنقِّب في حقيبتها، تبحث بيأس عن سدَّادةٍ قطنية للدورة الشهرية، حين انحنت «ديجا» بتكتُّمٍ عبر الممر ومدَّت يدها المطوية، قالت:

ـ هاكِ.

وعرفت «إيزي» ما كان هذا قبل حتى أن تشعر بحفيف الغلاف البلاستيكي في راحة يدها.

مشاهدة السيدة «بيترز» تتنمَّر على «ديجا»، على مرأى من الجميع، كان مثل مشاهدة شخص يسحب قطة صغيرة إلى الشارع ويضربها بقرميدة، وانفجر شيءٌ داخل «إيزي». قبل أن تدرك ما تفعله، كانت قد كسرت قوس السيدة «بيترز» على ركبتها وألقتْ بالقطعتين المكسورتين في وجه السيدة «بيترز». أطلقت السيدة «بيترز» نعيقًا مفاجئًا بينما جلَدَها نصفا القوس المُسنَّنان ـ اللذان ما زالا مرتبطين بشعرة الحصان ـ عبر وجهها وصرخةً مجلجلة فيما انسكب كوب القهوة التي ينبعث منها البخار على جسدها. انفجرت غرفة التمرين في عاصفة من الضحك والصراخ وصيحات الاستهزاء، وأمسكت السيدة «بيترز»، بينما تقطر القهوة من أوتار عنقها، «إيزي» من مرفقها وجرَّتْها إلى خارج الغرفة. تساءلت «إيزي» وهي تنتظر وصول والدتها في مكتب المدير إن كانت «ديجا» قد شعرت بالسرور أم بالحرج، وتمنت لو تسنح لها فرصة رؤية وجه «ديجا».

على الرغم من أن «إيزي» كانت واثقة، الآن، أن «مِيا» سوف تتفهم كل هذا، لم تعرف كيف تصوغ كلَّ ما شعرت به في كلمات. كل ما قالته:

ـ السيدة «بيترز» عاهرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ليس لها حق في أن تقول ذلك لـ«ديجا».

قالت «مِيا»:

ـ حسنًا؟ ماذا ستفعلين بهذا الشأن؟

لم تُسأل «إيزي» هذا السؤال من قبل. حتى هذه اللحظة كانت حياتها مليئةً بالغضب المكتوم عديم الجدوى. في الأسبوع الأول من الدراسة، بعد قراءة أحد أعمال «تي إس إليوت»، ثبَّتتْ لافتات على جميع لوحات النَّشَرات الإعلانية: «لقد قِسْتُ حياتي بعدد ملاعق القهوة وهل أجرؤ

الآن على تناول ثمرة خوخ؟ وهل أجرؤ على إزعاج الكون؟». جعلتْها القصيدة تفكر في والدتها، توزِّع مبيِّض القهوة الخاص بها بملعقة شاي معينة، تفقد صوابها بشأن مبيدات الآفات الزراعية إذا قضمتْ «إيزي» تفاحة من دون أن تغسلها، تضع القيود بصرامة حول «إيزي» في كل حركة، جعلتْها القصيدة تفكر في أشقائها الذين يكبرونها أيضًا، في «ليكسي» و«تريب» وكل من هم على شاكلتهما، وهم بالنسبة لـ«إيزي» كما لو أنهم الجميع. مهتمون للغاية بشأن ارتداء الأشياء المناسبة، قول الأشياء المناسبة، مصادقة الأشخاص المناسبين. كان لديها تخيلاتٌ عن طلابٍ يتهامسون في القاعات ـ تلك اللافتات؟ من وضعها؟ ماذا تعني؟ ـ يلاحظون اللافتات، يفكرون بشأنها، يفيقون من غفلتهم، بحق الله. لكن أثناء العجَلة التي تسبق الحصة الأولى مرق الجميع بجوار اللافتات إلى أسفل السلالم، منشغلين للغاية بتمرير الملاحظات والدراسة الخاطفة قبل الامتحانات الموجزة لدرجة أنهم حتى لم يلقوا نظرة على لوحات النشرات الإعلانية، وبعد الحصة الثانية وجدت أن أحد رجال الأمن الصارمين قد مزَّق اللافتات، متحيِّرًا من دون شك بسبب محتوى تلك الرسائل، تاركًا فقط منشورات لمنظمة «شبابٌ يقضون على الجوع»، وبرنامج محاكاة الأمم المتحدة ، ونادي اللغة الفرنسية. في الأسبوع الثاني من الدراسة، حين طلب السيد «بيلامي» من الطلاب حِفْظ قصيدة وإلقاءها أمام الصف، اختارت «إيزي» قصيدة «فلتكُن هذي الأبيات» [لـ«فيليب لاركن»]، قصيدة شعرتْ ـ بناءً على سنوات عمرها الأربع عشرة ونصف ـ أنها أجْملت الحياة بدقة. لم تتجاوز البيت القائل «إنهما يدمِّرانك، أمك وأبوك...»، قبل أن يأمرها السيد «بيلامي» أمرًا قاطعًا بالعودة إلى مقعدها ويمنحها صفرًا.

ماذا كانت ستفعل بهذا الشأن؟ الفكرة أن بوسعها أن تفعل شيئًا يذهلها. في تلك اللحظة توقفت سيارة «ليكسي» في ممر السيارات وولجتْ

«ليكسي» إلى الداخل، حقيبة كتبها معلَّقة على إحدى كتفيها، تفوح من «ليكسي» رائحة دخان السجائر وعطر «سي كيه وان». قالت:

ـ الحمد لله، ها هي ذي.

مختطفة محفظتها من حافة نضد المطبخ. «ليكسي»، كما يروق للسيدة «ريتشاردسون» أن تقول، كانت لتنسى رأسها في المنزل إذا لم يكن مثبتًا بجسدها. قالت «ليكسي» لـ«إيزي»:

ـ تقضين وقتًا ممتعًا في يوم عطلتك؟

ورأتْ «مِيا» ضوءًا ينطفئ داخل «إيزي» التي قالت:

ـ شكرًا على الشطيرة.

وانزلقت من كرسيِّها الطويل وصعدت إلى الطابق العلوي.

قالت «ليكسي» وهي تدير عينيها:

ـ يا للمسيح. لن أفهم هذه الفتاة أبدًا.

نظرتْ إلى «مِيا»، منتظرةً إيماءة تعاطف، لكنها لم تأتِ. كل ما قالتْه «مِيا»:

ـ قودي بحرص.

وارتدَّتْ «ليكسي» خارجةً، المحفظة في يدها، وفي لحظةٍ تسارع صوت محرك سيارتها «الإكسبلورر» في الخارج.

امتلكت «إيزي» قلبًا راديكاليًّا، لكن كانت لديها خبرة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تعيش في ضاحيةٍ بالغرب الأوسط. مما كان يعني: أنها بحثت عن أفكار للانتقام العنيف ـ قذف النوافذ بالبيض، إضرام النار في أكياس مخلفات الكلاب ـ واختارت أفضل شيء في ذخيرتها المحدودة.

بعد ثلاث أمسيات، كانت «بيرْل» و«مودي» في غرفة المعيشة يشاهدان برنامج «ريكي ليك» الحواري حين رأيا «إيزي» تخطو بهدوء نحو المدخل، عبوَّة مكونة من ست بكرات من ورق الحمَّام تحت كل ذراع. تبادلا نظرة واحدة سريعة، ثم من دون مناقشة، طارداها. قال «مودي» حين اعترضا طريق «إيزي» في الردهة وحاصراها بأمان في المطبخ:

ـ أنتِ حمقاء مخبولة.

عبر السنوات، أنقذ «مودي» «إيزي» من غبائها ـ كما اعتقد ـ مراتٍ عديدة، لكن هذه المرة، بالنسبة له، كانت تسجل رقمًا قياسيًّا جديدًا. قال لها:

ـ تغرقين منزلها بورق الحمَّام؟

قالت «إيزي»:

ـ إنها عاهرة لدرجة أنها لا تنظِّف، سوف تستشيط غضبًا. وهي تستحق ما يجعلها تستشيط غضبًا.

قال «مودي»:

ـ وسوف تعلم أن الفاعل كان أنتِ. الفتاة التي أوقفتها عن الدراسة.

ركل «مودي» ورق الحمَّام أسفل الطاولة.

ـ هذا إذا لم يُقبض عليكِ متلبسةً بالجُرم. وهو ما سيحدث لكِ على الأرجح.

صاحت «إيزي»:

ـ هل لديك فكرةٌ أفضل؟

قالت «مِيا»:

ـ لا يمكنكِ أن تستهدفي السيدة «بيترز» وحدها.

رفع الأطفال الثلاثة أبصارهم في ذهول. لقد نسوا، للحظة، أن «مِيا» كانت هناك، ومع ذلك فقد كانت هناك، تقطع ثمرة فلفل من أجل العشاء وتبدو كوالدةٍ لم يسبق لهم مصادفة مثلها من قبل. تورَّدتْ «بيرْل» وسدَّدتْ نظرةً إلى والدتها. فيم كانت تفكر، بمقاطعة المحادثة على هذا النحو، ناهيك عن مقاطعة هذه المحادثة بالذات، من بين كل الأشياء؟ ما فكرتْ «مِيا» فيه، على أي حال، كان سنوات مراهقتها هي نفسها، ذكريات خزَّنتْها بعيدًا منذ زمن طويل من أجل الوقاية لكنها تكشَّفت الآن وأزالت عن نفسها التراب. قالت:

ـ وضع شخصٌ ما عرفتُه الصمغَ على قفل باب أستاذة التاريخ. كان قد حضر متأخرًا وعاقبتْه بالاحتجاز بعد انتهاء اليوم الدراسي وفوَّت

اللعب في مباراة كبيرة لكرة القدم. في اليوم التالي اعتصر أنبوبًا كاملًا من صمغ «كريزي» في القفل. اضطروا إلى كسر الباب.

زحفت ابتسامةٌ بعيدة على فمها. أكملت:

ـ لكنه لم يفعل ذلك إلا بالقفل الخاص بها، لذلك عرفوا أنه الفاعل على الفور. عوقِبَ لمدة شهر.

صار وجه «بيرْل» شعلةً ملتهبة. قالت:

ـ أمي. شكرًا، لقد فهمنا هذا!

سريعًا، وكزتْ «إيزي» و«مودي» إلى خارج المطبخ وبعيدًا عن مدى سمْع «مِيا». سيظنان الآن أن والدتها غريبة الأطوار تمامًا، هكذا اعتقدت «بيرْل»، وهي غير قادرةٍ حتى على النظر إلى «إيزي» و«مودي». على أي حال، إذا نظرت «بيرْل» إلى وجهيهما لن ترى استهزاءً ولكن إعجابًا. كان بوسع «مودي» و«إيزي» أن يريا ـ من الوميض في عيني «مِيا» ـ أنها كانت بارعة للغاية ـ ومثيرةً للاهتمام للغاية ـ أكثر ممَّا قد تخيَّلا. كان هذا دليلهما الأول، سيدركان فيما بعد، أنه كان هناك جانبٌ آخر لها.

فكرت «إيزي» طوال المساء في القصة التي روتْها «مِيا»، في سؤالها الذي طرحتْه من قبل: **ماذا ستفعلين بهذا الشأن؟** سمعتْ في هذه الكلمات إذنًا بفعل ما أُمِرَتْ دائمًا ألا تفعله: أن تمسك زمام الأمور بنفسها، أن تثير المتاعب. عند هذه النقطة، تضخم غضب «إيزي» كالبالون لا ليشمل السيدة «بيترز» فحسب بل والمدير الذي وظَّفها، ونائب المدير الذي مرَّر أمر الإيقاف عن الدراسة، وكل معلِّم ـ كل شخصٍ بالغ ـ تعامل مع طالبٍ بسلطةٍ استبدادية غير مستحَقَّة. في اليوم التالي، انفردت بـ«مودي» و«بيرْل» في أحد الأركان وأوجزتْ خطتها. قالت «إيزي»:

ـ سوف يجعلها هذا تستشيط غضبًا، سوف يجعل الجميع يستشيطون غضبًا.

اعترض «مودي»:

ـ سوف تقعين في المتاعب.
لكن «إيزي» هزَّت رأسها. قالت:
ـ سوف أفعل هذا، سوف أقع في المتاعب فقط إذا لم تساعداني.

* * *

إن إدخال عود تخليل الأسنان في ثقب مفتاح عادي وكسره بمساواة السطح أمرٌ رائع. لا يسبب ضررًا للقفل، لكنه يمنع المفتاح من الدخول، وبهذا لا يمكن فتْح الباب. ليس من السهل إزالته إلا باستخدام ملقاط مستدق الطرف، والذي ليس في المتناول غالبًا ويحتاج بعض الوقت لإحضاره. كلما كان الذي يدخل المفتاح نافد الصبر، انحشر المفتاح بإحكام وإصرار في الثقب، وتغلغل عود تخلُّل الأسنان بعناد في أحشاء القُفل، وطال وقت استخراجه حتى باستخدام المعدات الصحيحة. بوسع مراهق ماهر إلى حدٍّ معقول، يعمل بسرعة، أن يُدخل عود تخليل الأسنان في قُفل، ويكسره، ويسير مبتعدًا في زمنٍ تقريبيٍّ قدره ثلاث ثوانٍ. بوسع ثلاثة مراهقين، يعملون في تناغم، شل حركة مدرسةٍ كاملة تحوي مائة وستة وعشرين بابًا في أقل من عشر دقائق، سريعًا بما يكفي لتجنب الملاحظة والاستقرار في أماكنهم المعتادة في الرواق ليشاهدوا ما ينجم عن ذلك.

بحلول الوقت الذي لاحظ فيه أوائل المعلمين أن أبوابهم عالقة، بلغت الساعة بالفعل ٧:٢٧. بحلول الساعة ٧:٤٠، حين وصل أغلب المعلمين إلى فصولهم ووجدوا أنفسهم في مأزق، كان السيد «رينجلي»، قيِّم المدرسة، في الطابق العلوي في جناح العلوم يحاول خلع أول شظية من عود تخليل الأسنان من قفل معمل الكيمياء بسنِّ سكين الجيب الخاصة به. بحلول الساعة ٧:٤٥، حين عاد السيد «رينجلي» إلى مكتبه باحثًا عن صندوق أدواته والملقاط الذي بداخله، وجد جمهرةً كبيرة من المعلمين محتشدين في مدخل بابه، يتصايحون بشأن الأقفال العالقة. خلال الهرج أزاح أحدهم حاجز الباب الذي كان يُبقي باب مكتب السيد «رينجلي» مفتوحًا وتركه ينغلق

بعنف، واكتشف السيد «رينجلي» أخيرًا عود تخليل الأسنان الذي وضعتْه «إيزي» بنفسها بحرص في ثقب مفتاحه في وقتٍ أسبق بكثير، حين خرج للحصول على كوبٍ من القهوة.

في كل هذا الوقت كان الطلاب يتقاطرون إلى المدرسة، الطيور المبكرة أولًا، الذين جاءوا في الساعة ٧:١٥ لتأمين مكان لصفّ سياراتهم في المساحة البيضاوية المحيطة بالمدرسة، ثم الطلاب الذين أوصلهم الأهل أو جاءوا سيرًا على الأقدام. بحلول الوقت الذي ناضل فيه المتأخرون للوصول في الساعة ٧:٥٢ ودق جرس الحصة الأولى، ازدحمت الأروقة بالطلاب الجذِلين، والسكرتيرات المبهوتات، والمعلمين المحتدمين غيظًا.

سوف تنقضي عشرون دقيقة أخرى قبل أن يعود السيد «رينجلي» من شاحنته، بعد أن فتش في صندوق أدواته في الشاحنة وأخيرًا، وجد ملقاطًا آخر، مما أشعره براحةٍ هائلة. سوف تنقضي عشر دقائق أخرى بعد ذلك حين ينجح في استخراج أول عودٍ لتخليل الأسنان من باب أول فصل ويتمكن معلم الكيمياء أخيرًا من الوصول إلى مكتبه. أُجِّلت التصريحات الصباحية، وحلَّت محلها تعليماتٌ صارمة عبر نظام الاتصال بالمكبرات الصوتية ـ أن على جميع الطلاب الاصطفاف خارج فصولهم التي سيدرسون فيها الحصة الأولى ـ وهي تعليماتٌ لم يسمعها أحد. كان الطابع العام في كل رواق يشبه طابع حفلٍ مفاجئ، حيث ما مِن مضيفٍ في المشهد لكن جميع الحضور يشبهون الضيف المتفاجئ والمسرور على نحوٍ ما. أخرج أحدهم من خزانةٍ مشغِّل كاسيت كبيرًا، مكتملًا بالبطاريات. مدَّد «أندريه ويليامز»، راكل الكرات في فريق كرة القدم، الهوائي، رافعًا مشغِّل الكاسيت على كتفه، وشغَّله على محطة «دبليو إم إم إس بازارد راديو»، وتفجَّر حفلٌ راقصٌ ارتجالي على أغنيات فرقة «مايتي مايتي بوستونز» قبل أن تصل إليه السيدة «ألِرتون»، معلمة تاريخ الولايات المتحدة، وتأمره بإغلاق الراديو. استمر السيد «رينجلي» ماشيًا في الرواق ـ بابٌ واحدٌ كل مرَّة ـ متصيدًا

الشظايا الخشبية من الأقفال من إنتاج شركة «ييل» وجامعًا إياها في راحة يده غليظة البشرة.

بالأسفل في جناح الفن، بدأت السيدة «بيترز»، التي تحتضن ثرموس القهوة الضخم الخاص بها وصداعًا نصفيًّا، تتململ بعصبية. كانت غرفة الأوركسترا بعيدة عن جناح العلوم، حيث تقدَّم السيد «رينجلي» ببطء. بهذا المعدل سوف يكون بابها أحد الأبواب الأخيرة، إذا لم يكن آخر باب يُعالج. لقد سألت السيد «رينجلي» عدة مرات إن كان بوسعه العمل بسرعة أكبر، إن كان بوسعه أن يتوقف لحظة ويفتح بابها أولًا، وفي المرة الثالثة التفت إليها ملوِّحًا بكسرة من الخشب في ملقاطه الموجَّه إلى أعلى قائلًا:

ـ أنا أعمل بأسرع ما أستطيع يا سيدة «بيترز».

التفت مرة أخرى إلى ثقب المفتاح الذي أمامه، حيث حاول السيد «ديسانتي»، معلِّم الرياضيات للصف التاسع، أن يُدخل مفتاحه بالقوة في القفل وكسر عود تخليل الأسنان إلى شظايا عميقًا في داخل الأسطوانات. غمغم السيد «رينجلي» بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليتأكد أن السيدة «بيترز» سوف تسمعه:

ـ يريد كل شخصٍ أن يكون الأول. يريد كل شخصٍ أن يكون مهمًّا. حسنًا، يقول الرجل الذي يمسك الملقاط: «على كل شخصٍ أن ينتظر دوره».

دفع الملقاط في القفل مرة أخرى، واستدارت السيدة «بيترز» مبتعدة.

حدث هذا منذ ساعة ونصف، وشكَّت السيدة «بيترز»، وكانت محقة، أن السيد «رينجلي» يبقي غرفتها إلى النهاية كي يعاقبها. حسنًا، هكذا فكرت. لكن ألم يكن بوسعه على الأقل فتح استراحة أعضاء هيئة التدريس؟ لقد تفحصتْها ثلاث مرات حتى الآن، وما زال الباب مغلقًا. مع كل دقيقةٍ مرَّتْ، أصبحت أكثر وعيًا بالثرموس الممتلئ بالقهوة ـ الممتلئ تمامًا تقريبًا ـ الذي أفرغتْه أثناء الانتظار. كانت لحمَّامات الفتيات أبوابٌ متأرجحة، غير قابلةٍ للغلق. بالتأكيد لن يتعيَّن عليها الذهاب إلى هناك مع الطالبات، هكذا فكرت،

بالتأكيد سوف يفتح استراحة أعضاء هيئة التدريس قريبًا وسوف تستخدم الحمَّام المخصص للجنسين هناك، ذلك المحجوز للمعلمين. كلما مرت كل دقيقة، تنامى نفاد صبرها مع السيد «رينجلي» وانتشر ليعم المدير، ليعم العالم بأجمعه. أليس بوسع أي أحد أن يفكر مسبقًا؟ أليس بوسع أي أحد تحديد الأولوية؟ أليس بوسع أي أحد أخذ الاحتياجات الإنسانية في الحسبان؟ تخلَّتْ عن موقعها بجوار غرفة الأوركسترا واتخذت بقعة انتظارٍ جديدة خارج استراحة أعضاء هيئة التدريس، حقيبة يدها معلَّقة أمام بطنها مثل درع. سالت خمسة أكوابٍ من القهوة في مسارها البطيء عبر أحشائها. لعدة لحظات فكرت ببساطة في أن تدلف إلى داخل سيارتها وتقود مبتعدة. بإمكانها أن تصبح في المنزل خلال خمسٍ وعشرين دقيقة. لكن كلما طال وقوفها، بدت الخمس وعشرون دقيقة أطول، وبدا لها على نحوٍ أكثر يقينًا أن الجلوس، في أي سياق، سوف يجلب كارثة.

قالت فيما سار المدير بجوارها:

ـ دكتور «شواب»، ألا يمكنك أن تطلب من السيد «رينجلي» أن يفتح استراحة أعضاء هيئة التدريس، أرجوك؟

لقد قضى دكتور «شواب» صباحًا عصيبًا. كانت الساعة ٩:٤٠ ونصف الفصول الدراسية ما زالت مغلقة، على الرغم من أنه طلب من المعلمين إحضار طلابهم إلى داخل الفصول وإبقاءهم هناك حتى تُفتح جميع الأبواب، ما زال ثمانمائة طالب طلقاء في الأروقة. تناثر بعضٌ منهم على درجات السلَّم، شكَّلتْ مجموعاتٌ منهم دوائر على المرجة، يضحكون ويركلون كرات القدم القماشية الصغيرة الممتلئة بالرمل، وفي بعض الحالات، يدخنون حتى داخل حدود المدرسة. حك صدغه بأحد مفاصل أصابعه. تحت ياقته بدأ عنقه يتهيج، وحرك إصبعه تحت رابطة عنقه.

قال بأكبر قدر من الصبر استطاع أن يستجمعه:

ـ «هيلين»، السيد «رينجلي» يتقدم بأقصى ما يستطيع من سرعة. في الوقت

الحالي، حمَّام الفتيات في الردهة. أنا متأكد أن بإمكانك استخدامه هذه المرة فقط.

انطلق مبتعدًا، مجريًا حسابات ذهنية سريعة. إذا عاد الجميع إلى الفصول بحلول الساعة ١٠:٣٠ ـ مما بدا متفائلًا ـ بإمكانهم إدارة جدولٍ مختصر، حيث تستغرق كل حصة أربعًا وثلاثين دقيقة بدلًا من خمسين.

انتظرت السيدة «بيترز» خمس عشرة دقيقة أخرى ثم لم يعد بوسعها الانتظار أكثر. اعتصرت مقبضَي حقيبتها بشدة، كما لو أن ذلك سوف يساعد بطريقةٍ ما، وهرولت عبر الرواق إلى حمَّام الفتيات. كانت غرفة الاستراحة الرئيسية، واقعة تمامًا حيث التقى الرواق الرئيسي بالسلَّم الرئيسي، وكانت مزدحمةً حتى في يومٍ عادي. أما اليوم فكان غوغائيًّا. وقفت مجموعة من الفتيان في حلقةٍ بالخارج، يسحقون التفاحات من وجبات غدائهم على جبهاتهم ويقذفون بعضهم البعض مطلقين أصوات زئير أجش. احتشدت مجموعة من الفتيات حول نافورة مياه الشرب، يتظاهر نصفهن بعدم ملاحظة الفتيان، ويغازل النصف الآخر الفتيان بصراحة. أعلاهم صورة جدارية لقرشٍ ينظر إلى أسفل فاغر الفم. شعرت السيدة «بيترز» بغصَّة سخط قصيرة بسبب شبابهم، نزَقِهم، سلاستهم. في يومٍ عادي كانت لتخبرهم أن يتحركوا، أو طالبت بإذن وجود خارج الفصل من كل واحدٍ منهم، لكنها اليوم ليست في حالةٍ تسمح لها أن تبالي.

زاحمت بمرفقها لتشق طريقها وسط الحشد قائلة:

ـ المعذرة. المعذرة. يا فتيان ويا فتيات. معلمةٌ تحتاج إلى المرور.

في الداخل، كان الحمَّام مكتظًّا بالفتيات. فتياتٌ يتبادلن أحاديث النميمة، فتيات يرتِّبْن شعورهن، فتيات يتبرَّجن. شقت السيدة «بيترز» طريقها بالوكز لتتخطاهن بإلحاحٍ متزايد:

ـ المعذرة. يا فتيات. المعذرة، يا فتيات.

نظرت كل فتاة في الحمَّام إلى أعلى، وقد اتسعت عيناها لهذا الاقتحام.

قالت «ليكسي»:
ـ أهلًا سيدة «بيترز»، لم أعرف أن المعلمين استخدموا هذا الحمَّام من قبل.
قالت السيدة «بيترز» بنبرةٍ أمِلتْ أن تكون وقورة:
ـ ما زالت استراحة أعضاء هيئة التدريس مغلقة.
لاحظت أن جميع الفتيات حولها لُذْنَ بالصمت. في ظروفٍ عادية كانت لتستحسن هذا علامةً على الاحترام، لكنها اليوم كانت ستفضِّل أن يتم تجاهلها. استدارت وتوجهت إلى أبعد مقصورة، بجوار النافذة، لكن حين وصلتْ إليها وجدت أنها من دون باب. سألتْ بغباء:
ـ ماذا حدث للباب؟
قالت «ليكسي»:
ـ إنه مكسور منذ الأزل. منذ أول أسبوع في الدراسة. وجب عليهم أن يصلحوه. تأتين إلى هنا ولا يوجد سوى ثلاث مقصورات يمكنكِ استخدامها وينتهي بكِ الأمر متأخرةً عن الصف.
لم تكلِّف السيدة «بيترز» نفسها عناء الاستماع إلى بقية خطاب «ليكسي». جذبت باب المقصورة التالية بشدة وأغلقته وراءها بعنف. بيدين مرتعدتين سحبت المزلاج إلى مكانه وتخبطت في التعامل مع تنورتها. لكن لدى مرأى المرحاض الأبيض المصنوع من البورسلين لم يعد بوسع جسدها ـ الذي كان ينتظر لما يقرب من ساعتين ونصف ـ أن يقاوم لمدةٍ أطول من ذلك. انهارتْ مثانتها بتدفقٍ هائل، وشعرت السيدة «بيترز» بدفقةٍ دافئةٍ تغرق ساقيها، واتخذتْ بركةٌ متمددة طريقًا ثعبانيًّا فوق البلاطات وإلى خارج المقصورة.
من وراء الفاصِل الرقيق سمعت السيدة «بيترز» شخصًا ما يقول:
ـ أوه يا إلهي!
ثم صمتٌ مطبقٌ مصدوم. ظلت ساكنةً تمامًا، كما لو أن ـ فكرتْ على نحوٍ غير عقلاني ـ الفتيات بالخارج نسين أمرها. بدا أن الصمت قد مدَّ نفسه

إلى الخارج كحلوى «التافي». صارت البقعة المبتلة على تنورتها وجواربها الطويلة المتشبِّعة باردة. وحينئذٍ بدأت القهقهة، ذلك النوع من القهقهات التي أصبحت أكثر وضوحًا بسبب كبْتها. أُغلِقَتْ سحَّابات الحقائب بسرعة، اندفعت خطوات الأقدام مسرعةً إلى الرواق. سمعت السيدة «بيترز» الباب يُفتح بعنف، ثم يُغلق، وبعد لحظاتٍ قليلة سمعت أصواتًا هادرة من الضحك من الرواق. ظلت في المقصورة لوقتٍ طويل، حتى سمعت الدكتور «شواب» في نظام المخاطبة الجماعية يخبر الجميع أن كل الأبواب قد فُتِحت وعلى كل الطلاب أن يكونوا في الفصل وإلا فإنهم يخاطرون بالتعرض للاحتجاز بعد اليوم الدراسي. حين خرجت إلى الحمَّام مرة أخرى كان خاليًا، وغادرت وهي تداري تنورتها الملطَّخة بمحفظة الجيب الخاصة بها، رافضةً أن تنظر إلى البركة، التي كانت تسيل ببطء بجوار الأحواض باتجاه المصرف في الركن.

لم يلاحظ أي شخص في تمرين الأوركسترا في الحصة الثانية أن السيدة «بيترز» كانت ترتدي ملابس مختلفة حين بدأ الصف أخيرًا، لم يقل أحدٌ شيئًا. تمرنوا على مقطوعة لـ«أوفِنباخ» و«باربر» والسمفونية الخامسة والعشرين لـ«موتزارت» بوجوهٍ خاليةٍ من التعبير. لكن الخبر قد انتشر بالفعل. لسوف تمر أيام قبل سماعها أحدهم، وهي متوقفة خارج الفصل، يشير إليها بوصفها السيدة «متبوِّلة»، ولسوف تمر سنوات ـ بعد تقاعدها بوقتٍ طويل ـ قبل أن يتلاشى اللقب والقصة اللذان انتقلا من دُفعةٍ إلى دُفعة.

سوف يبقى أثر حادثة عود تخليل الأسنان على المدرسة أيضًا. لم تكن هناك كاميرات في الأروقة، ولم يبدُ أن أحدًا قد اكتشف المخربين، أيًّا كانوا. دار كلامٌ حول تأسيس نظام أمني أفضل ـ ذكر عدة معلمين مدرسة «يوكليد» القريبة، التي تصدرت الأخبار بسبب تركيب كواشف المعادن عند كل مدخل ـ لكن كان الشعور العام أن مدرسة «شايكِر هايتْس» الثانوية، على خلاف مدرسة «يوكليد»، يجب ألا تحتاج إلى مثل هذا النظام الأمني،

وقررت الإدارة التقليل من شأن الحادثة بوصفها مقلبًا بسيطًا. على أي حال، لسوف يكتسب «يوم عود تخليل الأسنان» في أذهان طلاب مدرسة «شايكِر» مكانة الأسطورة، وفي سنوات المستقبل، خلال «أسبوع مقالب طلاب السنة النهائية»، سوف تُحظر أعواد تخليل الأسنان من المدرسة مع تهديد حاملها بمعاقبته بالاحتجاز بعد انتهاء اليوم الدراسي.

في اليوم التالي لـ«يوم عود تخليل الأسنان»، التقت عينا «إيزي» بعيني «ديجا جونسون» وابتسمتْ، وابتسمتْ «ديجا» ـ التي لم تكن لديها فكرة عن أن هذا الحدث بأكمله كان بالنيابة عنها، وحتى لم تكن لديها أدنى فكرة عن أن «إيزي ريتشاردسون» كانت وراءه ـ بدورها. لن تُصبحا صديقتين تمامًا، لكن سوف تشعر «إيزي» أن هناك رابطًا بينهما، وكل يوم في الأوركسترا وضَّحت وجهة نظرها بالابتسام لـ«ديجا جونسون»، ولاحظت برضا أن السيدة «بيترز» تركت «ديجا» وشأنها.

على أي حال، تبيَّن أن التأثير الأكثر دوامًا لعود تخليل الأسنان كان على «إيزي» نفسها. ظلت تفكر في ابتسامة «مِيا» ذلك اليوم في المطبخ، القدرة على الفرح ـ التي رأتْها «إيزي» هناك ـ من جراء القيام بالأعمال المشاغبة، من جراء كسر القواعد. كانت أمها لتشعر بالفزع. تعرفتْ «إيزي» على روحٍ قريبة، شرارة مخرِّبةٍ مشابهة لتلك الشرارة التي كثيرًا ما شعرت بها تضطرم في داخلها. بدلًا من أن تغلق على نفسها في غرفتها في الأعلى طوال المساء، بدأت تهبط إذا وصلت «مِيا» وتتلكأ في المطبخ أثناء قيامها بالطهي، مما كان مدعاةً لتندُّر أشقائها. تجاهلتهم «إيزي». كانت مفتونةً بـ«مِيا» لدرجة عدم مبالاتها بهم. ثم، بعد عدة أيام، فتحت «مِيا» لطارق باب المنزل الصغير على طريق «وينسلو» لتجد «إيزي» بالخارج. بادرت «إيزي» من دون تفكير:

ـ أريد أن أكون مساعِدتكِ.

قالت «مِيا»:

ـ أنا لا أحتاج إلى مساعِدة. ولست متأكدة أن الأمر سوف يروق لوالدتكِ.

وضعت «إيزي» يدها على إطار الباب، كما لو أنها خائفة أن «مِيا» قد تغلقه في وجهها:

ـ لا يهمني. أنا فقط أريد أن أتعلم ما تفعلينه. يمكنني مزج موادكِ الكيميائية أو تنظيم أوراقكِ أو أيًّا كان. أي شيء.

تردَّدت «مِيا»:

ـ لا أستطيع تحمُّل تكلفة مساعِدة.

ـ ليس عليكِ أن تدفعي لي. سوف أقوم بذلك من دون مقابل.

لم تكن «إيزي» معتادةً على طلب الخدمات، لكن شيئًا ما في صوتها أخبر «مِيا» أن هذا كان احتياجًا، ليس رغبة. تابعت «إيزي»:

ـ أيًّا كان ما يتعيَّن عملُهُ، سوف أعمله. أرجوكِ.

نظرت «مِيا» إلى «إيزي»، هذه الفتاة صعبة المراس، الجامحة، المتَّقدة، أصبحت فجأة خائفة وواهنة ويائسة. ذكَّرتْ «مِيا»، على نحوٍ غريب، بنفسها حين كانت في عمر «إيزي»، تتمشى في الحي، تتسلق الأسيجة والجدران سعيًا لأفضل صورة، عازمة على إنفاق مال والدتها على التصوير. عازمة على تحقيق هدف وحيد تقريبًا إلى درجة الشطط. شيء ما في داخل «إيزي» تواصل مع شيء ما في داخل «مِيا» والتقط النار. قالت:

ـ حسنًا.

وفتحت الباب بالكامل لتسمح لـ«إيزي» بالدخول.

٨

أثبت افتتان «إيزي» المكتشف حديثًا بـ«مِيا» استمراريتَه. بدلًا من أن تعزل «إيزي» نفسها في غرفة نومها بصحبة كمانها، كانت لتمشي مسافة ميلٍ ونصف إلى المنزل على طريق «وينسلو» بعد انتهاء اليوم الدراسي مباشرةً، حيث ستكون «مِيا» منهمكةً في العمل. سوف تراقب «إيزي» «مِيا»، تتعلم «إيزي» كيف تؤطِّر لقطة، وتحمِّض فيلمًا، وتطبع. في هذه الأثناء، فعلت «بيرْل» العكس تمامًا، تمشي مع «مودي» إلى منزله، سوف تتسكع في الغرفة المشمسة مع أطفال «ريتشاردسون» الثلاثة الأكبر منها. في أعماقها كانت ممتنَّةً لـ«إيزي» لتحويل انتباه «مِيا»: لسنواتٍ كثيرة، لم يكن هناك سواهما، «مِيا» و«بيرْل»، والآن، على أريكة عائلة «ريتشاردسون» الكبيرة، مدَّدت ساقيها في رضا مترَف. في الساعة الخامسة، سوف تقفز «إيزي» في المقعد إلى جوار السائق في السيارة «رابِتْ» وسوف تقود «مِيا» كليهما إلى منزل عائلة «ريتشاردسون»، حيث ستلزم «إيزي» مكانها عند طرف نضد المطبخ وستُعدُّ «مِيا» العشاء، تصغي باهتمامٍ شديد إلى ابنتها والآخرين في الغرفة المجاورة. فقط حين تتوجه «مِيا» إلى المنزل ـ مع «بيرْل» في المقعد بجوار السائق هذه المرة ـ سوف تنضم «إيزي» إلى أشقائها وتسقط فجأة على الأريكة إلى جوارهم. قالت «ليكسي» بنبرةٍ منغَّمة:

ـ أحدهم يشعر بقليل من الإعجاب تجاه «مِيا».

وأدارت «إيزي» عينيها استخفافًا وصعدت إلى الطابق العلوي.

لكن ربما كان إعجاب هو المصطلح الصحيح. تعلقت «إيزي» بكل كلمةٍ نطقتها «مِيا»، سعت «إيزي» إلى طلب رأي «مِيا» بشأن كل شيء ووثقت به. مع أساسيات التصوير، بدأت «إيزي» تتشرب جماليات «مِيا» وأحاسيسها. حين سألت «إيزي» «مِيا» كيف عرفتْ أي صورٍ تضعها معًا، هزَّت «مِيا» رأسها وقالت:

ـ لا أعرف. هذه... هذه الطريقة التي أكتشف بها ما أعتقد.

لوَّحتْ بيدٍ نحو سكين «الإكس-أكتو» على الطاولة، الصورة التي كانت تقطِّعها إرَبًا بحرص: خطٌّ من السيارات المسرعة عبر جسر «لورين ـ كارنيجي»، أسفل العيون الحارسة لتمثالين هائلين منحوتين في دعائم الجسر. استأصلتْ كل سيارة بدقة، تاركةً فقط ظلها. قالت «مِيا» وهي ترفع السكين مرة أخرى:

ـ أخشى أنه ليست لديَّ خطة، لكن بعد ذلك، لا أحد في الحقيقة لديه خطة، لا يهم ماذا يقولون.

ـ أمي لديها خطة، تظن أن لديها خطة لكل شيء.

ـ أنا متأكدة أن ذلك يجعلها تشعر بشعورٍ أفضل.

ـ إنها تكرهني.

ـ أوه، «إيزي»، أنا متأكدةٌ أن هذا ليس صحيحًا.

ـ كلَّا، هذا صحيح. إنها تكرهني. لهذا تنتقدني ولا تنتقد أحدًا من أشقائي الآخرين.

لاحظت «مِيا»، منذ أن بدأت العمل في منزل عائلة «ريتشاردسون»، التفاعل الغريب بين «إيزي» وبقية أفراد عائلتها، خاصةً والدتها. الحق يُقال، كانت والدة «إيزي» أشد قسوة عليها: دائمًا تنتقد سلوكها، دائمًا أقل صبرًا تجاه أخطائها وأوجه قصورها. بدا أن السيدة «ريتشاردسون» تقيِّم «إيزي» وفقًا لمعايير أعلى من أشقائها الآخرين، تطلب منها المزيد، ومع ذلك تتغاضى في الوقت نفسه عن نجاحاتها لصالح أخطائها. لاحظت «مِيا» أن

«إيزي» نزعت إلى الرد على ذلك باستفزاز والدتها أكثر، وارتكاب أفعالٍ تثيرها بخبرة لا يقدر عليها إلا طفل.

قالت «مِيا» الآن:

ـ «إيزي»، سأخبركِ بسرٍّ. في كثيرٍ من الأحيان، لا يكون الوالدان أقدر الناس على رؤية أطفالهم بوضوح. هناك كثير من الأمور الرائعة بشأنك.

منحتْ «مِيا» مرفق «إيزي» ضغطةً قصيرة وألقت حفنة من القصاصات في القمامة، وتهلَّلت «إيزي». أثناء تلك الأمسيات، حين لم يكن هناك أحد سواهما، كان سهلًا بالنسبة لـ«إيزي» التظاهر بأن «مِيا» والدتها؛ وأن غرفة النوم في الرواق هي غرفتها، وحين يحلُّ الليل سوف تدخلها وتنام وتستيقظ في الصباح، وأن «بيرْل» ـ التي تبعد ميلًا ونصف، تشاهد التلفزيون مع أخَوَي «إيزي» وأختها ـ لم توجد، وأن هذه الحياة تنتمي إليها، إلى «إيزي»، إليها وحدها. في الأمسيات، في المنزل مرة أخرى، مع صراخ موسيقى الجاز المنبعث من غرفة «مودي» وعويل «آلانيس موريسيت» المنبعث من استريو «ليكسي» و«تريب» مقدمًا تيارًا خفيًّا ضاربًا من الذبذبات الجهيرة، سوف تتخيل «إيزي» نفسها في المنزل على طريق «وينسلو»: مستلقيةً تقرأ في الفراش، ربما، أو من الممكن أن تكتب قصيدة، «مِيا» بالخارج في غرفة المعيشة تعمل حتى وقتٍ متأخر في الليل. كان هناك كثيرٌ من المسارات الملتفَّة لتحقيق هذا الخيال: لقد استُبدِلت مع «بيرْل» من دون قصد عند الولادة منذ أعوام مضت، أخذها والداها إلى المنزل، اللذان بالتالي ليسا والديها، ولهذا بدا أنه لا أحد في عائلتها يفهمها، لهذا بدت شديدة الاختلاف عنهم جميعًا. الآن، في أحلامها المغزولة بحرص، تم لمُّ شملها مع والدتها. سوف تقول «مِيا» **عرفتُ أنني سأجدكِ يومًا ما.**

لاحظ الجميع في عائلة «ريتشاردسون» سلوك «إيزي» المتحسِّن. أخبرت «ليكسي» «مِيا» ذات يوم:

ـ إنها مبتهجة تقريبًا عندما تكونين حاضرة.

لم يكن عشق «إيزي» لـ«مِيا»، مثل كل شيء تفعله، جزئيًّا، لم يكن هناك شيءٌ لن تفعله «إيزي» من أجل «مِيا». وسرعان ما وجدتْ «إيزي» شيئًا تأكدت أن «مِيا» أرادته حقًّا.

في منتصف نوفمبر، ذهبت «بيرْل» و«مودي» بصحبة البقية من صف دراسة التاريخ الأوروبي الحديث إلى متحف الفن لمشاهدة اللوحات. كان المُحاضر الذي يرافق الصف في الجولة كبير السن ونحيلًا، وبدا كما لو أن كل العصارة قد امتُصَّتْ منه خلال ماصَّة عبر فمه المزموم. لقد كرِهَ مجموعات المدارس الثانوية: المراهقون لا يصغون. ليس بوسع المراهقين الانتباه إلى شيء سوى الغريزة الجنسية التي تندفع من كلٍّ منهم كالبخار. فكَّر أن يُريهم أعمالًا للرسام الإسباني «فيلاسكيز»، لوحات الطبيعة الصامتة، ربما بعض أعمال الإيطالي «كارافاجيو». بالتأكيد لن يُريهم لوحات عارية. قادهم في الطريق الطويل حول الجناح الإيطالي، عبر القاعة الرئيسية والبذلات المدرعة في صناديق زجاجية.

أبدى الطلاب أنفسهم، على أي حال، قليلًا من الانتباه للفن، كما يفعل الطلاب عمومًا في الرحلات الميدانية. وكز «آندي كين» «جيسيكا كلينمان» بين لوحي كتفيها وتظاهر، كل مرة، أنه ليس الفاعل. تكلَّم «كلايتون بوث» و«ديفيد شيرْن» عن كرة القدم، وعن فرص فريق «رايدرز» في مواجهة فريق «سان إجناشس» في المباراة المقبلة. تجاهلت «جيني ليفي» و«تانيشا ماكدويل»، «جيسون جراهام» و«دانتي ساميول»، على نحوٍ مدروس، اللذين كانا يحصيان ويقيِّمان النهود العارية في اللوحات التي أسرع بهم المحاضر بجوارها. «مودي»، الذي أحب الفن، كان يشاهد «بيرْل» ويتمنى ـ ليس للمرة الأولى ـ لو أنه كان مصوِّرًا، حتى يستطيع التقاط الطريقة التي ضرب بها الضوء الآتي من سقف صالة العرض الزجاجي البلوري وجهها وجعله يتوهج.

«بيرْل» نفسها، على الرغم من أنها حاولت أن تركز على المحاضرة الذابلة التي يلقيها المحاضر، وجدت ذهنها ينجرف. خطتْ من الجانب إلى داخل صالة العرض التالية. عرضٌ خاص مختار على أساس ثيمة «السيدة العذراء والطفل». عبر الغرفة، راقبها «مودي»، الذي يسجل بإخلاص ملاحظات عن «كارافاجيو»، وهي تذهب. حين لم تعد بعد ثلاث دقائق، أربع، خمس، وضع قلمه الرصاص في داخل زنبرك دفتره وتبعها.

غرفة صغيرة، بها بضع عشرات من القطع معلَّقةٌ على الجدار، جميعها تعرض العذراء والمسيح في حضنها. كان بعضها لوحات من القرون الوسطى في إطارٍ مذهَّب أكبر بالكاد من علب حفظ السي دي، بعضها رسومات تقريبية بالقلم الرصاص لتماثيل من عصر النهضة، بعضها لوحات ملوَّنة ولافتة للنظر على نحوٍ استثنائي. كان أحدها تجميعًا بعد حداثيٌّ لصورٍ مأخوذة من مجلات النميمة حول المشاهير، للعذراء رأس «جوليا روبرتس»، للمسيح رأس «براد بِت». لكن القطعة التي شلَّت «بيرْل» في مكانها كانت صورة فوتوجرافية: مطبوعة بالأبيض والأسود، مساحتها ثمانية في عشرة، لامرأة على أريكة، تنظر بإشراق للوليدة في ذراعيها. كانت «مِيا» من دون شك. بدأ «مودي» بقوله:

ـ لكن كيف؟

ـ لا أعرف.

حدَّقا في الصورة لبعض الوقت في صمت. بدأ «مودي»، العمليُّ منذ الأزل، في جمع المعلومات. كان عنوان القطعة، وفقًا للبطاقة بجوارها، «العذراء والطفل #1 (١٩٨٢)»، كانت الفنانة «بولين هوثورن». دوَّن «مودي» هذه البيانات في دفتره أسفل ملاحظاته المهجورة عن «كارافاجيو». لم تكن هناك تعليقات لقيِّم المتحف، سوى ملاحظة تقول إن الصورة مُعارةٌ للعرض من «إلسوورث جاليري» في لوس أنجلوس.

ركزت «بيرْل»، من جهةٍ أخرى، على الصورة الفوتوجرافية نفسها. كانت

هناك والدتها، بعظام الوجنتين العاليتين والذقن المدبَّب نفسه. الشَّامة الدقيقة أسفل عينها، الندبة التي شقَّت مثل خيطٍ أبيض عبر حاجبها. كانت هناك ذراعا والدتها النحيلتان، اللتان بدتا هشَّتين وشبيهتين بذراعي طائر، كما لو أنهما قد تتهشمان تحت ثقلٍ شديد الضخامة، لكنهما تستطيعان حمل أكثر مما تستطيعه أي امرأة رأتها «بيرْل» من قبل. حتى شعر والدتها كان كما هو: مكوَّمًا في الرَّبطة المهمَلة نفسها، بالضبط على قمة رأسها. يتدفق الجمال منها في موجات، مثل الحرارة، بدت هيئتها في الصورة الفوتوجرافية كما لو أنها تتوهج. لم تكن تنظر إلى الكاميرا، كانت مركِّزةً، مستغرقةً تمامًا وكليَّةً، في الطفلة أمامها. فيَّ أنا، هكذا فكرت «بيرْل». كانت متأكدة أنها هي مَن في الصورة. أي رضيعٍ آخر قد تحمله والدتها؟ لم تكن هناك صورٌ لـ«بيرْل» وهي رضيعة، لكنها تعرفت على نفسها في هذه الطفلة، في قصبة الأنف وزوايا العينين، في القبضتين المكوَّرتين المحكمتين اللتين استمرت في صنعهما في مرحلتَي بداية المشي والطفولة، واللتين كانت تصنعهما حتى الآن في حالة تركيزها من دون أن تدرك ذلك. من أين أتتْ هذه الصورة؟ الأريكة ذات الدرجة الرمادية التي جلستْ عليها والدتها قد تكون سمراء أو ذات لون أزرق باهت، أو حتى أصفر كناري، النافذة خلفها تطل على منظرٍ مبهم لبناياتٍ طويلة. الشخص الذي التقط الصورة بعيدٌ بعدة خطوات، كما لو أنه جلس على مقعد بذراعين بجوار الأريكة تمامًا. من كان؟

قالت السيدة «جاكوبسون» من خلفها:

ـ آنسة «وارِن»، سيد «ريتشاردسون».

التفتت «بيرْل» و«مودي»، وجهاهما خدِران بفعل الحرارة.

ـ إذا كنتما مستعدين للتقدُّم، فالصفُّ بأكمله في انتظاركما.

وفي الحقيقة، كان الصفُّ بأكمله متجمعًا بالخارج، الدفاتر مغلقةٌ الآن، رافقهم المحاضر بإخلاص، يقهقهون ويتهامسون فيما ظهر «مودي» و«بيرْل».

في رحلة العودة بالحافلة إلى البلدة، بدأت الدعابات تدور حول ما

كان «مودي» و«بيرْل» يفعلانه. تحول «مودي» إلى اللون الأحمر القاني وتراخى في مقعده، متظاهرًا أنه لا يسمع. حدقت «بيرْل» ذاهلةً خارج النافذة. لم تقل شيئًا حتى وصلت الحافلة إلى المساحة البيضاوية حول المدرسة وبدأ الطلاب في التحرك إلى خارجها. قالت لـ«مودي» وهما ينزلان من الحافلة:

ـ أريد أن أعود إلى هناك.

وقد فعلا ذلك، بعد الظهيرة، بعد انتهاء اليوم الدراسي، بعد إقناع «ليكسي» بأن توصلهما بسيارتها لأنه ما من وسيلة جيدة للوصول إلى هناك غير ذلك، وبعد السماح لـ«إيزي» بمرافقتهما لأنها أصرَّت على المجيء معهما لحظة أن سمعتْ «مِيا» وصورة فوتوجرافية. «مودي»، الذي قام بالإقناع، لم يخبر «ليكسي» بالذي يريدون رؤيته، وحين خطوا إلى داخل صالة العرض سقط فمها مفتوحًا. قالت:

ـ واو، «بيرْل»، هذه والدتك.

تفحَّص أربعتهم الصورة: «ليكسي» من منتصف الغرفة، كما لو أنها احتاجت مسافةً لرؤيةٍ أفضل، كاد «مودي» أن يلطخ الصورة بأنفه، كما لو أنه قد يجد الإجابة بين النقاط المكونة للصورة، ومنحنيًا لمسافةٍ قريبة لدرجة أنه تسبب في إطلاق جرس الإنذار. حدقت «بيرْل» ببساطة. ووقفت «إيزي» مشلولةً بفعل هيئة «مِيا». كانت «مِيا» منيرةً في الصورة مثل قمرٍ مكتملٍ في ليلةٍ صافية. قرأتْ «إيزي» على البطاقة الملصقة: «العذراء والطفل #1»، وسمحت لنفسها بالتخيُّل للحظة أنها كانت الطفلة بين ذراعَي «مِيا».

قالت «ليكسي» أخيرًا:

ـ هذا أمرٌ شديد الجنون، يا إلهي، هذا أمر شديد الجنون. ماذا تفعل والدتكِ في صورة في متحف الفن؟ هل هي مشهورةٌ من دون أن يعرف أحد؟

أكَّد «مودي»:

ـ الأشخاص الذين يظهرون في الصور ليسوا مشهورين، بل الأشخاص الذين التقطوا الصور هم المشهورون.

ـ ربما كانت مُلهمة فنان مشهور. مثل «بِتي سميث» و«روبرت مابلثورب». أو «إيدي سدجويك» و«آندي وارهول».

درست «ليكسي» تاريخ الفن في المتحف في الصيف الماضي. اعتدلتْ في وقفتها قائلة:

ـ حسنًا، دعونا نسألها، سوف نسألها وحسب.

وفعلوا ذلك بمجرد وصولهم إلى المنزل، دخلوا إلى مطبخ «ريتشاردسون» كأنهم جنود في الجيش، حيث انتهت «مِيا» لتوها من تتبيل دجاجة للعشاء.

قالت بينما دخلوا جميعهم:

ـ أين كنتم جميعًا؟ لقد وصلتُ هنا في الخامسة ولم يكن أحدٌ بالمنزل.

بادرت «بيرْل» بالقول:

ـ ذهبنا إلى المتحف.

ثم ترددت. شعرت أن شيئًا ما بخصوص هذا الموضوع ليس صائبًا بالنسبة لها، الشعور نفسه بعدم الارتياح الذي يصيبك حين تضع قدمك على درجة سلَّم متقلقلة، مباشرةً قبل أن تسقط من تحتك. تجمَّع «مودي» و«إيزي» و«ليكسي» حولها، ورأت الطريقة التي لا بد أنهم ينظرون بها إلى والدتها، متوردي البشرة ومتَّسعي العيون وينتابهم الفضول. حثَّتْ «ليكسي» «بيرْل» من الخلف قائلة:

ـ اسأليها.

قالت «مِيا»:

ـ تسألني عن ماذا؟

وضعت «مِيا» الدجاجة في طبقٍ خزفيٍّ عميق وذهبت إلى الحوض لتغسل يديها، و«بيرْل»، بإحساس القفز بخطوة واحدة من على لوح غطس عالٍ جدًّا، هاوية إلى الأمام، بادرت من دون تفكير:

ـ هناك صورة لكِ، في متحف الفن. صورة لكِ جالسة على أريكة وتحملين طفلةً رضيعة.

كان ظهر «مِيا» ما زال في مواجهتهم، الماء يتدفق على يديها، لكن الأطفال الأربعة جميعًا رأوا ذلك: تصلُّبًا طفيفًا في وقفتها، كما لو أن خيطًا تم تضييقه حولها. لم تستدِر لكنها ظلت تحكُّ ما بين أصابعها. قالت:

ـ صورة لي، يا «بيرْل»؟ في متحف الفن؟ تقصدين أحدًا يشبهني وحسب.

قالت «ليكسي»:

ـ إنها أنتِ، إنها أنتِ بالتأكيد. بهذه النقطة الصغيرة أسفل عينك والندبة على حاجبك وكل شيء.

لمستْ «مِيا» حاجبها بأحد مفاصل أصابعها، كما لو أنها نسيت الندبة الموجودة، وسالت قطرةٌ من الماء الرَّغوي الدافئ على صدغها. ثم شطفتْ يديها وأغلقت الصنبور. قالت:

ـ أفترض أنها ربما كانت أنا.

التفتت وبدأت تجفف يديها بخفة على منشفة الصحون، وممَّا كدَّر «بيرْل» أن وجه والدتها صار فجأة متصلبًا وغير معبِّر عمَّا يجيش في داخلها. كان الأمر مربكًا، مثل رؤية بابٍ كان دائمًا مفتوحًا يُغلقُ فجأة. للحظة، لم تبدُ «مِيا» وكأنها أمها على الإطلاق. تابعت:

ـ تعلمون، يبحث المصوِّرون دائمًا عن عارضات. كثيرٌ من طلاب الفن فعلوا ذلك.

أصرَّت «ليكسي»:

ـ لكنكِ كنتِ لتتذكري، كنتِ تجلسين على أريكة في شقةٍ لطيفة. وكانت «بيرْل» في حضنكِ. كانت المصوِّرة...

التفتتْ إلى «مودي» قائلة:

ـ ما اسمها؟

ـ «هوثورن». «بولين هوثورن».

كرَّرتْ «ليكسي» كما لو أن «مِيا» لم تسمع:

ـ «بولين هوثورن»، لا بد أنكِ تتذكرين الأمر.

هزَّت «مِيا» منشفة الأطباق بجذبةٍ سريعةٍ من معصمها. قالت:

ـ «ليكسي»، أنا حقًّا لا أتذكر جميع الأعمال الغريبة التي قمتُ بها، تعلمين، حين تكونين في عوَزٍ شديد تفعلين كثيرًا من الأشياء فقط لتحاولي سد رمقكِ. أتساءل إن أمكنكِ تخيُّل كيف يكون هذا الأمر.

التفتتْ إلى الحوض وعلَّقت المنشفة لتجف، وأدركتْ «بيرْل» أنها تعاملت مع الأمر بطريقة خاطئة تمامًا. ما كان عليها أن تسأل والدتها بهذه الطريقة، في مطبخ «ريتشاردسون» بأسطُح مناضده الجرانيتية وثلاجته المصنوعة من الصلب المقاوم للصدأ وبلاطات «التراكوتا» الخزفية الإيطالية، أمام أطفال «ريتشاردسون» المرتدين ستراتهم المبهجة اللامعة من إنتاج «نورث فايس»، خاصةً أمام «ليكسي»، التي ما زالت مفاتيح سيارتها «الإكسبلورر» تتدلى من إحدى يديها. لو أنها انتظَرت حتى تصبح ووالدتها وحدهما، هناك في المنزل، في المطبخ الصغير الباهت، في نصف البيت الخاص بهما على طريق «وينسلو»، جالستين على مقعديهما غير المتناسقين إلى المصراع الباقي من طاولتهما المأخوذة من جانب الطريق، لربما أخبرتها والدتها. رأتْ «بيرْل» خطأها بالفعل: كان هذا شأنًا خاصًّا، شيئًا كان ينبغي أن يُحفظ بينهما، وبضمِّ عائلة «ريتشاردسون» اخترقت حاجزًا ما كان ينبغي كسره. الآن، بالنظر إلى فكِّ والدتها المنطبق وعينيها المطفأتين، شعرتْ أنه لا معنى لتوجيه مزيد من الأسئلة.

رضيَت «ليكسي»، من جانبها، بتوضيح «مِيا»، قالت بينما غادروا المطبخ وهي تهز كتفيها:

ـ مفارَقة، أليس كذلك؟

تخلت «بيرْل» عن مناقشة الأمر من دون حتى أن تكلِّف نفسها بإخبار «ليكسي» أن هذا ليس معنى كلمة مفارقة. كانت سعيدة بالتوقف عن مناقشة

المسألة. حين قادت والدتها السيارة إلى المنزل، وطوال الأمسية، كانت صامتةً صمتًا غريبًا، وندمت «بيرْل» على ذكر المسألة أصلًا. كانت «بيرْل» دائمًا واعيةً بالمال ـ في ظروفهما، كيف أمكنها ألا تفعل ـ لكنها لم تفكِّر ما كانت عليه الحال مع والدتها بوجود طفلة رضيعة، محاولة كسب رزقها بصعوبة. تساءلت ماذا أيضًا تعيَّن على والدتها أن تفعل كي تصمد ـ كي تتمكن كلتاهما من الصمود ـ في تلك السنوات المبكرة. لم تذهب «بيرْل» إلى فراشها قطُّ طوال حياتها من دون أن تأتي «مِيا» لتقبِّلها متمنيةً ليلة سعيدة، لكن «مِيا» لم تفعل ذلك تلك الليلة، وجلست في غرفة المعيشة في بركةٍ من الضوء، وجهها ما زال متجهمًا، تائهة في التفكير.

في الصباح التالي، ارتاحت «بيرْل» حين دخلت إلى المطبخ وكانت «مِيا» هناك، تصنع خبز «التوست» كالعادة، وتواصل العمل كما لو أن اليوم السابق لم يكن. لكن مسألة الصورة الفوتوجرافية ظلت عالقةً في الجو مثل رائحةٍ كريهة، وطوتْ «بيرْل» أسئلتها في ركن قصي من عقلها وقررت ألا تقول المزيد عن الأمر، في الوقت الحالي على الأقل.

سألت:

ـ هل أُعِدُّ بعض الشاي؟

* * *

كانت «إيزي»، على أي حال، مصممةً على العثور على إجابات. من الواضح أن هذه الصورة تحوي سرًّا ما عن «مِيا»، وعاهدت «إيزي» نفسها على كشفه. ولأنها طالبة في السنة الأولى، لم تكن لديها حصصٌ خالية، لكنها خصَّصت بعض فترات الغداء للبحث في المكتبة. بحثت عن «بولين هوثورن» في فهرس البطاقات ووجدت كتبًا قليلة عن تاريخ الفن. على ما يبدو أنها كانت معروفة للغاية. وصفها أحد الكتب بـ«إحدى رائدات التصوير الفوتوجرافي الأمريكي الحديث». وصفها كتابٌ آخر بـ««سيندي شيرمان» قبل أن تكون «سيندي شيرمان» هي «سيندي شيرمان»». (عند هذه النقطة أخذت «إيزي»

انعطافًا وجيزًا لتبحث عن «سيندي شيرمان»، وقضت وقتًا طويلًا في ملاحقة صورها الفوتوجرافية لدرجة أنها كادت تتأخر عن الصف).

علمت «إيزي» أن عمل «بولين هوثورن» اشتُهِر بسبب آنيَّته وحميميَّته، بسبب استنطاق صور الأنوثة والهوية. قالت «سيندي شيرمان» نفسها في إحدى اللمحات الموجزة عن حياتها الشخصية: «مهَّدت «بولين هوثورن» الطريق من أجلي ومن أجل مصوِّراتٍ أخريات». تأملت «إيزي» في نُسخ صور «بولين»: الصورة المفضلة بالنسبة لـ«إيزي» كانت لقطةً لربة منزل وابنتها على الأرجوحة، الطفلة ترفس بساقيها بقوة لدرجة أن سلسلة الأرجوحة تقوَّست، تتحدى الجاذبية، ذراعا المرأة ممدودتان كما لو أنها تدفع الطفلة بعيدًا أو يائستان لتجذبها للخلف. أثارت الصور مشاعر لم تتمكن «إيزي» تمامًا من صياغتها بالكلمات، وهذا يعني، كما قررتْ، أنها أعمالٌ فنية حقيقية.

مشَّطتْ «إيزي» كل مادة وجدتْها عن «بولين هوثورن» في فهرس البطاقات حتى جمَّعت الحقائق الأساسية عن حياتها: وُلِدت في العام ١٩٤٧ في نيو جيرسي، درست في كلية «جاردن ستايت»، عرضتْ أول أعمالها في مدينة نيويورك في ١٩٧٠، أقامت معرضها المنفرد الأول في ١٩٧٢. عرفت «إيزي» أن صور «بولين» الفوتوجرافية تُعد من أكثر الصور المرغوبة في السبعينيات. تحوي المادة الواردة عن «بولين هوثورن» في الموسوعة صورة لها شخصيًّا، امرأة نحيلة ذات عينين داكنتين واسعتين وشعرٍ فضِّي قصيرٍ مصفَّفٍ ببساطة. بدت مثل مدرِّسة أحدهم لمادة الرياضيات.

عرفت «إيزي» أن «بولين هوثورن» ماتت بسبب سرطان المخ في ١٩٨٢. استقرت «إيزي» أمام أحد جهازَي الكمبيوتر في المكتبة، منتظرةً أن يتصل جهاز «المودِم» بالإنترنت، وكتبت اسم «بولين» على محرك بحث «ألتافيستا». وجدتْ مزيدًا من الصور الفوتوجرافية. متحف «جيتي» لديه واحدة، متحف الفن الحديث «موما» لديه ثلاث، عدة مقالات تحلل

عملها، نعي من جريدة «نيويورك تايمز». ما مِن شيءٍ آخر. حاولت البحث في المكتبة العامة، بفرعيها، وجدتْ مزيدًا من كتب التصوير الفوتوجرافي وعدة مقالات عن «الميكروفيش»[1]، لكنها لم تُضِف شيئًا جديدًا. ما الصِّلة التي ربطت بين «بولين هوثورن» و«مِيا»؟ ربما كانت «مِيا» ـ ببساطة ـ عارضةً، مثلما قالت، ربما حدث وحسب أنها تموضعت كي تلتقط «بولين هوثورن» صورةً لها. لكن هذا التفسير لم يُرضِ «إيزي»، التي شعرت أن هذه مصادفة مهمة.

في النهاية تحوَّلت إلى المصدر الوحيد الذي أمكنها التفكير فيه: والدتها. كانت والدتها صحفية، على الأقل هذه صفتها. إنها حقيقة أن والدتها تغطي فقط القصص الصحفية الصغيرة، لكن الصحفيين يكتشفون الحقائق. لديهم صلات، لديهم طرق للبحث ليست متاحةً للجميع. منذ الطفولة المبكرة، كانت «إيزي» مستقلةً بضراوة وعناد، رفضت طلب المساعدة في أي شيء. فقط التوق الشديد لحل لغز هذه الصورة الغامضة أمكنه أن يدفع «إيزي» للاقتراب من والدتها. قالت في إحدى الأمسيات، بعد عدة أيام من البحث العقيم:

ـ أمي، هل يمكنك مساعدتي في شيءٍ ما؟

استمعت السيدة «ريتشاردسون» بنصف انتباهها وحسب كعادتها مع «إيزي». يلوح موعدٌ نهائيٌّ للانتهاء من قصة إخبارية عن موسم «ناتشر سنتر» للتخفيضات السنوية على النباتات. قالت:

ـ «إيزي»، ربما لا تكون هذه الصورة حتى لوالدة «بيرْل». قد تكون لأي شخص. شخص يشبهها. أنا متأكدة أنها مجرد مصادفة.

أصرَّت «إيزي»:

ـ إنها ليست مصادفة، «بيرْل» عرفت أن المرأة في الصورة والدتها وأنا

(١) التصوير المصغَّر لصفحات الجرائد والكاتالوجات والوثائق الأخرى. (المترجمة).

رأيتها أيضًا. هلَّا نظرتِ إليها فقط؟ اتصلي بالمتحف أو افعلي شيئًا ما. اسعي لمعرفة ما يمكنك اكتشافه. أرجوكِ.

لم تُحسن «إيزي» التملُّق قطُّ ـ شعرت دائمًا أن التزلُّف من الكذب ـ لكنها أرادت هذا بشدة. قالت:

ـ أنا متأكدة أن بمقدورك اكتشاف شيء ما. أنتِ مراسلة صحفية.

استسلمت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ حسنًا، سأرى ما يمكنني اكتشافه. لكن الأمر يجب أن ينتظر لما بعد موعد التسليم النهائي لهذه القصة الإخبارية. يجب أن أقدِّم هذه القصة الإخبارية بحلول الغد.

أضافت فيما رقصت «إيزي» وهي متجهة نحو الباب بغبطةٍ مكتومة:

ـ ربما لن يكون هناك شيءٌ، كما تعرفين.

لمستْ كلمات «إيزي» ـ «أنتِ مراسلة صحفية» ـ غرور والدتها مثل إصبع ضغطت على كدمةٍ قديمة. أرادت السيدة «ريتشاردسون» طوال حياتها أنْ تكون صحفية، قبل اختبارات الجدارة التي أدارها مستشار التوجيه الخاص بها في المدرسة الثانوية. وضحتْ في خطابٍ مدنيٍّ عن وظائف الأحلام:

ـ الصحفيون يسجلون حياتنا اليومية. يكشفون الحقيقة والمعلومات التي يستحق الجمهور أن يعرفها. ويقدمون سجلًّا للذُّرية، لتتمكن الأجيال القادمة من التعلم من أخطائنا وتطوير إنجازاتنا.

بقدر ما استطاعت أن تتذكر، كانت والدتها دائمًا مشغولةً بلجنةٍ ما أو بأخرى، تنادي بمزيدٍ من التمويل للمدارس، بمزيدٍ من المساواة، بمزيدٍ من العدالة، وتصطحب ابنتها الشابة معها. قالت والدة «إيلينا» دائمًا مرددةً شعار «شايكِر»:

ـ التغيير لا يحدث من تلقاء نفسه، يجب أن يُخطط.

في صف التاريخ، حين تعلمت «إيلينا» الشابة مصطلح التزام النبلاء، فهمته على الفور. بدت الصحافة، بالنسبة للسيدة «ريتشاردسون»، مهنةً نبيلة، حيث

بمقدورك فعل الخير في إطار النظام، وتصوَّرت في ذهنها مزيجًا من «نيلي بلاي» و«لويس لاين». بعد العمل في جريدة المدرسة لأربعة أعوام ـ وشق طريقها إلى أعلى للوصول إلى منصب رئيس التحرير المُشارك في السنة الرابعة ـ لم يبدُ الأمر ممكنًا وحسب، بل حتميًّا.

تخرجت في المركز الثاني على دفعتها وكان لها حق اختيار الجامعة: منحةٌ كاملة في كلية «أوبرلين»، منحةٌ جزئية في جامعة «دنيسون»، قبولٌ في الكليات في جميع أنحاء الولاية، بدءًا من «كينيون» مرورًا بـ«كينت ستايت» وصولًا إلى «وستر». فضلت والدتها كلية «أوبرلين»، وحثَّتها للتقديم بها منذ البداية، لكن حين زارت «إيلينا» الحرم الجامعي، شعرت على الفور أنه ليس مكانها. أزعجتْها مساكن الطلاب المختلطة، جميع الرجال يرتدون ملابسهم الداخلية فقط، جميع الفتيات بأرديتهن المنزلية، معرفةُ أن فتى قد يدلف إلى غرفتها في أي لحظة، أو الأسوأ، إلى الحمَّام. على درجات سلَّم المبنى، جلس ثلاثة طلاب طويلي الشعر يرتدون القمصان الأفريقية الملونة يعزفون بالصافرات المنزلقة، عبر المساحة الخضراء، رفع طلابٌ لافتاتٍ في احتجاجٍ صامت: «تعاطوا «الإل إس دي» ولا تسقطوا القنابل»، «أنا لا أبالي بالرئيس. إسقاط القنابل لتحقيق السلام مثل المضاجعة لتحقيق العذرية». شعرت «إيلينا» أن المكان يشبه دولةً أجنبية لا تصل إليها القواعد. كافحت الحاجة المُلحة للتصرف بعصبية، كما لو أن الحرم الجامعي سترةً تثير الحكَّة.

هكذا ذهبت إلى جامعة «دنيسون» في الخريف التالي بدلًا من «أوبرلين»، بمستقبلٍ طموحٍ ومرموقٍ ومخَطَّط. في اليوم الثاني من حضور الصفوف التقت «بيلي ريتشاردسون»، طويل ووسيم على هيئة «كلاك كِنت»، وبنهاية الشهر أخذت علاقتهما الرومانسية تسير بخطًى ثابتة. وضعا خططًا فاضلة للمستقبل: بعد التخرج، زفافٌ أبيض في كليفلاند، منزلٌ في «شايكِر»، كثيرٌ من الأطفال، سيدرس القانون، ستتمرن على المراسلة الصحفية، خطةٌ اتبعاها بدقةٍ شديدة. بمجرد أن تزوجا واستقرَّا في منزلٍ مزدوجٍ مؤجَّرٍ في «شايكِر»،

بدأ السيد «ريتشاردسون» دراسة القانون وعُرِض على السيدة «ريتشاردسون» منصب مراسِلة مبتدئة في جريدة «صَن برِس». كانت جريدةً صغيرة، ركزت على الأخبار المحلية، وكان الأجر منخفضًا بما يتناسب مع الخبرة. مع ذلك، قررت أن «شايكِر» مكانٌ واعدٌ بما يكفي للبداية. مع الوقت، ربما، سوف تتمكن من تحقيق القفزة إلى جريدة «بلاين ديلر»، جريدة كليفلاند «الحقيقية»، على الرغم من أنها لن ترغب بالطبع في مغادرة «شايكِر»، ليس بوسعها تخيُّل إنشاء عائلة في أي مكانٍ آخر.

غطَّت «إيلينا» بإخلاص جميع المؤتمرات الصحفية المحلية، وأخبار المدينة السياسية، والتأثيرات الإقليمية للوائح التنظيمية الجديدة على كل شيء من الجسور حتى زراعة الأشجار، مشاركة المسؤولية مع المراسل المبتدئ الآخر، «دوايت»، الذي كان أصغر منها بعام. كانت بيئة عمل جيدة. تسمح لها بأخذ إجازة أمومة بعد ولادة «ليكسي»، ثم «تريب»، ثم «مودي». بحلول وقت مجيء «إيزي»، على أي حال، وجدت السيدة «ريتشاردسون» نفسها لا تزال في جريدة «صَن برِس»، في منصب كبيرة مراسلين الآن، لكنها ما زالت محصورة في تغطية القصص الصحفية الصغيرة، الأخبار الصغيرة. انتقل «دوايت»، في هذه الأثناء، إلى شيكاغو، للحصول على وظيفة في جريدة «تريبيون». أكان ذلك بسبب الوقت الذي استقطعتْه في الإجازات، أم إن الحقيقة ـ كما بدأت تدرك ـ أنه لا رغبة لديها في دخول دهاليز القصص الإخبارية الصعبة والمآسي المريرة؟ إنها لن تستقيل بالتأكيد، لكن كلما مرَّ مزيدٌ من الوقت، بدا احتمال استطاعتها الانتقال إلى مكان آخر أقل، وأصبح الأمر مسألة الدجاجة والبيضة. لا أحد في جريدة «بلاين ديلر»، أو أي أحد آخر فيما يتعلق بهذا الأمر، بدا أنه مهتم بتشغيل مراسِلة صحفية تقترب من الأربعين، لديها أربعة أطفال مع كل ما يصاحب ذلك من التزامات، ولم تُغطِّ قطُّ قصةً إخبارية كبيرة، وليس مهمًّا إذا كان هذا سببًا لذلك أم العكس.

وهكذا بقيَت، ركزت على القصص الإخبارية التي تُشعر من يقرأها بحالةٍ

جيدة، مقالات مجاملة للتقدم: المبادرة الجديدة لإعادة تدوير المخلفات، وإعادة تصميم المكتبة، ومراسم قص الشريط لافتتاح الملعب الجديد الواقع خلفها. غطّت السيدة «ريتشاردسون» أداء مدير المدينة الجديد لحلف اليمين («المهيب») ومهرجان «الهالوين» («المفعم بالحياة»)، وافتتاح متجر بيع «الكتب بنصف السعر» في مركز «فان أكِن» («إضافةٌ مطلوبةٌ بشدة في حي «شايكِر» التجاري»)، وأثارت جدلًا حول رش حشرات العُثّ الغجري بالمبيدات («جدلٌ ساخنٌ من الجانبين»). كتبت مراجعةً عن عرض مسرحية «جريس» في «كنيسة يونيتاريان» ومسرحية «جايز آند دولز» في المدرسة الثانوية: كتبت عن أحدهما أنه «مرِح»، وعن الآخر «اتخذوا مقاعدكم، إنهم يعكرون الصفو!». أصبحت معروفة بإمكانية الاعتماد عليها وبتقديم تقاريرها الإخبارية نظيفةً وخالية من الأخطاء، إذا عُدَّ كلٌّ من ـ على الرغم من أن أحدًا لم يقل ذلك علنًا ـ الروتين والعاديَّة أمرَين لطيفَين بشدة. كانت «شايكِر هايتْس» آمنةً على نحوٍ يمكن الاعتماد عليه، وهكذا فإن الأخبار، كما البلدة، مملّة تبعًا لذلك. في العالم بالخارج، ثارت البراكين، نشأت حكومات وانهارت وقايضت على رهائن، انفجرت صواريخ، سقطت أسوار. لكن في «شايكِر هايتْس»، كانت الأمور مسالمة، والإضرابات والقنابل والزلازل كانت ضربات هادئة، مكتومة بسبب بُعدها. كان منزلها كبيرًا، أطفالها آمنين وسعداء ويتلقون تعليمًا جيدًا. شكّل هذا، كما قالت لنفسها، النقاط الرئيسية لما خطّطت له طوال تلك السنوات الماضية.

طرح طلب «إيزي»، على أي حال، شيئًا جديدًا، شيئًا مدهشًا، أو على الأقل مثيرًا للاهتمام. شيئًا يستحق التحري عنه أخيرًا.

* * *

وفاءً بوعدها، قدمت السيدة «ريتشاردسون» قصتها الإخبارية والتفتت إلى الصورة الفوتوجرافية الغامضة. في استراحة غداء اليوم التالي، توقفت عند المتحف لتراها بنفسها. حتى ذلك الحين، كانت متأكدةً أن «إيزي» تتخيل

أمورًا وحسب، لكنها كانت على صواب: كانت هذه «مِيا» من دون شك. في صورةٍ التقطتها «بولين هوثورن»! لقد سمعت السيدة «ريتشاردسون» عن «بولين هوثورن» بالطبع. ما القصة؟ تحيَّرت السيدة «ريتشاردسون» بهذا الشأن فيما أسقطت خمسة دولارات مطوية في صندوق تبرعات المتحف وخرجت متوجهةً إلى سيارتها، مفتونةً بصدق.

كانت خطوتها الأولى الاتصال بصالة الفنون التي أعارت الصورة إلى العرض الفني. نعم، أخبرها المالك، أنهم اشتروا الصورة في ١٩٨٢، من وسيطٍ في نيويورك. كان هذا بعد وفاة «بولين» بوقتٍ قصير، وقد شاع قدرٌ كبيرٌ من الحماسة في عالم الفن حين عُرِضت هذه الصورة، التي لم تُعرف من قبل، للبيع. عُقِد مزادٌ شرس وكانوا مبتهجين للحصول عليها مقابل خمسين ألف دولار، صفقة ممتازة حقًّا. نعم، نُسِبت الصورة نهائيًّا إلى «بولين هوثورن»: لقد باع الوسيط كثيرًا من أعمال «بولين» على مر الأعوام، والصورة ـ الطبعة الوحيدة، كما قيل لهم ـ وقَّعتها «بولين» بنفسها على الظهر. لا، مالك الصورة كان مجهولًا، لكن يسرهم إعطاء السيدة «ريتشاردسون» اسم الوسيط.

دوَّنت السيدة «ريتشاردسون» الاسم ـ «أنيتا ريس» ـ وبعد مكالمة سريعة بإدارة نيويورك للمعلومات العامة، حصلت على رقم صالة «ريس» لعرض الأعمال الفنية في مانهاتن. أثبتت «أنيتا ريس»، حين تم الوصول إليها على الهاتف، أنها نيويوركيَّة أصيلة: ممتلئة بالطاقة، سريعة الكلام، ورابطة الجأش:

ـ صورة لـ«بولين هوثورن»؟ نعم. أنا متأكدة أنني فعلتُ. لقد مثَّلتُ «بولين هوثورن» لأعوام.

سمعت السيدة «ريتشاردسون» عبر الهاتف دويًّا خافتًا لصافرة إنذار يمر ثم يتلاشى بعيدًا. كان هذا ما تبدو عليه نيويورك دائمًا في ذهنها: أبواق سيارات، شاحنات، صافرات إنذار. ذهبت إلى نيويورك مرة واحدة فقط، في الجامعة، في الأيام التي كان يجب عليك أن تمسك حقيبتك بشدة بكلتا

يديك ولا تجرؤ على لمس أي شيء في القطار النفقي، حتى الأعمدة. رسختْ نيويورك في ذاكرتها على هذا النحو.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ لكن هذه الصورة بيعتْ بعد وفاة «بولين». بواسطة شخصٍ آخر. إنها صورة امرأة تحمل رضيعًا. سُميت **العذراء والطفل #1**.

عم الصمتُ فجأة لدرجة أن السيدة «ريتشاردسون» ظنت أن المكالمة بينهما قد انقطعت. لكن بعد لحظة، تحدثت «أنيتا ريس» مرة أخرى:

ـ نعم، أتذكر تلك الصورة.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أتساءل فقط لو أن بإمكانكِ إعطائي اسم الشخص الذي باع الصورة.

توهَّج شيءٌ جديد في صوت «أنيتا»: الشك. قالت:

ـ أخبريني ثانيةً من أين قلتِ إنكِ تتصلين؟

ـ اسمي «إيلينا ريتشاردسون».

ترددت السيدة «ريتشاردسون» للحظة:

ـ أعمل مراسلة صحفية بجريدة «صَن برِس»، في كليفلاند، أوهايو. الأمر متعلقٌ بقصةٍ إخبارية أُجري بحثًا بشأنها.

ـ فهمت.

سكتةٌ أخرى.

ـ أنا آسفة، لكن المالك الأصلي لتلك الصورة يرغب في أن يظل مجهولًا. لأسبابٍ شخصية. لستُ في حِلٍّ لأكشف عن اسم البائع.

ثنت السيدة «ريتشاردسون» زاوية مفكرتها في ضيق:

ـ أفهم ذلك. حسنًا، ما يهمني حقًّا هو مَن في الصورة. هل تسنَّى لكِ معرفة أي معلومات عن هويتها؟

هذه المرة لم يكن هناك مجالٌ للخطأ: صمتٌ حذرٌ قاطع، وحين تحدثت «أنيتا ريس» مرة أخرى، كان حديثها مصحوبًا بلمسةٍ من الصقيع:

ـ أخشى أنه ليس لديَّ ما أشاركِكِ إياه. حظًّا طيبًا في العمل على قصتكِ الإخبارية.

وضعت السيدة «ريتشاردسون» الهاتف. باعتبارها صحفية، لم تكن غير معتادة على أن يُغلق الخط في وجهها، لكن هذه المرة أزعجتْها بما يفوق الوصف. ربما كان بالأمر شيء، غموضٌ غريب ينتظر أن يُكشف. نظرت إلى شاشتها، حيث قطعة لم تكتمل صياغتها؛ «هل ينبغي أن يرشح «جور» نفسه لمنصب الرئيس؟ السكان المحليون يدلون بآرائهم»، جلستْ تنتظر.

فكرت السيدة «ريتشاردسون» أن جامعي الأعمال الفنية غالبًا ما يفضلون العزلة. لا سيَّما حين يتعلق الأمر بالمال. تلك المرأة «أنيتا ريس» قد لا تعرف حتى أي شيء عن الصورة غير العمولة التي حصلت عليها أيًّا كانت قيمتها. ومن الذي أغواها بالبحث في هذا الموضوع على أي حال؟ «إيزي». ابنتها الطائشة المتحمسة، المتجاوزة في ردود أفعالها على الدوام، المعرَّضة لنوبات السخط العارمة بشأن لا شيء على الإطلاق.

فكرت السيدة «ريتشاردسون» أن هذا وحده كان علامة على أنها تسقط في جحر أرنب. قلبت مفكرتها مرة أخرى على صفحة ملاحظاتها حول نائب الرئيس وبدأت في الكتابة.

٩

ظلت السيدة «ريتشاردسون» متضايقة من «إيزي» طوال الأسبوع، على الرغم من أنها، والحق يُقال، اعتادت على أن تتضايق من «إيزي» لسببٍ أو لآخر. امتدت جذور انزعاجها طويلة ومتفرعة وعميقة. لم يكن السبب ـ كما شكّت «إيزي» بنفسها، وكما أغاظتها «ليكسي» في لحظات الدناءة ـ أن «إيزي» جاءت صدفة، أو كانت غير مرغوبة. في الواقع، العكس هو الصحيح تمامًا.

دائمًا ما أرادت السيدة «ريتشاردسون» عائلةً كبيرة. لأنها كانت هي نفسها طفلة وحيدة، فقد نشأت وهي تشتهي وجود إخوة وأخوات، تحسد صديقاتها مثل «مورين أوشونيسي» التي لم ترجع قطُّ إلى منزلٍ خالٍ والتي بدا دائمًا أن لديها شخصًا تتحدث معه. أكّدت لها «مورين»:

ـ الأمر ليس رائعًا إلى هذه الدرجة، لا سيَّما إذا حصلتِ على إخوة.

كانت «مورين» أكبر إخوتها في الخامسة عشرة وأختها «كيتي» الأصغر في الثانية من عمرها وبينهما ستة أولاد، لكن السيدة «ريتشاردسون» كانت مقتنعة أنه حتى وجود ستة إخوة أفضل من أن تنشأ وحيدة. قالت للسيد «ريتشاردسون» حين تزوجا:

ـ كثيرٌ من الأطفال.

أضافت وهي تفكر في عائلة «أوشونيسي» مرة أخرى، كيف أن العام الذي لم يجعل أحد أفراد عائلة «أوشونيسي» مترقبًا لولادة طفل كان يُعدُّ

عامًا خاليًا من الأحداث المهمة. عرف الجميع عائلة «أوشونيسي»، كانوا سلالةً في «شايكِرِ هايتْس»، عشيرة ضخمة وصاخبة، وسماء إلى أقصى حدود الوسامة، لدرجة أنه بدا دائمًا أن الشمس قد لوَّحتهم وأن الرياح قد مسَّتْهم، مثل آل «كينيدي». وافق السيد «ريتشاردسون»، وهو الذي كان له أَخَوان.

وهكذا رُزِقا بـ«ليكسي» أولًا، في ١٩٨٠، ثم «تريب» في العام التالي و«مودي» في العام الذي بعده، ثم أصبحت السيدة «ريتشاردسون» فخورًا بمدى الخصوبة التي أثبتها جسدها، بمدى المرونة. اعتادت أن تدفع «مودي» في عربته، بصحبة «ليكسي» و«تريب» خلفها، كلٌّ منهما يتشبث بتنورتها بملء يده مثل صغار الفيلة التي تقطُر والدتها، واتخذ الناس في الشارع ردَّ فعلٍ متأخرًا: ربما لا يمكن لهذه الشابة الرشيقة أن تحمل ثلاثة أطفال، أليس كذلك؟ قالت لزوجها:

ـ طفلٌ آخر فقط.

اتفقا على أن يُنجبا الأطفال مبكرًا، حتى تتمكن السيدة «ريتشاردسون» بعد ذلك من العودة إلى العمل. جزءٌ منها أراد البقاء بالمنزل، لتكون ببساطة مع أطفالها، لكن والدتها دائمًا ما احتقرت أولئك النساء اللاتي لا يعملْن. استنشقت الهواء قائلة:

ـ إنهن يضيِّعن إمكانياتهن. لديكِ عقل جيد يا «إيلينا». لن تجلسي في البيت وتمارسين التريكو، أليس كذلك؟

المرأة العصرية، كما ألمحتْ والدتها دائمًا، قادرةٌ على ـ لا بل مطالَبةٌ بـ ـ أن تحصل على كل شيء. لذا فبعد كل ولادة، عادت السيدة «ريتشاردسون» إلى وظيفتها، احترفت صياغة القصص الإخبارية السارَّة المفيدة التي طلبها محرِّرها، عادت إلى المنزل لتتودَّدَ إلى صغارها، في انتظار وصول الطفل التالي.

لم يصل صفُّ الأطفال الساحر إلى نهايته إلا بمجيء «إيزي». في البداية، عانت السيدة «ريتشاردسون» من غثيان صباحيٍّ فظيع، نوبات من الدوار

والقيء لم تنتهِ مع الشهور الثلاثة الأولى بل استمرت من دون انقطاع ـ بل أشد قوة ـ بمرور الأسابيع. كان عمر «ليكسي» ثلاثة أعوام تقريبًا، و«تريب» عامين، و«مودي» عامًا واحدًا فقط، ومع وجود ثلاثة أطفال صغار للغاية بالمنزل وعجز السيدة «ريتشاردسون»، وجدت عائلة «ريتشاردسون» أنه من الضروري الاستعانة بمدبرة منزل، وهو ترفٌ سيعتادون عليه، وسيستعينون بمدبرة حتى يبلغ الأطفال سنوات مراهقتهم، حتى مجيء «مِيا». أكد الطبيب للسيدة «ريتشاردسون»:

ـ إنها علامة على حملٍ قوي.

لكن بعد أسابيع من توظيف مدبرة منزل، عانت السيدة «ريتشاردسون» من النزيف وأُلزِمت بالراحة في الفراش. على الرغم من هذه الاحتياطات، وصلت «إيزي» مندفعةً بعد ذلك بوقت قليل، معلنةً عن ظهورها ـ قبل موعدها بأحد عشر أسبوعًا ـ بعد ساعة من وصول والدتها إلى المستشفى.

سوف تتذكر السيدة «ريتشاردسون» الشهور القليلة التالية فقط كأنها ضبابٌ غامض، مرعب. لا تذكر إلا القليل عن التفاصيل اللوجستية، تذكرت أن «إيزي» تكومت في صندوق زجاجي، شبكة من الأوردة البنفسجية تحت بشرة بلون سمك السلمون. تذكرت مشاهدة أصغر أطفالها من خلال الثقوب المفتوحة في جهاز الحاضنة، تكاد تضغط أنفها على الزجاج لتتأكد أن «إيزي» ما زالت تتنفس. تذكرت رحلاتها المكوكية ذهابًا وإيابًا بين المنزل والمستشفى، كلما تمكنت من ترك أطفالها الأكبر سنًّا بين يدي مدبرة المنزل المؤهلتين ـ وقت القيلولة، وقت الغداء، ساعة هنا وهناك ـ وحين تسمح الممرضات بذلك: يضعن «إيزي» في البداية بين كفيها المقوستين، ثم في الفراغ بين ثدييها، وأخيرًا ـ فيما أصبحت «إيزي» أقوى وأقل نحولًا وبدأت تصير أكثر شبهًا برضيعة ـ بين ذراعيها.

لكن «إيزي» كبرت بالفعل: على الرغم من بدايتها المبكرة، أظهرت إرادةً مثابرةً لدرجة أن الأطباء علّقوا عليها. جذبت محقنها الوريدي، اقتلعت أنبوب

تغذيتها. حين أتت الممرضات لتبديل حفاضها، رفست بقدميها الصغيرتين بحجم إبهام اليد وصرخت بصوتٍ عالٍ لدرجة أن الرُّضَّع في الحاضنات القريبة استيقظوا وشاركوها الصراخ. أخبر الأطباء عائلة «ريتشاردسون»: «لا توجد علّةٌ في رئتيها»، ومع ذلك حذَّر الأطباء من حشد من المشكلات الأخرى التي قد تنشأ: زيادة نسبة الصفراء، وفقر الدم، ومشكلات في الإبصار، وفقد حاسة السمع، وتخلف عقلي، وعيوب في القلب، ونوبات صرع، وشلل دماغي. حين جاءت «إيزي» للمنزل أخيرًا ـ بعد أسبوعين من موعد ولادتها المحدد ـ صارت هذه القائمة أحد الأشياء القليلة التي ستتذكرها السيدة «ريتشاردسون» عن فترة بقاء «إيزي» في المستشفى. قائمة من الأشياء التي سوف تتفحص وجودها لدى «إيزي» لما بعد السنوات العشر التالية. ألم تلاحظ «إيزي» الأشياء ببساطة أم إنها ستصبح عمياء؟ هل تجاهلت والدتها من قبيل العناد، أم إنها ستصبح صمَّاء؟ هل تبدو بشرتها صفراء قليلًا؟ هل تبدو شاحبةً قليلًا؟ إذا اختلَّتْ يد «إيزي» الممتدة لإضافة حلقة إلى لعبة رصِّ الحلقات الخاصة بها تشبَّثت السيدة «ريتشاردسون» بذراعي مقعدها. أكانت تلك اختلاجة أم هي مجرد طفلة تتعلم التعامل المعقد مع أصابعها؟

كل شيء أخرجتْه السيدة «ريتشاردسون» من ذهنها من فترة الإقامة بالمستشفى ـ كل شيءٍ ظنت أنها نسيتْه ـ تذكَّره جسدها على مستوى خلاياه: فورة القلق، الخوف الذي تخلَّل أفكارها عن «إيزي». التركيز المجهري على أي شيءٍ فعلتْه «إيزي»، تُقلِّبه على هذا الوجه أو ذاك. تُمعِن النظر فيه بحثًا عن علامات ضعفٍ أو كارثة ما. هل «إيزي» ضعيفة في تهجئة الحروف وحسْب؟ أم إن هذه علامة على قصورٍ عقلي؟ هل خطُّها فوضويٌّ وحسْب؟ هل هي سيئةٌ في الحساب؟ هل كانت نوبات غضبها طبيعية؟ أم إنها شيءٌ أسوأ؟ بمرور الوقت، انتزع الاهتمام نفسَه من الخوف واتَّخذ حياةً مستقلة. علمت السيدة «ريتشاردسون» مع ولادة «إيزي» كيف يمكن لحياتك أن تدور

ببطء في مسارها الصغير الآمن ثم، من دون إنذار، تنزلق خارج المسار على نحوٍ مذهل. كل مرة نظرت فيها السيدة «ريتشاردسون» إلى «إيزي» التفَّ حولها ذلك الشعور بأن الأمور تدور خارج نطاق السيطرة. مثل عضلةٍ لا تعرف كيف ترخيها.

سوف تقول السيدة «ريتشاردسون»: ««إيزي» اجلسي معتدلة»، مفكرةً في: **تقوُّس جانبي في العمود الفقري، شلل دماغي**. ««إيزي»، اهدئي». على الرغم من أنها لم تتلفظ بالأمر تمامًا على هذا النحو، لكن الاستياء بدأ يغلِّف الاهتمام. كُتِب على مُلصق في المستشفى «الغضب هو الحارس الشخصي للخوف»، لكن السيدة «ريتشاردسون» لم تلاحظ ذلك قطُّ، كانت منشغلةً للغاية في التفكير، **لم يكن من المفترض أن تسير الأمور على هذا النحو**، سوف تقول في بعض الأحيان إذا أساءت «إيزي» التصرف: «بعد كل المشكلات التي تسببتِ فيها...». لم تكمل السيدة «ريتشاردسون» الجملة قطُّ، حتى في ذهنها، لكن القلق القديم زحف كثعبان داخل أوردتها. لسوف تتذكر «إيزي» نفسها أمها وهي تقول: **لا، لا يا «إيزي»، لماذا لا تصغين إليَّ، «إيزي»، تأدبي، «إيزي»، بحق الله، لا، هل أنتِ مجنونة؟** راسمةً الحدود التي جرؤت «إيزي» على تخطِّيها.

هل كانت «إيزي» طفلةً من نوعٍ مختلف؟ ربما أدَّى هذا بالسيدة «ريتشاردسون» لأن تصبح حذرة، أو واهنة الأعصاب، أو مصابة بجنون الارتياب. على أي حال، وُلدت «إيزي» لإثارة ردود الفعل العاطفية، وكلما نمَتْ ـ بحاسة بصرٍ وسمعٍ ممتازتَين، من دون علامة على نوباتٍ أو شلل، وعقلٍ ألمعي على نحو واضح ـ راقبتْها والدتها عن قرب، وانزعجتْ «إيزي» بسبب الانتباه. إذا ذهبوا إلى حمَّام السباحة، سُمح لـ«ليكسي» و«تريب» و«مودي» بالتراشق برش الماء في الطرف الضحل من الحمَّام بينما تعيَّن على «إيزي» ـ في الرابعة من عمرها في ذلك الحين ـ أن تجلس على منشفة، مغلَّفةً بواقي الشمس، ومتفيِّئةً بمظلة. بعد أسبوعٍ من هذا، قفزت برأسها في

الطرف العميق وتعيَّن إنقاذها بواسطة حارس الإنقاذ. في الشتاء التالي، حين ذهبوا للتَّزلج، انزلق «ليكسي» و«تريب» و«مودي» وهم يتصايحون إلى سفح التل، راقدين على ظهورهم وعلى بطونهم والثلاثة معًا، وذات مرة ـ في حالة «تريب» ـ وقوفًا مثل راكب الأمواج. جلست السيدة «ريتشاردسون» أعلى التل تصفق وتشجع. ثم انزلقت «إيزي» إلى سفح التل مرة واحدة، انقلبت رأسًا على عقب طوال نصف المسافة، ورفضت السيدة «ريتشاردسون» أن تسمح لها بالصعود على الزلاجة مرة أخرى. ذلك المساء، بعد ذهاب الجميع إلى الفراش، جرَّت «إيزي» زلاجة «مودي» عبر الشارع وتزلجت على ضفة بركة البط، ثم على الماء المتجمد وخرجت منها، كررت ذلك أربع مرات قبل أن يلاحظ أحد الجيران ويتصل بوالديها. في عمر العاشرة، حين قلقت والدتها بشأن تناولها أطعمة محدودة، متسائلةً ما إذا كانت مصابةً بفقر الدم، أعلنتْ «إيزي» أنها أصبحت نباتية. بعد حرمانها من قضاء الليالي عند صديقاتها ـ «إذا لم تكوني قادرة على التأدُّب في المنزل، يا «إيزي»، لا يمكننا الوثوق في تأدُّبك في منزل شخص آخر» ـ عمدتْ «إيزي» إلى التسلل خارجًا في الليل والعودة بأكواز متساقطة من أشجار الصنوبر أو حفنة من ثمار التفاح البري أو أوراق شجرة «الباكاي» لتتركها على النَّضد المنفصل الذي يتوسط المطبخ. لسوف تقول في الصباح فيما ترمقها والدتها بنظرة التحذير الأخيرة:

ـ ليست لديَّ فكرة من أين جاء هذا.

كان الإحساس الذي راود جميع الأطفال ـ بمن فيهم «إيزي» ـ أنها بالتحديد خيَّبت أمل والدتهم، وأن والدتهم استاءت منها لأسبابٍ غير معلومة. بالطبع، كلما ضغطت «إيزي»، تقدم الغضب ليغلِّف قلق والدتها القديم، مثل قوقعة تغلِّف حلزونًا. قالت السيدة «ريتشاردسون» مرارًا وتكرارًا:

ـ يا إلهي «إيزي»، ما علَّتك؟

كان السيد «ريتشاردسون» أكثر تسامحًا مع «إيزي»، هو الذي احتواها،

السيدة «ريتشاردسون» هي التي سمعت جميع توقعات الأطباء، التحذيرات الرهيبة حول ما يمكن أن يكون مقدَّرًا لها. السيد «ريتشاردسون»، المتخرج حديثًا في كلية القانون، كان مشغولًا بمساره المهني، يعمل ساعاتٍ طويلة في محاولة للوصول إلى منصب شريك في المكتب. بالنسبة له، بدتْ «إيزي» تافهة عنيدة، لكنه كان سعيدًا برؤيتها باسلةً بعد تلك البداية المرعبة. سُرَّ بذكائها، بروحها. في الواقع، ذكَّرتْه بوالدتها، حين كانت والدتها أصغر سنًّا: لقد انجذب إلى تلك الشرارة، ذلك اليقين من الهدف، كيف كانت دائمًا تعرف ما تقرِّره ولديها خطة، إلى أي مدى كانت مهتمةً بالصواب في مقابل الخطأ، ذلك الجانب الناري من شخصيتها الذي بدا أنه، بعد سنواتٍ عديدة آمنة في الضواحي، قد خبا ليتحول إلى جمرات. اعتاد أن يقول للسيدة «ريتشاردسون»:

ـ لا بأس يا «إيلينا»، إنها بخير. دعيها وشأنها.

على أي حال، لم يكن بوسع السيدة «ريتشاردسون» أن تدع «إيزي» وشأنها، وتآلف الشعور في داخلهم جميعًا: «إيزي» تضغط، والدتها تقيِّد، وبعد مدة من الوقت لن يستطيع أحد أن يتذكر كيف بدأ التفاعل، إنه موجود دائمًا فحسب.

* * *

في العطلة الأسبوعية التالية لعيد الشكر، بينما لا تزال السيدة «ريتشاردسون» منزعجةً من «إيزي»، كان من المخطَّط أن تحضر عائلة «ريتشاردسون» حفل عيد ميلاد يقيمه أصدقاء قدامى للعائلة. سأل «مودي»:

ـ هل تستطيع «بيرْل» أن تأتي أيضًا؟ لن تمانع عائلة «ماكولا». لقد دعوا جميع من يعرفون إلى هذا الشيء.

قالت «إيزي»:

ـ بالإضافة إلى أنها ستكون شخصًا إضافيًّا للإطراء على محاسن الطفلة، وهو ما تعلمين أنه الغرض المقصود من هذا الحفل بأكمله.

تنهدت السيدة «ريتشاردسون» قائلة:

- «إيزي»، هناك أوقات من اللائق فيها أن تدعي أحد أصدقائك، وأوقات تقتصر المناسبات فيها على العائلة. هذه مناسبةٌ عائلية. «بيرْل» ليست جزءًا من العائلة.

أغلقت السيدة «ريتشاردسون» حقيبتها بعنف وألقتها على كتفها قائلة:

- أنتِ بحاجة إلى تعلُّم الفرق. هيا، لقد تأخرنا.

وهكذا ذهبت عائلة «ريتشاردسون» بمفردها إلى منزل عائلة «ماكولا» في العطلة الأسبوعية، وصلوا في سيارتَين، «ليكسي» و«تريب» و«مودي» في واحدة، والسيد والسيدة «ريتشاردسون» في أخرى، بصحبة «إيزي» العابسة في المقعد الخلفي. لا يمكن أن يفوِّت أحدٌ المنزل. ملأت المركبات جانبي الشارع - أزالت عائلة «ماكولا» موانع اصطفاف السيارات بالتعاون مع شرطة «شايكِر» سابقًا - وفاضت على شارعي ساوث وودلاند القريبَين، وتمايلت باقة ضخمة من البالونات الوردية والبيضاء فوق صندوق البريد.

في الداخل، كان المنزل قد امتلأ تمامًا بالفعل. كانت هناك كؤوس «الميموزا» ومنصة لطهي البيض المخفوق. يقدِّم متعهدو الطعام فطائر «كيش» بحجم القضمة، وبيضًا نصف مسلوق في برك من الصلصة الهولندية المخملية. ثمة كعكة ذات طبقات ثلاث باللونين الوردي والأبيض، مكسوَّة بثنياتٍ من حلوى «الفندان» ويعلوها تمثالٌ صغير لطفلةٍ تحمل الرقم ١ بين يديها البضَّتين. وينتشر في كل مكان نثارٌ ورديٌّ وأبيض يفترش طريقهم المظفَّر باتجاه النَّضد الذي يتوسط المطبخ، حيث «ميرابيل ماكولا»، فتاة عيد الميلاد، مستكنَّة بين ذراعي السيدة «ماكولا».

قابلت السيدة «ريتشاردسون» «ميرابيل» في وقتٍ سابق، بالطبع، قبل ذلك بشهور، حين وصلتْ لمنزل عائلة «ماكولا» للمرة الأولى. ترعرعت السيدة «ريتشاردسون» و«ليندا ماكولا» معًا - دفعة ثانوية «شايكِر» عام ١٩٧١،

صديقتان قديمتان منذ لقائهما في الصف الثاني ـ ولديهما تشابهٌ جميلٌ في مساريهما بما أن كلتيهما رحلتا للدراسة الجامعية ثم عادتا واستقرتا في «شايكِر» في مهنٍ خاصة بهما. وبينما رُزقت عائلة «ريتشاردسون» بـ«ليكسي»، ثم «تريب» و«مودي» و«إيزي» في تعاقبٍ سريعٍ، عانت السيدة «ماكولا» مدة أكثر من عشر سنوات محاوِلة الإنجاب قبل أن تقرر والسيد «ماكولا» تبني طفل.

قالت السيدة «ريتشاردسون» لزوجها عند سماع الخبر:

ـ إنها **العناية الإلهية** فحسب، كما اعتادت والدتي أن تقول. ما من تعبير آخر لوصف الأمر. أنت تعلم ما كابده «مارك» و«ليندا»، كل ذلك الانتظار. أعني، أراهن أنهما كانا ليأخذا طفلة مدمنة كوكايين، بحق الله. ثم على نحوٍ غير متوقع تمامًا تتصل بهم موظفة الخدمة الاجتماعية في الثالثة والنصف صباحًا، قائلة إن هناك طفلة رضيعة آسيوية تُرِكت عند مركز الإطفاء، وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر ها هي في منزلهما.

ذهبت السيدة «ريتشاردسون» في اليوم التالي مباشرة للقاء الطفلة الرضيعة، وأثناء مناغاة الطفلة سمعت «ليندا» تعيد رواية القصة، كيف استقبلت المكالمة وقادت سيارتها مباشرةً إلى متجر «بيبيز آر أس»، اشترت كل شيء بدءًا من خزانةِ ملابس كاملة حتى مهد للطفلة ومخزون من الحفاضات يكفي ستة شهور. قالت «ليندا ماكولا» ضاحكة:

ـ بلغت المشتريات الحد الأقصى لبطاقة الائتمان. كان «مارك» يجمّع أجزاء المهد معًا حين توقفت سيارة موظفة الخدمة الاجتماعية ومعها الطفلة. لكن انظري إليها. فقط انظري إليها. هل تصدقين هذا؟

انحنت فوق الطفلة التي تحتضنها، بنظرة انشداهٍ صافٍ.

حدث هذا قبل عشرة شهور، وكانت إجراءات التبني تجري جيدًا الآن. حداهما الأمل في أن تُنجز خلال شهر أو اثنين كما أخبرت السيدة «ماكولا» السيدة «ريتشاردسون» فيما ناولتْها كأس «ميموزا». كانت «ميرابيل» الصغيرة

كائنًا محبَّبًا: زغبٌ من شعرٍ داكن تعلوه عصابة رأسٍ بشريطٍ وردي، وجهٌ مستديرٌ ممتلئ الخدَّين بعينين كبيرتين تحدقان في الحضور، قلادة السيدة «ماكولا» ذات الخرزات متشبثةٌ بأصابعها.

قالت «ليكسي»:

ـ أوه، إنها تشبه دميةً صغيرة.

حوَّلت «ميرابيل» وجهها بعيدًا ودفنتْه في كنزة السيدة «ماكولا».

قالت السيدة «ماكولا» ممرِّرة يدها على رأس الفتاة الداكن:

ـ هذا أول حفل كبير نقيمه منذ جاءت إلينا. ليست معتادة على وجود هذا الكم الكبير من الناس حولها. أليس كذلك، يا «ميمي»؟

قبَّلت كف الفتاة:

ـ لكن لم نستطع أن نترك عيد ميلادها الأول يمر من دون احتفال.

سألت «إيزي»:

ـ كيف تعرفون أنه عيد ميلادها؟ بما أنها هُجرت كما تقولون.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ إنها لم تُهجر يا «إيزي»، لقد تُركت في مركز الإطفاء حيث سيجدها شخصٌ ما بأمان. إنه شيءٌ مختلف تمامًا. لقد أحضرها ذلك إلى هذا المنزل الصالح.

قالت «إيزي»:

ـ لكنكم بالتالي لا تعلمون يوم ميلادها الحقيقي، أليس كذلك؟ هل انتقيتم يومًا عشوائيًّا فحسب؟

عدَّلت السيدة «ماكولا» وضع الطفلة بين ذراعيها قائلة:

ـ قدَّرت موظفة الخدمة الاجتماعية أن «ميرابيل» كانت بعمر شهرين حين جاءت إلينا، أقل أو أكثر بأسبوعين. كان ذلك في الثلاثين من يناير. لذلك قررنا أن نحتفل في الثلاثين من نوفمبر على أنه عيد ميلادها.

ابتسمت السيدة «ماكولا» ابتسامة مكتومة. قالت:

ـ نعتقد أننا محظوظون للغاية لقدرتنا على منحها يوم ميلاد. إنه يوم ميلاد «ونستون تشرشل» و«مارك توين» نفسه.

سألت «إيزي»:

ـ هل اسمها «ميرابيل» حقًّا؟

تصلَّبت السيدة «ماكولا» قائلة:

ـ سوف يكون اسمها الكامل «ميرابيل روز ماكولا»، بمجرد أن تنتهي المعاملات الورقية.

قالت «إيزي»:

ـ لكن بالتأكيد كان لديها اسم. ألا تعرفينه؟

في الحقيقة، عرفت السيدة «ماكولا» الاسم بالفعل. كانت الطفلة الرضيعة موضوعةً في صندوق من الورق المقوى، مرتديةً عدة طبقاتٍ من الملابس وملفوفةً بالبطانيات لمواجهة برد يناير. كانت هناك أيضًا ملاحظة في الصندوق، أقنعت السيدة «ماكولا» موظفة الخدمة الاجتماعية أن تسمح لها بقراءتها في النهاية: **اسم هذه الطفلة «ماي لينج». أرجوكم خذوا هذه الطفلة وامنحوها حياة أفضل.** تلك الليلة الأولى، حين خلدت الطفلة للنوم أخيرًا في حضنهما، قضى السيد والسيدة «ماكولا» ساعتين يتصفحان قاموس الأسماء. لم يشعرا، الآن أو في أي لحظة حتى الآن، بالندم على التخلي عن اسمها القديم.

قالت السيدة «ماكولا»:

ـ وجدنا أنه من الملائم أكثر أن نمنحها اسمًا جديدًا للاحتفال ببداية حياتها الجديدة. «ميرابيل» تعني «رائعة الجمال»، أليس هذا فاتنًا؟

في الحقيقة، مع التحديق في تلك الليلة في رموش الرضيعة الطويلة، والفم الصغير كبرعم الزهرة نصف المفتوح في سباتٍ راضٍ وعميق، شعرت السيدة «ماكولا» وزوجها أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر ملاءمة.

قالت «إيزي»:

ـ حين حصلنا على قطتنا من المأوى، حافظنا على اسمها.
التفتتْ إلى والدتها قائلة:
ـ أتذكرين؟ «مِس بورتي»؟ قالت «ليكسي» إنه قديم الطراز، لكنكِ قلتِ إننا لا نستطيع تغييره لأن ذلك سيكون مربكًا لها للغاية.
قالت السيدة «ريتشاردسون»:
ـ «إيزي»، تأدَّبي.
التفتت السيدة «ريتشاردسون» إلى السيدة «ماكولا» قائلة:
ـ كبرت «ميرابيل» كثيرًا جدًّا في الشهور القليلة الماضية. لم أكن لأتعرف عليها. كانت نحيلة للغاية من قبل، والآن انظري إليها، إنها ممتلئة ومتوهجة. أوه «ليكسي»، انظري إلى هاتين الوجنتين الصغيرتين.
سألت «ليكسي»:
ـ هل يمكنني حملها؟
بمساعدة السيدة «ماكولا»، وضعت «ليكسي» الطفلة على كتفها قائلة:
ـ انظروا إلى بشرتها. مثل القهوة بالحليب.
مدت «ميرابيل» يدها وشبّكت أصابعها في شعر «ليكسي» الطويل، وتحركت «إيزي» مبتعدة بتجهُّم.
غمغم «مودي» قائلًا لـ«تريب» في ركن خلف النَّضد الذي يتوسط المطبخ، حيث تراجعا بصحبة أطباق ورقية من فطائر «الكيش» والمعجنات:
ـ لا أفهم هذا الهوس. إنهم يأكلون. ينامون. يتغوَّطون. يبكون. أفضِّل أن أقتني كلبًا.
قال «تريب»:
ـ لكن الفتيات يحببنهم. أراهن أن «بيرْل» لو كانت هنا لانهالت على تلك الطفلة مداعبةً وتقبيلًا.
لم يستطع «مودي» أن يتبين ما إذا كان «تريب» يسخر منه أم إنه هو نفسه ببساطة يفكر في «بيرْل». لم يكن متأكدًا أي الاحتمالين يضايقه أكثر. سأل:

- لقد كنت تصغي في صف الصحة حين تحدثوا عن وسائل الحماية، أليس كذلك؟ وإلا ستكون هناك عشرات الفتيات يجرين في الأنحاء ومعهن رضيعٌ يا «تريب». فكرة مرعبة.

وضع «تريب» قطعة من البيض بواسطة الشوكة في فمه قائلًا:

- ها ها. أنت فقط قلِقٌ على نفسك. أوه انتظر، كي تتمكن من جعل إحداهن تحبل، يجب أن تنام إحداهن معك فعلًا.

ألقى طبقه الفارغ في سلة القمامة وذهب للبحث عن شيء يشربه، تاركًا «مودي» وحده مع القضمات القليلة الباقية من فطائر «الكيش»، التي أصبحت باردةً الآن.

بطلبٍ من «ليكسي»، أخذتها السيدة «ماكولا» في جولة لغرفة «ميرابيل»: مصممةٌ باللونين الوردي والأخضر الشاحب، مع لافتة مخيطة باليد فوق المهد تتهجّى حروف اسمها. قالت السيدة «ماكولا» وهي تضع جلد غنم على الأرض:

- إنها تحب هذا البِساط. نضعها عليه بعد حمّامها وتتقلب حول نفسها وتضحك وتضحك.

ثم كانت هناك غرفة لعب «ميرابيل»، غرفة نوم ضخمة مخصصة لألعابها: مكعباتٌ خشبية بجميع ألوان قوس قزح، فيلٌ متأرجح مصنوعٌ من المخمل، رفٌّ كاملٌ من الدُّمى. وضّحت السيدة «ماكولا» قائلة:

- الغرفة في مقدمة المنزل أكبر مساحة، لكن هذه الغرفة مشمسةٌ أكثر؛ طوال الصباح ومعظم وقت ما بعد الظهيرة. لذلك حوّلنا الغرفة الأخرى إلى غرفة للضيوف وأبقينا هذه الغرفة كمكانٍ للَعِب «ميرابيل».

حين عادتا إلى الطابق السفلي، كان مزيد من الضيوف قد وصلوا بالفعل، وتنازلت «ليكسي» عن «ميرابيل» للقادمين الجدد على مضض. بحلول وقت تقطيع الكعكة، كان ينبغي أخذ طفلة عيد الميلاد المرهقة بسبب القدر الكبير من الاندماج المجتمعي لتحصل على زجاجة حليب ووضعها في فراشها

لتغفو، وما أصاب «ليكسي» بخيبة أملٍ كبيرة أن «ميرابيل» ظلت نائمة حتى نهاية الحفل، حين توجَّهت عائلة «ريتشاردسون» إلى المنزل.

تذمرت «ليكسي» فيما اتخذوا طريقهم إلى السيارة:

ـ أردتُ أن أحملها مرة أخرى.

قدَّم «مودي» معلومة:

ـ إنها طفلة رضيعة، ليست لعبة، يا «ليكس».

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أنا متأكدة أن السيدة «ماكولا» ستحب لو أنكِ عرضتِ مجالسة الرضيعة. قودي بحرص يا «ليكسي». سنراكم في المنزل.

دفعت السيدة «ريتشاردسون» بإحدى كتفيها «إيزي» باتجاه السيارة الأخرى:

ـ وأنتِ بحاجةٍ إلى أن تكوني أقل وقاحة في المرة التالية حين نذهب إلى حفل، أو بإمكانك البقاء في المنزل فحسب. «ليندا ماكولا» جالستْكِ حين كنتِ صغيرة، تفهمين. غيَّرتْ حفاضاتك واصطحبتْكِ إلى المتنزه. فكري في ذلك حين ترَينها المرة المقبلة.

قالت «إيزي»:

ـ سأفعل.

وأغلقت باب السيارة المجاور لها بعنف.

* * *

لم تستطع «ليكسي» أن تتحدث عن أي شيء آخر سوى «ميرابيل ماكولا» للأيام القليلة التالية. قال «تريب»:

ـ حُمَّى الطفلة الرضيعة.

ووكز «برايان» قائلًا:

ـ احترس يا رجل.

ضحك «برايان» بصعوبة. مع ذلك، كان «تريب» مُحقًّا. أصبحت

«ليكسي» فجأة مهتمةً اهتمامًا محمومًا بجميع الأشياء المتعلقة بالطفلة، إلى درجة الذهاب إلى متجر «ديلاردز» لشراء ثوب ذي طبقاتٍ عديدة وغير عملي تمامًا بلون اللافندر من أجل «ميرابيل».

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ يا إلهي، «ليكسي»، أنا لا أذكر أنكِ تحمَّستِ بهذا القدر بشأن الأطفال الرُّضَّع حين كان «مودي» و«إيزي» صغيرَين. أو حتى بشأن الدُّمى. في الحقيقة.

عادت السيدة «ريتشاردسون» بذهنها إلى الوراء:

ـ ذات مرة قمتِ بالفعل بحبس «مودي» في خزانة القدور والمقالي.

أدارت «ليكسي» عينيها قائلة:

ـ لقد كنتُ في الثالثة من عمري.

استمرت في الحديث عن الطفلة الرضيعة حتى يوم الاثنين، وحين وصلت «مِيا» إلى المطبخ بعد ظهيرة ذلك اليوم، سُرَّت «ليكسي» بالحصول على مستمعٍ جديد.

قالت بحماس:

ـ شعرها بديع، لم أرَ من قبل هذا القدر من الشعر لدى رضيعة صغيرة. ناعمٌ للغاية. ولديها أكبر عينين؛ تتسعان لكل شيء وحسب. إنها منتبهةٌ للغاية. وجدوها في مركز إطفاء، هل يمكنكِ تصديق ذلك؟ أحدهم تركها حرفيًّا هناك وحسب.

عبر الغرفة، تجمدت «مِيا»، التي كانت تمسح أسطح المناضد. قالت:

ـ مركز إطفاء؟ مركز إطفاء أين؟

لوحت «ليكسي» بإحدى يديها:

ـ لا أعرف. مكانٌ ما في شرق كليفلاند، كما أعتقد.

كانت التفاصيل أقل أهمية بالنسبة لها من الرومانسية المأساوية للأمر كله.

ـ ومتى حدث هذا؟

https://t.me/fantazynov

ـ يناير. شيءٌ كهذا. قالت السيدة «ماكولا» إن أحد رجال الإطفاء خرج لتدخين سيجارة ووجدها هناك في صندوق من الورق المقوى.

هزَّت «ليكسي» رأسها وتابعت:

ـ كما لو أنها جروٌ لا يريده أحد.

ـ والآن ينوي آل «ماكولا» الاحتفاظ بها؟

ـ أعتقد ذلك.

فتحت «إيزي» الخزانة وجلبت لنفسها أحد ألواح حبوب الإفطار من إنتاج «ناتري-جرين» وتابعت:

ـ لقد أرادا طفلًا منذ الأزل ثم ظهرت «ميرابيل». مثل معجزة. وقد حاولا أن يتبنيا طفلًا لمدةٍ طويلة. سوف يكونان والدين متفانيَين.

أزالت الغلاف من لوح «الجرانولا» وألقتْه في سلة القمامة وذهبت إلى الطابق العلوي، تاركةً «مِيا» في تفكيرٍ عميق.

سدَّدت ترتيباتُ «مِيا» مع السيدة «ريتشاردسون» الإيجار، لكن «مِيا» و«بيرْل» ما زالتا في حاجة إلى المال لمستلزمات البقالة وفاتورة الكهرباء والوقود، لذلك فقد اشتغلت «مِيا» بعض الورديات الأسبوعية في المطعم الصيني «لاكي بالاس»، كان الراتب وما تبقَّى من الطعام كافيَين لإقامة أَوَدِهما. كان لدى مطعم «لاكي بالاس» طاهية، وطاهية مبتدئة، وعامل لتنظيف الطاولات، ونادلة واحدة تعمل بدوامٍ كامل، «بيبي»، التي بدأت العمل قبل «مِيا» بشهورٍ قليلة. قدِمتْ «بيبي» من مدينة كانتون [الصينية] قبل عامين، وعلى الرغم من أن لغتها الإنجليزية كانت متقطعةً نوعًا ما، فقد أحبت الكلام مع «مِيا»، تجدها «بيبي» مستمعةً، متعاطفةً، لم تصحح «مِيا» قواعد «بيبي» النحويَّة أو تبيِّن أنها لاقتْ صعوبة في فهمها. بينما تلفَّان أدوات المائدة البلاستيكية في المناديل الورقية لتجهيزها لطلبات أخذ العشاء للخارج، حكتْ «بيبي» لـ«مِيا» الكثير عن حياتها. شاركتْ «مِيا» بقدر قليلٍ ردًّا على ذلك، لكنها عرفتْ عبر السنوات أن الناس نادرًا ما يلاحظون ذلك

إذا كنتِ مستمعةً جيدة، ممّا يعني أنكِ تجعلين الشخص الآخر يستمر في الحديث عن نفسه. على مدار الشهور الستة الأخيرة عرفت كل قصة حياة «بيبي» تقريبًا، وكان هذا السبب الذي جعل رواية «ليكسي» عن الحفل تسترعي انتباه «مِيا».

لأن «بيبي» رُزِقتْ بطفلةٍ قبل عام، أخبرتْ «مِيا» وهي تعمل بأصابعها في ورق المناديل الناعم قائلة:

ـ كنت خائفةً للغاية حينها، لم يكن لديَّ أحد ليساعدني. لم أتمكن من الذهاب للعمل. لم أتمكن من النوم. طوال اليوم أحمل الطفلة وأبكي.

سألتْ «مِيا»:

ـ أين كان والد الطفلة؟

وقالت «بيبي»:

ـ رحل. أُخبرُه أنني سأُرزق بطفل، يختفي بعد أسبوعين. أحدهم أخبرني أنه يعود إلى جوانجدونج. أنا أنتقل إلى هنا من أجله، هل تعلمين ذلك؟ قبل ذلك نحن نعيش في سان فرانسيسكو، أنا أعمل موظفة استقبال في عيادة طبيب أسنان، أتقاضى مالًا جيدًا، صاحب العمل لطيفٌ حقًّا. يحصل هو على عملٍ هنا في مصنع السيارات، يقول، كليفلاند لطيفة، كليفلاند رخيصة، سان فرانسيسكو غالية جدًّا، ننتقل إلى كليفلاند، يمكننا شراء منزل، امتلاك فِناء. لذلك أتبعه إلى هنا ثم...

صمتتْ للحظة، ثم أسقطت منديلًا ملفوفًا بأناقة على الكومة، يحيط المنديل بعودَي تناول الطعام الصيني، وشوكة، وسكين. قالت:

ـ هنا لا أحد يتحدث الصينية، أُجري مقابلات للعمل موظفة استقبال، يخبرونني أن إنجليزيتي ليست جيدةً بما يكفي. لا مكان يمكنني أن أجد عملًا. لا أحد لرعاية الرضيعة.

أدركت «مِيا» أن «بيبي» ربما عانت من اكتئاب ما بعد الولادة على أقل تقدير، ربما حتى من انهيار ما بعد الولادة الذهاني. لم تكن الرضيعة تتغذى،

وجفَّ حليب «بيبي». لقد فقدت وظيفتها ـ وظيفةٌ بالحد الأدنى للأجور في آخر خط تعليب أكواب «ستيروفوم» الورقية في الصناديق الكرتونية ـ حين ذهبت إلى المستشفى لتلد رضيعتها، ولم يكن لديها مالٌ لشراء حليب الأطفال الصناعي. في النهاية ـ وكان هذا هو الجزء الذي شعرتْ «مِيا» أنه لا يمكن أن يكون مصادفة ـ ذهبتْ «بيبي»، يائسة، إلى مركز الإطفاء وتركتْ رضيعتها عند الباب.

وجد شرطيَّان «بيبي» بعد ذلك بعدة أيام، ممدَّدةً أسفل مقعدٍ طويلٍ في المنتزه، فاقدة الوعي بسبب الجفاف والجوع. أحضراها إلى المأوى، حيثُ حُمِّمت، أُطعمت، وُصِفت لها أدويةٌ مضادةٌ للاكتئاب، ثم سُرِّحتْ بعد ثلاثة أسابيع. ولكن بحلول ذلك الوقت لم يستطع أحدٌ أن يخبرها ماذا حلَّ برضيعتها. مركز إطفاء، أصرَّت على أنها تركتْ طفلتها عند باب مركز إطفاء. لا، لم تتمكن من تذكر أي واحد منها. لقد سارت والرضيعة بين ذراعيها في أرجاء المدينة، محاولةً معرفة ما الذي ستفعله، وفي النهاية مرت بجوار مركز الإطفاء، حيث النوافذ متوهجة بالدفء في مقابل الليل المظلم، ثم حزمت أمرها. كم يمكن أن يكون عدد مراكز الإطفاء الموجودة هناك؟ لكن لن يساعدها أحد. حين تركتِها، تخليتِ عن حقوقك، هكذا أخبرتْها الشرطة. نعتذر، ليس بوسعنا منحك مزيدًا من المعلومات.

عرفت «مِيا» أن «بيبي» كانت تتوق بشدة إلى العثور على ابنتها، وظلت تبحث عنها لشهورٍ عديدة حتى الآن، منذ أن استجمعت نفسها. لديها وظيفة ثابتة الآن ولو أنها بأجرٍ زهيد، ووجدتْ شقةً جديدة، استقرت حالتها المزاجية. لكنها لم تعد قادرةً على معرفة أين راحت رضيعتها. كان الأمر كما لو أن الرضيعة اختفت ببساطة. أخبرتْ «مِيا»:

ـ أحيانًا، أتساءل إذا أنا أحلم. لكن ما الحلم؟

ربَّتت على عينيها بظهر طوق كمِّها:

ـ إنني لا أستطيع العثور على الطفلة، أم إنني أُرزق بطفلةٍ من الأصل؟

وضعت «مِيا» قاعدةً واحدةً طوال سنوات حياتها المتجوِّلة: لا تتعلقي؛ بأي مكان، بأي شقة، بأي شيء. بأي شخص. منذ ولادة «بيرْل» عاشتا، بحسب ما أحصتْ «مِيا»، في ستٍّ وأربعين بلدةً مختلفة، حافظتا على مقتنياتهما بالقدر الذي تتسع له السيارة «الفولكس فاجن»، بكلمات أخرى، على الحد الأدنى منها. نادرًا ما بقيتا طويلًا بما يكفي لعقد صداقاتٍ في أي مكان، وفي الحالات القليلة حيث فعلتا ذلك، انتقلتا من دون ترك عنوانٍ جديد وفقدتا الاتصال مع هؤلاء الأصدقاء. عند كل انتقال، نبذتا كل ما يمكنهما تركه وراءهما، وأرسلتا أعمال «مِيا» الفنية إلى «أنيتا» للبيع، ممَّا يعني أنهما لن يرياها مرة أخرى.

لذلك تجنَّبتْ «مِيا» دائمًا التورط في شؤون الآخرين. يجعل هذا كل شيءٍ أكثر بساطة، يجعل الأمر أسهل إذا انتهى عقد إيجارهما، أو إذا أصبحت تشعر بالسَّأم من البلدة، أو إذا شعرت أنها غير مرتاحة، أنها تود أن تكون في مكانٍ آخر. لكن هذا الأمر، مع «بيبي»، كان مختلفًا. فكرة أن يأخذ أحدهم طفلًا من أمه أرعبتْها. كان الأمر كما لو أن أحدهم أدخل نصلًا في أحشائها وأخرجه بلفَّةٍ سريعة فأحدث بها فجوة، لم يترك شيئًا بداخلها سوى دفقةٍ باردةٍ من الهواء. في تلك اللحظة أتتْ «بيرْل» إلى المطبخ للبحث عن شيءٍ تشربه، لفَّت «مِيا» ذراعيها حول ابنتها بسرعة، كما لو أنها على حافة جُرف، واحتضنتها طويلًا وبقوةٍ شديدة لدرجة أن «بيرْل» قالت:

ـ أمي، هل أنتِ بخير؟

كانت «مِيا» متأكدة أن عائلةِ «ماكولا» هؤلاء قومٌ طيبون. لكن لم يكن هذا هو الموضوع. فكرتْ فجأة في تلك اللحظات في المطعم، بعد أن انتهى وقت ذروة العشاء وهدأت الأمور، حين أراحتْ «بيبي» مرفقيها على النَّضد وانجرفتْ بعيدًا. فهمتْ «مِيا» تمامًا إلى أين انجرفتْ «بيبي». بالنسبة لأُمٍّ، طفلتكِ ليست فقط مجرد شخص، طفلتكِ مكان، نوعٌ من الممالك الخيالية مثل «نارنيا»، مكانٌ شاسعٌ أبديٌّ حيث يوجد كلٌّ من الحاضر الذي تعيشينه

والماضي الذي تذكَّرتِه والمستقبل الذي تُقتِ إليه في وقتٍ واحد. يمكنك رؤية ذلك في كل مرة تنظرين إليها: ضمَّتْ طبقات في وجهها؛ الرضيعة التي كانتْ، والطفلة التي أصبحتْ، والبالغة التي ستكبر لتكون، رأيتِهم جميعًا في الوقت نفسه، مثل صورةٍ ثلاثية الأبعاد. جعل ذلك رأسكِ يدور. كان مكانًا يمكنكِ اللجوء إليه، إذا عرفتِ كيف تنفذين إلى داخله. وكل مرةٍ غادرتِه فيها، كل مرةٍ ترحل فيها طفلتكِ عن مرأى عينيكِ، خفتِ ألا تتمكني أبدًا من العودة إلى ذلك المكان مرة أخرى.

سابقًا، في وقتٍ سابق، في الليلة الأولى التي بدأتْ و«بيرْل» فيها أسفارهما، التفَّت «مِيا» على نفسها في فراشهما المؤقت في المقعد الخلفي للسيارة «رابِتْ»، مع الرضيعة «بيرْل» مستكنَّةً في تقوُّس بطن «مِيا»، وراقبت ابنتها تنام. هناك، قريبةً للغاية لدرجة أن «مِيا» شعرت على وجنتها بأنفاس «بيرْل» الحليبية الدافئة، وتعجَّبتْ لهذا المخلوق الصغير. **عظمٌ من عظمي ولحمٌ من لحمي**، هكذا فكرتْ «مِيا». جعلتْها والدتها تذهب إلى مدرسة الأحد كل أسبوع حتى أصبحتْ في الثالثة عشرة من عمرها، وكما لو أن الكلمات كانت تعويذة رأتْ فجأة ملامح من وجه والدتها في وجه «بيرْل»: وضع الفكِّ، التجعيدة الخفيفة بين الحاجبين التي ظهرت كما لو أن «بيرْل» قد انجرفت إلى حلم محيِّر. لم تفكِّر «مِيا» في والدتها منذ مدة لا بأس بها، وومضتْ صاعقةٌ حادةٌ من الشوق عبر صدر «مِيا». وكما لو أن «مِيا» أقلقتْ «بيرْل»، تثاءبتْ «بيرْل» وتمطَّتْ وضمَّتها «مِيا» أكثر، مسَّدتْ شعرها، وضغطت شفتيها على تلك الوجنة الناعمة نعومة لا تُصدَّق. **عظمٌ من عظمي ولحمٌ من لحمي**، فكَّرت مرة أخرى فيما ارتجفتْ عيناها لتنغلقا مرةً إضافية، وتأكدت أنه ما من أحد يمكن أن يحب هذه الطفلة مثلما فعلتْ.

قالت لـ«بيرْل» الآن:

ـ أنا بخير.

وبجهدٍ موجع أفرجتْ عن ابنتها:

ـ كل شيء انتهى هنا. لنذهب إلى المنزل، اتفقنا؟

حتى في ذلك الوقت تولَّد لدى «مِيا» شعورٌ بما كانت مُقدِمةً عليه، رائحةٌ ساخنةٌ وخزتْ فتحتي أنفها، مثل خيط دخانٍ آتٍ من لهبٍ شديد البُعد. لم تعرف إذا كانت «بيبي» قد استردَّت رضيعتها. كل ما عرفتْه أن فكرة أن يطالب أحدهم بطفلتها كانت فكرةً لا تُطاق. كيف أمكن لهؤلاء الناس، هكذا فكرت، كيف أمكن لهؤلاء الناس أن يأخذوا طفلةً من والدتها؟ قالت هذا لنفسها طوال الليل وفي الصباح التالي، فيما طلبت المكالمة، فيما انتظرت الهاتف ليدق. لم يكن الأمر صوابًا. لا يجب على أمٍّ أن تتخلى عن طفلتها أبدًا.

قالت «مِيا» حين جاء الصوت من الطرف الآخر:

ـ «بيبي»، هذا أنا «مِيا» من العمل. أعتقد أن هناك أمرًا لا بد أن تعرفيه.

١٠

لذلك، فيما كانت «بيرْل» و«مِيا» تتناولان العشاء مساء الثلاثاء، قُرِع جرس الباب متبوعًا بطرقاتٍ محمومة. جرتْ «مِيا» إلى الباب الجانبي، وسمعت «بيرْل» غمغمة من الأصوات والبكاء، ثم جاءت والدتها إلى المطبخ تتبعها امرأةٌ صينيةٌ شابة كانت تنتحب.

كانت «بيبي» تقول:

ـ أطرُق وأطرُق. أقرعُ جرس الباب ولا يجيبون لذلك أطرقُ وأطرقُ. بوسعي أن أرى تلك المرأة بالداخل. تسترق النظر من خلف الستارة لترى إذا أرحلُ بعيدًا.

قادتْها «مِيا» إلى مقعد، مقعدها، الذي ما زال أمامه طبق مكرونة نصف فارغ. قالت:

ـ «بيرْل»، أحضري إلى «بيبي» بعض الماء. وربما تُعِدِّين بعض الشاي.

جلستْ «مِيا» على المقعد الآخر ومالت عبر الطاولة لتمسك يد «بيبي». قالت:

ـ لم يكن عليكِ الذهاب إلى هناك هكذا. لا يمكنك أن تتوقعي أن يسمحوا لكِ مباشرة بالدخول.

ـ أنا أتصل أولًا!

مسحت «بيبي» وجهها بظهر يدها، وأخذت «مِيا» منديلًا من على الطاولة

ودفعتْه باتجاه «بيبي». كان في الحقيقة منديل يد قديم مزين بالزهور من متجر التوفير، وحكَّتْ «بيبي» عينيها:

ـ أنا أبحث عنهم في دليل الهاتف وأتصل بهم، مباشرةً بعد أن أُغلق الخط معكِ. لا أحد يرد. فقط أحصل على المجيب الآلي. أي نوع من الرسائل ينبغي أن أترك؟ لذلك أحاول معهم مرة أخرى ومرة أخرى، طوال الصباح، حتى يرد أحدهم عليَّ. هي ترد.

عبر المطبخ، وضعت «بيرْل» الغلاية على الموقد وضغطت زر الإشعال. لم تُقابل «بيبي» من قبل، على الرغم من أن «مِيا» ذكرت «بيبي» مرةً أو مرتين. لم تقل والدتها كم «بيبي» جميلة ـ عينان كبيرتان، عظمتا خدين مرتفعتان، شعرٌ أسود كثيف مرفوعٌ على هيئة ذيل حصان ـ أو كم هي شابَّة. بالنسبة لـ«بيرْل»، أي شخص فوق العشرين ونحوها بدا بالغًا على نحوٍ مستحيل، لكنها خمَّنت أن «بيبي» ربما تكون في الخامسة والعشرين أو نحوها. أصغر من «مِيا» بالتأكيد، لكن كان هناك شيءٌ طفوليٌّ في الطريقة التي تحدثت بها، في الطريقة التي جلست بها وساقاها مضمومتان معًا باحتشام ويداها منقبضتان، في الطريقة التي نظرت بها إلى «مِيا» بعجز، كما لو أنها كانت ابنة «مِيا»، أيضًا، جعل هذا «بيرْل» تفكر في «بيبي» كما لو أنها فتاةٌ مراهِقةٌ أخرى. لم تدرك «بيرْل»، ولن تدرك بعد لوهلة، كيف كانت والدتها رابطة الجأش على نحوٍ غير معتاد بالنسبة لشخص في عمرها، إلى أي مدى كانت ذكية ومحنَّكة.

كانت «بيبي» تقول:

ـ أُخبرها من أنا. أقول: «هل هذه «ليندا ماكولا»؟» وهي تقول: «نعم»، وأنا أخبرها: «اسمي «بيبي تشاو»، أنا والدة «ماي لينج»». هكذا، تغلق الخط في وجهي.

هزت «مِيا» رأسها.

ـ أتصل بها مرة أخرى وترفع السماعة ثم تغلقها مرة أخرى. وأتصل بها مرة أخرى وأسمع صوت الخط المشغول.

مسحت «بيبي» أنفها بالمنديل وكوَّمتْه على شكل كرة.

ـ لذلك أذهب إلى هناك. حافلتان ويجب عليَّ أن أسأل السائق أين أغيِّر الحافلة. ثم سرتُ ميلًا آخر إلى منزلهم. تلك المنازل الضخمة، كل شخص هناك يقود، لا أحد يريد أن يستقل الحافلة إلى العمل. قرعتُ جرس الباب الأمامي، ولم يرد أحد. لكنها تراقب من الطابق العلوي، فقط تنظر إلى أسفل إليَّ. قرعتُ الجرس مرة أخرى ومرة أخرى وناديتُ: «سيدة «ماكولا»، هذا أنا، «بيبي»، أنا فقط أريد أن أتحدث معك»، ثم أُغلِقت الستارة. لكنها ما زالت هناك بالداخل، تنتظرني فقط أن أرحل بعيدًا. كما لو أنني سأرحل بينما رضيعتي بالداخل هناك.

لذا بقيت أطرق الباب وأقرع الجرس. عاجلًا أم آجلًا ستضطر إلى الخروج ثم سأتمكن من الحديث معها.

نظرت إلى «مِيا»:

ـ أنا فقط أريد أن أرى رضيعتي مرةً أخرى. أعتقد، أن بإمكاني الحديث مع آل «ماكولا» هؤلاء وجعلهم يفهمون. لكنها لن تخرج.

لزمت «بيبي» الصمت لفترةٍ طويلة وحدقت في يديها، ورأت «بيرْل» بشرتها على طول جانبي قبضتيها محمرَّة وخشنة. أدركت «بيرْل» أنه لا بد أن «بيبي» كانت تضرب الباب بعنف لفترة طويلة جدًّا، وفكرت «بيرْل» في الوقت نفسه في مدى الألم الذي عانتْه «بيبي»، والذي لا بد أنها ما زالت تعانيه، ومدى الرعب الذي لا بد أن السيدة «ماكولا» شعرت به، مغلقة على نفسها من الداخل.

تدفَّق باقي القصة بتعسُّر، كما لو أن «بيبي» تجمِّع أجزاء المشهد معًا بنفسها. في وقتٍ لاحق توقفت سيارة «ليكزس»، مع سيارة شرطة خلفها مباشرة، وظهر السيد «ماكولا». لقد أخبر «بيبي» أن ترحل عن ممتلكاته، يحيط به ضابطا شرطة من الجانبين مثل حارسَين شخصيَّين. حاولت «بيبي» أن تخبرهم أنها تريد رؤية رضيعتها فحسب، لكنها ليست متأكدة الآن

ممَّا قالت، هل تشاجرت أم هدَّدت أم احتدَّت أم توسَّلت. كل ما تتذكره الجملة التي ظل السيد «ماكولا» يرددها ـ «ليس لديكِ حق الوجود هنا، ليس لديكِ حق الوجود هنا» ـ وفي النهاية أمسك أحد الضابطين ذراعها وجذبها بعيدًا. «اذهبي»، قالا، أو أنهما سيأخذانها إلى مركز الشرطة ويتهمانها بالتعدي على ممتلكات الغير. هذا ما تتذكره بوضوح: فيما يجذبها رجلَا الشرطة بعيدًا عن المنزل، كان بوسعها سماع طفلتها تبكي من وراء الباب الأمامي المغلق.

ـ ماذا بإمكاني أن أفعل أيضًا؟ أمشي طوال الطريق إلى هنا. خمسٌ وأربعون دقيقة. من أيضًا يمكنني طلب المساعدة منه سواكِ؟

نظرت «بيبي» إلى «مِيا» و«بيرْل» بشراسة كما لو أنها ظنت أنهما قد تعارضانها:

ـ أنا والدتها.

قالت «مِيا»:

ـ إنهم يعلمون هذا، يعلمون هذا جيدًا. وإلا ما كانوا أبعدوكِ بالقوة هكذا.

دفعتْ كوب الشاي ـ الفاتر الآن ـ باتجاه «بيبي».

قالت «بيبي»:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟ إذا أذهبُ هناك مرة أخرى، يطلبون الشرطة وتعتقلني.

اقترحت «بيرْل»:

ـ يمكنكِ الحصول على محامٍ.

ومنحتها «بيبي» نظرةً رقيقةً مثيرةً للشفقة. سألتْ:

ـ من أين لي بالمال للحصول على محامٍ؟

حدقت في ملابسها ـ بنطال أسود وقميص أبيض رقيق ـ وفهمت «بيرْل» فجأة: كان هذا زيَّ العمل الخاص بـ«بيبي»، لقد غادرت العمل من دون حتى أن تكترث لتغيير ملابسها. قالت «بيبي»:

ـ لديَّ في البنك ستمائة وأحد عشر دولارًا. هل تعتقدين أن محاميًا سوف يساعدني مقابل ستمائة وأحد عشر دولارًا؟

قالت «مِيا»:

ـ حسنًا.

دفعت ما تبقى من عشاء «بيرْل» ـ اللامع الآن ببريقٍ أبيض من الدهون ـ إلى أحد الجانبين. طوال هذا الوقت كانت تفكر، في الحقيقة، كانت تفكر في هذا الأمر منذ أن ذكرتْ «ليكسي» أمر الرضيعة: ماذا ستفعل إذا كانت في موضع «بيبي»، ماذا يمكن أن يفعل أي شخص في موضع «بيبي». قالت «مِيا»:

ـ أصغي إليَّ. تريدين خوض هذه المعركة؟ إليكِ ما سوف تفعلينه.

* * *

عصر يوم الأربعاء، لو أن أيًّا من أطفال عائلة «ريتشاردسون» انتبه إلى الإعلانات التجارية خلال عرض برنامج «جيري سبرِنْجِر»، لربما لاحظوا التنويهات الدعائية لنشرة أخبار القناة الثالثة المسائية، مع صورةٍ لمنزل عائلة «ماكولا». إذا فعلوا ذلك، لربما أخبروا والدتهم، التي كانت تصوغ التفاصيل الدقيقة لقصة إخبارية عن ضريبة مدرسية مقترحة وغير موجودة بالمنزل لتتابع الأخبار، أو لتنبيه السيدة «ماكولا».

لكن بينما حدث ذلك، كانت «ليكسي» و«تريب» منهمكَين للغاية في جدالٍ حماسيٍّ حول أي من الضيفين لديه شعرٌ أفضل، الرجل الذي يرتدي ملابس النساء أم زوجته السابقة، لدرجة أن أحدًا لم ينتبه للإعلانات التجارية. «بيرْل» و«مودي»، اللذان يشاهدان ليتسليا، لم ينظرا حتى إلى الشاشة، وقاطعتْ «ليكسي» قبل أن يصل «تريب» إلى نصف حجته لترجيح كفة الرجل الذي يرتدي ملابس النساء. في هذه الأثناء، كانت «إيزي» في غرفة تظهير الأفلام في منزل «مِيا»، تراقبها وهي تسحب مطبوعة جديدة من السائل المُظهر وتعلقها لتجف. لذلك لم يرَ أحدٌ التنويهات الدعائية لنشرة الأخبار الليلية أو شاهد الأخبار ذلك المساء. لم تكن السيدة «ماكولا» أيضًا

من متابعي الأخبار، ولذلك، حين استجابت لجرس الباب مبكرًا في صباح يوم الخميس وهي تحمل «ميرابيل» على وركها، متوقعةً طردًا من أختها، ذُعرتْ حين وجدت «باربرا بيرس» ـ صحفية التحقيقات المحلية منتفخة الشعر بالقناة التاسعة ـ واقفةً على عتبة باب السيدة «ماكولا» والميكروفون في يدها.

صرخت «باربرا»:

ـ سيدة «ماكولا»!

كما لو أنهما التقتا في حفل وكان الأمر برمَّته مصادفةً سارَّة. لاح وراءها مصوِّر تلفزيوني قوي البنية يرتدي سترة طويلة بقلنسوة، وعلى الرغم من ذلك فإن كلَّ ما استوعبته السيدة «ماكولا» فوَّهة عدسة وضوء أحمر وامض مثل عينٍ متوهجة. بدأت «ميرابيل» بالبكاء.

ـ نفهم أنكِ في وسط إجراءات عملية تبني طفلةٍ صغيرة. هل تدركين أن والدتها تناضل لتستعيد حق الحضانة؟

أغلقت السيدة «ماكولا» الباب بعنف، لكن فريق عمل الأخبار حصل على ما جاء من أجله. ثانيتان ونصف فقط من التصوير، لكنها كانت كافية: المرأة البيضاء الرشيقة عند باب منزلها المشكَّل بالقرميد في «شايكِر»، تبدو غاضبة وخائفة، متشبثةً بالرضيعة الآسيوية الصارخة بين ذراعيها.

بشعورٍ غامضٍ بالشؤم، تفحصت السيدة «ماكولا» الساعة. زوجها في طريقه إلى العمل في وسط المدينة ولن يكون هناك قبل خمس وثلاثين دقيقة أخرى على الأقل. اتصلت بصديقةٍ بعد أخرى، لكن لم تشاهد أي منهن التقرير الإخباري في الليلة السابقة أيضًا، وليس بوسعهن سوى تقديم الدعم المعنوي، وليس التوعية بما يجب عليها فعله. قالت كلٌّ منهن بدورها:

ـ لا تقلقي، سوف يكون الأمر على ما يرام. إنها فقط «باربرا بيرس»، تثير المتاعب.

في تلك الأثناء، وصل السيد «ماكولا» إلى العمل واستقل المصعد إلى الطابق السابع، حيث مكاتب مؤسسة «رايبورن للخدمات المالية». لم يكَد يُخرج ذراعًا واحدة من معطفه حتى ظهر «تيد رايبورن» على مدخل بابه قائلًا:

ـ اسمع يا «مارك»، لا أعرف إذا كنت شاهدتَ الأخبار الليلة الماضية على القناة الثالثة، لكنْ، هناك شيءٌ يجب أن تعرفه.

أغلق الباب خلفه، واستمع السيد «ماكولا»، ما زال ممسكًا معطفه ملاصقًا لجسده، كما لو أنه منشفة. وصف «تيد رايبورن» المقطع الإخباري بالنبرات القلقة الخفيفة الموزونة نفسها التي يستخدمها مع العملاء: المشهد الخارجي لمنزل عائلة «ماكولا»، مظللٌ بأنوار المساء، لكنه ما زال مألوفًا له بسبب أعوامٍ من استضافة العائلة لحفلات «الكوكتيل»، حفلات الإفطار المتأخر، حفلاتِ الشواء الصيفي. نصُّ المقدمة الذي تلاه المذيع: «الهدف من عمليات التبني منح منازل جديدة لأطفالٍ ليستْ لديهم عائلات. لكن ماذا إذا كان الطفل لديه عائلةٌ بالفعل؟»، والمقابلة مع الأم ـ «بي ـ شيءٌ ما»، لم يتمكن «تيد» من التقاط الاسم كاملًا ـ التي توسلت من أجل طفلتها أمام الكاميرا. قالت، وكلٍ مقطع ملفوظ بحرص:

ـ أنا أرتكب خطأً، الآن لديَّ وظيفة جيدة. لديَّ حياة متماسكة الآن. أريد استرداد طفلتي. قوم «ماكولا» هؤلاء ليس لديهم حق تبني رضيعةٍ تريدها والدتها. طفلةٌ تنتمي لوالدتها.

انتهى «تيد رايبورن» من حديثه تقريبًا حين دقَّ جرس الهاتف على المكتب، وعرف السيد «ماكولا» حين رأى الرقم أنها زوجته، وما الذي كان يحدث، وما الذي يجب عليه الآن أن يشرحه لها. التقط السماعة قائلًا:

ـ أنا عائدٌ إلى المنزل.

ووضع السماعة مرة أخرى والتقط مفاتيحه.

* * *

لم تشاهد «مِيا»، التي لم يكن لديها تلفزيون، المقطع الإخباري أيضًا. لكن

في عصر يوم الأربعاء، قبل أن يُبث المقطع، مرَّت «بيبي» على منزلها لتخبرها كيف جرت المقابلة. قالت:

ـ إنهم يعتقدون أنها قصة جيدة.

كانت ترتدي بنطالها الأسود وقميصًا أبيض ببقعة باهتة من صلصة الصويا على طوق الكم، ومن تلك الهيئة عرفت «مِيا» أن «بيبي» متجهةٌ إلى العمل. تابعت:

ـ إنهم يتحدثون معي لساعة تقريبًا. لديهم أسئلة كثيرة جدًّا لي.

قطعت حديثها عند سماع صوت خطوات على السلَّم. كانت «إيزي»، وصلت للتَّو من المدرسة، والتزمت كلٌّ من «مِيا» و«بيبي» الصمت لدى رؤية شخص غريب. قالت «بيبي» بعد لحظة:

ـ من الأفضل أن أذهب. الحافلة تأتي قريبًا.

في طريقها للخارج، انحنت مقتربةً من «مِيا». همست:

ـ يقولون إن الناس سوف يساندونني حقًّا.

حين خرجت «بيبي»، سألت «إيزي»:

ـ من هذه؟

أجابت «مِيا»:

ـ مجرد صديقة، صديقة من العمل.

تمتَّع المُنتجون في القناة الثالثة، كما تبيَّن، بحدسٍ جيد. في الساعات التالية لبثِّ المقطع الإخباري، غُمِرت المحطة الإخبارية بالاتصالات بشأن القصة، بما يكفي لضمان المتابعة، وبما يكفي كي ترسل القناة التاسعة، المنافِسة منذ الأزل، «باربرا بيرس» كأول إجراء في صباح اليوم التالي.

قالت «ليندا ماكولا» للسيدة «ريتشاردسون» مساء الخميس:

ـ «باربرا بيرس»، «باربرا بيرس» بكعبيها الرفيعين العاليين وشعرها المصفف مثل «دوللي بارتون» ظهرت على عتبة بابي، وزجَّت ميكروفونًا في وجهي.

شاهدت المرأتان للتَّو مقطع «باربرا بيرس»، كل منهما على أريكتها الخاصة أمام التلفزيون تحمل هاتفًا لاسلكيًّا على أذنها، وانتاب السيدة «ريتشاردسون» شعور عجيب مفاجئ، أنهما كانتا في الرابعة عشرة من عمريهما مرة أخرى، هواتف «برنسيس» في حضنيهما، تشاهدان حلقات مسلسل «جرين آكِرز» في الوقت نفسه حتى تتمكنا من سماع ضحكات بعضهما البعض.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ هذا ما تفعله «باربرا بيرس»، سيدة «أخبار الآكشن المثيرة» المرتدية بذلة ذات تنورة. متنمِّرة بصحبة مصوِّر تلفزيوني.

قالت السيدة «ماكولا»:

ـ يقول المحامي إن موقفنا قوي، يقول إن الأم تخلت عن الوصاية إلى الولاية بترك الرضيعة والولاية منحت الوصاية لنا. لذلك فإن تظلُّمها حقيقةً موجه إلى الولاية وليس إلينا. يقول إن عملية التبني مكتملة بنسبة ثمانين بالمائة وسوف يستغرق الأمر شهرًا آخر أو شهرين لتكون «ميرابيل» لنا إلى الأبد، وحينها لن يكون لهذه المرأة حق المطالبة بها على الإطلاق.

لقد حاولا لفترة طويلة، هي وزوجها، إنجاب طفل. بعد زفافهما، حملتْ على الفور. ثم، بعد أسابيع قليلة، بدأت تنزف، وعرفت حتى قبل أن يستشيرا الطبيب أن الطفل قد رحل. طمأنها الطبيب:

ـ أمرٌ شائعٌ جدًّا، نصف حالات الحمل تنتهي في الأسابيع القليلة الأولى. معظم النساء لا يعرفن حتى أنهن قد حملْن.

لكن السيدة «ماكولا» عرفت، وبعد ثلاثة شهور، حين حدث الأمر مرة أخرى، ومرة أخرى بعد ذلك بأربعة شهور، ومرة أخرى بعد ذلك بخمسة شهور، أدركت بألم في كل مرة أن هناك شيئًا حيًّا توهجت شرارته بداخلها، وأن تلك الشرارة خبتْ على نحوٍ ما.

وصف الأطباء الصبر، والفيتامينات، ومكملات الحديد. حدث حملٌ آخر، هذه المرة دام عشرة أسابيع قبل أن يبدأ النزيف. بكت السيدة «ماكولا» في الليل، وبعد أن خلدت إلى النوم، بكى زوجها بجوارها. بعد ثلاث سنوات من المحاولات، كانت قد حملت خمس مرات، من دون أن تُرزق بطفل. «انتظري ستة شهور»، أوصى طبيب التوليد، «دعي جسدك يستريح». حين انتهت فترة الانتظار، حاولا مرة أخرى. بعد شهرين أصبحت حاملًا، بعد شهر، لم تعد حاملًا. في كل مرة لم تخبر أحدًا، آملةً أنها إذا كتمت المعرفة عميقًا بداخلها، سوف يظل الجنين وينمو. لم يتغير شيء. بحلول ذلك الوقت رُزقت صديقتها القديمة «إيلينا» ببنتٍ وولدٍ وكانت حبلى في الثالث، وعلى الرغم من أن «إيلينا» عادة ما تتصل بها، على الرغم من أن «إيلينا» استقبلت «ليندا» بسعادة بين ذراعيها وتركتْها تبكي ـ كما اعتادتا أن تفعلا بينما كانتا تكبران، تبكيان بسبب الأمور المهمة والتافهة ـ وجدت السيدة «ماكولا» أن هذا أمرٌ لا يمكنها مشاركته. لم تُخبر «إيلينا» قطُّ حين كانت حاملًا، لذلك كيف تخبرها أن الحمل انتهى؟ لم تعرف حتى كيف تبدأ. فقدتُ جنينًا آخر. حدث الأمر مرة أخرى. كلما تناولتا الغداء، لم تستطع السيدة «ماكولا» منع نفسها من التحديق إلى بطن السيدة «ريتشاردسون» المكوَّر. شعرت السيدة «ماكولا» أنها منحرفة، أرادت بشدة أن تلمس بطن السيدة «ريتشاردسون»، أن تربِّت عليه، أن تمسِّده. في الخلفية، «ليكسي» و«تريب» يهزران ويترنحان، وأصبح تجنب الأمر بأكمله أسهل ببساطة بعد فترة. لاحظت السيدة «ريتشاردسون» من جانبها أن صديقتها العزيزة «ليندا» أصبحت مُقِلَّةً في اتصالاتها، وأن السيدة «ريتشاردسون» نفسها حين تتصل عادة ما يرد عليها المجيب الآلي، صوت السيدة «ماكولا» المبتهج يغني، «اترك رسالة لـ«ليندا» و«مارك»، وسنعاود الاتصال بك!» لكن لم يعاود أحدٌ الاتصال قطُّ.

في العام الذي أعقب ولادة «إيزي» أصبحت السيدة «ماكولا» حاملًا مرة

أخرى. بحلول ذلك الوقت كان الأمر مرهقًا: رصد دورة تبويضها، الانتظار، الاتصالات بالطبيب. حتى ممارسة الجنس مُجدولة ـ بدقة وفقًا لأعلى أيامها خصوبةً ـ بدأت تشعر أنها مهمة روتينية. من كان ليصدق هذا، هكذا فكرت، متذكرةً المدرسة الثانوية، حين كانت و«مارك» يتلامسان تلامسًا مسعورًا في المقعد الخلفي لسيارته. وضعها الأطباء قيد استراحةٍ صارمةٍ بالفراش: ممنوع أن تقف على قدميها لأكثر من أربعين دقيقة في اليوم، بما فيها الذهاب إلى الحمَّام، ممنوع القيام بأي أعمال. نجحت في الوصول إلى ما يقارب خمسة شهور قبل أن تستيقظ في الثانية صباحًا بسكونٍ رهيبٍ في بطنها، مثل الصمت الذي يلي توقف الجرس عن الرنين. في المستشفى، فيما ترقد في ضبابٍ خدِر، استخرج الأطباء الجنين من رحمها، قال أحدهم حين انتهى الأمر: «هل تريدين رؤيتها؟»، وأمسكت ممرضة في يديها المضمومتين بالطفلة، مقمَّطةً بقماشٍ أبيض. بدت الطفلة بالنسبة للسيدة «ماكولا» بالغة الصغر على نحو مستحيل، وردية اللون على نحوٍ مستحيل، لامعةً وملساء على نحوٍ مستحيل، كما لو أنها شيءٌ أزهرَ من زجاجٍ ورديٍّ. ساكنةً على نحوٍ مستحيل. أومأت السيدة «ماكولا» إيماءة مبهمة، أغلقت عينيها مرةً أخرى، ومدَّدت ساقيها لتسمح للأطباء بتقطيب جرحها.

بدأت في السير في الطريق الطويل إلى المتجر لتتفادى الملعب، المدرسة الابتدائية، محطة الحافلات. بدأت تكره النساء الحوامل. أرادت أن تصفعهن، أن تلقي بالأشياء عليهن، أن تمسكهن من أكتافهن وتعضهن. في عيد زواجها العاشر، اصطحبها السيد «ماكولا» إلى «جيوفاني»، مطعمها المفضل، وفيما دخلا، تهادت امرأةٌ حامل ضخمة خلفهما. دفعت السيدة «ماكولا» الباب لتفتحه، ثم، فيما دخلت الحامل خلفهما، تركت السيدة «ماكولا» الباب يُغلق في وجهها، والسيد «ماكولا»، الملتفت ليمسك بذراع زوجته، لم يتمكن للحظة أن يتعرف على هذه المرأة، شديدة القسوة، شديدة الاختلاف عن المرأة الممتلئة بعاطفة الأمومة اللانهائية التي عرفها دائمًا.

في النهاية، بعد موعدٍ أخير مع الطبيب ممتلئ بالعبارات الفاجعة ـ **حيوانات منوية منخفضة الحركة، رحم غير مضياف، إخصاب مستحيل تقريبًا** ـ قرَّرا التبني. حتى الإخصاب الخارجي في المختبر من المرجح أن يفشل، كما نصحهما الأطباء. كان التبني فرصتهما الأفضل في الحصول على طفل. سجَّلا اسميهما في كل قائمة انتظارٍ استطاعا العثور عليها، ومن وقت إلى آخر سوف تتصل وكيلة التبني بسبب وجود حالة تطابقٍ محتملة. لكن دائمًا ما يفشل شيءٌ ما: غيرت الأم رأيها، أو ظهر أبٌ أو ابنُ عمٍّ أو جدٌّ من اللامكان، أو قررت وكالة التبني متبنِّيين آخرين، دائمًا كان ثنائيٌّ أصغر سنًّا مناسبًا أكثر. مرَّ عام، ثم عامان، ثم ثلاثة. بدا أن الجميع أرادوا طفلًا، وأن الطلب فاق العرض بكثير. في ذلك الصباح في يناير، حين اتصلت موظفة الخدمة الاجتماعية لتقول إنها حصلت على اسميهما من إحدى وكالات التبني، إن لديها رضيعة لهما إذا أراداها: كان الأمر يشبه معجزة، إذا أراداها! كل ذلك الألم، كل ذلك الذنب، لقد عبَّأت تلك الأشباح السبعة الصغيرة ـ لأن السيدة «ماكولا» لم تنسَ واحدًا منهم ـ أنفسهم في صندوق وأزاحوا أنفسهم من المشهد لمرأى الرضيعة «ميرابيل»: ملموسةٌ للغاية، حيةٌ للغاية، حتمًا حاضرةٌ للغاية. الآن، مع ظهور فكرة أن «ميرابيل» أيضًا قد تؤخذُ بعيدًا، أدركت السيدة «ماكولا» أن الصندوق ومحتوياته لم يختفوا قطُّ، أنهم ببساطة قد خُزِّنوا فقط، في انتظار أن يفتح شخصٌ ما الغطاء.

قطعت الإعلاناتُ التجارية نشرةَ الأخبار، وعبر خط الهاتف استطاعت السيدة «ريتشاردسون» أن تسمع اللازمة الموسيقية متناهية الصغر لإعلان منتزه «سيدار بوينت» على جهاز تلفزيون عائلة «ماكولا»، متأخرًا بجزء من الثانية عن جهازها. شاهدت امرأة مُسنَّة تتعثر، تسقط، تتلمس بحثًا عن جهاز إرسال حول رقبتها، وتردَّد صوت «باربرا بيرس» من دون صورتها في ذهن السيدة «ريتشاردسون». **هذان الزوجان يريدان تبني طفلتها، لكنها لن تتركها ترحل من دون نضال.**

قالت السيدة «ريتشاردسون» الآن للسيدة «ماكولا»:

ـ سوف يهدأ الأمر، سينساه الناس. سوف يمر.

لكن الأمر لم يمر. على الرغم من أن الأمر بدا بعيد الاحتمال، شيءٌ ما بشأن القصة لمس وترًا في المجتمع السكاني. كانت الأخبار بطيئة: امرأةٌ تلدُ سبعةً في بطنٍ واحد، ونشرت جريدة «نيويورك تايمز» من دون مزاح أن الدببة كانت السبب الرئيسي لتدمير السيارات في منتزه «يوسميتي». كانت أكثر المسائل السياسية ضغطًا ـ لمدة أسابيع قليلة أخرى، على الأقل ـ هي ماذا سيسمي الرئيس كلينتون كلبه الجديد. كانت مدينة كليفلاند آمنةً وضجِرة، وتتوق إلى إثارةٍ من مصدر أقرب قليلًا.

في صباح الجمعة كان هناك طاقمَا تصوير إضافيَّان عند باب عائلة «ماكولا»، وثلاثة مقاطع إخبارية ذلك المساء، على القنوات ٥، و١٩، و٤٣. مشاهد مصوَّرة لـ«بيبي تشاو» تحمل صورةً لـ«ماي لينج» بعمر شهرٍ واحد، تتوسل من أجل عودة رضيعتها. لقطات لمنزل عائلة «ماكولا» بستائره المُسدلة وإضاءة بابه الأمامي المطفأة، صورة للسيد والسيدة «ماكولا» يتأنقان في ملابس رسمية في حفلٍ خيري لصالح مرضى سرطان الدم، الذي جرت تغطيته على صفحات المجتمع اللامعة لمجلة «شايكِر» في العام السابق، مشاهد مصوَّرة لسيارة السيد «ماكولا» «بي إم دبليو» وهو يرجع إلى الخلف خارجًا من الجراج ويقود مبتعدًا فيما يهرول مراسلٌ بجواره حاملًا ميكروفونًا بارتفاع مستوى النافذة.

بحلول يوم السبت عادت جميع أطقم التصوير، ظلت السيدة «ماكولا» في المنزل ومعها «ميرابيل»، ووُجِّهت تعليماتٌ للسكرتارية في مؤسسة استثمار السيد «ماكولا» برفض أي مكالمات من مصادر إخبارية بعبارة «لا تعليق». أصبحت «ميرابيل ماكولا» ـ أو «ماي لينج تشاو» كما اختار البعض أن يدعوها بوضوح ـ كل ليلة قصةً إخبارية مميزة في نشرة الأخبار المسائية، مصحوبةً دائمًا بالصور. في البداية لم يكن هناك سوى لقطة «بيبي» لـ«ماي لينج» وهي

وليدةٌ. لكن فيما بعد ـ بناء على نصيحة محامي عائلة «ماكولا» الذي أراد أن يقدم تباينًا ـ ظهرت صورٌ شخصية حديثة من عائلة «ماكولا»، ملتقطةٌ في استديو «ديلارد»، تُظهر «ميرابيل» في ثوبٍ أصفر للاحتفال بعيد الفصح مرتديةً أُذني أرنب، أو في بذلة «رومبِر» وردية من قطعة واحدة تقف بجوار حصانٍ متأرجحٍ قديم الطراز. كان الداعمون يظهرون لدعمٍ كلا الجانبين، وبحلول عصر السبت، عرض محامٍ محلي، «إد ليم»، أن يمثّل «بيبي تشاو» مجانًا، وأن يقاضي الولاية للحصول على حق حضانة ابنتها.

* * *

مساء السبت، على العشاء، أعلن السيد «ريتشاردسون»:

ـ اتصل «مارك» و«ليندا ماكولا» هذا المساء ليسألا إذا كنت سأقبل أن أعمل مع محاميهما. يبدو أنه لا يملك خبرة كبيرة في المحكمة، واعتقدا أنني ربما أشكّل دعمًا جيدًا.

أخذت «ليكسي» قضمات صغيرة من سلطتها قائلة:

ـ إذن هل ستفعل؟

قطع السيد «ريتشاردسون» قضمة من الدجاج وقال:

ـ تعلمين أنهما لم يخطئا في شيء من هذا. إنهما يريدان فقط أن يفعلا ما في صالح الطفلة. والدعوى ليست موجَّهةً ضدهما. إنها ضد الولاية. لكن سوف يُجرَّا إليها، وهما مَن سيكونان أكثر تأثرًا بها.

قالت «إيزي»:

ـ باستثناء «ميرابيل».

فتحت السيدة «ريتشاردسون» فمها لتقول تعليقًا قاسيًا، لكن السيد «ريتشاردسون» أسكتها بنظرة. قال:

ـ هذا الأمر بأكمله عن «ميرابيل» يا «إيزي»، الجميع متورطون، نريد الأفضل لها وحسب. علينا فقط معرفة ما الأفضل لها.

علينا، فكرت «إيزي». أصبح والدها طرفًا في هذا الأمر بالفعل. فكرت

في الصورة التي تستمر الجريدة في نشرها لـ«بيبي تشاو»: الحزن في عينيها، صورة «ماي لينج» بحجم كف اليد في يد «بيبي» وقد تجعدت إحدى زواياها، كما لو أنها ظلَّت محفوظة في جيبٍ ما (وهو ما حدث). على الفور تعرَّفت «إيزي» على المرأة التي رأتها في مطبخ «مِيا»، المرأة التي لزمت الصمت بمجرد أن دخلت «إيزي»، التي حدقتْ بها كما لو أنها خائفة، كما لو أنها مُطارَدة. قالت «مِيا» حين سألت «إيزي» من هذه المرأة: «مجرد صديقة»، وإذا كانت «مِيا» تثق بـ«بيبي»، فإن «إيزي» تعرف أي الطرفين تؤيد. قالت:

ـ سارق الأطفال.

خيَّم صمتٌ مصدوم على المائدة مثل قماشٍ ثقيل. عبر المائدة، تبادلت «ليكسي» و«تريب» نظراتٍ قلقة غير متفاجئة. رمى «مودي» «إيزي» بنظرة قالت اخرسي، لكنها لم تكن تنظر إليه.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ «إيزي»، اعتذري لوالدك.

سألت «إيزي»:

ـ لماذا أعتذر؟ إنهما يخطفانها بطريقةٍ عملية. والجميع يسمح لهما فحسب. حتى أبي يقدم المساعدة.

بدأ السيد «ريتشاردسون» بقوله:

ـ دعونا نهدأ.

لكن فات الأوان. نادرًا ما كانت السيدة «ريتشاردسون» هادئةً إذا تعلق الأمر بـ«إيزي»، ولذلك السبب، لم تكن «إيزي» نفسها هادئة.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ «إيزي». اذهبي إلى غرفتك.

التفتت «إيزي» إلى والدها:

ـ ربما بإمكانهما فقط أن يدفعا لها. كم تساوي رضيعة في سوق اليوم؟ عشرة آلاف دولار؟

ـ «إيزابيل ماري ريتشاردسون»...
ـ ربما يمكنهما المساومة وتخفيض سعرها إلى خمسة آلاف.
ألقتْ «إيزي» شوكتها في طبقها فأصدرت صليلًا وغادرت الغرفة. يجب أن تعلم «مِيا» بهذا، هكذا فكرت «إيزي» وهي تسرع إلى الطابق العلوي ثم إلى غرفتها. سوف تعرف «مِيا» ماذا تفعل. سوف تعرف كيف تعالج الوضع. طفا ضحك «ليكسي» إلى أعلى بئر السلَّم وإلى أسفل الرواق، وأغلقت «إيزي» بابها بعنف.
في الطابق الأسفل، غاصت السيدة «ريتشاردسون» متراجعة في مقعدها، يداها ترتعدان. سوف يستغرقها التفكير في عقابٍ مناسبٍ لـ«إيزي» حتى الصباح التالي: مصادرة حذاء «دوك مارتنز» الأثير لديها وإلقاؤه في القمامة. سوف تصرُّ وهي تفتح برميل القمامة، أنك إذا كنتَ ترتدي ملابس قاطع طريق، بالطبع ستتصرفُ كقاطع طريق. في الوقت الحالي، سوف تُطبِق شفتيها بشدة وتضع سكينها وشوكتها على شكل حرف X أنيق في طبقها.
سألت:
ـ هل نخفي الأمر؟ أنك سوف تعمل مع عائلة «ماكولا»؟
هزَّ السيد «ريتشاردسون» رأسه قائلًا:
ـ سوف يُنشر الخبر في الجريدة غدًا.
وكان على صواب.
يوم الأحد، نشرت جريدة «بلاين ديلر» القصة في الصفحة الأولى، على رأس النصف السفلي: **أمٌّ محليَّة تناضل من أجل الحصول على حق حضانة ابنتها.** كان مقالًا جيدًا، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون»، وهي ترتشف قهوتها وتقرأ المقال قراءة سريعة بعينين محترفتين: نظرةٌ عامة على القضية، ذكْرٌ سريع لخبر أن «ويليام ريتشاردسون» من مؤسسة «كليمان، ريتشاردسون، وفيش» سوف يمثِّل عائلة «ماكولا»، بيانٌ من محامي «بيبي». قال «إدوارد ليم»: «**نحن واثقون، أن الولاية سترى أنه من المناسب إعادة حق**

حضانة «ماي لينج تشاو» إلى والدتها البيولوجية». على أي حال، أشارت حقيقةُ أن الجريدة نشرت القصة على نحو بارز للغاية إلى أن التغطية الحقيقية لا تزال في بدايتها.

في آخر المقال، لفتتْ جملةٌ واحدةٌ نظر السيدة «ريتشاردسون»: «أخبرتْ زميلةُ عمل في مطعم «لاكي بالاس»، وهو مطعمٌ صينيٌّ على «وارنسفيل رود»، السيدة «تشاو» بمكان ابنتها». على الرغم من أن الجمل مُصاغةٌ بحرص ومجهَّلة، أدركت السيدة «ريتشاردسون» مصدومة من هي زميلة العمل تلك. لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. إذن فهي مستأجرتُها، مستأجرتُها الصغيرة الهادئة التي تتوق إلى إسعادها، هي التي بدأتْ كل هذا. التي قررتْ، لأسبابٍ غير واضحةٍ بعد، أن تقلب حياة عائلة «ماكولا» المسكينة.

طَوت السيدة «ريتشاردسون» الجريدة بدقة ووضعتها على الطاولة. فكرت مرة أخرى في جفاء «مِيا» حين عرضت شراء واحدة من صورها. في تكتُّم «مِيا» فيما يتعلق بماضيها. في... حسنًا، **تحفُّظ** «مِيا»، حتى وهي تقضي ساعات يوميًّا في منزل السيدة «ريتشاردسون»، في هذا المطبخ نفسه. امرأةٌ دفعت السيدة «ريتشاردسون» أجرها، دعمت إيجارها، قضت ابنتها ساعات وساعات تحت هذا السقف نفسه كل يوم. فكرت السيدة «ريتشاردسون» في الصورة في متحف الفن، التي اتخذت الآن في ذاكرتها مسحةً سريةً خبيثة. كم هو تصرفٌ منافقٌ من «مِيا»، مع خصوصيتها العنيدة، أن تقحم نفسها في أماكن لا تنتمي إليها. لكن كانت هذه «مِيا»، أليس كذلك؟ امرأةٌ تحصل على متعةٍ تكاد تكون منحرفةً بالتكبُّر على النظام الطبيعي. إنه الظلم بعينه، هذه المرأة سبَّبت مثل تلك المتاعب لصديقة السيدة «ريتشاردسون» العزيزة «ليندا»، إنه قد تعيَّن على «ليندا» أن تقاسي بسبب ذلك.

يوم الاثنين، أرسلت السيدة «ريتشاردسون» الأطفال إلى المدرسة

وتسكعت في المنزل حتى وصلت «مِيا» للتنظيف. لم تكن السيدة «ريتشاردسون» واثقة مما تبحث عنه، لكنها احتاجت إلى أن ترى «مِيا» شخصيًّا، أن تنظر في عينيها. قالت «مِيا» ريثما دخلت من الباب الجانبي:

ـ أوه. لم أتوقع وجودكِ بالمنزل. هل ترغبين أن أعود لاحقًا؟

أمالت السيدة «ريتشاردسون» رأسها إلى الجانب وتفحَّصت مستأجرتها. الشعر، كما هو دائمًا، معقود بإهمال على قمة رأسها. قميص أبيض واسع متروكٌ بحرية على بنطالٍ من الجينز. لطخةٌ من الطلاء على ظهر أحد معصميها. وقفت «مِيا» هناك وإحدى يديها على مدخل الباب، نصف ابتسامةٍ على وجهها، في انتظار استجابة السيدة «ريتشاردسون». وجهٌ حلو. وجهٌ شاب، لكنه ليس وجهًا بريئًا. أدركت السيدة «ريتشاردسون» أن «مِيا» لا تكترث لما يظنه الناس بشأنها. يجعلها ذلك خطيرة بطريقةٍ ما. فكرت السيدة «ريتشاردسون» فجأة في الصورة الفوتوجرافية التي رأتْها في منزل «مِيا» في ذلك اليوم الأول، حين دعت «مِيا» إلى منزلها. المرأة المُحوَّلة إلى أذرعٍ شبحية، صامتة تمامًا، عنكبوتية. فكرت السيدة «ريتشاردسون»، أي نوعٍ من الأشخاص قد يحوِّل امرأة إلى عنكبوت؟ أي نوعٍ من الأشخاص، فيما يتعلق بهذا الشأن، رأى امرأة وفكَّر في عنكبوتٍ؟

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ سأغادر الآن.

ورفعت حقيبتها من على نضد المطبخ.

حتى بعد سنوات، سوف تصرُّ السيدة «ريتشاردسون» أن ذلك التنقيب في ماضي «مِيا» لم يكن أكثر من قصاص مبرَّر للمتاعب التي أثارتها «مِيا». سوف تصرُّ السيدة «ريتشاردسون» أن ذلك كان بالكامل من أجل «ليندا»، صديقتها الأقدم والأحب، امرأةٌ كانت فقط تحاول أن تفعل ما في صالح هذه الطفلة والآن انفطر قلبها بسبب «مِيا». «ليندا» لم تستحق ذلك. هل كان

بإمكان «إيلينا» أن تقف متفرجة وتترك شخصًا ما يفسد حياة أعز صديقاتها؟ لن تعترف حتى لنفسها أن الأمر لم يكن بشأن الطفلة على الإطلاق: كان أمرًا معقدًا بشأن «مِيا» نفسها، ذلك الإزعاج المظلم الذي أثارتْه تلك المرأة والذي سوف تفضل السيدة «ريتشاردسون» بشدة إبقاءه محفوظًا في صندوقه. للوقت الحالي، ما زالت الجريدة في يدها، قالت لنفسها إن الأمر كان من أجل «ليندا». سوف تجري بعض الاتصالات. سوف ترى ما يمكنها اكتشافه.

١١

كانت خطوة السيدة «ريتشاردسون» الأولى القراءة عن «بولين هوثورن». لقد سمعت عنها من قبل، بالطبع. حين درست مختاراتها الفنية في الجامعة، كانت «بولين هوثورن» الموضوع المثير الجديد، الأكثر نقاشًا، الأكثر تقليدًا من جانب طلبة التصوير الفوتوجرافي الذين جالوا في الحرم الجامعي بكاميرات معلَّقة حول أعناقهم مثل الشَّارات. الآن تذكرت الصور الفوتوجرافية فيما رأتْها مرة أخرى. امرأة تُرى في مرآة صالون تجميل، نصف شعرها ملتئم بترتيب في خصلاتٍ مجعدة، النصف الآخر ينساب حرًّا في دوامةٍ غير مرتبة. امرأة تلمس تبرُّجها في المرآة الجانبية لسيارة «كرايسلر»، وسيجارةٌ متدليةٌ من شفتيها المطليتين. امرأة ترتدي معطفًا منزليًّا أخضر بلون الزمرد وكعبين عاليين، تنظف سجادتها المضلَّعة بالمكنسة الكهربائية، الألوان مشبَّعةٌ للغاية لدرجة أنها بدت كما لو أنها تنزف. من الصادم بما يكفي أن تتذكر السيدة «ريتشاردسون» رؤية الصور تومض على شاشة «البروجيكتور» في قاعة المحاضرات المظلمة، حتى بعد كل هذه السنوات، وهي تلتقط أنفاسها فيما كانت تنغمس للحظة في عالم «تكنيكَلَر» ذلك النابض بالحياة.

عرفت الآن أن «بولين» وُلِدت في ولاية ماين الريفية ثم انتقلت إلى مانهاتن في عمر الثامنة عشرة، لتعيش عدة أعوام في حي جرينتش فيلدج قبل

أن تبرز على المشهد الفني في أوائل السبعينيات. كل كتابٍ عن الفن رجعت إليه السيدة «ريتشاردسون» وصف «بولين» بمصطلحاتٍ متوهجة: عبقرية ذاتية التعلُّم، رائدة نسوية في فن التصوير، مفكرة سخية ومفعمة بالنشاط.

لم تجد السيدة «ريتشاردسون» إلا القليل عن حياة «بولين» الشخصية، فقط ذكر مختصر لاحتفاظها بشقة في «أبَر إيست سايد». على أي حال، وجدت السيدة «ريتشاردسون» نبأً سارًّا واحدًا مثيرًا للاهتمام: لقد درَّست «بولين هوثورن» في كلية نيويورك للفنون الجميلة، على الرغم من أنه من الواضح أن ذلك ليس بدافع الحاجة إلى المال. خلال عدة سنوات في مسيرة «هوثورن» المهنية، كانت صورها تُباع بعشرات الآلاف، رقم كبير نوعًا بالنسبة لمُصوِّرٍ في ذلك الوقت، ناهيك عن أنها امرأة. بعد وفاتها في ١٩٨٢، تعاظمت قيمة صورها، مع دفع متحف الفن الحديث «موما» ما يقرب من مليونَي دولار لإضافة إحداها إلى مجموعته الدائمة.

اعتمادًا على حدس ما، بحثت السيدة «ريتشاردسون» عن رقم أمين السجلات في كلية نيويورك للفنون الجميلة. أثبت أمين السجلات أنه مصدر عونٍ إلى حدٍّ كبير حين قُدِّمتْ له إثباتات شخصية السيدة «ريتشاردسون» وحين أُخبِر أنها تدقق في بعض الحقائق من أجل قصة صحفية. درَّست «بولين هوثورن» صفَّ التصوير الفوتوجرافي المتقدِّم في المدرسة لأعوامٍ طويلة، حتى العام الذي توفِّيت فيه. لكن كانت هناك امرأةٌ تُدعى «مِيا رايت» في خريف ١٩٨٠، ربما هي التي كانت تبحث عنها السيدة «ريتشاردسون»؟

تبيَّن أن «مِيا رايت» التحقت ذلك الخريف بكلية الفنون الجميلة كطالبةٍ في السنة الأولى، لكنها طلبت في ربيع ١٩٨١ إجازة للعام الدراسي التالي، ومُنِحتْ تلك الإجازة. ولم تعُد قطُّ. حسبت السيدة «ريتشاردسون» من خلال عمليات حسابية ذهنية أن «مِيا» - إذا كانت هذه هي «مِيا» المقصودة نفسها - لم تكن بعد قد حملتْ في «بيرْل» ذلك الربيع. لذا لماذا ستحصل «مِيا» على إجازة من المدرسة؟ إذا لم يكن السبب أنها حامل؟

امتنع أمين السجلات عن إعطاء عناوين الطلاب، حتى إذا كان قد مضى عليها خمسة عشر عامًا الآن. لكن السيدة «ريتشاردسون» نجحت في الوصول إلى معلومة ـ عبر بعض الاستجواب الماكر ـ أن العنوان على ملف «مِيا رايت» كان عنوانًا محليًّا، ولم تكن هناك معلومات عن الوالدين.

كان على السيدة «ريتشاردسون» أن تحاول حل المشكلة من الطرف الآخر إذن. وسرعان ما قدَّمتْ فرصةٌ نفسها، في شكل خطابٍ طال انتظاره. منذ عيد الشكر، كان تفقُّد البريد أول شيء تفعله «ليكسي» حين تصل إلى المنزل، وأخيرًا، في منتصف ديسمبر، حطَّ مظروفٌ سميك يحمل شعار جامعة «ييل» في زاويته، رحالَهُ أخيرًا في صندوق بريدهم. اتصلت السيدة «ريتشاردسون» بجميع أقاربهم لتشاركهم الخبر، وصل السيد «ريتشاردسون» إلى المنزل ومعه كعكة.

قالت السيدة «ريتشاردسون» على العشاء:

ـ «ليكسي»، سوف أصطحبكِ لإفطارٍ متأخرٍ فاخر في عطلة نهاية الأسبوع للاحتفال، على أي حال، لن تلتحقي بجامعة «ييل» كل يوم. سوف نقضي وقتًا بناتيًّا ممتعًا.

قال «مودي»:

ـ ماذا عنِّي؟ هل سأبقى في المنزل وأتناول حبوب الإفطار؟

ضحك «تريب» وعبس «مودي»:

ـ قالت وقتًا بناتيًّا ممتعًا، هل تريد أن تشارك في وقتٍ بناتيٍّ ممتع؟

سألت «إيزي»:

ـ إذن ماذا عنِّي؟ هل يعني هذا أنه يمكنني المجيء؟

لم تتوقع السيدة «ريتشاردسون» ذلك. لكن عيني «ليكسي» اشتعلتا بالفعل، كانت «ليكسي» تثرثر بالفعل حول المكان الذي تودُّ الذهاب إليه، وفات الأوان تمامًا على قول «لا». وفي ذلك المساء، فيما كانت السيدة

«ريتشاردسون» تغسل وجهها قبل النوم، خطرت لها فكرة، طريقة يمكن أن يخدم بها هذا الغداء غرضًا آخر أيضًا.

في عصر اليوم التالي جاءت إلى الغرفة المشمسة قبل العشاء مباشرة. في الظروف العادية تركت الأطفال بمفردهم، شاعرةً أن المراهقين محتاجون لمساحتهم الخاصة، أنهم يستحقون درجة ما من الخصوصية. اليوم، مع ذلك، كانت تبحث عن «بيرْل». كانت متمددةً كالعادة على الأريكة بصحبة «ليكسي» و«تريب» و«مودي»، جميعهم نصف غارقين في مساند الأريكة الممتلئة بالحشو. «إيزي» راقدةٌ على بطنها على المقعد ذي الذراعين، ذقنها مسنود على إحدى الذراعين وقدماها في الهواء إحداهما فوق الأخرى.

بدأت السيدة «ريتشاردسون» بقولها:

ـ «بيرْل»، هذا أنتِ.

استقرت السيدة «ريتشاردسون» على ذراع الأريكة بجوار «بيرْل» قائلة:

ـ سأخرج بصحبة الفتيات لتناول إفطارٍ متأخر يوم السبت، للاحتفال بأخبار «ليكسي» السعيدة. لماذا لا تأتين، أيضًا؟

ألقت «بيرْل» نظرةً سريعة من فوق كتفها، كما لو كانت السيدة «ريتشاردسون» تتحدث إلى شخصٍ آخر:

ـ أنا؟

ضحكت السيدة «ريتشاردسون» قائلة:

ـ أنتِ عمليًّا جزءٌ من هذه العائلة، أليس كذلك؟

قالت «ليكسي»:

ـ بالطبع يجب أن تأتي، أريدكِ أن تأتي.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ اذهبي وأخبري والدتكِ، إنها في المطبخ. أنا واثقة أنها ستقول «لا بأس». أخبريها أن الدعوة على حسابي. أخبريها.

أضافت:

ـ إنني أصِرُّ على الدعوة.

في الطرف الآخر من الغرفة، رفعت «إيزي» جسدها ببطء على مرفقيها، مضيِّقةً عينيها. لقد مرَّت أكثر من ثلاثة أسابيع منذ وعدتْ والدتها بالبحث في صورة «مِيا» الغامضة، وحين تُسأل عنها، لا تقول سوى: «أوه، «إيزي»، أنت تفتعلين قضيةً كبيرةً من لا شيء». الآن صدم اهتمامها المفاجئ بـ«بيرْل» «إيزي»، كان تصرفًا غريبًا.

سألت «إيزي» والدتها، بِمجرد أن أصبحتْ «بيرْل» بمعزلٍ عن الاستماع:

ـ لماذا دعوتِها؟

ـ «إيزي». كم مرةً يتسنى لـ«بيرْل» الخروج لتناول إفطار متأخر؟

نهضت السيدة «ريتشاردسون» وسوَّت بلوزتها قائلة:

ـ فضلًا عن أنني اعتقدتُ أنكِ تحبين «بيرْل».

* * *

بهذه الطريقة وجدت «بيرْل» نفسها جالسة إلى منضدةٍ خشبية في الزاوية بجوار «ليكسي»، في مواجهة السيدة «ريتشاردسون» و«إيزي» العابسة. اختارت «ليكسي» مطعم «هاندردث بوم جروب»، وهو مطعمٌ قرب المطار حيث تذهب العائلة للاحتفال بالمناسبات الخاصة، أحدثها عيد ميلاد السيد «ريتشاردسون» الرابع والأربعون.

كان مطعم «هاندردث بوم جروب» مزدحمًا ذلك الصباح، دوامةٌ مثيرة للدوار من النشاط وطاولةٌ مدهشةٌ من أصناف الطعام ممتدةٌ بطول المكان. عند منصة تقطيع اللحم، قطَّع رجلٌ قويُّ البنية يرتدي مئزر مطبخٍ أبيض اللون شرائح لحم البقر المشوي من ردفٍ غير تام النضج. عند منصة طهي البيض المخفوق، صبَّ الطُّهاة سيلًا من البيض الذهبيِّ المُزبد في مقلاة وحولوه إلى بيضٍ مخفوقٍ منتفش غنيٍّ بأي إضافاتٍ ترغبها، حتى أشياء لم يخطر لـ«بيرْل» أن تضعها في البيض المخفوق: مشروم، وهيليون، وقطع من جراد البحر مرجانية اللون. عُلِّقت على جميع الجدران تذكاراتٌ من

سرب طائرات القصف: خرائط للمعارك الكبرى ضد النازيِّين، وميداليات الجنود، وصفائح الهوية الخاصة بهم، ورسائلهم لحبيباتهم في الوطن، وصورٌ لطائراتهم، وصورٌ للرجال أنفسهم؛ أنيقون في زيٍّ عسكريٍّ موحَّدٍ وقبعاتٍ عسكريةٍ وشاربٍ من آن إلى آخر.

قالت «ليكسي» ناقرةً صورةً خلف أذن «بيرْل» مباشرة:

ـ النقيب «جون سي سنكلير». ألا تحبين لقاءه وحسب؟

قالت «إيزي»:

ـ أتدركين، أنه لو كان لا يزال حيًّا، سيكون الآن في الرابعة والتسعين تقريبًا. من المحتمل أن لديه مشَّاية.

ـ أعني، ألن تودِّي لقاءه، إذا كنتِ تعيشين في ذلك الوقت. لماذا تناقشين تفاصيل تافهة يا «إيزي»؟

قالت «إيزي»:

ـ من المحتمل أنه قصف مُدُنًا، تعلمين، من المحتمل أنه قتل أشخاصًا بريئين. كل هؤلاء الرجال من المحتمل أنهم فعلوا ذلك.

لوَّحت «إيزي» بإحدى يديها نحو كمٍّ الصور الفوتوجرافية حولهنَّ.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ «إيزي»، دعينا ندخر درس التاريخ لوقتٍ آخر. نحن هنا للاحتفال بإنجاز «ليكسي».

نظرت عبر الطاولة إلى «ليكسي»، وامتدت النظرة إلى «بيرْل» التي تجلس بجوار «ليكسي». قالت رافعة كأسها المحتوية على «البلادي ميري»:

ـ نخب «ليكسي».

ورفعت «ليكسي» و«بيرْل» كأسيهما المحتويتين على عصير البرتقال، مضيئتين في الشمس.

ردَّدتْ «إيزي»:

ـ نخب «ليكسي»، أنا واثقةٌ أن جامعة «ييل» هي كل ما أردتِه على الدوام.

أخذتْ «إيزي» جرعة ماء من كأسها، كما لو أنها تتمنى أنه شيء أقوى. عند الطاولة المجاورة لهن، ضربت طفلة رضيعة راحتيها الممتلئتين على مفرش المائدة فقفزت أدوات المائدة مصدرةً صليلًا.

همست «ليكسي»:

ـ يا إلهي.

مالتْ عبر المسافة بين الطاولتين باتجاه الطفلة:

ـ أنتِ ظريفةٌ للغاية. نعم أنتِ كذلك. أنتِ أظرف طفلةٍ في العالم بأسره.

أدارت «إيزي» عينيها ونهضت. قالت لوالدي الطفلة:

ـ انتبها لها، لن تعرفا أبدًا متى يُحتمل أن يسرق أحدهم طفلتكما.

قبل أن يتمكن أي شخصٍ من الرد، انطلقت عبر الغرفة باتجاه طاولة أصناف الطعام.

قالت السيدة «ريتشاردسون» للوالدين:

ـ رجاءً اعذرا ابنتي، إنها في سنٍّ صعبة.

ابتسمت للطفلة، التي تحاول الآن حشر طرف الملعقة الكبير في فمها.

ـ «ليكسي»، «بيرْل»، لماذا لا تذهبا أيضًا؟ سوف أنتظر هنا.

حين عاد الجميع إلى المائدة، بدأت السيدة «ريتشاردسون» العمل الدقيق في تحويل الحوار شيئًا فشيئًا. وبينما حدث ذلك كان الأمر أسهل مما توقعتْ. بدأت بذلك الموضوع المضمون، الطقس: تمنت ألا يكون الطقس باردًا للغاية بالنسبة لـ«ليكسي» في «نيو هايفن»، سوف يتوجَّب عليهم أن يطلبوا لها معطفًا أكثر دفئًا من منتجات «إل إل بين»، زوجًا جديدًا من الأحذية المقاومة للماء، ولحافًا محشوًّا بالزَّغب. ثم التفتت إلى «بيرْل» قائلة:

ـ ماذا عنكِ يا «بيرْل»؟ هل ذهبتِ إلى «نيو هايفن» من قبل؟

ابتلعت «بيرْل» ملء شوكةٍ من البيض المخفوق وهزت رأسها:

ـ لا لم أذهب هناك قطُّ. لا تحب أمي الساحل الشرقي كثيرًا.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ حقًّا.

مرَّرت رأس سكينها في بيضة مطهيَّة بالماء وجرى الصفار خارجًا مكونًا بركةً ذهبية.

ـ من المؤسف أنكِ لم تستطيعي السفر إلى هناك. هناك كثير من الأشياء المتاحة للمشاهدة. قدرٌ كبيرٌ من الأماكن الثقافية. لقد ذهبنا في رحلة إلى بوسطن منذ عدة سنوات، هل تذكرن يا فتيات؟ «فريدم ترايل»، «ذي تي بارتي شيب»، ومنزل «بول ريفرز». وبالطبع، هناك نيويورك، كثير من الأمور يمكن عملها هناك.

منحت السيدة «ريتشاردسون» «بيرْل» ابتسامة شخصٍ مُحسن وقالت:

ـ آمل أن تتمكني من مشاهدتها يومًا ما. أؤمن حقًّا أنه ما من شيءٍ مثل السفر لتوسيع أفق شخص في مرحلة الشباب.

شعرت «بيرْل» أنها قد لُدِغت، كما توقعت لها السيدة «ريتشاردسون» أن تشعر. قالت:

ـ أوه، لقد سافرنا كثيرًا، لقد ذهبنا إلى أماكن كثيرة. إلينوي، وأيوا، وكانساس، ونبراسكا...

توقفت، لتفتش عن شيء أكثر روعة:

ـ حتى إننا ذهبنا إلى كاليفورنيا. عدة مرات.

ـ يا للروعة!

أعادت السيدة «ريتشاردسون» ملء كأس «بيرْل» من دورق العصير على المائدة.

ـ لقد ذهبتِ حقًّا إلى أماكن كثيرة. أنتِ اعتدتِ السفر بالفعل. وهل يعجبكِ هذا؟ التجول كثيرًا لهذه الدرجة؟

طعنت «بيرْل» قطعة بيض بشوكتها وقالت:

ـ لا بأس، أعني، ننتقل كلما تنهي أمي مشروعًا. الأماكن الجديدة تمنحها أفكارًا جديدة.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:
ـ لقد نشأتِ لتصبحي مواطنةً عالميةً حقًّا.
وتورَّدتْ «بيرْل» على الرغم منها. وتابعت السيدة «ريتشاردسون»:
ـ على الأرجح أنكِ تعرفين عن هذه الأماكن أكثر ممَّا يعرفه أي مراهق. حتى «ليكسي» و«إيزي» ـ ونحن نسافر بقدرٍ لا بأس به ـ حتى «ليكسي» و«إيزي» لم تذهبا إلا إلى عدة ولايات.
ثم قالت على نحوٍ عارض:
ـ أين قضيتِ أطول وقت؟ حيث وُلِدتِ كما أتخيل؟
ابتلعت «بيرْل» البيض:
ـ حسنًا، لقد وُلِدتُ في سان فرانسيسكو، لكننا غادرنا حين كنت مجرد طفلة رضيعة. لا أتذكرها على الإطلاق. لم نمكث في أي مكان لفترة طويلة للغاية.
خزَّنت السيدة «ريتشاردسون» هذه المعلومة بعيدًا في دماغها. قالت:
ـ ينبغي أن تعودي إلى هناك يومًا ما. أنا أؤمن بمعرفة أين تكمن جذوركِ. هذا النوع من الأمور يشكِّل هويَّتكِ إلى درجةٍ كبيرة. لقد وُلِدتُ هنا في «شايكِر»، هل كنت تعرفين هذا؟
قالت «إيزي»:
ـ أمي، «بيرْل» لا تودُّ أن تسمع كل هذا. لا أحد يودُّ أن يسمع كل هذا.
تجاهلتْها السيدة «ريتشاردسون» وتابعت:
ـ إن أجدادي من أوائل العائلات التي انتقلت إلى هنا، اعتادوا على اعتبار هذا المكان ريفًا، هل تصدقين هذا؟ كانت لديهم إسطبلات وبيوتٌ لتخزين العربات ويذهبون لامتطاء الخيول في العطلات الأسبوعية.
التفتتْ إلى «ليكسي» و«إيزي» قائلة:
ـ أنتما لا تتذكران أجدادي يا فتيات. كانت «ليكسي» مجرد رضيعة حين

توفُّوا. على أي حال، انتقلوا إلى هنا وظلوا هنا. لقد آمنوا حقًّا بما ترمز إليه «شايكِر».

سألتْ «إيزي» وهي ترتشف الماء:

ـ ألم يكن أفراد عائلة «شايكِر» ممتنعين عن ممارسة الجنس وشيوعيين؟

رمقتْها السيدة «ريتشاردسون» بنظرة وقالت:

ـ خطة مدروسة، إيمانًا بالمساواة والتنوع. يرون بصدق أن الجميع متساوون. لقد نقلوا هذا إلى والدتي، وهي نقلتْه إليَّ.

التفتتْ عائدةً إلى «بيرْل»:

ـ أين نشأتْ والدتكِ؟

تململتْ «بيرْل» قائلة:

ـ لستُ متأكدة، ربما في كاليفورنيا.

وكزتْ بيضها المخفوق، الذي أصبح مطَّاطيًّا الآن. قالت:

ـ إنها لا تتحدث عن هذا الأمر كثيرًا. لا أعتقد أن لديها أي عائلة الآن.

في الحقيقة، لم يسبق لـ«بيرْل» أن واتتْها الشجاعة لتسأل «مِيا» مباشرةً عن أصولها، وهربت «مِيا» من أسئلة «بيرْل» الملتوية بسهولة. «نحن رُحَّل»، كما قالت في إحدى المرات لـ«بيرْل». «غجر العصر الحديث، هذا ما نحن عليه. لا نضع قدمًا في مكانٍ واحدٍ مرتين». أو: «نحن ننحدر من القوم العاملين في السيرك»، كما قالت في مرةٍ أخرى. «التجوال في دمنا».

قالت «ليكسي»:

ـ ينبغي أن تكتشفي الأمر، فعلتُ ذلك العام الماضي، لمشروعي في الاحتفال بـ«يوم التاريخ». هناك قاعدة بيانات ضخمة في «إليس آيلاند»، قوائم المسافرين الوافدين وبيانات السفن وأشياء من هذا القبيل. إذا عرفتِ تاريخ هجرة أسلافكِ، يمكنكِ البحث في تاريخ عائلتك من هناك مع سجلات إحصاء السكان. لقد تتبعتُ عائلتنا إلى ما قبل الحرب الأهلية مباشرة.

وضعتْ «ليكسي» كأس العصير وقالت:
ـ هل تعتقدين أن والدتك تعرف متى جاء أسلافها إلى هنا؟
شعرت السيدة «ريتشاردسون» أن الحوار ينزلق نحو طبقة رقيقة من الجليد، قالت بحدةٍ على نحوٍ ما:
ـ «ليكسي»، تبدين مثل مراسلٍ صحفيٍّ ناشئ، ربما عليكِ أن تأخذي دراسة الصحافة في اعتبارك حين تبدئين الدراسة في «ييل».
أطلقت «ليكسي» صوت شخير مستهجن:
ـ كلَّا شكرًا.
قاطعتْ «إيزي» الحوار قبل أن تتمكن والدتها من الحديث:
ـ «ليكسي»، تريد أن تصبح «جوليا روبرتس» القادمة. اليوم الآنسة «أديلايد»، وغدًا «محبوبة أمريكا».
قالت «ليكسي»:
ـ اخرسي، من المحتمل أن «جوليا روبرتس» بدأت بلعب أدوارٍ في المسرحيات المدرسية أيضًا.
قالت «بيرْل»:
ـ سأحب ذلك.
حدَّق الجميع. سألتْ «ليكسي»:
ـ تحبين ماذا؟
قالت «بيرْل»:
ـ أن أصبح مراسلة صحفية، أعني، أن أصبح صحفية. بمقدورك معرفة كل شيء. بمقدورك رواية قصص الناس واكتشاف الحقيقة والكتابة عنها.
تحدثتْ «بيرْل» بجديةٍ لا تملكها بصدق إلا فتاةٌ مراهقة.
ـ تستخدمين الكلمات لتغيير العالم. سأحب أن أفعل ذلك.
رفعت عينيها للسيدة «ريتشاردسون»، التي أدركتْ للمرة الأولى مدى اتساع عيني «بيرْل» وإخلاصهما. تابعتْ «بيرْل»:

ـ مثلما تفعلين. سأحب أن أفعل ما تفعلين.
قالت السيدة «ريتشاردسون»:
ـ حقًّا؟
تأثرت السيدة «ريتشاردسون» بصدق. للحظة شعرتْ كما لو أن «بيرْل» ببساطة إحدى صديقات «ليكسي»، هناكَ لتحتفل بابنة السيدة «ريتشاردسون» الرائعة: شابَّةٌ واعدة ربما تقوم السيدة «ريتشاردسون» بإرشادها ورعايتها، شابةٌ ذات إمكانيات بكل ما تحمله الكلمة من معنى.
ـ هذا رائع. ينبغي عليكِ محاولة الكتابة في «الشايكِرايت»، جريدة المدرسة وسيلةٌ عظيمةٌ لتعلُّم الأساسيات. ومن ثمَّ، حين تصبحين مستعدة، ربما يمكنني مساعدتكِ في العثور على منحةٍ تدريبية.
سكتتْ، متذكرةً فجأة السبب الذي دعتْ «بيرْل» من أجله لهذا الإفطار المتأخر في المقام الأول.
ـ شيءٌ يمكننا التفكير بشأنه على أي حال.
ختمت حديثها، وقلَّبت مشروبها بغضب بواسطة عود الكرفس. قالت:
ـ «إيزي»، هل هذا كل ما ستأكلينه؟ «توست» ومربَّى؟ كان بإمكانك تناول هذا في المنزل.

* * *

تطلَّب الأمر عدة مكالمات للعثور على مكتب «سجلات الأحوال المدنية» في سان فرانسيسكو، لكن بمجرد أن توصلت إليهم السيدة «ريتشاردسون» على الهاتف، لم يكن هناك مزيد من العقبات. في غضون عشر دقائق، أرسلت الموظفة عن طريق الفاكس نموذج طلب شهادة ميلاد من دون طرح أسئلة. وضعت السيدة «ريتشاردسون» علامةً في المربع أمام عبارة نسخة «معلوماتية» وملأت البيانات باسم «بيرْل» وتاريخ الميلاد، مع اسم «مِيا». تُركت المساحة أمام اسم الأب خاليةً بالطبع، لكن الموظفة أكدت لها أنهم سيتمكنون من إيجاد الوثيقة الصحيحة حتى من دونه، وأن شهادات الميلاد سجلاتٌ عامة.

وعدَت الموظفة: «من أسبوعين إلى أربعة أسابيع، إذا حصلنا عليها، سوف نرسلها إليكِ»، كتبت السيدة «ريتشاردسون» عنوانها الخاص، وأرفقتْ شيكًا بقيمة ثمانية عشر دولارًا، ووضعت المظروف في صندوق البريد.

استغرق الأمر خمسة أسابيع، لكن حين وصلت شهادة الميلاد إلى صندوق بريد عائلة «ريتشاردسون»، كان الأمر مخيِّبًا للأمل بعض الشيء. تحت عنوان «الأب» طُبِعت كلمة «لا يوجد» بأناقة. زمَّت السيدة «ريتشاردسون» شفتيها بخيبة أمل. شعرت أنه يجب أن يكون السماح لشخص ما بإخفاء اسم أحد الوالدين أمرًا غير قانوني. هناك شيء غير لائقٍ في الأمر، هذا الإحجام عن تقديم المعلومات، الإفصاح عن جذورك بصراحة. أثبتتْ «مِيا» أنها كاذبةٌ بالفعل وقادرةٌ على اجتراح المزيد من الأكاذيب. ماذا يمكنها أن تخفي أيضًا؟ فكرت السيدة «ريتشاردسون» أن الأمر يشبه رفض إعطاء سجلات الصيانة عند بيع سيارةٍ مستعملة. أليس لديك الحق في معرفة من أين أتى شيءٌ ما، وبذلك تعرف الأعطال التي قد تحدث في المستقبل؟ أليس للسيدة «ريتشاردسون» ـ بوصفها صاحبة عمل هذه المرأة، وصاحبة منزلها أيضًا ـ الحق في معرفة المعلومات نفسها؟

* * *

فكرت السيدة «ريتشاردسون» أن لديها معلومة جديدة على الأقل: محل ميلاد «مِيا»، مسجَّلٌ في «بيڤِل بارك»، بنسلفانيا، في شهادة الميلاد بجوار اسم «مِيا وارِن».

أعلمت استعلامات دليل الهاتف في «بيڤِل بارك» السيدة «ريتشاردسون» أن هناك أربعةً وخمسين قيدًا باسم «وارِن» في البلدة. اتصلت السيدة «ريتشاردسون»، بعد شيءٍ من التفكير، بإدارة سجلات المدينة، التي لم تكن ذات نفعٍ مثل تلك التي في سان فرانسيسكو. لم تكن هناك «مِيا وارِن» في السجلات، كما أصرَّت المرأة على الهاتف. قالت السيدة «ريتشاردسون» باندفاع مفاجئ:

ـ ماذا عن «مِيا رايت»؟

وبعد سكتةٍ قصيرة وطقطقةٍ على لوحة المفاتيح، أجابت المرأة بنعم، امرأةٌ باسم «مِيا رايت» وُلِدتْ في «بيثِل بارك» في ١٩٦٢. وهناك أيضًا رجلٌ باسم «وارِن رايت» وُلِد في ١٩٦٤، هل من الممكن أن تكون الأسماء اختلطتْ على السيدة «ريتشاردسون»؟

شكرتْها السيدة «ريتشاردسون» وأغلقت الخط.

استغرق الأمر عدة أيام، لكن عن طريق مهارات المراسَلة الصحفية الدقيقة والمكالمات الهاتفية الغزيرة، وجدت السيدة «ريتشاردسون» أخيرًا المفتاح الذي كانت تبحث عنه. أتى في شكل نعيٍ في جريدة «بيتسبرج بوست»، مؤرخ في ١٧ فبراير ١٩٨٢.

إقامة مراسم جنازة طالب في السنة الرابعة
بالمدرسة الثانوية يوم الجمعة

سوف تُقام المراسم الجنائزية لـ«وارِن رايت»، ١٧ عامًا، يوم الجمعة، ١٩ فبراير، في الساعة ١١ صباحًا في دار جنازات «والتر إي جريفيث»، ٥٦٣٦ «برونفيل رود». السيد «رايت» عاش مع والديه، السيد والسيدة «جورج رايت»، المقيمين في «بيثِل بارك» منذ فترة طويلة، وشقيقةٍ أكبر، «مِيا رايت» التي تخرجت في مدرسة المقاطعة في ١٩٨٠. بدلًا من تقديم الزهور، تقترح العائلة التبرع لـ«فريق المدرسة الثانوية لكرة القدم»، الذي شغل فيه السيد «رايت» موقع الظهير الخلفي البادئ.

قررت السيدة «ريتشاردسون» أن الأمر لا يمكن أن يكون مصادفة، «مِيا رايت». «وارِن رايت». «مِيا وارِن». اتصلت باستعلامات الهاتف في «بيثِل بارك» مرة أخرى وحين أغلقت الخط نظرت إلى الملاحظة التي دوَّنتْها على قصاصة ورق. «جورج» و«ريجينا رايت»، ١٧٥ «نورث ريدج رود». رمزٌ بريدي. رقم هاتف.

كان الأمر شديد السهولة، فكرتْ بشيءٍ من الاستهانة، إيجاد المعلومات

عن الناس. كان كل شيء موجودًا هناك، كل شيءٍ عنهم. عليك فقط أن تبحث. يمكنك أن تكتشف أي شيء عن شخص ما إذا حاولت جاهدًا بما يكفي.

* * *

بحلول الوقت الذي وجدت فيه السيدة «ريتشاردسون» والدَي «مِيا»، كانت قضية الصغيرة «ماي لينج»/ «ميرابيل» ما زالت تتناولها الأخبار، بل وأكثر مما سبق. في الحقيقة، كانت البلاد الآن مستثارةً بفعل حماقات الرئيس التافهة، لكن على الرغم من كونها فضائحية، كانت العلاقة الغرامية برمتها هزليةً باهتة. عبر المدينة، تفاوتت الآراء بين **لا علاقة للأمر بكيفية إدارته للبلاد وجميع الرؤساء لديهم علاقاتٌ غرامية** إلى الرأي الأكثر اقتضابًا مَن يهتم؟ لكن الجمهور ـ خاصةً الجمهور في «شايكِر هايتْس» ـ كان منغمسًا بعمق في قضية «ميرابيل ماكولا» الآن، وهذه، على خلاف فضيحة المتدرِّبة، منحت شعورًا بالجدية القاتلة.

كان هناك تحديثٌ للقضية كل مساء تقريبًا، التي، حتى الآن، قد خُصِّص لها موعدٌ لجلسة استماع في شهر مارس وأُدرِجتْ في جدول الدعاوى القضائية باسم «**تشاو**» **ضد مقاطعة** «**كواهوجا**». حقيقةُ أن القضية ورطت «شايكِر» ـ وهي مجتمع سكني يحب أن يعتبر نفسه مثلًا أعلى ـ أثارت اهتمام الجميع، وكان لكل شخصٍ في المدينة رأي. أمٌّ استحقت أن تربي طفلتها. أمٌّ هجرت طفلتها لا تستحق فرصة ثانية. عائلةٌ بيضاء سوف تفصل طفلةً صينية عن ثقافتها. عائلةٌ مُحبَّة ينبغي أن تكون أكثر أهمية من لون الوالدين. «ماي لينج» لها الحق في معرفة والدتها. عائلة «ماكولا» هي العائلة الوحيدة التي عرفتْها «ميرابيل».

كان الزوجان «ماكولا» ينقذان «ميرابيل»، كما أصرَّ من يدعمهما. كانا يمنحان طفلةً غير مرغوبة حياةً أفضل. كانا أبطالًا، يهدمان العنصرية عبر التبني العابر للثقافات. قالت امرأة للمراسلين أثناء مقطعٍ إخباريٍّ مصوَّرٍ

في الشارع: «أعتقد أن ما يفعلانه أمرٌ رائع، أعني، هذا هو المستقبل، أليس كذلك؟ في المستقبل، ستتمكن جميعًا من تجاوز العِرق». قال أحد جيران عائلة «ماكولا» بعد ذلك بدقائق: «يمكنك فقط أن ترى كم أن السيدة «ماكولا» أمٌّ رائعة، بوسعك أن تعرف ذلك حين تنظر إلى تلك الطفلة الرضيعة بين ذراعيها، إنها لا ترى طفلة صينية. كل ما تراه هو طفلة، عادية وبسيطة».

كانت هذه بالضبط هي المشكلة، كما أصرَّ من يدعمون «بيبي». احتجَّت امرأةٌ حين أرسلت القناة الخامسة مراسلًا صحفيًّا إلى «آسيا بلازا»، بمركز التسوق الصيني في كليفلاند، للبحث عن وجهات النظر الصينية: «إنها ليست مجرد طفلة، إنها طفلة صينية. سوف تكبر من دون أن تعرف أي شيء عن إرثها الثقافي. كيف ستعرف من هي؟». تصادف أن والدة «سيرينا وونج» كانت تتسوق في متجر البقالة الآسيوي ذلك الصباح، وما سبَّب لـ«سيرينا» الفخر والإحراج في الوقت نفسه، أن والدتها تحدَّثت بقوة عن الموضوع: «التظاهر بأن تلك الطفلة مجرد طفلة، التظاهر بأنه لا توجد قضية عِرقٍ هنا أمرٌ مخادع». وبينما تردَّدت «سيرينا» في إعلان رأيها، انفجر د. «وونج»: «لا، أنا لا ألعب ببطاقة العِرق»، اسأل نفسك: «هل كنا سنخوض مثل هذه المناقشة الحامية إذا كانت تلك الطفلة شقراء؟».

قام الزوجان «ماكولا» أنفسهما، بعد كثير من المناقشة مع محاميهما، بمقابلةٍ حصرية في القناة الثالثة. دعاية إيجابية، كما اتفق السيد «ريتشاردسون»، وهكذا أرسلت القناة الثالثة طاقم تصوير ومنتجًا تلفزيونيًّا إلى غرفة معيشة عائلة «ماكولا» وصوَّرهما يجلسان على الأريكة مع «ميرابيل» أمام نار المدفأة المتأججة، بينما جلس المنتج التلفزيوني خارج نطاق الشاشة.

قالت السيدة «ماكولا»:

ـ نحن نفهم بالطبع لماذا تشعر السيدة «تشاو» على هذا النحو، لكن

«ميرابيل» كانت لدينا معظم حياتها ونحن كل من تتذكره. أنا أشعر أن «ميرابيل» طفلتي على نحوٍ حقيقي، أنها جاءتني بهذه الطريقة لسبب ما.
أضاف السيد «ماكولا»:
- ما من أحدٍ يمكنه أن يقول بصدق إن «ميرابيل» لن تكون أفضل حالًا في بيتٍ مستقرٍّ بصحبة والدين اثنين.
قال المنتج التلفزيوني:
- قال بعض الناس أن «ميرابيل» ستفقد الصلة بثقافتها الأصلية، كيف تردَّان على تلك المخاوف؟
أومأت السيدة «ماكولا»:
- نحن نحاول أن نكون شديدي الحساسية بهذا الشأن، سوف تلاحظ أننا نضيف المزيد والمزيد من الفن الآسيوي إلى جدراننا.
لوَّحتْ بإحدى يديها إلى لفائف الجبال المرسومة بفرشاة الحبر المعلَّقة بجوار المدفأة، الحصان الفخاري اللامع على رف المدفأة.
- نحن ملزمون، حين تصبح «ميرابيل» أكبر سنًّا، بأن نعرِّفها ثقافتها الأصلية. بالطبع هي تحب الأرز بالفعل. في الحقيقة، كان أول طعام صلب تتناوله.
قال السيد «ماكولا»:
- في الوقت نفسه، نودُّ أن تنشأ «ميرابيل» كفتاةٍ أمريكية نموذجية. نريدها أن تعرف أنها مثل الجميع بالضبط.
انتهى المقطع الإخباريُّ بلقطةٍ للزوجين «ماكولا» يقفان فوق مهد «ميرابيل»، فيما انشغلت بلعبتها المتحركة المتدلية من المهد.
حتى أطفال عائلة «ريتشاردسون» وجدوا أنفسهم منقسمين حول هذا الموضوع الشائك. السيدة «ريتشاردسون»، بالطبع، كانت إلى جانب عائلة «ماكولا» بصرامة، كذلك كانت «ليكسي». صاحت «ليكسي» على العشاء في إحدى أمسيات منتصف فبراير:

ـ انظروا إلى الحياة التي تحياها «ميرابيل» الآن، منزلٌ كبيرٌ لتلعب فيه. فناء. غرفتان مليئتان بالألعاب. ليس بوسع والدتها منحها هذا النوع من الحياة.

وافق السيد «ريتشاردسون»:

ـ إنهما يحبانها كثيرًا. لقد انتظرا طويلًا جدًّا. ولقد ربياها منذ كانت حديثة الولادة. إنها لا تتذكر والدتها الآن. «مارك» و«ليندا» الوالدان الوحيدان اللذان عرفتْهما. سوف يكون من القسوة بالنسبة للجميع أن تؤخذ بعيدًا عنهما الآن، مع أنهما ليسا سوى والدَين مثاليَّين.

من الناحية الأخرى، مال «مودي» و«إيزي» إلى أخذ جانب «بيبي». أصرَّ «مودي»:

ـ لقد ارتكبتْ خطأً واحدًا.

أخبرتْه «بيرْل» جزءًا كبيرًا من قصة «بيبي»، و«مودي» كان، مثلما كان في كل شيء، مؤيدًا لـ«بيرْل». تابع قائلًا:

ـ اعتقدتْ أنها لن تستطيع رعاية الرضيعة ثم تغيرت الأمور وأصبحت تستطيع. لا يجب أن يعني هذا أن تُؤخذ طفلتها منها.

كانت «إيزي» أكثر اقتضابًا:

ـ إنها الأُمُّ. وهما ليسا الوالدَين.

شيءٌ ما بشأن القضية أشعل شرارةً في داخلها، على الرغم من أنها لم تستطع بعد وضع إصبعها على تلك الشرارة، ولن تستطيع الإفصاح عنها لمدة طويلة.

قال «برايان» لـ«ليكسي» ذات مساء:

ـ «كلِف» و«كلير» تشاجرا حول الأمر الليلة الماضية.

كان «برايان» و«ليكسي» مستلقيَين على الفراش، يرتديان نصف ملابسهما، متجاهلَين مباراة «لاكروس» وتدريبًا ميدانيًّا للهوكي لممارسة تمرين من نوعٍ آخر. تابع قائلًا:

ـ «كلِف» و«كلير» لا يتشاجران قطُّ.
بدأ الأمر على العشاء، وبحلول وقت ذهابه إلى الفراش كان والداه قد سقطا في صمتٍ متحجرٍ عنيد. تابع «برايان»:
ـ يعتقد والدي أن الرضيعة أفضل حالًا مع عائلة «ماكولا». يعتقد أنه ليس لها مستقبل مع أمٍّ مثل «بيبي». قال إن الأمهات مثل «بيبي» هنَّ من يبقين دورة الفقر مستمرة.
ألحَّتْ «ليكسي»:
ـ لكن ماذا تعتقد أنت؟
تردَّد «برايان». لقد قاطعتْ والدته خطبة والده المسهبة العنيفة، شيء عادةً ما تفعله، لكن ليس بمثل هذه الحميَّة. قالت:
ـ وماذا عن جميع هؤلاء الرضَّع السود الذين ذهبوا إلى بيوت عائلاتٍ بيضاء؟ هل تظن أن هذا يكسر دورة الفقر؟
أسقطتْ قِدرًا في الحوض مصدرًا صوت صليل وفتحت المياه. تصاعد سيل المياه في غمامة من الهسيس. تابعتْ:
ـ إذا أرادوا مساعدة مجتمع السود، لماذا لا يُجرون تعديلات على النظام أولًا بدلًا من ذلك؟
بالنسبة لـ«برايان» كان تفكير والده منطقيًّا؛ الطفلة آمنةٌ ومحاطةٌ بالرعاية والحب، بالإضافة إلى كل الفرص الممكنة. ومع ذلك فهناك شيء ما بشأن الجسد البُني الصغير المغلَّف بذراعَي السيدة «ماكولا» الطويلتين الشاحبتين أربكه كما أربك والدته. شعر بفورةٍ من الانزعاج ـ لا، بل الغضب ـ من «بيبي» لأنها وضعتْه في هذا الموقف. قال بجفاء:
ـ أعتقد لو أنها كانت أكثر حرصًا لأمكن تجنُّب هذا الأمر بأكمله. أعني، استخدمي واقيًا. ما مدى صعوبة ذلك؟ دولار واحد في الصيدلية وما كان كل هذا الأمر ليحدث أبدًا.
قالت «ليكسي»:

ـ لماذا تغفل النقطة المهمة يا «براي»؟
والتقطت بنطالها الجينز من على الأرض.
جذب «برايان» البنطال من يدها. قال:
ـ انسي الأمر، ليست مشكلتنا، أليس كذلك؟
وضع ذراعيه حولها، ونسيت «ليكسي» كل شيء عن «ميرابيل» وعائلة «ماكولا»، كل شيء ما عدا شفتيه على أذنها.
بمساعدة «إد ليم»، تقدمت «بيبي» بأوراق القضية رسميًّا ومُنحت حقوق الزيارة في تلك الأثناء، مرة واحدة أسبوعيًّا لمدة ساعتين. تسنَّى للسيد والسيدة «ماكولا» الاحتفاظ بحق حضانة الرضيعة في الوقت الحالي.
لم يكن أي أحد راضيًا عن هذا الترتيب.
اشتكت «بيبي» لـ«مِيا»:
ـ فقط في المكتبة أو في «مكانٍ عام»، لا يمكنها حتى المجيء إلى منزلي. يجب أن أحتضن طفلتي في المكتبة. وموظفة الخدمة الاجتماعية جالسةٌ هناك، تراقبني طوال الوقت. كما لو أنني مجرمةٌ من نوعٍ ما. كما لو أنني قد أؤذي طفلتي. هذان الزوجان «ماكولا»، يقولان إن بإمكاني المجيء إلى منزلهما، وزيارتها هناك. يظنان أنني سأجلس هناك وأبتسم فيما يسرقان طفلتي؟ يظنان أنني سأجلس هناك بجوار المدفأة وأنظر إلى صور لامرأةٍ أخرى تحتضن طفلتي؟
في الوقت نفسه، كان للسيدة «ماكولا» شكاواها الخاصة.
أخبرت السيدة «ريتشاردسون» على الهاتف:
ـ ليس لديكِ أي فكرة عن الأمر، أن تُناولي رضيعتكِ لشخصٍ غريب. مشاهدة امرأةٍ لا تعرفينها حتى تبتعد حاملةً طفلتكِ. تنتشر بقع الحساسية في بشرتي كلما رنَّ جرس الباب يا «إيلينا». بعد مغادرتهم، أهوي على ركبتيَّ حرفيًّا وأصلي كي تعود كما من المفترض أن تفعل. وفي الليلة السابقة لموعد الزيارة لا أستطيع النوم، عليَّ أن أتناول أقراصًا منوِّمة.

ردَّت السيدة «ريتشاردسون» بطقطقة فم متعاطفة. وأكملت السيدة «ماكولا»:

ـ واليوم ليس ثابتًا أبدًا. كل أسبوع أقول: أرجوكم، هل يمكننا فقط اختيار وقتٍ محدد. أرجوكم، دعونا نستقر على يوم واحد. على الأقل بهذه الطريقة سوف أعرف أن الأمر آتٍ. سوف يصبح لديَّ وقت لتجهيز نفسي. لكن لا، إنها لا تخبر موظفة الخدمة الاجتماعية إلا قبل الموعد بيوم. تقول إنها لا تعرف جدول عملها حتى ذلك الحين. أتلقى مكالمة في العصر: **أوه، سوف نمرُّ غدًا في العاشرة.** إشعارٌ قبل الموعد بأقل من نصف يوم. أعصابي متوترةٌ تمامًا.

قالت السيدة «ريتشاردسون» محاولةً تهدئتها:

ـ الأمر لن يدوم إلا لفترة يا «ليندا»، موعد المحكمة في نهاية مارس، وبالطبع، سوف تقرر الولاية أن الطفلة تنتمي لكما.

قالت السيدة «ماكولا»:

ـ أرجو أن تكوني على صواب، لكن ماذا لو قرروا...

سكتت، ضاق حلقها، وأخذت نفسًا عميقًا.

ـ لا أريد أن أفكر بذلك. لا يمكنهم بأي حال. لن يفعلوا ذلك.

احتدَّت نبرة صوتها:

ـ إذا كانت حتى لا تستطيع ترتيب جدول عملها، كيف تتوقع بأي حال أن تصبح مستقرة بما يكفي لتربية طفلة؟

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ سوف يمر هذا أيضًا.

أخفى هدوء السيدة «ريتشاردسون» مشاعرها الحقيقية. كلما فكرت بـ«مِيا»، أصبحت أشد غضبًا، وبالتالي أصبحت غير قادرة على التوقف عن التفكير بها.

لقد قضت السيدة «ريتشاردسون» حياتها بأكملها في «شايكِر هايتْس»،

وتغلغلت فيها حتى الصميم. كانت ذكريات طفولتها امتدادًا شاسعًا من اللون الأخضر ـ مرجاتٌ عريضة، أشجارٌ طويلة، الاخضرار الفخم الذي يأتي مع الرفاهية ـ ويشبه منشورات التسوق التي نشرتها المدينة لعقودٍ لخطب ودِّ النوع الصحيح من المقيمين. خلق هذا قدرًا معينًا من المعنى: سكن أجداد السيدة «ريتشاردسون» في «شايكِر» منذ البداية تقريبًا. وصلوا في ١٩٢٧، حين كانت عمليًّا لا تزال قرية، على الرغم من أنها كانت تُوصف بأرقى حي سكني في العالم. نشأ جدها في وسط مدينة كليفلاند على ما كان يُسمى «صف أصحاب الملايين»، منزل عائلته المحاط بأسوارٍ ذات فتحات على شكل كعكة الزفاف محشورٌ بجوار منزل عائلة «روكفللر» وقطب صناعة التلغراف ووزير خارجية الرئيس «ماكنلي». على أي حال، بحلول الوقت الذي كان فيه جد السيدة «ريتشاردسون» ـ محامٍ ناجح في ذلك الحين ـ يستعد لإحضار عروسه إلى الوطن، أصبح وسط المدينة صاخبًا ومزدحمًا. أعاق السخام الهواء ولوَّث أثواب السيدات. قرر أن الانتقال إلى الريف سوف يكون العمل الصائب. أصرَّ الأصدقاء على أن من الجنون الانتقال بعيدًا للغاية عن المدينة لكنه كان رجلًا يقضي معظم وقته بالخارج وعروسه المستقبلية تحب كثيرًا ركوب الخيل، ووفَّرت «شايكِر هايتْس» ثلاثة مسارات محكومة، جداول للصيد، وقدرًا وفيرًا من الهواء النقي. فضلًا عن ذلك، خط قطارٍ جديد نقل رجال الأعمال مباشرة من «شايكِر» إلى قلب المدينة: لا شيء بإمكانه أن يكون أكثر حداثة. اشترى الزوجان منزلًا على «سيدجويك رود»، وظَّفا خادمة، اشتركا في النادي الريفي، عثرت جدة السيدة «ريتشاردسون» على إسطبل لحصانها، «جاكسون»، وأصبحت من أعضاء نادي «فلاور بوت جاردن كلاب».

بحلول وقت ميلاد والدة السيدة «ريتشاردسون»، «كارولاين»، في ١٩٣١، صارت الأمور أقل ريفيَّة لكنها ليست أقل مثالية. أصبحت «شايكِر هايتْس» مدينةً على نحوٍ رسمي، كانت هناك تسع مدارس ابتدائية، وقد

اكتمل للتو مبنى مدرسةٍ ثانويةٍ بالقرميد الأحمر الجديد. انتشرت منازل فخمة وجديدة في جميع أرجاء البلدة، كل منها يتبع لوائح صارمة للتصميم ونظامًا للون، وملتزمٌ بعهدٍ مدته تسعة وتسعون عامًا يحظر إعادة البيع لأي شخص غير مقبولٍ من الجيران. كانت القواعد واللائحة والنظام أمورًا ضرورية، يضمن المقيمون بعضهم البعض، كي يحافظوا على مجتمعهم السكني موحّدًا وجميلًا.

لأن «شايكِر هايتْس» كانت جميلة بالفعل، في كل مكان مرجاتٌ وحدائق مزدهرة، تعهد المقيمون بدوام انتزاع الأعشاب الضارة، وبزراعة الأزهار فقط، ليس الخضراوات. هؤلاء المحظوظون بما يكفي للعيش في «شايكِر» كانوا بالتأكيد أفضل مجموعة سكانية في أمريكا. كانت ذلك النوع من الأماكن حيث ـ كما اكتشف أحد المقيمين ـ إذا فقدت خاتم زفافك الماسي الذي يساوي ألف دولار وأنت تجرف الثلج من ممر السيارة، سوف تزيل إدارة الخدمات المنحدر الثلجي بالكامل، وتحمله إلى جِراج المدينة، وتذيبه تحت مصابيح حرارية كي تستعيد كنزك. نشأت «كارولاين» وهي تتنزه على شواطئ بحيرات «شايكِر» في الصيف، تتزلج على الحلبات التي جهزها مسؤولو المدينة للتزلج في الشتاء، تنشد الترانيم في عيد الميلاد. شاهدت العروض الصباحية لأفلام «سونج أوف ذي ساوث» و«آنّا آند ذي كينج أوف سيام» في السينما في «شايكِر سكواير» وفي مناسباتٍ خاصة ـ مثل عيد ميلادها ـ اصطحبها والدها إلى مطعم «ستوفرز» لتناول غداء من سرطان البحر. وعندما كانت مراهقة، صارت «كارولاين» حاملة الصولجان في الفرقة الموسيقية المدرسية، وكانت في سيارة مصفوفة بجوار نادي «كانو كلاب» بصحبة الفتى الذي سوف يصبح زوجها بعد سنواتٍ قليلة.

لقد كانت، بقدر ما استطاعت أن تتذكر، حياةً مثالية في مكان مثالي. شعر الجميع في «شايكِر هايتْس» بهذا. لذا فحين أصبح من الواضح أن العالم الخارجي أقل مثالية ـ مثلما سبّب الحكم في قضية «براون» ضد

مجلس التعليم(١) صخبًا وقاطع الركّاب الحافلات في مونتجومري، وشق «مجموعة التسعة في مدرسة «ليتيل روك»» طريقهم وسط عاصفة من الإهانات والبصاق ـ أخذ سكان «شايكِر» على عاتقهم، بمن فيهم «كارولاين»، أن يكونوا أفضل من ذلك. بعد كل شيء، ألم يكونوا هم الأذكى، والأكثر حكمة، والأكثر تفكيرًا وتدبرًا للعواقب، والأعظم ثراءً، والأشد تنويرًا؟ ألم يكن من واجبهم أن ينوِّروا الآخرين؟ ألا تحمل النخبة مسؤولية مشاركة رفاهيتها مع أولئك الأقل حظًّا؟ ربَّت والدة «كارولاين» ابنتها على التفكير في المحتاجين: نظَّمت فعاليات في عيد الميلاد لجمع اللعب وتوزيعها على الفقراء، وكانت عضوةً في «رابطة الأطفال» المحلية، حتى إنها أشرفت على تكوين «رابطة» كتاب الطهي، مع توجيه جميع العائدات لصالح الأعمال الخيرية، وساهمت بوصفتها الشخصية لصنع الكعك بدبس السكر. حين صار وجود مشكلات العالم الخارجي محسوسًا في «شايكِر هايتْس» ـ قنبلة في منزل محامٍ أسود ـ شعر المجتمع بأنه ملتزمٌ بإظهار أن هذا ليس أسلوب «شايكِر». أنشئت جمعية في الحي لتشجيع اندماج السود مع البيض خاصةً بطريقة «شايكِر هايتْس» بالذات: قروض لتشجيع عائلات بيضاء للانتقال إلى أحياء السود، قروض لتشجيع عائلات سوداء للانتقال إلى أحياء البيض، قواعد تنظيمية لحظر لافتات «للبيع» لمنع «النزوح الأبيض»(٢)، وهو قانون سيظل مفعَّلًا لعقود. انضمت «كارولاين»، التي أصبحت هي نفسها في ذلك الوقت مالكة منزل ومعها طفلتها ذات العام الواحد ـ السيدة «ريتشاردسون» الصغيرة ـ إلى جمعية الاندماج على الفور. بعد عدة سنوات، سوف تقود سيارتها لمدة خمس ساعات ونصف، مصطحبة ابنتها، إلى المسيرة «العظمى» في واشنطن،

---

(١) حكم شهير صدر عام ١٩٥٤، حيث رأت المحكمة العليا أن الفصل العنصري في المدارس غير دستوري، يُعد هذا الحكم علامة مهمة في مسيرة النضال من أجل المساواة بين البيض والسود في أمريكا. (المترجمة).

(٢) تعبير شهير يعني انتقال السكان البيض إلى الضواحي هربًا من تدفق الأقليات. (المترجمة).

وستتذكر السيدة «ريتشاردسون» هذا اليوم إلى الأبد، الشمس تجبر عينيها على الإغماض الجزئي، الناس يتراصُّون كتفًا لكتف، الجو الساخن المشبَّع بعرق الحشد، «نصب واشنطن التذكاري» يرتفع بعيدًا على مرمى البصر، مثل شوكة تمتد لتثقب السحاب. شبَّكت يد والدتها في يدها، رعبًا من احتمال انجراف والدتها بعيدًا. قالت والدتها من دون أن تنظر إليها بالأسفل:

ـ أليس هذا أمرًا لا يُصدَّق؟ تذكَّري هذه اللحظة يا «إيلينا».

وسوف تتذكر «إيلينا» هذه النظرة على وجه والدتها، هذا التَّوق لجعل العالم أقرب إلى الكمال، مثل إدارة مفاتيح ضبط الكمان وجعل الأوتار متماشية مع اللحن. اقتناعها بأن ذلك كان ممكنًا إذا بذلت ما يكفي من الجهد، لدرجة أنه ما مِن عملٍ يمكن أن يكون شديد الفوضوية.

لكن سوف تظل ثلاثة أجيال من تبجيل «شايكِر» للنظام والقواعد واللياقة مع «إيلينا»، أيضًا، ولن تتوقف عن القدرة على جعل هاتين الفكرتين في حالة توازن. في ١٩٦٨، في عمر الخامسة عشرة، شغَّلت التلفزيون وشاهدت الفوضى تندلع في أرجاء البلاد مثل حرائق الأشجار. «مارتن لوثر كينج الابن»، ثم «بوبي كينيدي». طلابٌ متمردون في كولومبيا. أعمال شغبٍ في شيكاغو، ممفيس، بالتيمور، واشنطن دي سي، في كل مكان، في كل مكان كانت الأشياء تتداعى. وعميقًا داخل «إيلينا» كانت شرارتها متَّقِدة، شرارةٌ سوف تتوهَّج متمثلة في «إيزي» بعد أعوام. بالطبع فهمت سبب حدوث هذا: كانوا يحاربون لمحو المظالم. لكن جزءًا منها ارتعد لرؤية المشاهد على التلفزيون. مشاهد مشوَّشة، لكنها ليست أقل فزعًا: متاجر بقالة مشتعلة، يتصاعد الدخان منتفخًا من أسطحها، تتآكل جدرانها حتى الدعامات الخشبية بفعل اللهب. الحواف المسنَّنة للنوافذ المهشمة مثل أنيابٍ في الليل. جنودٌ يمشون ببنادق بجوار الصيدليات ومغاسل الملابس. سيارات «الجيب» العسكرية تسد التقاطعات تحت إشارات مرورٍ ميتة. هل توجَّب عليك حرق القديم لإفساح الطريق

للجديد؟ السجادة تحت قدميها كانت ناعمة. الأريكة أسفل منها كانت مزيَّنة بالأزهار. بالخارج، هدلتْ يمامة الصباح من وعاء طعام الطيور وانزلقت سيارة «كاديلاك» إلى وقفةٍ مهيبة عند الزاوية. تساءلت أي منهما العالم الحقيقي.

في الربيع التالي، حين اندلعت احتجاجات المناهضين للحرب، لم تستقل سيارتها ولم تقُدها للانضمام إليهم. كتبت خطابات جيَّاشة إلى المحرر، وقَّعت التماسات لإنهاء التجنيد القسري. خاطتْ علامة السلام على حقيبة ظهرها. نسجتْ أزهارًا في شعرها.

لم يكن ذلك لأنها خائفة. بل لأن «شايكِر هايتْس» ببساطة، على الرغم من مثاليَّتها، كانت مكانًا برجماتيًّا، ولم تعرف كيف يمكن أن تكون أي شيءٍ آخر. استقر عُمر من الاعتبارات العملية والمريحة فوق الشرارة بداخلها مثل بطانية سميكة، ثقيلة. إذا هرعت إلى واشنطن للانضمام إلى الاحتجاجات، أين ستنام؟ كيف ستبقى آمنة؟ ماذا سيحدث لصفوفها الدراسية، هل سيتم فصلها من المدرسة؟ هل سيظل بإمكانها التخرج والذهاب إلى الجامعة؟ في ربيع سنتهم الدراسية النهائية، جذبها «جيمي رينولدز» جانبًا بعد صف التاريخ في أحد الأيام قائلًا:

ـ سوف أتوقف عن الدراسة. سأذهب إلى كاليفورنيا. تعالي معي.

لقد عشقت «جيمي» منذ السنة الدراسية السابعة، حين أُعجِب بقصيدة كتبتْها لصف اللغة الإنجليزية. الآن، يكاد يكون في الثامنة عشرة، له شعرٌ طويل ولحية شعثاء، كارهٌ للسلطة، لديه شاحنة «فولكس فاجن» مغلقة يقول إن بإمكانهما العيش فيها. قال:

ـ مثل التخييم بالخارج، باستثناء أن بإمكاننا الذهاب إلى أي مكان.

وأرادت بشدة الذهاب معه، إلى أي مكان، أن تقبِّل تلك الابتسامة الخجول الملتوية. لكن كيف سيبتاعان الطعام، وأين سيغسلان ملابسهما، وأين سيستحمان؟ ماذا سيقول والداها، والجيران، ومعلِّموها،

وأصدقاؤها؟ سوف تقبِّل «جيمي» على وجنته، وتبكي حين يغيب أخيرًا عن الأنظار.

بعد شهور، بعيدًا في جامعة «دنيسون»، جلستْ مع زملاء الصف وشاهدت قُرعة التجنيد على الهواء على شاشة التلفزيون المشوَّشة في الغرفة المشتركة. سيحلُّ عيد ميلاد «جيمي» - ٧ مارس - في الانتقاء التالي. لذلك فسوف يكون من أوائل المُستدعين إلى القتال، هكذا فكرت، وتساءلت أين ذهب، وإذا ما كان قد عرف ما الذي ينتظره، وإذا ما كان سيتقدم، أم سيهرب؟ إلى جوارها، «بيلي ريتشاردسون» يعتصر يدها. عيد ميلاده كان من أواخر التواريخ المسحوبة، وعلى أي حال، باعتباره لا يزال طالبًا لم يتخرج، فقد مُنح تأجيلًا. كان في أمان. بحلول وقت تخرجهما، سوف تكون الحرب قد انتهت وسوف يتزوجان، هكذا قالت لنفسها. سوف تكون مجنونة إذا فكرت في الأمر ولو للحظة. لقد كان ما شعرتْ به نحو «جيمي» سابقًا، لهبًا عابرًا متناهي الصغر.

لقد عرفت طوال حياتها أن العاطفة مثل النار، أمرٌ خطير. تخرج عن السيطرة بسهولة شديدة. تقشِّر الجدران وتقفز فوق الخنادق. تثب الشرارات مثل البراغيث وتنتشر بأقصى سرعة، قد تحمل نسمة هواء -جذوات النار لأميال. من الأفضل التحكم بتلك الشرارة وتمريرها بحرص من جيلٍ إلى التالي، مثل الشعلة الأوليمبية. أو، ربما، إمالتها بحرص مثل لهبٍ أبدي: تذكيرٌ بالنور والخير الذي لن يشعل، لن يستطيع إشعال أي شيء. محكومٌ بحرص. مستأنَس. سعيدٌ في الأسر. اعتقدت أن المفتاح تمثَّل في تجنب الاحتراق.

لازمتْها هذه الفلسفة عبر الحياة، ولقد شعرتْ دائمًا، أن تلك الفلسفة قد خدمتْها جيدًا. بالطبع كان عليها التخلي عن بعض الأشياء هنا وهناك. لكن كان لديها منزلٌ جميل، وظيفةٌ مستقرة، زوجٌ مُحب، ذريةٌ من الأطفال الأصحاء والسعداء، بالتأكيد استحق هذا المقايضة من أجله. وُجدت القواعد

لسبب ما: إذا اتبعتَها، سوف تنجح، إذا لم تفعل، ربما تحرق العالم وتسوِّيه بالأرض.

ومع ذلك ها هي «مِيا»، تسبب لـ«ليندا» المسكينة هذه الصدمة، كما لو أنها لم تعانِ بما يكفي، كما لو أن «مِيا» كانت مثالًا لأمٍّ من أيِ نوع. تجرُّ طفلتها التي ليس لها أبٌ من مكانٍ إلى مكان، تعتاش بالكاد على وظائف وضيعة، مبرِّرةً الأمر بالتأكيد لنفسها - بالتأكيد للجميع - بأنها تصنع فنًّا. تسبر شؤون الآخرين بيديها القذرتين. تثير المتاعب. تقذف الشرارات المشتعلة بطيش. ثارتْ ثائرة السيدة «ريتشاردسون»، وعميقًا بداخلها، انفجرت بقعة الغضب المحتدمة التي تكوَّمت بين جانبيها إلى لهبٍ مشتعل. فعلت «مِيا» ما يحلو لها، فكرت السيدة «ريتشاردسون»، وماذا كانت النتيجة؟ انفطار قلب أقدم صديقاتها. فوضى للجميع. **لا يمكنك فعل ما يحلو لك فحسب،** هكذا فكرت. لماذا تسنَّى لـ«مِيا» فعل ذلك، فيما لم يتسنَّ لأحدٍ غيرها؟

كان الولاء لعائلة «ماكولا»، كما قالت لنفسها، والرغبة في رؤية العدالة تتحقق لأقدم صديقاتها، هو ما قادها لعبور الحد أخيرًا: بمجرد أن تستطيع الابتعاد، ستذهب في رحلة إلى بنسلفانيا وتزور والدي «مِيا». سوف تكتشف مَن هذه المرأة.

١٢

في تلك الأيام، بدا لـ«بيرْل» أن كل شيء مشبَّعٌ بالجنس، نضح في كل مكان، مثل العسل القذر. حتى الأخبار كانت مليئة به. في برنامج «ذا توداي شو»، ناقش المضيف الشائعات حول الرئيس والثوب الأزرق الملطَّخ، حتى أشد القصص الخلاعية المنتشرة حول السيجار والمكان الذي يُحتمل أن يكون قد وُضِع فيه. أوفدت المدارس عبر البلاد موظفي الخدمة الاجتماعية لـ«مساعدة الشباب الصغار للتغلب على ما يسمعونه»، لكن في أروقة مدرسة «شايكِر هايتْس» الثانوية، كان الجذل يسيطر على الأجواء بدلًا من الصدمة. **ما الفرق بين «بيل كلينتون» ومفك البراغي؟ مفك البراغي يدير البراغي، و...** تساءلتْ «بيرْل»، أحيانًا، إذا كانت البلاد بأكملها قد سقطتْ في إحدى حلقات «جيري سبرِنْجِر». **علامَ تحصل حين تهجِّن «تيد كازينسكي» مع «مونيكا لوينيسكي»؟ جنس فموي ناسف!**

بين فصول الرياضيات والأحياء واللغة الإنجليزية، تبادل الناس الفكاهات ببهجةٍ كما تبادل الأطفال بطاقات البيسبول، وفي كل يوم تصبح الفكاهات أشد صراحةً. **هل سمعت عن لفافات سيجار المكتب البيضاوي، إنها مضلَّعة ومزلَّقة.** أو: **«مونيكا»، هامسةً لعامل التنظيف الجاف الذي تتعامل معه: هل يمكنك إزالة هذه اللطخة من أجلي؟ عامل التنظيف الجاف: مرة أخرى؟ «مونيكا»: لا، إنها مستردة هذه المرة.** احمرَّت «بيرْل» خجلًا، لكنها تظاهرت

https://t.me/fantazynov

أنها سمعتْها من قبل. بدا أن الجميع متخمون للغاية لدرجة الملل بقول كلماتٍ لم تجرؤ قطُّ على الهمس بها. بدا أن الجميع يجيدون التلميح. أكد هذا ما ظنَّتْه دائمًا: الجميع يعرفون عن الجنس أكثر مما أظهروا، الجميع عداها.

كانت هذه هي الأجواء حين وجدت «بيرْل» نفسها ـ في منتصف فبراير ـ تسير إلى منزل عائلة «ريتشاردسون» بمفردها. «إيزي» سوف تكون في منزل «مِيا»، تتمعَّن في ورقة طباعة الصور السلبية للأفلام، تقص الصور المطبوعة، تمتصُّ انتباه «مِيا»، تفسح المجال لـ«بيرْل» كي توجد في مكانٍ آخر. رسب «مودي» في اختبارٍ موجز عن «جين إير» وبقي بعد نهاية اليوم الدراسي ليعيد الاختبار. وكانت «ليكسي» بالطبع مشغولةً بطريقةٍ أخرى. حين مرَّتْ «بيرْل» بـ«ليكسي» عند الخزانة الخاصة بها قالت:

ـ أراكِ لاحقًا، أنا و«برايان» سوف... سوف نقضي الوقت معًا.

وفي ذهن «بيرْل» تسارعت جميع الأشياء المبهمة التي كانت تدور في الهواء لتملأ مكان فترة الصمت القصيرة تلك. كانت لا تزال تفكر فيها حين وصلت إلى منزل عائلة «ريتشاردسون» ووجدت «تريب» بالمنزل، ممدَّدًا على الأريكة في الغرفة المشمسة، طويلًا ونحيلًا، كتاب الرياضيات منبسطٌ على المسند إلى جواره. كان قد نزع حذاء التنس لكنه ما زال مرتديًا جوربيه الطويلين البيضاوين، ووجدتْ ذلك محبَّبًا على نحوٍ غريب.

منذ شهر مضى، كانت ستتراجع «بيرْل» بسرعة وتتركه وشأنه، لكنها كانت متأكدة أن أي فتاة أخرى ستطلب من «تريب» أن يتحرك جانبًا، وستسقط بجواره على الأريكة. لذلك بقيت، متأرجحةً على حافة القرار. كانا وحدهما في المنزل: أي شيء قد يحدث، كما أدركت، والفكرة كانت مُسكِرة. قالت:

ـ مرحبًا.

نظر «تريب» إلى أعلى وابتسم:

ـ مرحبًا يا مجتهدة، تعالي، ساعدي رجلًا على أداء عمله.

اعتدل جالسًا وتنحى ليفسح لها مكانًا ودفع دفتره باتجاهها. أخذته «بيرْل» وتفحَّصت المسألة، واعيةً تمامًا إلى تلامس ركبتيهما. قالت:

ـ حسنًا، هذا سهل، لإيجاد قيمة x...

انحنت على الدفتر، لتصحِّح عمله، وراقبها «تريب». دائمًا ما خطرت له كشيءٍ صغير أشبه بالفأر، إنها ظريفة، لكنها ليست فتاة قد يفكر بها كثيرًا، فيما وراء الخط الأساسي لهرمونات المراهقين التي تجعل أي شيء مؤنث يستحق النظر إليه. لكن اليوم كان هناك شيءٌ مختلفٌ بشأن «بيرْل»، شيءٌ عن الطريقة التي تتمالك بها نفسها. عيناها سريعتان وبراقتان، هل كانتا دائمًا هكذا؟ حركتْ خصلة شعرٍ بعيدًا عن وجهها وتساءل كيف سيشعر إذا لمسه، برقة، كما قد تُربِّت على عصفور. بثلاث ضربات سريعة رسمت المسألة على الصفحة، خطًّا أفقيًّا، وخطًّا رأسيًّا، وخطًّا متعرجًا جعله يفكر فجأة في الشفاه والأرداف ومنحنيات أخرى. كانت «بيرْل» تقول:

ـ هل فهمت؟

ووجد «تريب»، لدهشته، أنه فهم. قال:

ـ ياه، أنتِ بارعة للغاية في ذلك.

قالت:

ـ أنا بارعةٌ في كثيرٍ من الأشياء.

ثم قبَّلها.

لقد كان «تريب» مَن أمالها إلى الخلف على الأريكة، ضاربًا كتابه على الأرض، مَن وضع يده على قميصها، ثم أسفله. لكن كانت «بيرْل»، في وقتٍ لاحق، مَن تلوَّت مِن تحته، أخذته من يده، وقادته إلى غرفته.

في فراش «تريب» نصف المرتَّب، في غرفة «تريب» حيث قميص الأمس مُلقى على الأرض، مع الأنوار المُطفأة والستار الحاجز للضوء نصف مغلق، يخطِّط جسديهما بضوء الشمس، تركت «بيرْل» الغريزة تتولى الأمر. كان

الأمر كما لو أن أفكارها، للمرة الأولى في حياتها، قد توقَّفت وأن جسدها يتحرك من تلقاء نفسه. كان «تريب» هو المتردِّد، يتحسس بحثًا عن قفل حمالة صدرها، على الرغم من أنه بالتأكيد حلَّ كثيرًا من حمالات الصدر من قبل. فسَّرت هذا ـ محقةً ـ كعلامة على توتره، أن هذه اللحظة عنت شيئًا بالنسبة له، ووجدت ذلك عذبًا. قال:

ـ أخبريني متى أتوقف.

قالت:

ـ لا تفعل.

حين جاءت اللحظة، كانت كومضة ألم، حضور مادي تام ومفاجئ لجسديهما، لثقله فوقها، لركبتيها المرفوعتين في مقابل وركيه. كان الأمر سريعًا. جاءت اللذة ـ هذه المرة، على الأقل ـ فيما بعد بالنسبة لها، حين سرت في جسد «تريب» رعدةٌ كبيرة وتداعى في مواجهة «بيرْل»، ووجهه مضغوطٌ على عنقها. متشبثٌ بها، كما لو أنه مدفوعٌ باحتياجٍ شديد، راسخ. أبهجها الأمر، فكرة ما فعلاه للتو، التأثير الذي بوسعها أن تمارسه عليه. قبَّلتْه على جانب أذنه، ومن دون أن يفتح عينيه منحها ابتسامةً ناعسة، وتساءلت لفترةٍ وجيزة كيف يمكن أن تشعر إذا سقطت في النوم إلى جواره، أن تستيقظ إلى جواره كل صباح. قالت:

ـ استيقظ، سوف يأتي أحدهم إلى المنزل قريبًا.

ارتديا ملابسهما سريعًا، في صمت، وحينها فقط بدأت «بيرْل» بالإحساس بالحرج. هل ستعلم والدتها؟ تساءلت. هل ستبدو مختلفةً على نحوٍ ما؟ هل سيراها الجميع ويقرأون الأمر في وجهها؟ ماذا ستفعل؟ ألقى لها «تريب» التيشيرت الخاص بها وجذبتْه فوق رأسها، شاعرةً بالخجل فجأة لفكرة وقوع عينيه على جسدها. قالت:

ـ من الأفضل أن أذهب.

قال «تريب»:

ـ انتظري.

وفكَّ تشابك شعرها من ياقتها برقَّة.

ـ هكذا أفضل.

ابتسما لبعضهما في خجل، ثم أشاحا ببصريهما بعيدًا. قال:

ـ أراكِ غدًا.

وأومأت «بيرْل» ثم انسلَّت خارجةً من الباب.

* * *

ذلك المساء، راقبت «بيرْل» والدتها بعينٍ قلقة. لقد فحصت «بيرْل» انعكاس صورتها في المرآة في مرآة الحمَّام مرارًا وتكرارًا، وكانت متأكدة تمامًا أنه ليس بها شيء مختلف للعين المجردة. أيًا كان ما تغير فيها ـ وشعرت بكلا الأمرين؛ أنها ظلت كما هي تمامًا واختلفت كليةً ـ كان بالداخل. ومع ذلك، كلما نظرت «مِيا» إليها توترت. بمجرد انتهاء العشاء، انسحبت إلى غرفة نومها، مدعيةً أن لديها كثيرًا من الواجبات المنزلية، لتتفكَّر فيما حدث. تساءلت، هل تتواعد مع «تريب» الآن؟ هل استغلَّها؟ أو ـ وكانت هذه هي النقطة المُحيِّرة ـ هل استغلَّتْه؟ تساءلت، إذا رأتْه في المرة المقبلة، هل ستظل منجذبةً له كالسابق. هل، إذا رآها، سيتظاهر بأن شيئًا لم يحدث، أو الأسوأ، سيضحك في وجهها. حاولت إعادة كل لحظة من فترة ما بعد ظهيرة هذا اليوم: كل حركة من أيديهما، كل كلمة قالاها وكل نفسٍ أخذاه. هل يجب أن تتحدث إليه؟ أو تتجنبه إلى أن يسعى إليها؟ دارت هذه الأسئلة برأسها طوال الليل، وفي الصباح، حين وصل «مودي» ليسيرا معًا إلى المدرسة، لم تنظر في عينيه.

طوال اليوم، فعلت «بيرْل» ما في وسعها لتعطي انطباعًا عاديًّا. أبقت رأسها منحنيًا فوق كراساتها، لم ترفع يدها. وفيما أوشك كل صف على الانتهاء، حصَّنت نفسها في حالة مصادفتها لـ«تريب» في الرواق، تدربت على ما ستقوله. لم تقُله قطُّ، وكل مرة نجحت فيها في بلوغ الصف التالي من دون أن تراه، تنفست متنهدة بارتياح. إلى جوارها، لاحظ «مودي» أنها هادئة

وحسب وتساءل إذا كان شيءٌ ما يضايقها. حولها، استمر صخب حياة مدرسة ثانوية من دون تغيير، وبعد المدرسة ذهبت إلى المنزل، قائلة إنها لا تشعر أنها على ما يرام. أيًّا كان ما سيحدث في المرة التالية حين ترى «تريب»، لم ترغب أن يحدث أمام «ليكسي» و«مودي». لاحظت «مِيا» هدوء «بيرْل» أيضًا، تساءلت إن كانت مكتئبة بسبب شيء ما، وأرسلتْها للفراش مبكرًا، لكن «بيرْل» رقدت مستيقظة حتى وقتٍ متأخر، وفي الصباح، حين ذهبت لتغسل وجهها، رأت دوائر داكنة حول عينيها وكانت متأكدة أن «تريب» لن ينظر إليها مرة أخرى.

لكن في نهاية اليوم، ظهر «تريب» عند خزانتها. سأل، تقريبًا بخجل:

ـ ماذا ستفعلين؟

وتورَّدت وعرفت بالضبط ما يفكر فيه. قالت:

ـ سأقضي الوقت مع «مودي».

لعبت بقرص أرقام قفل خزانتها، تديره في كلا الاتجاهين، ثم قررت أن تصبح جريئة مرة أخرى:

ـ إلا إذا كانت لديك فكرة أفضل.

مرَّر «تريب» أصابعه بطول حافة باب الخزانة المطلية بالأزرق:

ـ هل والدتك بالمنزل؟

أومأت «بيرْل»:

ـ «إيزي» سوف تكون هناك أيضًا.

مرَّ كل منهما منفردًا بسرعة على قائمة أماكن في ذهنه: لا مكان منها حيث يمكن أن يكونا بمفردهما. بعد لحظة، قال «تريب»:

ـ ربما أعرف مكانًا.

سحب جهاز «البيجر» من جيبه والتقط ربع دولار من حقيبة كتبه. كانت أجهزة «البيجر» ممنوعة منعًا صارمًا في المدرسة الثانوية، مما يعني فعليًّا أنها بحوزة جميع الأطفال الرائعين الآن. قال «تريب»:

ـ قابليني عند الهاتف العمومي حين تنتهين.

ركض مبتعدًا، وجمعت «بيرْل» كتبها وأغلقت الخزانة. كان قلبها يدق كما لو كانت طفلة تلعب لعبة المطاردة، على الرغم من أنها لم تكن متأكدة فيما إذا كانت تُطارَد أم تُطارِد. قطعت طريقها عبر رواق «إجرِس» وباتجاه واجهة المدرسة، حيث الهاتف العمومي معلَّق خارج المدرَّج. كان «تريب» يغلق الخط للتو. سألت «بيرْل»:

ـ بِمَن اتصلت؟

وبدا «تريب» فجأة مُحرجًا. قال:

ـ هل تعرفين «تيم مايكلز»؟ لقد لعبنا في فريق كرة القدم معًا منذ كنا في العاشرة. لا يعود والداه إلى المنزل قبل الثامنة، وأحيانًا يصطحب فتاةً إلى غرفة التجديدات في القبو.

توقف عن الحديث، وفهمت «بيرْل». قالت:

ـ أو يسمح لك أحيانًا أن تصطحب فتاة.

تورَّد «تريب» وخطا ليكون أقرب إليها، لذا كانت تقريبًا بين ذراعيه. قال:

ـ كان هذا منذ زمن طويل. أنتِ الفتاة الوحيدة التي أودُّ اصطحابها الآن.

تتبع عظمة ترقوتها بإحدى أصابعه. كان ذلك مخالفًا لطبيعته، وشديد الإخلاص، لدرجة أنها تقريبًا قبَّلتْه هناك مباشرةً. في تلك اللحظة، اهتز «البيجر» في يده. كل ما استطاعت «بيرْل» أن تراه سلسلة من الأرقام، لكنها عنت شيئًا ما لـ«تريب». يتواصل الأطفال الذين يحملون أجهزة «البيجر» بالشفرة. كتب «تريب» من خلال الهاتف العمومي «هل أستطيع استخدام منزلك؟»، و«تيم»، الذي كان يبدل ملابسه في غرفة الخزائن قبل تمرين كرة السلة، نظر إلى «البيجر» المهتز الخاص به ورفع أحد حاجبيه. لم يلاحظ أن «تريب» كان بصحبة أي فتاة جديدة مؤخرًا. رد على الرسالة «حسنًا مَن هي»، لكن «تريب» اختار ألا يجيب وأسقط «البيجر» مرة أخرى في جيبه.

ـ إنه يقول لا بأس.

سحب أحد الأشرطة المتصلة بحقيبة كتب «بيرْل» وقال:
ـ إذن؟

وجدت «بيرْل» نفسها فجأة غير عابئة بأي من الفتيات اللاتي أتين من قبل. سألت:

ـ هل ستقود السيارة؟

كانا عند الباب الخلفي لمنزل «تيم مايكلز» قبل أن تتذكر «مودي». سوف يتساءل أين هي، لماذا لم تقابله عند جناح العلوم كالعادة كي يسيرا معًا. سوف ينتظر لفترة ثم يتوجه إلى المنزل ولن يجدها هناك أيضًا. أدركتْ أنه سيتوجب عليها أن تخبره شيئًا ما، ثم التقط «تريب» المفتاح الاحتياطي من تحت دواسة الباب الخلفي، فتح «تريب» الباب الخلفي وتناول يدها، ونسيت «مودي» وتبعت «تريب» إلى الداخل.

سألت فيما بعد، بينما هما ممدَّدان معًا على الأريكة في غرفة تجديدات «تيم»:

ـ هل نتواعد؟ أم إن هذا مجرد شيء ما.

ـ ماذا، هل تريدين استعارة سترتي الرياضية المميزة أو شيئًا من هذا القبيل؟

ضحكت «بيرْل»:

ـ لا.

ثم أصبحت أكثر جديَّة:

ـ أرغب فقط في معرفة ما أنا مقبلة عليه.

التقت عينا «تريب» بعينيها، مستويتان وصافيتان وبُنيتان داكنتان:

ـ لا أخطِّط لرؤية أي أحد آخر. هل هذا ما أردتِ معرفته؟

لم يسبق لها أن رأته شديد الإخلاص:

ـ حسنًا، ولا أنا.

بعد لحظة قالت:

ـ سيفقد «مودي» صوابه. وكذلك ستفعل «ليكسي». وكذلك سيفعل الجميع.

فكر «تريب»:

ـ حسنًا، ليس علينا أن نخبر أحدًا.

أحنى رأسه على رأسها حتى تلامست جبهتاهما. بعد لحظاتٍ قليلة، عرفت «بيرْل»، أن عليهما النهوض، أن عليهما ارتداء ملابسهما والعودة إلى العالم الخارجي حيث كان هناك كثير من الناس بجوارهما. قالت:

ـ لا أمانع أن أبقى سرًّا.

وقبّلتْه.

* * *

حافظ «تريب» على وعده؛ على الرغم من أن «تيم مايكلز» أثقل عليه مرارًا، رفض «تريب» أن يفشي اسم فتاته الجديدة الغامضة، وإذا سأله أصدقاؤه الآخرون إلى أين توجَّه بعد المدرسة، اختلق الأعذار. «بيرْل» أيضًا لم تخبر أحدًا. ماذا بوسعها أن تقول؟ أراد جزءٌ منها أن تخبر «ليكسي»، أن تكشف لها عضويتها في هذا النادي الحصري للخبراء، الذي تنتمي كلتاهما إليه الآن. لكن «ليكسي» ستطالب بمعرفة كل تفصيلة حميمة، ستخبر «سيرينا وونج» وسيعرف الجميع في المدرسة في غضون أسبوع. «إيزي»، بالطبع، ستشعر بالاشمئزاز. «مودي»، حسنًا، من المستحيل أن تخبر «مودي». لبعض الوقت، تزايد إدراك «بيرْل» بأن مشاعر «مودي» نحوها كانت مختلفة، كيفًا وكمًّا، عن مشاعرها تجاهه. قبل شهر، فيما يكافحان بين الحشد في السينما ـ ذهبا لمشاهدة «تايتانيك» أخيرًا، وكانت الردهة مزدحمة ـ عاد وأمسك يدها حتى لا يُفصَل بينهما، وعلى الرغم من سعادتها لوجود شخص يعبر بها بين جموع الناس، فإنها شعرت بشيءٍ ما في الطريقة التي قبض بها على يدها، بحزمٍ شديد، بتملُّكٍ شديد، وقد عرفتْ. تركته يحتفظ بيدها حتى اخترقا الجموع إلى باب السينما، ثم حلَّت يدها منه بلطف تحت ستار البحث في

حقيبتها عن مرطب الشفاه. أثناء الفيلم ـ بينما رسم «ليوناردو دي كابريو» «كيت وينسليت» عارية، بينما اقتربت الكاميرا من اليد على اليد التي لطخت نافذة السيارة الضبابية ـ شعرت «بيرْل» أن «مودي» يتصلب ويسترق النظر إليها، وحفرت بيدها في كيس الفشار، كما لو أنها تشعر بالملل من المشهد التراجيدي على الشاشة. فيما بعد، حين اقترح «مودي» أن يتوقفا عند مقهى «آرابيكا» لبعض القهوة، أخبرتْه أنها يجب أن تعود إلى المنزل. في الصباح التالي، في المدرسة، بدا أن كل شيء عاد إلى طبيعته، لكنها عرفت أن شيئًا ما قد تغيَّر، واحتوت هذه المعرفة في داخلها مثل شظية، شيء حرصت على عدم المساس به.

لذلك تعلمت الكذب. كل عدة أيام، حين تتسلل و«تريب» بعيدًا معًا ـ حسب سماح جدول «تيم مايكلز» ـ تركت ملاحظة على خزانة «مودي». **يجب أن أبقى بعد المدرسة، أراك في منزلك، ٤:٣٠؟** لاحقًا، حين سأل «مودي»، كان لـ«بيرْل» دائمًا عذر مبهم معقول. كانت تُعدُّ ملصقات لعشاء الإسباجيتي السنوي لجمع التبرعات. كانت تتحدث مع معلم اللغة الإنجليزية عن ورقتهم البحثية المقبلة. في الواقع، سوف يوصلها «تريب» بالسيارة بعد لقاءاتهما السرية لمسافة مربع سكني ثم ينطلق إلى التمرين، وسوف تظهر في منزل عائلة «ريتشاردسون» على قدميها كالعادة بعد ذهاب «تريب» إلى تمرين الهوكي، أو إلى منزل صديق، أو دورانه حول المربع السكني لعدة دقائق قبل أن يأتي للمنزل بمفرده.

تمَّت ملاحظتهما مرةً واحدة فقط. السيد «يانج»، في طريقه إلى المنزل بعد عمله في قيادة الحافلة، قاد سيارته «الساترن» سماويَّة اللون أسفل طريق «بيركلاند درايف» ورأى سيارة «جيب شيروكي» متوقفة إلى جانب الطريق، مراهقان يحتضنان بعضهما البعض بقوة. وفيما مرَّ بجوارهما، انفصلا عن بعضهما أخيرًا، وفتحت الفتاة بابها وخرجت وتعرَّف على جارته الشابة من الطابق العلوي، ابنة «مِيا» الهادئة، الجميلة. فكر بينه

وبين نفسه أن الأمر ليس من شأنه، على الرغم من أنه ظل بقية فترة ما بعد الظهيرة عائدًا في أحلام اليقظة إلى أعوام مراهقته في هونج كونج، متسللًا إلى حدائق النباتات مع «بيستي تشوي»، تلك العصاري الحالمة التي لم يخبر عنها أحدًا، ولم يتذكرها ليحياها مرة أخرى، لأعوامٍ طويلة. فكر أن الشباب متشابهون، دائمًا وفي كل مكان، وحرك ناقل السّرعة إلى وضع الحركة وقاد سيارته.

* * *

منذ حفل «الهالوين»، تسللتْ «ليكسي» و«برايان» مرارًا كلما استطاعا؛ بعد التمرين، وفي نهاية وربما بداية لقاءاتهما في عطلات نهاية الأسبوع، ومرة، خلال أسبوع الامتحانات النهائية، وفي منتصف اليوم بين امتحان «ليكسي» للفيزياء وامتحان «برايان» للغة الإسبانية. مازحتها «سيرينا» قائلة:

ـ أنتما مدمنان.

وممّا ضايق «ليكسي» بشدة، وجود شخصٍ ما دائمًا بمنزل «ريتشاردسون» كلما كانت هي و«برايان» أشد رغبة في الانفراد ببعضهما. لكن بين كون والد «برايان» تحت الاستدعاء وعمل والدته إلى وقتٍ متأخر، عادةً ما كان منزل «آفري» خاليًا. وكبديل، اعتادا أن يتدبرا أمرهما في سيارة «ليكسي»، حيث تتوقف في موقف سيارات مهجور وينتقلان بصعوبة إلى المقعد الخلفي تحت لحافٍ قديم احتفظت به هناك لهذا الغرض وحسب.

بدا العالم مثاليًّا تقريبًا بالنسبة لـ«ليكسي»، وأصبحت خيالاتها هي نفسها حياتها الواقعية وقد زهت ألوانها. بعد لقاءاتهما الغرامية، عندما ينفصلان عن بعضهما البعض على مضض ويعودان إلى منزليهما، تتكور على نفسها في الفراش، لا تزال تتخيل دفئه، وتتصور المستقبل، حيث سيعيشان معًا. فكرت أن الأمر سيكون كالجنة، تغفو بين ذراعيه، تصحو إلى جواره. لا يمكنها تخيل شيء أكثر إرضاءً: ملأتْها الفكرة بتوهجٍ دافئ، يكاد يقترب من التوهج التالي لممارسة الجنس. بالطبع سيكون لديهما منزلٌ صغير، وفناءٌ

خلفي حيث بوسعها الحصول على حمَّام شمس، وطوقٌ لكرة السلة فوق باب الجراج مباشرة من أجل «برايان». سوف تكون هناك زهور الليلك موضوعة في مزهرية فوق منضدة الزينة، وملاءات كتانية مخططة على الفراش. المال، والإيجار، والوظيفة لم تكن ذات أهمية، لم تفكر في هذه الأشياء في حياتها الواقعية، لذلك لم تظهر في حياتها الخيالية أيضًا. ويومًا ما ـ هنا بدأ الخيال يدور ويتألق مثل الألعاب النارية في سماءٍ مظلمة ـ سوف يكون هناك طفل رضيع. سوف يشبه تمامًا صور «برايان» التي تحتفظ بها والدته بتناغم فوق رفِّ المدفأة: شعرٌ مجعد، وجنتان ممتلئتان، عينان بُنيتان شديدتا الاتساع والنعومة لدرجة أنك إذا نظرت فيهما شعرت أنك تذوب. سوف ينطِّط «برايان» الطفل على وركه، يقذف الطفل في الهواء. سوف يتنزهون في المنتزه وسوف يتدحرج الطفل على العشب ويضحك حين تدغدغ أوراق العشب قدميه. في الليل سوف ينامان والطفل بينهما، كتلة دافئة ناعمة معطَّرة بالحليب.

حصل كل طالبٍ في «شايكِر هايتْس» على تثقيفٍ جنسي ليس مرة واحدة بل خمس مرات: في الصفين الخامس والسادس، يعتبرها مجلس المدرسة «تدخلًا مبكرًا»، في «سنوات الخطر» في الصفين السابع والثامن، ومرة أخرى في الصف العاشر، الهتاف الأخير، حيث يندمج الجنس مع أساسيات التغذية، ومناقشات احترام الذات، وإرشادات تقديم طلب وظيفة. لكن «ليكسي» و«برايان» كانا أيضًا مراهقين، ضعيفين في حساب الاحتمالات وأشد ضعفًا في تقدير المخاطر. كانا يافعين وواثقين من حبهما لبعضهما البعض. كانا مبهورين ومشوَّشين برؤيا المستقبل الذي يخططان لمشاركته، الذي أرادته «ليكسي» بشدة لدرجة أنها، أحيانًا، تظل مستيقظة في الليل تفكر فيه. ممَّا يعني أنه قد حدث أكثر من مرة، أن بحثت «ليكسي» في حقيبتها ولم تجد واقيًا، ولم يردعهما ذلك. همست «ليكسي» لـ«برايان» قائلة: «سوف يكون الأمر على ما يرام، دعنا فقط...».

وهكذا وجدت «ليكسي» نفسها في الأسبوع الأول من مارس داخل الصيدلية، تتأمل رف منتجات اختبار الحمل.

أخذت عبوتين من منتجات اختبار الحمل المبكر من الرف الأسفل، ودستهما تحت حقيبتها، وتحركت نحو ماكينة الدفع. المرأة التي تعمل هنالك كانت شابة، ربما في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين وحسب، لكن لديها تجاعيد حول شفتيها بالكامل ممَّا جعل فمها يبدو متغضِّنًا على الدوام. دعتْ «ليكسي» **أرجوكِ لا تسألي أي أسئلة، أرجوكِ تظاهري فقط أنكِ لا تلاحظين ماذا أشتري.**

قالت المرأة فجأة:

ـ أتذكر حين اكتشفتُ أنني حامل في طفلي الأول، أجريتُ الاختبار في العمل. كنتُ متوترةً بشدة لدرجة أنني تقيأت.

وضعت العبوتين في كيس بلاستيكي وناولتهما لـ«ليكسي»:

ـ حظًّا طيبًا، يا حلوتي.

هذه اللحظة من اللطف غير المتوقَّع جعلت «ليكسي» على وشك البكاء ـ سواء بسبب الشعور بالعار لأنها قد لوحِظت، أو بسبب الخوف من أن يعلن اختبار الحمل الشيء نفسه، لم تكن متأكدة ـ وأمسكت الكيس واستدارت مبتعدة بسرعة من دون حتى أن تقول وداعًا.

في المنزل، أغلقت «ليكسي» باب الحمَّام وفتحت العلبة. كانت التعليمات بسيطة. خطٌّ واحدٌ يعني «لا»، خطَّان يعنيان «نعم». فكرت أنها مثل لعبة الحظ «الكرة السحرية رقم ٨»، لكن مع عواقب أكبر. وضعت العصا الرطبة على النَّضد وانحنت فوقه. كانت بالفعل ترى الخطوط تتكون. خطَّان، باللون الوردي الفاتح.

طرق أحدهم باب الحمَّام. نادتْ:

ـ لحظة واحدة.

لفَّت عصا الاختبار بسرعة في ورق الحمَّام، مستخدمة نصف البكرة

تقريبًا، وأقحمتها في قاع سلة القمامة. كانت «إيزي» لا تزال واقفة في الرواق في الوقت الذي دفقت فيه الماء في المرحاض وغسلت يدها وفتحت الباب أخيرًا.

نظرتْ «إيزي» حول أختها إلى داخل الحمَّام، كما لو أن أحدًا يختبئ بالداخل:

ـ هل تُعجبين بنفسكِ في المرآة؟

قالت «ليكسي»:

ـ بعضنا، يود أن يأخذ دقيقة لتصفيف شعره. عليكِ أن تجربي ذلك في وقتٍ ما.

تحركت بسرعة من جانب «إيزي» وإلى داخل غرفتها، حيث، بمجرد أن أغلقت الباب، جثمت على الفراش وحاولت أن تفكر في ما ستفعل.

* * *

لفترةٍ وجيزة، اعتقدت «ليكسي»، بصدق، أن بإمكانهما الاحتفاظ بالطفل. بإمكانهما التوصل إلى حلٍّ ما. بإمكانهما إصلاح هذا الوضع، كما أُصلح كل شيءٍ من أجلها من قبل. سوف يحين موعد ولادتها ـ عدَّت على أصابعها ـ في نوفمبر. ربما أمكنها التأجيل لفصلٍ دراسي في جامعة «ييل» والبدء متأخرة. أو ربما بإمكان الطفل أن يعيش مع والديها بينما هي بعيدة في الجامعة. بالتأكيد سوف تعود للمنزل في كل فرصة لرؤيته. أو ربما ـ وكان هذا أفضل حلم على الإطلاق ـ ربما سيحوِّل «برايان» أوراقه إلى «ييل»، أو بإمكانها أن تحوِّل هي أوراقها إلى «برينستون». بإمكانهما استئجار منزلٍ صغير. ربما بإمكانهما الزواج. ضغطت بيدها على بطنها ـ ما زال مسطحًا كما كان منذ الأزل ـ وتخيلت خليةً واحدةً تنبض وتنقسم في داخلها، مثل أفلام الفيديو في صف الأحياء. في أحشائها كانت هناك نقطة من «برايان»، قبسٌ منه يتقلَّب ويتقلَّب في داخلها، يحوِّل نفسه. كانت الفكرة ثمينة. شعرت كأنها وعد، هديةٌ أراها إياها شخص ما، ثم حفظها بعيدًا في رفٍّ

عالٍ بالخزانة حتى وقتٍ لاحق. شيءٌ سوف تحصل عليه يومًا ما، لذلك فلماذا ليس الآن؟

بدأت بحذر، بالحديث عن «ميرابيل»، كما فعلتْ لشهور. قالت:

ـ لن تصدق كم هي صغيرةٌ أصابعها، يا «براي». أظافرها الأصغر حجمًا. مثل دمية، لن تصدق هذا. الطريقة التي تذوب بها في داخلك حين تحملها.

ثم تقدمت في الحديث عن أطفالٍ آخرين رأتهم مؤخرًا، بمساعدة مجلة «بيبول». مستخدمةً كتف «برايان» كوسادة، تقلب في الصفحات اللامعة، صنَّفتهم بترتيب الظرافة، ملتمسةً رأي «برايان» بين حين وآخر.

قالت وقد بدأ قلبها يدق:

ـ هل تعرف من الذين سيصبح لديهم أظرف الأطفال على الرغم من ذلك؟ نحن. هذا نحن. نحن اللذان سنُرزق بالأطفال الأشد روعة. ألا تعتقد؟ الأطفال المختلطون دائمًا ما يكونون رائعي الجمال. ربما لأن جيناتنا شديدة الاختلاف.

قلَّبت صفحات المجلة. قالت:

ـ يا إلهي، أعني، حتى طفل «مايكل جاكسون» ظريف. بينما هو نفسه مرعب. هذه هي قوة الأطفال المختلطين.

ثنى «برايان» زاوية صفحة في كتابه، قال:

ـ «مايكل جاكسون» أسود بالكاد. ثقي بكلمتي. وذلك الطفل يبدو أبيض.

مالت على ذراع «برايان» مقربة الصورة. فيها، يضطجع «مايكل جاكسون» على عرش ذهبي، ممسكًا بطفل بين ذراعيه. قالت:

ـ لكن انظر كم هو ظريف.

سكتت.

ـ ألا تتمنى نوعًا ما أن يكون لدينا طفلٌ الآن.

اعتدل «برايان» فجأة في جلسته، لدرجة أن «ليكسي» سقطت تقريبًا. قال:

ـ أنتِ مجنونة، هذا أكثر هراء سمعته جنونًا.
هز رأسه وقال:
ـ لا تتفوهي حتى بمثل هذا الهراء.
شعرت «ليكسي» بحلقها يضيق. قالت:
ـ أنا فقط أتخيل، «براي». يا إلهي.
ـ أنتِ تتخيلين طفلًا. أنا أتخيل «كلِف» و«كلير» يقتلاني. لن يحتاجا حتى للمسي. فقط سيعطياني تلك النظرة وسأكون ميتًا. على الفور. موتًا فوريًّا.
مرَّر يده على شعره.
ـ تعرفين ماذا سيقولان؟ لقد ربيناك لتصبح أفضل من ذلك.
ـ هل وقع الأمر عليك كريهٌ إلى تلك الدرجة؟ نحن معًا، وطفلٌ صغير؟
جعَّدت حافة المجلة بأظافرها:
ـ ظننتُ أنك تريدنا أن نظل معًا للأبد.
ـ نعم. ربما. «ليكس»، نحن في الثامنة عشرة. تعرفين ماذا سيقول الناس؟ الجميع سوف يقولون، أوه انظروا، فتى أسود آخر، جعل فتاة تحمل قبل حتى أن يتخرج في المدرسة الثانوية. مزيد من الآباء المراهقين. من المحتمل أنه سيترك الدراسة الآن. هذا ما سوف يقوله الجميع.
أغلق كتابه وألقاه على الطاولة. قال:
ـ لن أكون ذلك الرجل. مستحيل.
ـ حسنًا.
أغلقت «ليكسي» عينيها وأملَت أن «برايان» لن يلاحظ.
ـ أنا لم أقل لننجب أطفالًا في التو واللحظة، أنت تعلم. أنا فقط أتخيل. فقط أحاول أن أتصور كيف سيكون شكل المستقبل، هذا كل شيء.
من الصعب الاعتراف، عرفتْ أنه كان مُحقًّا. في «شايكِر»، طلاب المدرسة الثانوية لم ينجبوا أطفالًا. بل درسوا صفوفًا متقدمة، التحقوا

بالجامعة. في الصف الثامن قال الجميع إن «كاري ويلسون» كانت حاملًا: كان معروفًا أن صديقها الحميم في السابعة عشرة ومتسربًا من مدرسة «كليفلاند هايتْس»، وأكدت «تيانا جونز»، صديقة «كاري» المقربة، لبعض الناس أن الأمر صحيح. بدت «كاري» لعدة أسابيع متعجرفة وغامضة، تضع يدها على بطنها، قبل أن يدعو السيد «أفنجارد»، نائب المدير، لاجتماع لمخاطبة الصف الثامن بالكامل. قال محدقًا في الحشد:

ـ أفهم أن هناك شائعات تتردد.

بدت الوجوه صغيرةً للغاية بالنسبة له: مشابك تقويم الأسنان، حَب الشباب، مثبتات تقويمية للأسنان، شعيرات اللحية الأولى. فكر بينه وبين نفسه هؤلاء الأطفال، يظنون أن الأمر كله دعابة. أخبرهم:

ـ ليست لدينا طالبة حامل، أعرف أنه ما مِن أحد منكم أيها الشابات والشباب سوف يكون على هذا القدر من انعدام المسؤولية.

وفي الحقيقة، بمرور الأسابيع، بقيت معدة «كاري ويلسون» مسطحة كما كانت منذ الأزل، وفي النهاية نسي الناس كل شيء عن الأمر. في «شايكِر هايتْس»، إمَّا إن المراهقات لا يحملن أو يبذلن جهدًا استثنائيًّا في إخفاء الأمر. لأنه ماذا سيقول الناس؟ فاسقة، هذا ما سيقوله الأطفال في المدرسة. عاهرة، حتى إذا كانت هي و«برايان» في الثامنة عشرة ولذا فهما بالغان حسب القانون، حتى إذا كانا معًا منذ وقت طويل. الجيران؟ من المحتمل أنهم لن يقولوا شيئًا، ليس حين تمشي بجوارهم وبطنها منتفخ أو تدفع عربة طفل، لكن حين تغيب عنهم سوف يتحدثون. سوف تشعر والدتها بالخزي، سوف يكون عارًا وسوف تكون شفقة، وعرفت «ليكسي» أنها غير مسلحة لمواجهة أي منهما.

كان هناك شيءٌ واحد فقط يمكن فعله إذن. تكوَّرت في الفراش، تشعر أنها صغيرة ووردية ورقيقة مثل كوكتيل الجمبري، وتخلت عن خيالاتها، مثل بالونٍ يحلق في السماء حتى ينفجر.

* * *

على العشاء تلك الليلة أعلنت السيدة «ريتشاردسون» عن عزمها على زيارة بيتسبرج، قالت للجميع:

ـ من أجل إجراء بحث، قصة صحفية عن أصداف المحار المخطط في بحيرة «إيري»، وتعرفون أن بيتسبرخ لديها مشكلاتها الخاصة مع الحياة البرية الجائرة.

فكرت بحرص في عذرٍ وجيه، وبعد كثير من التفكير، خرجت بموضوع لن تكون لدى أحد أسئلة بشأنه. كما توقعت، لم يبدِ أحدٌ كثيرًا من الاهتمام، ما عدا «ليكسي»، التي أغلقت عينيها لفترة وجيزة وهمست بصلوات شكرٍ صامتة لأي إله كان سبب هذا. في الصباح التالي، تظاهرت «ليكسي» بأن صفوفها اليوم لن تبدأ إلا في وقت متأخر، لكن بمجرد أن غادر الجميع، تأكدت أن المنزل خالٍ قبل أن تتصل برقم عيادة محلية، بحثت عنها في الليلة السابقة. قالت لهم:

ـ الحادي عشر، لا بد أنه الحادي عشر.

عشية مغادرة والدتها إلى بيتسبرج، اتصلت «ليكسي» بـ«بيرْل». قالت:

ـ أحتاج معروفًا.

خفَتَ صوتها في منتصف المكالمة حتى أصبح همسًا، على الرغم من تحدثها من خطٍّ هاتفي تتشاركه مع «تريب» فقط، وكان «تريب» بالخارج.

تنهدت «بيرْل»، التي ما زالت حذِرة منذ حفل «الهالوين»، قالت:

ـ ماذا؟

مرت في ذهنها عبر قائمة الأشياء التي ربما تريدها «ليكسي» من بين جميع الناس. لم ينطبق أي من الأشياء العادية. أن تستعير ثيابًا؟ أن تستعير أحمر شفاه؟ لا تملك «بيرْل» شيئًا ستحب «ليكسي ريتشاردسون» استخدامه على الإطلاق. أن تطلب نصيحة «بيرْل»؟ لم تطلب «ليكسي» نصيحة أي شخص قطُّ. كانت «ليكسي» الشخص الذي يوزع النصائح، سواء طُلبتْ منها أم لا.

قالت «ليكسي»:

ـ أحتاج منكِ، أن تأتي معي إلى تلك العيادة غدًا. سوف أجري عملية إجهاض.

مرَّت لحظةٌ طويلةٌ من الصمت بينما حاولت «بيرْل» استيعاب هذه المعلومة. كانت «ليكسي» حاملًا؟ سرتْ ومضةٌ من الذعر الأناني عبر «بيرْل»، لقد كانت و«تريب» في منزل «تيم مايكلز» بعد ظهيرة هذا اليوم مباشرة. هل كانا حريصين بما يكفي؟ ماذا عن المرة الأخيرة؟ حاولت أن توفِّق بين ما قالته «ليكسي» وبين «ليكسي» التي عرفتْها. «ليكسي» تريد أن تُجري عملية إجهاض؟ «ليكسي» المجنونة بالأطفال الرُّضع؟ «ليكسي» سريعة الحكم على الآخرين؟ «ليكسي» التي كانت غير متسامحة على الإطلاق مع غلطة «بيبي»؟

قالت «بيرْل» أخيرًا:

ـ لماذا لم تطلبي من «سيرينا» مرافقتكِ؟

ترددت «ليكسي». قالت:

ـ لا أريد «سيرينا»، أريدكِ أنتِ.

تنهدت قائلةً:

ـ لا أعرف. ظننتُ أنكِ ستتفهمين أكثر. ظننتُ أنكِ لن تحكمي عليَّ.

«بيرْل»، على الرغم من كل شيء، شعرت بوخزة من غرور. قالت:

ـ أنا لا أحكم.

قالت «ليكسي»:

ـ حسنًا، أنا أحتاج إليكِ. هل ستساعدينني أم لا؟

في السابعة والنصف صباحًا، توقفت «ليكسي» بسيارتها أمام المنزل في «وينسلو». كانت «بيرْل» تنتظر على الرصيف وفاءً بوعدها. أخبرت والدتها أن «ليكسي» ستوصلها إلى المدرسة.

سألتْ:

ـ هل أنتِ واثقة؟

قضت الليل تتخيل ماذا ستفعل لو أنها في موقف «ليكسي»، في كل مرة تشعر بتلك الومضة من الذعر تجيش خلالها من فروة رأسها حتى أخمصي قدميها. ستظل معها إلى الأسبوع التالي، حين تشعر ببداية التقلصات وتتنهد في ارتياح.

لم تحوِّل «ليكسي» نظرها بعيدًا عن الزجاج الأمامي. قالت:

ـ أنا واثقة.

ـ تعلمين أنه قرارٌ مهم.

حاولت «بيرْل» أن تفكر في قياسٍ كانت متأكدة أن «ليكسي» سوف تفهمه:

ـ لا يمكنك التراجع. إنه ليس مثل شراء كنزة.

ـ أعرف.

أبطأت «ليكسي» سرعتها فيما اقتربتا من إشارة مرور ولاحظت «بيرْل» حلقات داكنة حول عيني «ليكسي». لم يسبق لـ«بيرْل» أن رأت «ليكسي» متعَبةً بهذا القدر، أو جادَّةً بهذا القدر.

سألت «ليكسي» فيما انتقلت السيارة بخفة إلى وضع الحركة مرة أخرى:

ـ لم تخبري أحدًا، أليس كذلك؟

ـ بلى، بالطبع.

ـ ولا حتى «مودي»؟

فكرت «بيرْل» في الكذبة التي أخبرت بها «مودي» الليلة السابقة، أنها لن تتمكن من السير معه إلى المدرسة كالعادة لأن لديها موعدًا مع طبيب الأسنان ذلك الصباح. لم يبدُ أنه مرتابٌ في الأمر، لم يخطر بباله قطُّ أن «بيرْل» يمكن أن تكذب. شعرت بالراحة، لكن أيضًا ببعض الألم: إنه يصدقها بكل سهولة مرارًا وتكرارًا، إنه لا يظن أنها قادرة على أي شيءٍ غير الصدق. قالت:

ـ لم أخبره بأي شيء.

كانت العيادة مبنى متواضعًا باللون البيج ذا نوافذ نظيفة براقة، شجيراتٌ مزهرة في الواجهة، موقف للسيارات. يمكنك المجيء إلى هناك لفحص

عينيك، لمقابلة وكيل التأمين الخاص بك، لحساب ضرائبك. توقفت «ليكسي» في مكان في طرف موقف السيارات وناولت المفاتيح لـ«بيرْل». قالت:

ـ هاكِ، سوف تقودينها عند العودة. هل رخصتك المؤقتة معكِ؟

أومأت «بيرْل» وأحجمت عن تذكير «ليكسي» أنه من الناحية التقنية، رخصة القيادة المؤقتة تخوِّل لـ«بيرْل» القيادة فقط بجوار شخص بالغ فوق الواحد وعشرين عامًا. كانت أصابع «ليكسي» على المفاتيح بيضاء وباردة. وفجأة أخذت «بيرْل» يد «ليكسي» بين يديها. قالت:

ـ كل شيءٍ سيكون على ما يرام.

ودلفتا معًا إلى داخل العيادة، حيث انزلقت الأبواب مفتوحةً كما لو أن حضورهما متوقع.

كانت الممرضة الجالسة إلى المكتب امرأةً بدينة ذات شعرٍ نحاسي، نظرت إلى الفتاتين بتعاطفٍ معتدل. لا بد أنها ترى هذا كل يوم، هكذا فكرت «بيرْل»، فتيات يأتين مرتعبات ممَّا على وشك أن يحدث، مرتعباتٍ ممَّا سيحدث إذا لم يأتين.

سألت المرأة:

ـ هل لديكِ موعدٌ يا حلوتي؟

نقلت بصرها من «بيرْل» إلى «ليكسي» بسرور.

قالت «ليكسي»:

ـ نعم لديَّ، الساعة الثامنة.

دقت المرأة على لوحة مفاتيحها وقالت:

ـ واسمكِ؟

بهدوء، كما لو أنها تشعر بالعار، كما لو أن هذا اسمها الحقيقي، قالت «ليكسي»:

ـ «بيرْل وارِن».

كل ما استطاعت «بيرْل» فعله منع فمها من الانفغار عن آخره. تجنبت «ليكسي» عيني «بيرْل» متعمدة فيما تتفحص المرأة شاشتها.

ـ هل هناك شخص ليقلَّكِ إلى المنزل؟

قالت «ليكسي»:

ـ نعم.

مالت برأسها نحو «بيرْل»، مرة أخرى من دون أن تلتقي بعينيها:

ـ أختي هنا. سوف تُقلُّني إلى المنزل.

أختان، فكرت «بيرْل». لا يشبهان بعضهما في أي شيء، هي و«ليكسي». لن يصدق أحدٌ أبدًا أن «بيرْل» ـ صغيرة الحجم، مجعدة الشعر ـ ذات صلة بـ«ليكسي» ممشوقة القوام، ملساء الشعر. سيكون الأمر مثل القول إن كلب «ترير» الأسكتلندي وكلبًا سلوقيًّا زملاء حاوية نفايات واحدة. نظرت المرأة إليهما بسرعة. بعد لحظة، بدا أنها وجدت الأمر مقنعًا أو أنها قررت التظاهر بذلك.

قالت المرأة مناولة «ليكسي» لوحًا مشبكيًّا عليه استمارات وردية اللون:

ـ اذهبي واملئي هذه الاستمارات. سيكونون مستعدين من أجلك خلال دقائق.

حين استقرتا على المقاعد الأكثر بعدًا عن المكتب بأمان، انحنت «بيرْل» على اللوح المشبكي.

قالت بهسيس:

ـ لا أصدق أنكِ استخدمتِ اسمي.

تضاءلت «ليكسي» في مقعدها. قالت:

ـ أُصبتُ بالذعر. حين اتصلت سألوني عن اسمي وتذكرت أن أمي تعرف مديرة العيادة. وكما تعلمين، ظهر أبي في نشرة الأخبار، قضية عائلة «ماكولا». لم أرِد أن يتعرفوا على اسمي. قلتُ أول اسمٍ خطر على رأسي وحسب، كان اسمكِ.

لم تكن «بيرْل» راضية. قالت:

ـ الآن سيظن الجميع أنني أنا التي كنت حاملًا.

قالت «ليكسي»:

ـ إنه مجرد اسم. أنا التي في ورطة. حتى لو لم يعرفوا اسمي الحقيقي.

أخذت نفسًا عميقًا لكنها بدت منكمشةً أكثر. حتى شعرها، لاحظت «بيرْل»، بدا باهتًا، ساقطًا أمام وجهها لدرجة أنه يخفي نصف عينيها. قالت:

ـ أنتِ، أنتِ يمكن أن تكوني أي أحد.

ـ أوه، بحق الله.

أخذت اللوح المشبكي من حضن «ليكسي» قائلة:

ـ أعطني هذه.

بدأت في ملء الاستمارات، بادئةً باسمها. «**بيرْل وارِن**».

كانت قد انتهت تقريبًا حين فُتِح الباب في نهاية غرفة الانتظار وخرجت ممرضةٌ ترتدي اللون الأبيض. قالت متفحصةً مجلَّد الملفات في يدها:

ـ «بيرْل»؟ نحن جاهزون من أجلك.

على السطر المعنون بـ«الاتصال عند الطوارئ»، خربشت «بيرْل» سريعًا اسم والدتها ورقم هاتف منزلهما. قالت دافعةً اللوح المشبكي في يدي «ليكسي»:

ـ هاكِ، تم.

وقفت «ليكسي» ببطء، مثل شخصٍ في حلم. للحظة وقفتا هناك، كلٌّ منهما ممسكةٌ بأحد طرفي اللوح المشبكي، وكانت «بيرْل» متأكدة أن بوسعها الشعور بقلب «ليكسي» ينبض طوال المسافة حتى أطراف أناملها وخلال خشب خلفية اللوح المشبكي.

قالت لـ«ليكسي» بنعومة:

ـ حظًّا طيبًا.

أومأت «ليكسي» وأخذت الاستمارات، لكنها توقفت عند مدخل الباب

ونظرت إلى الخلف، كما لو أنها تتأكد أن «بيرْل» ما زالت هناك. قالت النظرة في عيني «ليكسي»: **أرجوكِ. أرجوكِ، أنا لا أعرف ما أفعل، أرجوكِ، كوني هنا حين أعود.** قاومت «بيرْل» الحاجة المُلحة للركض نحو «ليكسي» وإمساك يدها. أن تتبعها إلى آخر الرواق، كما لو كانتا أختين حقًّا، ذلك النوع من الفتيات اللاتي يقدمن الدعم لبعضهن البعض في مثل هذا النوع من المِحَن، ذلك النوع من الفتيات اللاتي، بعد سنوات، سيمسكن يدي بعضهن البعض أثناء ولادة طفل، ذلك النوع من الفتيات اللاتي لا ينزعجن لعُري وألم بعضهن البعض، اللاتي ليس لديهن شيءٌ محددٌ تخفيه الواحدة عن الأخرى.

قالت مرة أخرى، بصوتٍ أعلى هذه المرة:

ـ حظًّا طيبًا.

أومأت «ليكسي» وتبعت الممرضة عبر الباب.

* * *

كانت السيدة «ريتشاردسون» تقرع جرس باب السيد والسيدة «جورج رايت» في الوقت نفسه الذي كانت فيه ابنتها تبدِّل ملابسها لترتدي رداء المستشفى، قادت سيارتها إلى بيتسبرج لمدة ثلاث ساعات، من دون حتى أن تتوقف لاستخدام الحمَّام أو لتمديد ساقيها. تساءلت، أكانت تفعل هذا حقًّا؟ لم تكن واثقة تمامًا ممَّا سوف تقوله لهذين الزوجين «رايت»، ولا أي معلومات، على وجه الدقة، أملت أن تحصل عليها منهما. لكن كان هناك شيءٌ ما غامضٌ، عرفتْ ذلك، وكانت متأكدةً بالمثل أن الزوجين «رايت» معهما مفتاحه. لقد سافرت من أجل عملها الصحفي عدة مرات في الماضي، جنوبًا إلى مدينة كولومبوس، للتحقيق في تخفيضات ميزانية الولاية، شمالًا إلى مدينة آن أربور، حين بدأ أحد طلاب «شايكِر» السابقين في اللعب في موقع ظهيرٍ ربعيٍّ في مباراة بين فريق «ميشيجان» وفريق «أو إس يو». قالت لنفسها إن الأمر ليس مختلفًا هذه المرة. كان مبرَّرًا، توجَّب عليها أن تكتشف الأمر، شخصيًّا.

إذا كان لدى السيدة «ريتشاردسون» أي شكوك حول ما إذا كانت قد وجدت العائلة الصحيحة، فقد تبدَّدتْ تلك الشكوك فور أن فُتح الباب. بدت السيدة «رايت» شبيهةً بـ«مِيا» شبهًا صادمًا؛ شعرها كان أفتح قليلًا وأقصر، لكنَّ عينيها ووجهها شابهتا عيني «مِيا» ووجهها، بما يكفي لكي تلمح السيدة «ريتشاردسون» ما سوف تبدو عليه «مِيا» بعد ثلاثين عامًا.

بدأت بقولها:

ـ السيدة «رايت»، أنا «إيلينا ريتشاردسون». أنا مراسلة صحفية لإحدى الصحف في كليفلاند.

كانت عينا السيدة «رايت» ضيقتين وحذرتين. قالت:

ـ نعم؟

ـ أكتب مقالًا بارزًا حول الرياضيين المراهقين الواعدين الذين انتهت مسيرتهم قبل الأوان. أودُّ أن أتحدث معكِ عن ابنكِ.

ـ عن «وارِن»؟

ومضت المفاجأة والشك في وجه السيدة «رايت»، وتمكنت السيدة «ريتشاردسون» من رؤية العاطفتين تتصارعان هناك. قالت السيدة «رايت»:

ـ لماذا؟

قالت السيدة «ريتشاردسون» بحرص:

ـ مررتُ باسمه فيما كنتُ أجري بحثي. قالت عدة روايات إنه كان يُعد أكثر مراهقٍ واعد في موقع الظهير الخلفي منذ عقود. إنه كانت لديه فرصة في أن يصبح محترفًا.

قالت السيدة «رايت»:

ـ جاء بعض مكتشفي اللاعبين لرؤية مبارياتهم. قالوا عنه كثيرًا من الأشياء اللطيفة، بعد وفاته.

مرت لحظة طويلة، ساكنة، وحين رفعت عينيها مرة أخرى، كان الشك قد تلاشى، وحلَّت مكانه نظرة من الفخر المتقلب. قالت:

https://t.me/fantazynov

ـ حسنًا، أظن أن بإمكانكِ الدخول.

خطَّطت السيدة «ريتشاردسون» لهذه البداية ووثقت في فطرتها الصحفية لتوجيه المحادثة في الاتجاه الذي تودُّ الذهاب إليه. لقد تعلمت خلال السنوات أن استخلاص المعلومات من الأشخاص الذين تُجري معهم المقابلة كان أحيانًا مثل تمشية بقرةٍ كبيرةٍ تقاوم ذلك: وجب عليك أن تدير البقرة إلى المسار الذي تريده، فيما تسمح للبقرة أن تعتقد أنها من يقوم بالقيادة. لكنَّ الزوجين «رايت»، كما تبيَّن، كانا حالتين يسيرتين. حول أكواب القهوة وطبق من كعك «بيبيريج فارم»، بدا أن الزوجين «رايت» متلهفان تقريبًا للحديث عن ابنهما. قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أنا فقط مهتمةٌ بالمحافظة على ذكراه حية.

وبمجرد أن بدأتْ في طرح الأسئلة، كان دفق المعلومات الذي انهال منهما تقريبًا أكثر من الذي تمكنت من تدوينه.

أجل، كان «وارِن» الظهير الخلفي البادئ في فريق كرة القدم، أجل، كان مهاجمًا في فريق الهوكي أيضًا. بدأ في اللعب في مستوى الناشئين حين كان في السابعة أو الثامنة من عمره، هل ترغب السيدة «ريتشاردسون» في رؤية بعض الصور؟ كان موهوبًا في الألعاب الرياضية وحسب، لم يدرِّباه، لا، لم يكن السيد «رايت» نفسه يجيد الألعاب الرياضية. قال إنه ليس سوى مُشاهد أكثر من كونه لاعبًا. لكن «وارِن» كان مختلفًا، كانت لديه موهبةٌ وكفى، قال مدرِّبه إنه قد يصل إلى إحدى جامعات القسم الأول[1]، إذا بذل ما يكفي من الجهد في التمرين. لو لم يقع الحادث...

هنا ران الصمت على السيد والسيدة «رايت» للحظة، وشعرت السيدة «ريتشاردسون»، المتلهفة لمعرفة المزيد، بغصةٍ من الشفقة الحقيقية. خفضت

---

(١) مجموعة الجامعات الأمريكية التي تسمح بضم الطلبة المتفوقين رياضيًّا إلى صفوفها. (المترجمة).

https://t.me/fantazynov

بصرها إلى صورة «وارِن رايت» في زيٍّ كرة القدم، التي سحبتْها السيدة «رايت» من رف المدفأة لتريها إياها. لا بد أنه كان في السابعة عشرة حينها، بالضبط في مثل عمر «تريب». لم يشبه الولدان بعضهما كثيرًا، لكنَّ شيئًا في وضعية التصوير ذكَّرها بابنها، ميل الرأس، الأثر الشقي لابتسامة عند زاويتي الشفتين. غمغمت:

ـ كان محطِّمًا للفؤاد بالفعل.

وأومأت السيدة «رايت».

وجدت السيدة «ريتشاردسون» نفسها تقول:

ـ لديَّ أطفالٌ أنا أيضًا، وفتًى في مثل هذا العمر. أنا آسفةٌ للغاية.

ـ شكرًا لكِ.

منحت السيدة «رايت» الصورة نظرة طويلة أخيرة، ثم أعادتْها إلى رف المدفأة وضبطت زاويتها بحرص، مسحتْ ذرة غبار من على الزجاج. فكرت السيدة «ريتشاردسون» أن هذه المرأة قد تحمَّلتْ كثيرًا. جزءٌ من السيدة «ريتشاردسون» أراد أن يغلق دفترها ويغطي قلمها ويشكر السيدة «رايت» على وقتها. لكنها ترددت، متذكرةً ما جاءت من أجله. قالت لنفسها لو أن ابنتها هي التي هربت وكذبت بشأن هويتها، لو أن ابنتها هي التي أثارت المتاعب لأناسٍ سليمي النية، حسنًا، فلن تلوم أي شخص لأنه طرح أسئلة. أخذت السيدة «ريتشاردسون» نفسًا عميقًا.

قالت:

ـ كنتُ أودُّ الحديث إلى أخت «وارِن» أيضًا.

وتظاهرت بالرجوع إلى ملاحظاتها:

ـ «مِيا». هل أنتما على استعدادٍ لإعطائي رقم هاتفها الحالي؟

تبادل السيد والسيدة «رايت» نظراتٍ منزعجة، تمامًا كما عرفت أنهما سوف يفعلان.

https://t.me/fantazynov

قالت السيدة «رايت»:
ـ أخشى أننا لم نعد على اتصال مع ابنتنا منذ بعض الوقت.
ـ أوه يا إلهي، أنا آسفة للغاية.
نقلت السيدة «ريتشاردسون» نظرها بين أحد الوالدين والآخر قائلة:
ـ أتمنى أنني لم أخترق موضوعًا محرَّمًا.
انتظرت، تاركةً الصمت المنزعج يتنامى. لا أحد، كما تعلَّمت من خبرتها، استطاع احتمال هذا النوع من الصمت لوقتٍ طويل. إذا انتظرتَ طويلًا بما يكفي، سوف يبدأ أحدهما في الكلام، وفي كثيرٍ من الأحيان سوف يمنحكَ الفرصة لتضغط أكثر، لتفتح الحوار على اتساعه وتغترف ما تحتاج إلى معرفته.
قال السيد «رايت» بعد لحظة:
ـ ليس بالضبط، لكننا لم نتحدث إليها منذ مرور فترة قصيرة على وفاة «وارِن».
قالت السيدة «ريتشاردسون»:
ـ كم هذا محزن، يحدث هذا الأمر كثيرًا، يتأثر أحد أعضاء العائلة بالفقد سلبًا. يتوقف عن الاتصال.
تدخلت السيدة «رايت»:
ـ لكن ما جرى مع «مِيا» لا شأن له بما جرى مع «وارِن»، ما جرى مع «وارِن» كان حادثًا. فتيةٌ مراهقون تصرفوا بتهور. أو ربما كان الثلج السبب وحسب. أما «مِيا»، حسنًا، فتلك قصةٌ مختلفة. لقد اتخذت اختياراتها الخاصة. «جورج» وأنا...
امتلأت عينا السيدة «رايت» بالدموع.
قال السيد «رايت»:
ـ ... لم نشارك على أحسن الأحوال.

https://t.me/fantazynov

مالت السيدة «ريتشاردسون» إلى الأمام:

ـ هذا رهيب، لا بد أن الأمر كان صعبًا على كليكما. أن تفقدا طفليكما دفعة واحدة، على نحوٍ ما.

انفجرت السيدة «رايت»:

ـ ما الاختيار الذي منحتنا إياه عندما ظهرت في تلك الحالة؟

قال السيد «رايت»:

ـ «ريجينا»...

لكن السيدة «رايت» لم تتوقف:

ـ أخبرتُها، لا يهمني كم كان قوم الـ«رايان» هؤلاء لطفاء، لم أوافق على الأمر. لم أعتقد أنه من الصواب أن تبيعي طفلكِ.

تجمَّد القلم الرصاص الخاص بالسيدة «ريتشاردسون» في الهواء:

ـ عذرًا؟

هزَّت السيدة «رايت» رأسها. قالت:

ـ اعتقدتْ «مِيا» أن بإمكانها التخلي عن طفلها والمُضي قدُمًا في حياتها. كما لو أن شيئًا لم يحدث. لديَّ طفلان، تعلمين. عرفتُ ما الذي كنت أتحدث عنه. حتى قبل أن نفقد «وارِن».

ضغطتْ أنفها، كما لو كانت هناكِ علامة أرادت أن تمحوها.

ـ لا يمكنكِ أن تتغلَّبي على هذا أبدًا، أن تقولي وداعًا لطفل. لا يهم كيف حدث الأمر. إنه لحمكِ ودمكِ.

كان رأس السيدة «ريتشاردسون» يدور. وضعت قلمها الرصاص جانبًا. قالت:

ـ دعاني أرى إذا فهمتُ هذا على نحوٍ صحيح. كانت «مِيا» حاملًا وتخطط لتدع هذين الزوجين ـ «رايان» ـ يتبنيان طفلها؟

تبادل السيد والسيدة «رايت» النظرات مرةً أخرى، لكن هذه المرة

قالت نظراتهما: عازمةٌ على ذلك قطعًا. كان واضحًا، بالنسبة لعيني السيدة «ريتشاردسون» المدرَّبتين، أنهما أرادا الحديث عن الأمر، أنهما ربما كانا ينتظران الحديث إلى شخصٍ ما عن الأمر لمدةٍ طويلةٍ جدًّا من الوقت.

قال السيد «رايت»:

ـ ليس بالضبط.

كانت هناك وقفةٌ طويلة. ثم:

ـ كان طفلهما أيضًا. لم يتمكنا من إنجاب طفلٍ. كانت تحمله من أجلهما.

١٣

في خريف ١٩٨٠، غادرت «مِيا رايت»، التي بلغت الثامنة عشرة لتوها، المنزل الأصفر الصغير في «بيثِل بارك» للالتحاق بكلية نيويورك للفنون الجميلة. لم تذهب إلى أي مكان خارج بنسلفانيا من قبل، وغادرت المنزل ومعها حقيبتان، وحب أخيها، ومن دون مباركة والديها.

لم تكن قد أخبرت والديها أنها قدمت طلب الالتحاق إلى كلية الفنون حتى وصل خطاب القبول. لم يكن الأمر غير متوقع تمامًا، أو لم يجب أن يكون كذلك. كطفلة فُتِنتْ بتلك الأشياء التي، لتعجُّبِها، لم يبدُ أنها حتى لفتت انتباه أحد. سوف تقول والدتها: «كنتِ مجرد طفلة شاردة، جلستِ في عربة الأطفال تحدقين في المرجة. كنت تجلسين في حوض الاستحمام وتستمرين في صب الماء من كوبٍ إلى آخر لمدة ساعةٍ إذا تركتكِ». ما تذكره «مِيا» عن تلك اللحظات كان مراقبة أوراق العشب في النسيم، تغيِّر ألوانها فيما تنتقل من الظلام إلى الضوء، مثل زغب نسيج المخمل إذا مررت بيدك فوقه، الطريقة التي يكسر بها مجرى الماء نفسه في رذاذ يتناثر على حافة الكوب. كل شيء، كما لاحظت، بدا قادرًا على التحوُّل بطريقة مفاجئة وعجيبة. حتى الكتلتان الصخريَّتان في الفناء الخلفي تحوَّلتا أحيانًا إلى اللون الفضي في ضوء الشمس الصباحي المبكر. في الكتب التي تطالعها، كل جدولٍ ربما يكون إله النهر، كل شجرةٍ حورية متنكرة، كل امرأة مُسنَّة

https://t.me/fantazynov

جِنِّية قوية، كل حصاةٍ روحٌ مسحورة. كل شيء لديه إمكانية التحول، وبدا هذا، بالنسبة لها، المعنى الحقيقي للفن.

بدا أن شقيقها، «وارِن»، هو فقط من يفهم تلك الطبقة الخفيَّة التي رأتْها في الأشياء، لكن حينها كانا دائمًا متفاهمين. قبل أن يولَد، كانت «مِيا» تقول لأي شخص: «طفلي»، مربِّتةً على بطن والدتها بإصبعها، وبطريقة لا تحتمل الشك كان «وارِن» يركل ردًّا عليها. أخبرت الغرباء في متجر البقالة مشيرةً إلى بطن والدتها «طفلي، هنا بالداخل». حين أحضروه من المستشفى إلى المنزل، ادَّعت على الفور أنه ملكها.

سوف تدعوه «رِنيّ»، ليس فقط لأن اسم «وارِن» طويل جدًّا، لكن لأن الاسم الذي أطلقته عليه ملائم له. حتى في تلك الأيام المبكرة، كان يشبه فرخًا متيقظًا، رأسًا مائلًا إلى أحد الجانبين، عينين لامعتين ومتنبهتين إلى درجةٍ مستحيلة، تفتشان الغرفة عنها. إذا بكى، عرفتْ أي لعبةٍ سوف تهدئه. إذا لم يأخذ قيلولته، استلقت «مِيا» إلى جواره في منتصف فراش والديهما، البطانيات مكوَّمة حولهما، في عشٍّ من نسيج «الشينيل»، مغنيةً له الأغنيات ومربِّتةً على وجنته حتى يغفو. حين سقط وهو يلعب متسلقًا بذراعيه وساقيه على لعبة «قضبان القرد»، كانت «مِيا» هي من جرى إليها باكيًا، وكانت «مِيا» من دهن الجرح على صدغه باليود وألصق عليه الضمادة.

قالت والدتهما ذات مرة، بنبراتٍ يحمل نصفها الشكوى ونصفها الإعجاب:

ـ لسوف تظنون أنها الأم.

كانت لديهما كلماتهما الخاصة لوصف الأشياء، رطانة ذات أصلٍ غامض: لأسباب حتى هما أنفسهما قد نسياها، أشارا للزُّبد بكلمة جُبن، سمَّيا طيور «الجرَكِل» التي تجثم على قمم الأشجار «إيكلبيردز». رسما دائرةً حول نفسيهما كأنها مظلة كبيرة تظللهما. سوف تقول «مِيا» قبل أن تهمس بأي سرٍّ:

ـ لا تخبر أي شخصٍ من فرنسا.
وكان ردُّ «وارِن» دائمًا:
ـ لن تستطيع الزرافات البرية انتزاعه منِّي.
وبعد ذلك، في سن الحادية عشرة ـ الثانية عشرة تقريبًا ـ اكتشفت «مِيا» التصوير الفوتوجرافي.

اكتشف «وارِن»، الذي بلغ العاشرة للتو، بنفسه ليس فقط الألعاب الرياضية، بل واكتشف أنه كان يجيدها. البيسبول في الصيف، كرة القدم في الخريف، الهوكي في الشتاء، كرة السلة في جميع الأوقات الخالية فيما بينها. هو و«مِيا» لا يزالان متقاربين، لكن كانت هناك أوقات العصاري الطويلة في ملعب كرة السلة في المنتزه، ساعاتٌ طويلة من التدريب على التمريرات والتدريب على رميات الكرة. لذا كان من الطبيعي أن تجد «مِيا» لنفسها أيضًا شغفًا خاصًّا بها.

في متجر الخردة بالبلدة وضعت «مِيا» عينيها على كاميرا قديمة من طراز «براوني ستار فليكس» تحتل ركن واجهة المتجر. فقدت الكاميرا الفلاش الخاص بها وشريط تعليقها على العنق، لكن مالك المتجر أكَّد لـ«مِيا» أنها ستعمل، وبمجرد أن فتحت «مِيا» الغطاء الفضِّي إلى أعلى ورأتْ متجر الخردة منعكسًا في صورةٍ مصغرةٍ غائمةٍ في العدسة، أرادتْ بشدة الحصول على الكاميرا. غاصت يدها في الحصالة ـ التي على شكل قطة ـ حيث ادخرت مصروفها، وبدأت تحمل الكاميرا في كل مكان. تجاهلت اقتراح كتيِّب تعليمات الاستخدام بالكتابة لشركة «كوداك» وطلب كتابها المفيد «كيف تلتقط صورًا جيدة»، واتبعت فطرتها فقط. مع الكاميرا المعلقة بواسطة اثنين من أوشحة والدتها الحريرية القديمة معقودين معًا، بدأت في التقاط الصور، صورٌ قديمة بالنسبة لرؤية والديها: منازل متهالكة، سيارات صدئة، أشياءٌ مبعثرة على جانب الطريق. «أشياءٌ غريبة لتكون موضوعًا للصور»، كما علَّق الموظف في متجر «فوتومارت» وهو يناولها مظروفًا يحوي الصور

المطبوعة. احتوت هذه المجموعة على ثلاث صور، التُقطت على مدار أيامٍ متتابعة، لجثة طائر على الرصيف، وتساءل الموظف باقتضاب، ليس للمرة الأولى، إذا ما كانت فتاة عائلة «رايت» ذات عقل مريض.

على أي حال، بالنسبة لـ«مِيا» كانت الصور تُعد تقريبًا ضبابية لما تريد أن تعبِّر عنه وحسب، وسرعان ما وجدت نفسها لا تعدِّل الصور المطبوعة فقط ـ بكل شيء بدءًا من قلم الحبر إلى رشَّات من مطهر الغسيل ـ لكن تجرِّب باستخدام الكاميرا نفسها، مطوِّعةً مداها المحدود حسب رغباتها. كان طراز «ستارفليكس»، مثل كل كاميرات «براونيز»، ثابت البؤرة. ينسحب المكُّوك إلى الخلف تلقائيًّا لتفادي التعرُّض المزدوج للضوء، وهو ما أورده كتيِّب تعليمات الاستخدام على أنه أمرٌ مناسبٌ للهواة. كل ما عليك فعله هو كل ما أمكنك فعله: أن تنظر في عين الكاميرا وتضغط على غالق العدسة. أمالت «مِيا» الكاميرا بزوايا مختلفة بدلًا من حملها عند مستوى صدرها على حسب تعليمات الاستخدام، عاقدةً شرائطها المؤقتة لمستوى أعلى أو أقل، غطت العدسة بأوشحة حريرية وأوراق شمعية، جرَّبت التقاط الصور في الضباب، في المطر الغزير، في ردهة صالة البولينج المعبأة بالدخان.

حين عادت «مِيا» إلى المنزل بمظروفٍ آخر من الصور المبهمة والمشوَّشة قالت والدتها رافضة: «إهدارٌ للمال».

على أي حال، مع كل بكرة فيلم، بدأتْ تفهم أكثر فأكثر كيف تركِّب صورة، ما الذي يمكن فعله وما الذي لا يمكن فعله، فقط إلى أي مدى يمكنك تمديد الصورة وتحريفها. على الرغم من أنها لم تعرف في ذلك الحين، كان كل ما تفعله تدريبًا لتصبح المصوِّرة التي ستكونها في المستقبل. ومع تكون الفيلم من اثني عشر تعرُّضًا للضوء فقط، تعلَّمتْ أن تكون حريصة في تأليف لقطاتها. ومع عدم وجود أدوات تحكُّم، لا تحكُّم في فتحة العدسة، ولا تحكُّم في البؤرة، تعلمت أن تكون خلَّاقة، أن تتلاعب بكاميرتها ومشهدها.

في هذه اللحظة، لحسن الحظ، تدخَّل جارهم السيد «ويلكنسون». عاش في أعلى التلِّ بالنسبة لهم، ولبعض الوقت رأى «مِيا» وهي تتجوَّل بكاميرتها «البراونيز» في الجوار، تلتقط صورًا لهذا وذاك. تعرف «مِيا» و«وارِن» شيئًا واحدًا عن السيد «ويلكنسون»: كان «مشتري ألعاب»، أنفق معظم وقته في السفر إلى عروض الألعاب، يتفحَّص البضائع، ويرسل تقارير إلى المقرات الرئيسية محددًا أي الألعاب التي يُستحبُّ تخزينها. كل عدة شهور، تدور السيدة «ويلكنسون» على أطفال الحي وتوزِّع عيِّنات الألعاب التي جمعها السيد «ويلكنسون». كانت ألعابًا مدهشة: مجموعة من قوالب ملأتها بالجصِّ لصبِّ زينة عيد الميلاد، وكرة على شكل كوكب زحل يمكن الوثب عليها، وعصا قفز «بوجو-ستايل»، ورأس دمية عملاقة بشعرٍ ذهبيٍّ للتصفيف، وصندوقًا من العطور لتوليفها وقوارير بحجم الإصبع الخنصر لاحتواء توليفاتك. تقول ضاحكة: «أحتاج إلى إفراغ قبو منزلي»، حريصة على التأكد من أن كل طفلٍ حصل على شيءٍ ما، حتى لو لعبة «يويو». كان ابن عائلة «ويلكنسون» قد كبر حينها، يعيش في مكانٍ ما في ميريلاند، ولم يعد بحاجة إلى الألعاب بعد الآن.

لفترة طويلة، كانت هذه هي الصورة الوحيدة لدى «مِيا» عن السيد «ويلكنسون»، تقاطعٌ غامض بين «ماركو بولو» و«سانتا كلوز» الذي ملأ منزله بالكنوز. لكن بعد ظهيرة أحد الأيام، بعد عيد ميلادها الثالث عشر مباشرة، نادى السيد «ويلكنسون» عليها بصرامة من شرفة منزله الأمامية. قال:

ـ رأيتكِ تتسكعين في الأنحاء طوال السنة الماضية، أريد أن أرى ماذا كنتِ تفعلين.

جمعت «مِيا»، في رعب، كومةً من صورها وأحضرتها إلى منزل عائلة «ويلكنسون» في الصباح التالي. لم تُري صورها لأي أحدٍ من قبل ما عدا «وارِن»، وأطلق «وارِن» بالطبع الكثير من صيحات التعجب والإعجاب.

لكن السيد «ويلكنسون» كان شخصًا بالغًا، رجلًا عرفتْه بالكاد. لم يكن لديه أي دافعٍ ليكون مجاملًا.

حين قرعت جرس باب منزل عائلة «ويلكنسون»، قادتها السيدة «ويلكنسون» إلى العرين، حيث جلس السيد «ويلكنسون» إلى مكتبٍ ضخم يكتب شيئًا ما على آلةٍ كاتبةٍ بلون القشدة. لكن حين دخلتْ «مِيا»، دار حول نفسه على مقعده وأرجح رف الآلة الكاتبة إلى أسفل، حيث اختفت في فراغ صغير داخل المكتب بأناقة، كما لو أنها قد ابتُلِعتْ.

قال:

ـ والآن.

فكَّ طيَّةَ نظارة القراءة المعلقة تحت عنقه ووضعها على أنفه، وارتجفتْ ركبتا «مِيا».

ـ لِنُلقِ نظرة.

تبيَّن أن السيد «ويلكنسون» نفسه مصوِّر، على الرغم من أنه يفضل المناظر الطبيعية. أخبرها:

ـ لا أحب اللقطات التي يظهر فيها الناس. سأفضل التقاط صورة شجرة على التقاط صورة شخص في أي يوم.

إذا ذهب في رحلة، اعتاد أن يأخذ كاميرته معه، ودائمًا ما رتب في جدوله نصف يوم للاستكشاف. سحب كومةً من الصور من أحد الملفَّات: غابة ذات أخشابٍ حمراء في الفجر، نهرٌ يتلوَّى عبر حقلٍ التُقط مع الندى، بحيرة تعكس الشمس في مثلثٍ متلألئ يشير إلى الغابة في الخلف. كانت الصور في جميع أنحاء الردهة من التقاطه أيضًا كما أدركتْ «مِيا».

قال السيد «ويلكنسون» أخيرًا:

ـ لديكِ عينٌ جيدة. عينٌ جيدة وفطرةٌ جيدة.

نقر قمة إحدى الصور، صورة «وارِن» وهو جاثم على فروع شجرة قيقب، ومولٍ ظهره إلى الكاميرا، صورته الظلية في مواجهة السماء. قال:

ـ هذه لقطة رائعة. كيف عرفتِ طريقة تأطير هذه؟
اعترفت «مِيا»:
ـ لا أعرف، بدتْ ملائمة وحسب.
نظر السيد «ويلكنسون» إلى صورةٍ أخرى مضيِّقًا عينيه. قال:
ـ استمري على هذا. ثقي بعينيكِ. إنهما تريان جيدًا.
انتزع صورةً أخرى. قال:
ـ لكن انظري إلى هذه؟ أردتِ هذا السنجاب، أليس كذلك؟
أومأتْ «مِيا». كان يجري على طول الحافة المسنَّنة للسياج وأُخِذَتْ «مِيا» بالقوس المتموِّج الذي تبعه جسده وذيله أثناء ركضه. مثل مشاهدة كرةٍ تتواثب، هكذا فكَّرت وهي تضغط على غالق العدسة. لكن الصورة خرجت ضبابية، مركِّزةً على السياج بدلًا من السنجاب. السنجاب نفسه عبارةٌ عن لطخة. تساءلتْ كيف عرف السيد «ويلكنسون».
ـ كما ظننتُ. أنتِ بحاجةٍ إلى كاميرا جديدة. لا بأس بتلك الكاميرا بالنسبة لمبتدئة، أو لحفلات الأعياد وعيد الميلاد. لكنها ليست كذلك بالنسبة لكِ.
ذهب إلى الخزانة وفتَّش في الجزء الخلفي، غطَّت المعاطف القديمة والأثواب المحفوظة في أكياس بالداخل صوتَه:
ـ أنتِ، أنتِ تودِّين التقاط صورٍ حقيقية.
عاد بعد لحظة حاملًا صندوقًا صغيرًا. قال:
ـ أنتِ بحاجة إلى كاميرا حقيقية، لستِ بحاجة إلى لعبة.
كانت من طراز «نيكون إف»، شيءٌ صغير باللونين الفضي والأسود، ثقيلةٌ وصلبةٌ في يديها. مرَّرتْ «مِيا» أناملها فوق سطح الكاميرا المتجعد. قالت:
ـ لكن لا يمكنني أن آخذ هذه.
ـ أنا لا أمنحها لكِ. أنا أُعيرها. هل تريدينها أم لا؟
من دون انتظار لإجابتها، فتح السيد «ويلكنسون» درجًا في مكتبه. قال:

ـ أنا لا أستخدم تلك الكاميرا الآن. قد يستخدمها أحدٌ ما.

أخرج حاوية فيلم سوداء وألقى بها إلى «مِيا». قال:

ـ بالإضافة إلى ذلك، أتطلع إلى رؤية ما ستفعلينه بها.

بحلول وقت عودة «مِيا» إلى المنزل بعد ظهيرة ذلك اليوم، تعلَّمت كيف تلفُّ الفيلم على البكرة داخل الكاميرا، كيف تركزها، كيف تضبط العدسة. دارت برأسها كلماتٌ غريبةٌ ومبهرة: الطول البؤري للعدسة على رقم «إف»، فتحة الكاميرا. رفعت الكاميرا مرارًا وتكرارًا إلى عينها لتنظر من خلال عين الكاميرا. تحوَّل شكل كل شيءٍ أسفل الصليب الرفيع في مركزها.

علَّم السيد «ويلكنسون» «مِيا» كيف تستخرج الفيلم من بكرته وتُظهِّره، وأصبحت «مِيا» تحب اللسعة الحادة للسائل المُظهر، علَّمها كيف تراقب لمعان الفضة على سطح الفيلم لتعرف إن كان الفيلم قد أصبح جاهزًا. مثل طيارٍ يسقط بالطائرة في هبوطٍ مفاجئ للتدرب على الانسحاب، التقطت عن عمدٍ صورًا خارج البؤرة، مع سرعة غالقٍ خاطئة أو حساسية فيلم خاطئة، لترى النتيجة. تعلمتْ كيف تتحكم في الضوء والكاميرا لتحصل على التأثيرات التي أرادتْها، مثل عازفٍ موسيقيٍّ يتعلم تعقيدات آلةٍ موسيقية.

سوف تسأل وهي تراقب الصورة المطبوعة تتشكَّل على الورق وتقارنها بالصورة التي لديها في ذهنها:

ـ لكن كيف يمكنك...

في البداية عرف السيد «ويلكنسون» الإجابات: «المراوغة»، و«استخدام سطوع متشتِّت»، و«لنستخدمْ تقنية العدسة الحرة». لكن سرعان ما أصبحت أسئلتها أكثر تقدمًا، مما ألجأه إلى نسخة كتاب «تقنيات التصوير الفوتوجرافي» التي يحتفظ بها على رفِّ الكتب.

تعجب بعد ظهيرة أحد الأيام: «الفتاة الشابة تريد أن تتعمَّق أكثر في المجال». كانت «مِيا» قد بلغت الخامسة عشرة في ذلك الحين. «ما تحتاجه الفتاة الشابة هو كاميرا ذات مجال رؤية واسع».

لم يسبق لـ«مِيا» أن سمعت عن شيءٍ كهذا. لكن سرعان ما خصَّصت كل إيراداتها من التوظيف في صيدلية «ديكسون» وحتى خدمة الطاولات في «إيت إن بارك» من أجل الكاميرا، وقضت ساعاتٍ تتأمل في مجلدات دليل الكاميرا ومجلات التصوير الفوتوجرافي الخاصة بالسيد «ويلكنسون».

مازحها السيد «ويلكنسون» قائلًا:

ـ تقضين وقتًا في قراءة تلك الأشياء أكثر من التقاطك الصور.

لكنها استقرت في النهاية على واحدة ـ «جرافيك فيو II» ـ وحتى السيد «ويلكنسون» لم يستطع أن يختلف مع اختيارها.

قال:

ـ تلك كاميرا متينة، ذات قيمة جيدة مقابل نقودك. اعتني بها، سوف تبقى معكِ طوال حياتك.

وحين وصلت الكاميرا «جرافيك فيو II»، حصلت عليها مستعملةً من الإعلانات المبوَّبة، معبأةً بحبٍّ كبير في حقيبتها مثل آلة كمانٍ ثمينة، عرفت «مِيا» أنها ستنجح.

كانت الكاميرا أقل إبهارًا بالنسبة لوالديها. سألتْ والدتُها:

ـ بكم ابتعتها؟

فيما هزَّ والدها رأسه. بدت لهما مثل شيءٍ من العصر الفكتوريِّ؛ متوازنة على حاملٍ ثلاثيٍّ طويل، ببطنٍ ذي ثنيات مثل الأكورديون وقماشٍ داكنٍ دسَّتْه «مِيا» أسفل الكاميرا. حاولتْ أن تشرح لهما كيف تعمل الكاميرا، لكن مع الذكر الأول لكلمتَي التبديلات والإمالات بدآ يشردان. حتى «وارِن» الحبيب استسلم عند تلك النقطة، أخبرها في النهاية: «لا أحتاج إلى معرفة كيف تعمل يا «مِيا»، أريد أن أرى الصور وحسب»، وأدركتْ «مِيا» أنها تعبر إلى مكان لا بد أن تمضي فيه بمفردها.

التقطت صورًا للعبة التسلق في المنتزه المحلي، ولمصابيح الشوارع في الليل، ولعمَّال المدينة وهم يقطِّعون شجرة بلُّوطٍ ضربها البرق. جرَّت

الكاميرا ذات الرؤية الواسعة بجهدٍ جهيد إلى وسط المدينة لتصوير جسرٍ صدئ يمتد فوق بقعةٍ حيث تتصادم تيارات الأنهار الثلاثة. باللعب في الإعدادات، التقطت صورةً لإحدى مباريات «وارِن» لكرة القدم، من الأعلى في المدرجات، حيث يبدو اللاعبون مثل النماذج المنمنمة، من النوع الذي تراه في لعبة قطار. قال «وارِن» ناظرًا إلى أحد الأجسام، ذلك الطويل في منطقة النهاية، منتظرًا التمريرة:

ـ هذا أنا؟

قالت «مِيا»:

ـ هذا أنت.

صار لديها صورة ذهنية مفاجئة لنفسها كساحرة، تلوِّح بيديها فوق الملعب وتحوِّل الأولاد بالأسفل إلى دُمى بلاستيكية بحجم حبة الفول.

أخذت تلك الصورة المطبوعة إلى السيد «ويلكنسون» في اليوم التالي، فقط لتجد امرأةً غريبةً عند الباب. تبيَّن أنها زوجة ابن السيد «ويلكنسون». أخبرتها زوجة الابن وهي تنظر إلى «مِيا»، الكاميرا حول عنقها، والصورة في يدها:

ـ توفِّيَتْ «ديلا» أثناء نومها، ما الذي قلتِ إنكِ بحاجةٍ إليه؟

بعد الجنازة، أقنعت زوجة الابن وزوجها السيد «ويلكنسون» بالانتقال إلى دار تقاعد في «سيلفر سبرينج»، أقرب إليهما. حدث الأمر بسرعةٍ كبيرة لدرجة أن «مِيا» لم تحصل حتى على الفرصة لتقول وداعًا، ناهيك عن أن تُريه الصورة، وأصبحت هي وكاميرتها وحيدتين مرةً أخرى.

* * *

في خريف ١٩٧٩، السنة الأخيرة لها في المدرسة الثانوية، تقدمت «مِيا» بطلب التحاق إلى كلية نيويورك للفنون الجميلة بسلسلة من الصور التي التقطتها للمباني المهجورة حول البلدة. ربَّتتْ بخفة على الصور المطبوعة باستخدام قماشٍ مندَّى، بينما كانت طبقة الفيلم الحساسة للضوء مبلَّلة،

استخدمت سنَّ إبرة لتكشط الصورة، تاركةً خطًّا أبيض رفيعًا كدبُّوس. كانت النتيجة شبيهة بالنحت على العاج: صورة طيفية لعامل يهبط على السلالم خارج مصنعٍ مغلق، خطوط خارجية لسيارة ركاب فوق مصعد هيدروليكي لورشة «جيمسون» لتصليح السيارات، زوج من أشباح الأطفال يتسلقان يدًا بيد إلى أعلى تلًّا من الركام. عندما رأى هذين الطفلين، ضيَّق «وارِن» عينيه ونظر عن قربٍ أكثر. من الممكن أن يكون الطفلان مجهولين، لكنهما ليسا كذلك: كانت هناك خصلة شعر صغيرة نافرة على قمة رأس «وارِن»، كان هناك وشاحٌ حريريٌّ معقودٌ على عنق «مِيا»، ثقل الكاميرا يسحبها بميل قليلًا. لم تكن هناك صورٌ لهما وهما يفعلان مثل هذا الشيء لكن بدا لهما أنهما قضيا طفولتيهما يلعبان على أكوام الركام التي وُضعت في مواجهة المنتزه، وبالنظر إلى صورة أخته الفوتوجرافية، شعر «وارِن» كما لو أن «مِيا» قد التقطت صورةً لأشباح ذاتيهما الماضيتين، التي على وشك أن تتلاشى في الأثير. سألها:

ـ حين تستعيدين هذه الصورة، هل بوسعي أن أحصل عليها؟

بالنسبة لوالديها، كانت الصور ـ وعمل «مِيا» بشكلٍ عام ـ أقل سحرًا. حتى إنهما لم يسمِّيا ما تفعله «عملًا» أو «فنًّا»، وهو شيء بالنسبة لهما على المقدار نفسه من السوء. كانا أناسًا من الطبقة الوسطى، عاشا طوال حياتهما الزوجية في منزل مزرعةٍ من الطبقة الوسطى بلون الزُّبد، في بلدةٍ باردة الطبع من الطبقة الوسطى. بالنسبة لهما، كان العمل يعني تصليح شيءٍ ما أو جعل شيءٍ ما مفيدًا، إذا لم يكن له استخدام، لم يستطيعا تمامًا فهم سبب صنعه. إن «الفن» للناس الذين يملكون كثيرًا جدًّا من الوقت والمال بين أيديهم. وهل بوسعك أن تلومهما؟ كان والدها رجلًا حِرَفيًّا، المؤسس والمالك الوحيد لورشة «رايت ريبير» للتصليح، يعمل يومًا في الكنيسة لتصليح حواف السطح حيث انكسر أحد الألواح وتسللت عائلة من السناجب متخذةً طريقها إلى داخل صحن الكنيسة، يعمل يومًا آخر في منزل الجيران ينقِّي المصارف أو

يستبدل الأنبوب الملتوي على شكل حرف U الذي صدأ أسفل الحوض. كانت والدتها ممرضةً في المستشفى، تحصي أقراص الدواء، تسحب عينات الدم، تغيِّر أوعية التبوُّل في الفراش، ليست غريبةً على العمل في الورديات الليلية أو المزدوجة. اشتغلا بأيديهما، اشتغلا ساعاتٍ طويلة، ادَّخرا بقدر استطاعتهما ووضعا مدَّخراتهما في منزلٍ مدفوع الثمن بالكامل وسيَّارتَي «بويك» وطفليهما، اللذين كانا فخورين بالقول ـ عن حقٍّ ـ إن طفليهما لا ينقصهما شيءٌ لكنهما ليسا مدلَّلين.

ثم كانت «مِيا»، منبطحةً هناك على الأرض لساعات، تلتقط صورةً جيدة تمامًا لـ«وارِن» ثم تقتطعه منها مثل دميةٍ ورقية، تضع أخاها المُقتَطع في مشهدٍ ثلاثيِّ الأبعاد من أوراق الشجر في صندوق حذاء قديم، كل ذلك من أجل صورةٍ واحدة، يبدو فيها «وارِن» مثل جِنيٍّ صغير مُحاطٍ بثمار بلُّوطٍ عملاقة: عمل ماهر، لكنه بالكاد يستحق الوقت الذي أضاعته «مِيا» لعمله. كانت هناك «مِيا»، في اللحظة التي يصل فيها والدها إلى المنزل، حذاؤه بالكاد منتزع ولم يُغسل الشَّحم بعد من على يديه، تتوسل من أجل دولارين لمزيدٍ من الأفلام، تَعِدُ: سوف أردُّهما، أعِدُ بذلك، على الرغم من أنه والحقُّ يُقال، نادرًا ما فعلتْ. كانت هناك «مِيا»، حين أعطتها والدتها المال لشراء ملابس جديدة للمدرسة، رقَّعت الثقوب في بنطالها الجينز القديم بدلًا من ذلك وأنفقت المال على مزيد من الأفلام، متجولةً بتنُّوراتٍ قصيرةٍ جدًّا بمقدار عدة بوصات، وقمصانٍ باهتة ومهترئة، ملتقطةً مزيدًا من الصور. كانت هناك «مِيا»، حين حصلت على عملٍ كنادلةٍ في مطعم «إيت إن بارك»، بدلًا من استخدام عائداتها في شراء ملابس أو سيارةٍ مستعمَلة، ادَّخرتْها وأنفقتْ كل شيءٍ على كاميرا، من بين كل الأشياء. لم تكن حتى كاميرا بوسع بقيتهم استخدامها ـ حاولتْ أن تشرح لهم ذات مرة عن الحركة ومسافة العدسة وفقدوا جميعًا الاهتمام على الفور ـ على الرغم من أنها التقطت صورةً عائلية لأربعتهم، في عامها الأخير في المدرسة الثانوية، وضعتْها والدتها

في إطارٍ وعلَّقتْها على جدارِ غرفة المعيشة. طُوِيَت الكاميرا في حجم حقيبة سفر صغيرة وجعل هذا والدَي «مِيا» أشدَّ إحباطًا نوعًا ما: كل هذا المال يُعبَّأ في مثل تلك المساحة الصغيرة.

كيف يمكنك لوم والدي «مِيا» على عدم التفهم؟ لقد وُلِدا في سنوات الحرب، ربَّاهما أهلٌ جاءوا من زمن الكساد، أهلٌ لم يُلقوا بأي شيء، ولا حتى الطعام المتعفِّن. كانا كبيرين بما يكفي ليتذكرا حين صارت الأسمال لبَّادًا من أجل المجهود الحربي، حين صار بالإمكان تحويل علب الصفيح والخردة المعدنية إلى رصاصات وصفائح للمتفجرات المصنوعة من الشحوم. كان الطابع العمليُّ معجونًا في عظامهما. لم يُهدرا شيئًا، خاصةً الوقت.

لذا حين تعلق الأمر بالجامعة، افترضا أنها سوف تذهب إلى مكانٍ عمليٍّ ما، مثل جامعة «بيتسبرج» أو جامعة «ولاية بنسلفانيا»، لدراسة شيءٍ مثل إدارة الأعمال أو إدارة الفنادق. افترضا أن موضوع التصوير هذا كان شيئًا متعلقًا بمرحلة البلوغ، مثل ملاحقة الفتيان أو الحِمْية النباتية. ما الذي قد عملا بجد طوال تلك السنوات من أجله إذن؟ كي تبدِّد «مِيا» مالهما على كلية الفنون؟ كلَّا، إذا أرادت كلية الفنون لهذه الدرجة، يجب أن تدفع مصروفاتها بنفسها. أصرَّا على أن هذا لم يكن تصرفًا دنيئًا، بل معقولًا. لم يمنعاها من الذهاب. أكَّدا لها أنهما ليسا غاضبين، بالتأكيد لا، قطعًا لا. لكنهما أجلساها في غرفة المعيشة وصاغا لها الأمر بصراحة: مسألة الفن هذه مضيعةٌ للوقت. لقد خاب أملهما فيها. وأنهما بالتأكيد لن يدفعا لهذا الأمر. قالت والدتها، وصوتها مجدولٌ بالرفض:

ـ ربَّيناكِ لتصبحي أذكى من ذلك.

أصغت «مِيا» بحزن، لكن كان هذا ما توقعته. علمت منذ البداية أن والديها لن يوافقا، سايَرَ والداها هوايتها كل هذا الوقت، لكنها عرفت الآن ـ وقد أصبحت في الثامنة عشرة ـ أن الأمور سوف تختلف. من المفترض أن تكون بالغة، تلك السنُّ حين يُفترض أن تُنحَّى اهتمامات الطفولة جانبًا، وليس

الاستغراق فيها تمامًا. لقد أجْرت بالفعل بعض الحسابات، ولو أن والديها قد وافقا على المساهمة على الإطلاق لفاجأها ذلك. أُعجِبَت الكلية كثيرًا بأعمالها لدرجة أنها عرضت على «مِيا» منحةً دراسية. قدَّرت أنها ستحتاج إلى وظيفة بدوام جزئي لتغطية تكاليف غرفتها ومواصلاتها ولوازمها. نظر والداها إلى بعضهما البعض، كما لو أنهما قد عرفا طوال الوقت أن تهديدهما لن يُجدي، واستوعبا تلك الأخبار في صمت.

قبل أسبوعٍ من مغادرة «مِيا»، ظهر «وارِن» عند مدخل باب غرفتها. قال:

ـ «مِيا»، لقد كنتُ أفكر.

قالها بجدية لدرجة أنها قهقهت، حتى مدَّ يده إلى جيبه الخلفي وسحب رزمة من الأوراق المالية المطوية:

ـ أعتقد أنكِ يجب أن تأخذي هذا. لن يُسدِّد باقي التكاليف، لكن سوف يسدِّد معظمها.

سألتْ:

ـ والسيارة يا «وارِن»؟

لقد كان «وارِن» يدَّخر ليشتري سيارة، حتى إنه اختار، بعد كثيرٍ من البحث، السيارة التي خطَّط لشرائها: «فولكس فاجن رابِتْ». لم تكن هي السيارة التي توقعتْها منه: لقد خمَّنت «ترانس إم»، أو «ثاندربيرد»، شيئًا مبهرجًا وممتعًا. لكن سعر الوقود كان يقترب من ١,١٠ دولار للجالون، ولم يكن السبب فقط أن «الرابِتْ» إحدى السيارات القليلة التي بوسعه أن يتحمل تكلفتها، لكن الإعلانات وعدت أيضًا أنها تسير ٣٨ ميلًا بجالونٍ واحدٍ من الوقود، وتعجبتْ «مِيا» لرؤية ذلك الجانب العملي من «وارِن» يظهر هنا بالذات.

طوتْ يده على الأوراق المالية ودفعتْها بعيدًا برفق. قالت:

ـ اذهب واحصل على تلك السيارة يا «وارِن»، احصل عليها وعِدْني أن تُقلني من محطة الحافلات كلما عدتُ إلى المنزل.

استقلَّتْ «مِيا» إحدى حافلات شركة «جرايهاوند» إلى فيلادلفيا، ثم

إلى نيويورك، بحقيبة ملابس واحدة وكاميرا واحدة. من لوحة إعلانات، وجدت شقة في حي جرينِتش فيلدج، ليست بعيدة عن الحرم الجامعي، مع فتاتين أخريين. حصلت على وظيفةٍ كنادلةٍ في مطعمٍ صغير قرب محطة «جراند سنترال» ووظيفة أخرى في متجر «دِكْ بلِك» لمستلزمات الفنون في «سوهو». بما تبقى من مدخراتها توجهت إلى متجر التصوير الفوتوجرافي في الشارع السابع عشر غرب، حيث باع لها شابٌّ فيلمًا وورقًا بينما حاولتْ ألا تحدِّق في طاقيته اليهودية. وهكذا بدأت صفوفها بعد أن أصبحت مجهَّزة: «رسم القوام ١»، «الضوء واللون ١»، «نظرة عامة عن الفن ١»، «مقدمة إلى الدراسات النقدية»، و- مع الصف الأكثر إثارة - «مقدمة إلى التصوير الفوتوجرافي»، تدرِّسها الشهيرة «بولين هوثورن».

اتضح أن والدي «مِيا»، على الرغم من أفضل نياتهما، أعدَّاها جيدًا على نحوٍ استثنائيٍّ لكلية الفنون.

استيقظتْ كل صباح في الرابعة والنصف وذهبت إلى العمل لتصب القهوة لرجال الأعمال الموشكين على اللحاق بقطاراتهم. أحرقت الأطباق الساخنة التي حملتها من المطبخ باطنَي معصميها تاركة علامات مقوَّسة. نجحتْ والدتها دائمًا، حتى في وردياتها المزدوجة، أن تجعل كلَّ مريض أكثر من جسدٍ في فراشٍ - تثرثر معهم حول رقصة ابنتهم الفردية أو المشكلات الحديثة لسيارة أخيهم، وتسأل عن حيواناتهم الأليفة - وتعلمتْ «مِيا» من والدتها تلك الموهبة بمشاهدتها لسنوات، أيضًا: تتذكر من أخذ القهوة بالحليب والسكر، من أحب الكاتشب على البيض، من ترك قشرة الخبز دائمًا على طرف الطبق وسُرَّ أن يجد، في المرة التالية، أنها طلبت إزالة قشور الخبز في المطبخ. تعلمتْ أن تتوقع احتياجات الناس: تمامًا مثلما عرفت والدتها متى تظهر بالجرعة التالية من المورفين أو لإفراغ وعاء التبوُّل في الفراش، تعلمت أن تظهر بإبريق القهوة بمجرد أن يضع الزبائن أكوابهم الفارغة، أن تراقب زبائنها فيما يتعلق بحركات التململ والتمدد الصغيرة التي تشير إلى أنهم في عجلةٍ

من أمرهم وجاهزون لدفع الحساب، أو أنهم مسترخون ويريدون التلكؤ. بسبب هذا، أحب رجال الأعمال ورجال الإعلانات الجلوس في القسم المسؤولة عنه، وعادةً ما تركوا دولارًا إضافيًّا ـ أو أحيانًا خمسة دولارات ـ على الطاولة. في المطبخ، حين كان المدير غافلًا، أكلت «مِيا» بقايا مثلثات خبز التوست وملء شوكاتٍ باردة من البيض المخفوق من الأطباق بدلًا من إلقائها في القمامة. كان هذا إفطارها.

حين انتهت ورديتها، بدَّلتْ ملابسها في خزانة صغيرة في حمَّام الموظفين، تلفُّ زيَّ عملها ومئزرها بإحكام على شكل أسطوانة قبل أن تدسهما في حقيبة ظهرها فلا يتجعَّدان. لم تكن لديها مكواة وبهذه الطريقة، إذا كانت حريصة، أمكنها أن ترتدي الزيَّ نفسه لأسبوع أو أكثر قبل أن تضطر لمواجهة خدمة الغسيل الذاتية. ثم تتوجه إلى الصف مرتديةً تيشيرتًا وجينزًا.

تعلمت من والدها تغيير زيت السيارة، وأن توصل مقبسًا بالأسلاك، وأن تحفر بإزميل، وأن تستخدم المنشار، ممَّا يعني أنها استخدمت أدواتها بخبرة: عرفت إلى أي مدى بوسعك ثنْي قطعة من السلك أو صفيحة من المعدن قبل أن تنكسر، وعرفت كيف تصنع خطوطًا نظيفة ونتوءاتٍ ومنحنياتٍ ناعمة، وكيف تُساير أنبوبًا نحاسيًّا ليتحول إلى زوايا وانحناءات. تعلمت من والدتها كيف تتعامل مع القماش ـ من الرقيق ذي الثنيات وحتى القماش السميك ـ وكيف تجعله يتصرف، ما حدوده، إلى أي مدى بإمكانك تمديده وإلى أي مدى بإمكانه التحمُّل. كيف تنظف أداةً، تنظيفًا كاملًا، بحيث لا يتبقى أي أثر لما لامستْه. الآن، في الصف، إذا طُلِب منهم أن يصنعوا كرسيًّا من المعدن، عرفت بالفعل كيف تلحم المعدن وتجعل الأشياء متينة، إذا طُلب منهم العمل مع القماش، عرفت ـ بعصرةٍ سريعةٍ للنسيج ـ كيف تحوِّل قماشًا من القطن والكتان إلى شجرةٍ طولها ست أقدام، لدرجة أنه حتى معلِّمها سوف يُعجب بها. عرفت مدى الرهافة التي احتاجتها لتصنع طلاءً خفيفًا لدرجة أنه قد يطفو، ومدى الثخانة التي بإمكانك أن تصنعه بها لدرجة أن يتكتَّل على

قماش اللوحة مثل الصلصال، شيءٌ صُنع ليُنحت بعد ذلك. في درس رسم القوام، حين فكَّت العارضة حزام ردائها وتركته يسقط ليكوِّن بركةً ضحلة عند قدميها، كانت «مِيا» هي الوحيدة التي لم تضيِّع وقتًا في الاحمرار خجلًا بل بدأتْ، على الفور، في تخطيط أطراف العارضة الطويلة ومنحنيات ثدييها: في المستشفى، وهي تساعد والدتها، رأتْ كثيرًا من الأجساد ممَّا جعلها لا تخجل بشأن أي شيء.

في الساعة الثالثة، بعد انتهاء صفوفها، تذهب إلى العمل مرة أخرى. لديها ورديتان مرتين أسبوعيًّا في متجر «دِكْ بلِك»، تبيع مستلزمات الفنون لزملائها الطلاب، أو تجدِّد مخزون الغرفة الخلفية. تحدثت في الفن مع الطلاب الأقدم، وأخبروها بالذي كانوا يعملون عليه، لماذا فضلوا السكين على الفرشاة وألوان الأكليريك على ألوان الزيت، أو «فوجيكَلَر» على «كوداكروم». في الغرفة الخلفية، سمح لها رئيسها ـ الذي لديه ابنةٌ في مثل عُمر «مِيا» ولذا يشعر بالضعف تجاه هذه الفتاة التي تعمل في وظائف متعددة لتدفع إيجار شقتها ـ أن تحتفظ بأقلام الرصاص وألوان الباستيل التي انكسرت أثناء عملية النقل، وأنابيب الطلاء التي سرَّبت، والفُرش واللوحات القماشية التي انبعجت أو أصبحت غير ثابتة. أي شيءٍ لم يعد من الممكن بيعه أخذته «مِيا» إلى المنزل وأصلحتْه، تعيد تمديد الأقمشة على اللوحات أو ترمِّم ظهرها بشريط لاصق، تصنفر المقبض المشقق لفرشاة، تبري نصفَي قلم رصاص لتستخدمهما بدلًا من قلمٍ كامل. كانت قادرةً بهذه الطريقة على الحصول على قدرٍ لا بأس به من مستلزماتها مجانًا.

ثلاث أمسياتٍ كل أسبوع، استقلت «مِيا» الحافلة رقم ١ إلى الشارع ١١٦، حيث ارتدت زيًّا مختلفًا وخدمت الطاولات في حانة قرب جامعة «كولومبيا». مال الطلبة الجامعيون الذين عملت على خدمتهم إلى أن يكونوا إمَّا متعجرفين وكريهين أو شبقين وكريهين، تزداد عجرفتهم وشبقهم أكثر وأكثر حتى ينقضي الليل، لكنهم منحوها إكراميات، وفي نهاية ليلةٍ جيدة قد

يكون لديها ثلاثون أو أربعون دولارًا في مئزرها. أكلت القضمات الأخيرة من البرجر، والبطاطس المقلية المنسيَّة، وأعقاب المخلل الباقية منهم كعشاء، وطوت كل النقود في جيب بنطالها الجينز.

شقت طريقها خلال السنة الأولى بادِّخار بعض المال حتى بعد أن دُفع إيجار شقتها. بين الحين والآخر، إذا اتصلت بالمنزل ـ لأنها كانت تتصل بالمنزل، أصرت هي ووالداها أنه ما مِن ضغينةٍ بينهما، سألا بأدب عن سير حال الكلية وأبْدَيا، أو على الأقل تصنَّعا، الاهتمام بإجاباتها ـ سأل «وارِن» إن كان الأمر يستحق. لقد كان دائمًا الشخص الذي يأخذ الأمور ببساطة، مستعدًّا لتقبُّل الأمور كما تحدث، كانت هي الشخص المدفوع، الطَّموح، المخطِّط.

أكدت له:

ـ الأمر يستحق.

ولسوف تخبره عن صفوفها، ما اللوحات التي درستها هذا الأسبوع، وأيتها المفضلة لديها، السبب الحقيقي الذي استيقظت من أجله في الرابعة والنصف كل صباح وظلت ساهرةً لوقت متأخر كل ليلة: التصوير الفوتوجرافي.

إذا تحدثت عن «بولين هوثورن»، كانت نبرة صوتها تحمل نصف هيامِ صوت تلميذة تجاه فتى معجبة به، ونصف تبتُّل ناسكٍ تجاه قديس. لم يكن واضحًا، في البداية، أن الأمر سيصبح بهذه الطريقة. في اليوم الأول من صف التصوير، جلس الطلبة معتدلين إلى مكاتبهم، كل منهم معه كاميرا ٣٣ مم ودفتران، كما هو محدَّد في قائمة المستلزمات. حين بدأ الصف، تمشَّت «بولين» بخطى واسعة إلى آخر الغرفة، أطفأت الأنوار، ومن دون تقديم نفسها، ضغطت على زر تشغيل جهاز «البروجكتور». اقتحمت صورة فوتوجرافية للمصوِّر «مان راي» الشاشة أمامهم: امرأةٌ شهوانية، تحول ظهرها إلى آلة تشللو ذات فتحتين مرسومتين على شكل حرف f. ملأ القاعةَ صمتٌ تام. بعد خمس دقائق، ضغطت «بولين» بإبهامها، استُبدِلت بالمرأة

التشللو صورة مشهد طبيعي للمصور «آنسِل آدمز»؛ جبل «ماكينلي» متوهج فوق بحيرة من المياه الصافية البيضاء. لم يقل أحدٌ أي شيء. ضغطةٌ أخرى: صورة شخصية التقطتها المصورة «دوروثي لانج» لامرأة منطقة «داست باول»، شعرها الداكن مفروق فرقًا عميقًا، أقل لمحة لابتسامة رافعة ركني شفتيها. استمر هذا الأمر طوال ساعتي الصف، مسحٌ للصور التي تعرفوا عليها جميعًا لكنهم ـ كما لا بد وأن «بولين» قد أدركت ـ لم يقضوا وقتًا طويلًا في النظر إليها. «مِيا»، من قراءتها في المكتبة، تعرفت على جميع الصور، لكنها وجدت بعد أن حدقت في الصور لفترة طويلةٍ بما يكفي، أنها اكتسبت معالم جديدة، مثل وجوهٍ لأناسٍ أحبَّتهم.

بعد انقضاء الساعتين، ضغطت «بولين» على زر إطفاء «البروجكتور» وجلس طلبة الصف يطرفون بأعينهم في السطوع المفاجئ. قالت:

ـ في الصف المقبل، أحضروا أكثر صورة تفخرون بها.

وغادرت الغرفة. كانت الكلمات الأولى والوحيدة التي تفوهت بها.

في الصف التالي، بعد كثيرٍ من التفكير، أحضرت «مِيا» صورة التقطتها بكاميرتها كبيرة الحجم. ركز منهج صف «مقدمة إلى التصوير الفوتوجرافي» على الكاميرات المحمولة باليد، لكن «بولين» قالت **أكثر صورة تفخرون بها**، وبهذه الطريقة كانت هذه أكثر صورة تفخر بها: لقطةٌ لأخيها وهو يلعب هوكي الشارع في فنائهما الخلفي، امتد منزلهما وبقية حيِّهما خلفه مثل منمنمات. تسلقت طوال الطريق إلى قمة التل خلف منزلهما لالتقاطها. عند دخول الصف، وجدوا بطاقاتٍ مفهرسة باسم كل طالب مثبتة بدبابيس على جدران غرفة الدراسة، مع مشابك مثبتة أسفلها. بعد مرور دقيقتين، دخلت «بولين» ـ مرة أخرى، من دون تقديم نفسها ـ وتجمَّع طلاب الصف بجوار كل صورة، واحدة بعد أخرى، تعلِّق «بولين» على تكوين كل صورة أو أسلوبها، يجيب الطلاب عن أسئلتها بخوف، عن وجهة النظر أو الحالة العامة للضوء واللون. كانت بعض الصور عبارةً عن مشاهد مبنيَّة بحرص، صورة أو اثنتان

حاولتا عمل شيء فنّي: صورةٌ ظليةٌ لفتاةٍ مضاءة من الخلف بشاشة سينما هائلة، صورةٌ مقرَّبةٌ لسلك هاتفٍ متشابكٍ ملتفٍّ حول السماعة. حصّنت «مِيا» وبقية زملاء صفها أنفسهم في مواجهة استجواب «بولين». بعد ذلك الصف الأول، أصبحوا متأكدين أنها واحدةٌ من هؤلاء التنانين، كما عُرف المعلمون الأشد قسوة. الذين يسرُّهم جعل طلبتهم غير مرتاحين، الذين يعتقدون أن أفضل طريقة لدفع طلبتهم من مناطقهم الآمنة كانت بتجريفهم وتحويلهم إلى أنقاض أثناء التقييمات النقدية. لكن تبيَّن الآن أن «بولين» لم تكن تنّينًا. على الرغم من طبعها الذي لا يحتمل الهراء، وجدت شيئًا في كل صورة فوتوجرافية لإبرازه والثناء عليه. كان هذا هو سبب ـ على الرغم من أنها متحقِّقةٌ تمامًا ـ اختيارها لتدريس الطلبة المبتدئين. قالت ناقرةً على إحدى الصور العائلية:

ـ انظروا كيف تضحك الأخت الصغرى هنا، إنها الوحيدة التي لا تنظر إلى الكاميرا، مما يمنحكم الإحساس بأن هناك شيئًا ما خارج الكادر. هل هي متمردة؟ أم إن هذا تلميح لروح العائلة بأكملها؟

أو:

ـ لاحظوا كيف تبدو ناطحة السحاب هنا وكأنها على وشك أن تثقب القمر. ذاك اختيارٌ مدروس للمنظور.

حتى انتقاداتها ـ التي كانت متكررة بقدر تكرار ثناءاتها ـ لم تكن كما توقعت «مِيا». قالت ببساطة حين أشار أحدهم إلى أن صورة شلال كانت ضبابيةً على نحوٍ سيئ:

ـ الماء صعب، لنفترض أن هذا قد تم عن عمد. ما الأثر الذي سيحدثه؟

كانت صورة «مِيا» هي الأخيرة، وحين تجمع طلاب الصف أمامها، توقفت «بولين» للحظة، كما لو أنها فوجئت. درست الصورة بحرص لمدة دقيقتين، ثلاث، خمس، وفي الصمت أصبح الصف منزعجًا. سألت في النهاية:

ـ مَن «مِيا رايت»؟

وتقدمت «مِيا» خطوةً إلى الأمام. أخذ الجميع نصف خطوة إلى الخلف، كما لو أنه، أيًّا كانت الصاعقة التي على وشك أن تضرب سوف تصيبهم، أيضًا. ثم بدأت «بولين» بطرح أسئلة. لماذا جعلتِ هذا الخط يمتد من اليمين إلى اليسار؟ لماذا حركتِ الكاميرا بهذه الطريقة؟ لماذا ركزتِ على عصا الهوكي، وليس الشبكة؟ أجابت «مِيا» بأفضل ما استطاعت: أرادت أن تلتقط مدى صغر المنزل والمرجة مقارنةً بالتلال خلفهما، أرادت أن تبيِّن ملمس العشب والطريقة التي تنسحق بها النِّصال تحت حذاء أخيها. لكن في لحظةٍ معينة، بينما أصبحت أسئلة «بولين» تقنيةً أكثر، أصبحت «مِيا» مضطربة وعاجزةً عن التعبير. بدا الخط صحيحًا بهذه الطريقة فحسب. بدت الحركة صحيحة بهذه الطريقة فحسب. بدا عمق الملعب صحيحًا بهذه الطريقة فحسب. في النهاية، بمجرد انتهاء انعقاد الصف، خطت «بولين» مبتعدةً بإيماءة.

قالت:

ـ أحضروا كاميراتكم المرة المقبلة، سوف نبدأ في التقاط بعض الصور.

التقطت حقيبتها وغادرت الغرفة، تاركةً «مِيا» غير متأكدة إذا كانت قد نجحت أم أخفقت تمامًا.

على مدى الصفوف القليلة التالية عاملت «بولين» «مِيا» تمامًا مثل أي طالبٍ في الصف. تعلموا لفَّ الفيلم في الكاميرا، كيف يؤلفون صورة، كيف يحسبون فتحة وعرض العدسة. عرفت «مِيا» كل هذا بالفعل، من إرشاد السيد «ويلكنسون» وتجاربها الخاصة على مر الأعوام. على أي حال، كما فسَّرت «بولين» الأمر، أصبحت مشاعر «مِيا» القائمة على الحدس حول كيفية تشكيل لقطاتها أكثر وعيًا. تعلمت كيف تعبِّر بوضوح عن أسبابها لاختيار طولٍ بؤريٍّ للعدسة عند رقم f معين، أن تجد الإعدادات التي لا تجعلها فقط تبدو صحيحة لكن أن تفسر لماذا بدت صحيحة بتلك الطريقة المحددة.

بعد أسبوعين من بدء الفصل الدراسي، فيما بدأ طلاب الصف يصنعون صورهم المطبوعة الأولى، توقفت «بولين» عند موضع وقوف «مِيا» في الغرفة المظلمة. بدت «بولين» في وهج الضوء الأحمر كما لو أنها نُحِتت من ياقوتةٍ عملاقة. سألت:

ـ منذ متى وأنتِ تعملين بالكاميرا ذات مجال الرؤية الواسع؟

وأجابتها «مِيا»، قالت «بولين»:

ـ هل تودِّين أن تُريني مزيدًا من صورك؟

السبت التالي، وجدت «مِيا» نفسها في ردهة شقة «بولين»، قابضةً على مظروفٍ من الصور في يدها بإحكام. للبنايةِ بوَّاب، وارتعبت «مِيا»، التي لم تقابل بوَّابًا من قبل، للغاية، لدرجة أنها لم تسمع حين قال لها أي طابقٍ تقصد، ولجأت إلى ضغط كل زرٍّ في المصعد بالدور وفحص الأسماء على كل باب قبل أن تعود إلى داخل المصعد وتضغط على زر الطابق التالي. حين خرجت أخيرًا إلى الطابق السادس، وجدت «بولين» واقفةً في مدخل الباب المفتوح. قالت:

ـ ها أنتِ ذي، اتصل البواب ليقول إنكِ هنا منذ عشر دقائق مضت. كنت قد بدأتُ أتساءل.

كانت حافية القدمين لكن فيما عدا ذلك بدت تمامًا كما تبدو في الصف: تيشيرتًا أسود وتنورة سوداء طويلة وقرطين طويلين من الخرز يجلجلان مثل الأجراس الموسيقية كلما سارت. تبعتها «مِيا»، المتوردة من الخجل، إلى غرفة كبيرة، بيضاء الجدران، مضاءة بنور الشمس، حيث يبدو أن كل شيءٍ يتوهج. توقعت «مِيا» أن شقة مصوِّرٍ فوتوجرافي سوف تكون مغطَّاةً بالصور الفوتوجرافية، لكن الجدران كانت عارية. فيما بعد سوف تعلم أن استوديو «بولين» في الطابق العلوي، لدرجة أنها لم تعلِّق أي شيءٍ على الإطلاق لأنها، حين لم تكن تعمل، أرادت المساحة البيضاء. «مطهِّرةٌ للحواس»، كما ستوضِّح «بولين». لكن في هذه اللحظة، جلست «مِيا»

ببساطة بجوار «بولين» على الأريكة الرمادية المزغَّبة، حيث بسطتا صورةً تلو صورةٍ عبر طاولة القهوة. كانت «بولين» ممتلئةً بالأسئلة، كما كانت في ذلك اليوم الثاني في الصف: لماذا وضعتِ الكاميرا بهذا المستوى المنخفض في هذه الصورة؟ لماذا قريبة للغاية في تلك الصورة؟ هل فكرتِ في ضبط الإمالة هنا؟ فيمَ كنتِ تفكرين حين أخذتِ هذه اللقطة؟ فقدت «مِيا» خجلها في الصور. كانتا منهمكتينِ للغاية لدرجة أنه حين دخلت امرأةٌ لتضع كوبين من القهوة على المائدة الجانبية، بجوار كلٍّ منهما، قفزت «مِيا».

قالت «بولين» بتلويحة عفوية:

ـ «مال»، «مال»، هذه «مِيا رايت»، إحدى طالباتي.

كانت «مال» رشيقة القوام ذات شعر بُني طويل متموِّج. ارتدت بنطالًا من الجينز وبلوزة خضراء، ومثل «بولين»، كانت حافية القدمين.

قالت «مال»:

ـ ظننتُ أنكِ قد تودِّين بعض القهوة، جميلٌ أن ألقاكِ يا «مِيا».

قبَّلت «مال» «بولين» على الخدِّ ثم ذهبت.

أمضت طوال فترة ما بعد الظهيرة هناك، حتى صار وقت ورديتها في الحانة. ضغطت عليها «بولين» و«مال» كي تبقى للعشاء، حتى اعترفت «مِيا» أخيرًا أنها يجب أن تذهب للعمل. اقترحت «بولين»:

ـ الأسبوع المقبل إذن، حين تحصلين على يوم عطلة.

على مدى الشهور التالية سوف تزور «مِيا» «بولين» و«مال» مرارًا، تأخذ صورًا مع «بولين»، تشاهدها تعمل في الاستوديو الخاص بها، تصغي إلى «بولين» وهي تفكر بصوتٍ عالٍ عمَّا تعمل عليه في ذلك الوقت. ربما تبدأ «بولين» بقولها وهي تقلِّب صفحات كتاب لتفتحه:

ـ كنتُ أقرأ عن مصر القديمة، أخبريني ما رأيكِ في هذا.

على مائدة العشاء، جرَّبت «مِيا» أطعمةً لم تتذوَّقها من قبل: خرشوفًا،

زيتونًا، جبن «برِي» الأبيض الطري. عرفت أن «مال» كانت شاعرة، نشرت عدة مجموعاتٍ شعرية. قالت «مال» بضحكة حزينة:

ـ لكن لا يكترث أحدٌ للشِّعر.

أعارت «مِيا» أكوامًا من الكتب: «إليزابيث بيشوب»، «آن ساكستون»، «آدريان ريتش».

بحلول فصل الشتاء، أحضرت «مِيا» أحدث صورها لتريها لـ«بولين» كل أسبوع تقريبًا، تحدثتا عنها، ضغطت «بولين» على «مِيا» لتتحدث عمَّا فعلته ولماذا. في السابق، كانت «مِيا» تلتقط الصور بالإحساس، معتمدةً على الغريزة لتخبرها ما هو صواب وما هو خطأ. تحدَّت «بولين» «مِيا» لتصبح متعمِّدة، لتخطِّط عملها، لتُدلي ببيانٍ عن كل صورة، بغض النظر عن مدى ما قد تبدو عليه الصورة من الوضوح. سوف تقول «بولين» مرارًا وتكرارًا: «لا شيء يحدث بالصدفة». كان ذلك شعارها المفضل للمساعدة على التأمُّل، كما تعلمت «مِيا»، في كلٍّ من التصوير والحياة الواقعية. في منزل «بولين» و«مال»، لا شيء بسيطًا. بينما في منزل والدي «مِيا»، كانت الأشياء إما حسنةً أو سيئة، صوابًا أو خطأً، مفيدةً أو بلا قيمة. لم يكن هناك شيءٌ بين النقيضين. لكن هنا، لكلِّ شيء فارقٌ دقيقٌ لا يكاد يُدرَك، لكلِّ شيءٍ جانبٌ غير مكشوفٍ أو أعماقٌ غير مكتَشَفة. استحقَّ كل شيءٍ النظر إليه عن قُربٍ أكثر.

بعد هذه الجلسات، سوف تضغط «بولين» و«مال» على «مِيا» كي تبقى للعشاء. عرفتا، في ذلك الحين، بأمر الوظائف الثلاث، وسوف تُلِحُّ «مال» عليها بكمياتٍ إضافية من الطعام، سوف ترسلها إلى المنزل بعلب «تابرْوِير» ممتلئة بما تبقى من الطعام، سوف تعيدها «مِيا» في الزيارة التالية. في الحقيقة، كانتا لتشجعانها للمبيت، للاستقرار في إحدى غرف الضيوف التي لديهما والبقاء إلى الأبد، إذا فكرتْ إحداهما في طريقةٍ لاقتراح ذلك.

لأن «مِيا» كانت معتزة بنفسها، كان ذلك واضحًا: على الرغم من أنها

قبلت الضيافة بامتنان، بعد تلك الزيارة الأولى عقدت العزم على عدم الوصول بيدٍ خالية. أحضرت لهما أشياء صغيرة قامتْ بصُنعها: حزَمًا من أوراق الأشجار جمعتها من منتزه «سنترال بارك» وربطتها بشريط في باقةٍ ورديةٍ داكنةٍ، سلةً في حجم الإبهام منسوجة من العشب، ذات مرة، رسمًا تخطيطيًّا صغيرًا لهما رسمتْه بالحبر، حتى حفنة من الحصى الأبيض الناصع بعد أن ذكرت «بولين» أنها قد بدأتْ مشروعًا جديدًا بالصخور. كان واضحًا لكلٍّ من «بولين» و«مال» أن هذه الهدايا تلطِّف شعور «مِيا» بالذنب تجاه كلِّ ما قدَّمتاه لها ـ طعامهما، معرفتهما، عاطفتهما ـ وإلا فإن كبرياء «مِيا» سوف تمنعها من العودة.

أرادتا بشدة أن تعود. بحلول وقت عيد الميلاد أصبح من الواضح لهم جميعًا ـ «بولين»، «مال»، وأساتذة «مِيا» الآخرين، وزملائها في الصف ـ أن «مِيا» كانت موهوبةً إلى درجةٍ عظيمة.

قال «وارِن» لأخته ذات مساء:

ـ سوف تصبحين مشهورة، تعرفين هذا، أليس كذلك؟

لقد عادت إلى المنزل في عطلة عيد الميلاد، ووفاءً بوعده، أتى ليُقلها من محطة الحافلات في سيارة «فولكس فاجن رابِتْ» صفراء صغيرة اشتراها ذلك الخريف. الآن، بعد أربعة أيامٍ من عيد الميلاد، كان يُعيدها إلى المحطة، من دون مناقشة الأمر اتفقا على سلوك الطريق الأطول، على طول الطرق الخلفية الملتفَّة، لتمديد هذه الدقائق القليلة الأخيرة لهما معًا. أصبح «وارِن» الآن في السنة الثالثة في المدرسة الثانوية، وبدا لـ«مِيا» أنه كبر في الوقت الذي غابته: ليس أطول، لكن شيئًا ما بشأنه صار أكثر عمقًا. خفُتَ صوته وبدأ ينمو ليناسب يديه وأصابعه وقدميه، التي كانت في الأعوام الماضية كبيرةً للغاية بالنسبة له، مثل براثن جرو. في ضوء ما بعد الظهيرة الخابي، بدت اللحية الخفيفة النابتة على عنقه كأنها ظل فحسب، لكنها أدركت طبيعتها.

كلُّ ما قالته:
ـ سوف نرى.
ثم:
ـ وأنت؟ ماذا ستصبح حين تكبر؟
في الروضة، حين سأل الأستاذ هذا السؤال، أجاب «وارِن» بخططه لفترة ما بعد الظهيرة، حيث ما بعد الظهيرة بعيدٌ في المستقبل بقدر ما استطاع عقله ذو الخمس سنوات أن يتخيل. منذ ذلك الحين، صارت «ماذا ستصبح حين تكبر؟» طريقتهما الخاصة في السؤال عن الخطط المرسومة لليوم، وحتى الآن، كما مازحته «مِيا»، لم يبدُ «وارِن» قادرًا قطُّ على التطلع لأكثر من أسبوع أو اثنين إلى الأمام.
قال الآن:
ـ أنا و«تومي فلاهرتي» سنذهب للصيد يوم الجمعة، سنذهب في رحلةٍ أخرى قبل أن تبدأ المدرسة.
رسمت «مِيا» تعبيرًا على وجهها. لم تؤيد قطُّ عملية الصيد، على الرغم من أن الجميع في حيِّهم لديهم رأس غزالٍ أو أثنان معلَّقان في منازلهم. قالت:
ـ سأتصل بك حين أعود.
وقبَّلته على وجنته. صُدمت مرة أخرى بالقدر الذي كبر به، كيف بدا أكثر نحولًا وقوةً وصلابةً ممَّا تذكَّرته. تساءلت إن كانت هناك فتاةٌ في حياته. كيف سيبدو في المرة التالية لعودتها إلى المنزل، فكَّرت، ومتى سوف يكون ذلك؟ الصيف، ربما، إلا إذا حصلتْ على وظيفة لتدَّخر للعام المقبل. كان هناك الكثير لتفعله. بالفعل، تطوَّر عملها في الشهور القليلة منذ أن جاءت إلى نيويورك: نتيجة وقتها مع «بولين»، ونتيجة دراستها لعمل زملاء صفِّها، وحتى نتيجة الساعات الطويلة التي تقضيها في وظائفها العديدة والتبدُّل المستمر للغرباء الذين تصادفهم هناك. أصبحت أذكى وأكثر ترويًا، أفضل تقدمًا من الناحية التقنية وأشد إقدامًا، ومخاطرةً، وتوترًا، وكان الجميع ـ بمن فيهم

«مِيا» نفسها، و«وارِن»، يلوِّحون لها من خلال نافذة قبل أن يميلوا لغلقها ـ متأكدين أنها ستذهب بعيدًا. لا شيء سوف يلهيها عن عملها، كما وعدت نفسها. كان العمل الأمر الوحيد الذي يهم. لن تسمح لنفسها بالتفكير في أي أمر آخر.

ركَّزت «مِيا» في عملها بشدة لدرجة أنها، بعد الظهيرة في مارس حين بدأ الرجل ذو الحقيبة يحدق بها، لم تلاحظ على الفور. كان الوقت منتصف ما بعد الظهيرة حين وصلت إلى شارع هاوستون، متوجهةً إلى عملها قرب جامعة «كولومبيا»، وكان القطار رقم ١ هادئًا، مع وجود بضعة ركاب. فكرت «مِيا» في مشروعها من أجل «بولين» ـ **توثيق التحوُّل عبر الزمن** ـ حين شعرت بالحكَّة المفاجئة في جلدها ممَّا يعني أنها كانت مُراقَبة. اعتادت «مِيا» على النظرات المحدِّقة ـ كانت هذه نيويورك، على كل حال ـ ومثل جميع النساء تعلمت أن تتجاهل النظرات المحدِّقة، كما تعلمت تجاهل أصوات الصفير التي تصاحبها أحيانًا. لكنها لم تستطع أن تفهم هذا الرجل تمامًا. بدا محترمًا بما يكفي: بذلة مخططة أنيقة، شعرٌ داكن، حقيبة أوراقه بين قدميه. وول ستريت، كما خمَّنتْ. النظرة في عينيه لم تكن شبقًا، ولا حتى عبثًا. كانت شيئًا آخر ـ مزيجًا غريبًا من التقدير والجوع ـ وأربكها ذلك. بعد توقُّف القطار ثلاث مرات، حين لم يتوقف الرجل عن التحديق، حزمت أشياءها وترجَّلت عند ميدان «كولومبوس».

في البداية اعتقدت أنها أفلتت منه. ابتعد القطار واستقرت على مقعدٍ طويل متَّسخ لانتظار القطار التالي وحينها، فيما خلت المحطة من الركاب القلائل، رأته مرةً أخرى: حقيبة الأوراق في اليد الآن، يتفحص رصيف المحطة. يبحث عنها، كانت متأكدة. قبل أن يحدد مكانها استدارت واتجهت نحو السلَّم في النهاية البعيدة لرصيف المحطة واتَّبعت النفق، تسير مسرعة قدر استطاعتها من دون أن تجذب الانتباه،

إلى رصيف القطار «سي». سوف تتأخر على العمل الآن، لكن لا يهم. سوف تنزل بعد محطة توقُّفٍ أو محطتين وتسير إلى برودواي وتلحق القطار الصحيح، فور ابتعادها، حتى لو عنى الأمر دفع تعريفة ركوب أخرى. حين جاء القطار «سي»، خطتْ «مِيا» إلى داخل عربةٍ وسطى ومسحت المقاعد بعينيها. كانت العربة نصف ممتلئة، ما يكفي من الناس الذين بإمكانها استصراخهم للمساعدة إذا احتاجت، لكن ليست ممتلئة لدرجة أن الزحام سيخفي أي شيء غير مرغوب في وقوعه. استقرت في مقعدٍ خالٍ في المنتصف. عند الشارع الثاني والسبعين لم يكن هناك أثرٌ له. لكن عند الشارع الحادي والثمانين، بمجرد أن نهضت «مِيا» لتغادر، فُتح الباب في نهاية العربة ودخل الرجل ذو الحقيبة. صار أشعث قليلًا الآن، سقطت عدة خصلات من شعره على وجهه، كما لو أنه كان يسرع عبر العربات بحثًا عنها. التقت عيناها بعينيه ولم يعد هناك مجالٌ للتظاهر بأنها لم تره. سُرِقتْ زميلة «مِيا» في السكن مرتين أثناء سيرها إلى المنزل في وقتٍ متأخرٍ ليلًا، وأخبرتْها زميلتها في الصف «بيكا» أن رجلًا جذبها إلى زقاق في شارع كريستوفر من شعرها المصفف على شكل ذيل حصان، نجحت في مقاومته لكنه انتزع خصلة من شعرها. لقد رأت «مِيا» البقعة الصلعاء. أيًّا كان ما سيحدث الآن سيحدث الآن، سواء بقيت على القطار أم ترجلت منه.

ترجلت من القطار وتبعها، وحين أُغلِقت الأبواب وقفا متجمدين على رصيف المحطة للحظة. لم ترَ هناك قاطع تذاكر أو رجل شرطة، فقط امرأة عجوز بعكاز تمشي ببطء نحو السلَّم، ومتشردٌ نائمٌ يرتدي حذاءً رياضيًّا باليًا عند النهاية البعيدة لرصيف المحطة. فكرت أنها إذا ركضت، ربما وصلت إلى السلَّم قبل أن يمسك بها.

قال الرجل قبل أن يبدأ القطار في الابتعاد:

ـ انتظري، أودُّ فقط أن أتحدث إليكِ، أرجوكِ.

توقف ورفع يديه. بوسعها الآن أن ترى أنه أصغر سنًّا مما ظنت، ربما في الثلاثينيات من عمره وحسب، وأكثر نحولًا، أيضًا. بوسعها أن ترى أن بذلته كانت غالية، خيوطًا فضية رقيقة تسري عبر الصوف، وكذلك حذاءه: «كوردوفان» من جلد الفرس بشُرَّابات ونعلين جلديين مصقولين. ليس حذاء رجلٍ يركض.

تابع الرجل:

ـ أرجوكِ، أعتذر لأنني لحقتُ بكِ. أعتذر لأنني كنتُ أحدِّق بكِ. لا بد أنكِ ظننتِ...

هز رأسه:

ـ لا أحب أن تستقل زوجتي قطار الأنفاق لأنني أقلق أن يلاحقها أحدٌ بمثل هذه الطريقة.

تكلمت «مِيا» بصوتٍ أجش:

ـ ماذا تريد؟

لم تدرك كم كان حلقها جافًّا. خلف ظهرها، ضيَّقتْ قبضتها على مفاتيحها، صوَّبت أسنَّتها إلى الخارج. إنها لا تبدو شيئًا ذا بال، لكنها سوف تؤلم، كما أخبرتْها «بيكا».

قال الرجل:

ـ دعيني أشرح، سوف أقف هنا. لن أقترب أكثر. فقط أحتاج أن أتحدث إليكِ.

أنزل حقيبته عند قدميه، بينهما، واسترخت «مِيا» بقدرٍ متناهي الصغر، إذا حاول أن يقفز باتجاهها الآن، سوف يتعثر في الحقيبة.

اسمه «جوزيف رايان» ـ «جُوِي»، كما صحح لنفسه ـ وعمِل، كما خمَّنت، في وول ستريت: تلا سريعًا سلسلةً من الأسماء التي تعرفت عليها بوصفها إحدى مؤسسات الأعمال التجارية الكبرى. عاش هو وزوجته على طريق «ريفر سايد درايف»، كان متوجهًا إلى المنزل الآن، إنهما متزوجان لمدة

تسعة أعوام، التقيا وصارا حبيبين في المدرسة الثانوية، لمْ يُنجبا أي أطفال.
شرح «جوزيف رايان»:
ـ لا نستطيع.. لا تستطيع إنجاب أطفال، و...
صمت ونظر إلى «مِيا» متوسِّلًا، مرَّر يده خلال شعره وأخذ نفسًا عميقًا، بهيئة رجلٍ يعرف أنه على وشك أن يتلفظ بشيءٍ منافٍ للعقل:
ـ لقد كنا نبحث عن شخصٍ ما يحمل طفلًا من أجلنا. الشخص المناسب.
ثم:
ـ سوف ندفع لها. بسخاء.
دار رأس «مِيا». حفرت أسنَّة مفاتيحها في باطن يدها، ليس بغرض الحماية الآن، لكن لتقنع نفسها أن ما سمعتْه كان حقيقيًّا. تمكنت أخيرًا من قول:
ـ هل تريد.. لماذا أنا؟
بحث «جوزيف رايان» في جيبه وأخرج بطاقة عمل، وبعد ترددٍ قصير، أخذت «مِيا» خطوةً واحدة إلى الأمام ومدَّتْ ذراعها لتأخذها:
ـ أرجوكِ، هلَّا أتيتِ فقط للحديث معنا؟ غدًا؟ على الغداء؟ على حسابنا، بالطبع.
هزت «مِيا» رأسها، قالت:
ـ عليَّ أن أعمل، لا أستطيع...
ـ العشاء إذن، بوسعي وزوجتي أن نشرح لكِ كل شيء. انظري، مطعم «فور سيزونز». الساعة السابعة؟ على الأقل، أعدكِ أن تحصلي على وجبة طيبة.
أمال رأسه كتلميذٍ خجول والتقط حقيبته، قال:
ـ إذا لم تأتِ، سوف أتفهَّم، لا أستطيع أن أتخيل.. أن يقترح أحدٌ ما هذا عليكِ. على رصيف محطة قطار الأنفاق.
هز رأسه، قال:

ـ لكن أرجوكِ، فقط فكري في الأمر. سوف تساعدينا كثيرًا. سوف تغيرين حياتنا.

ثم استدار مبتعدًا وذهب إلى أعلى السلَّم، تاركًا «مِيا» واقفةً على رصيف المحطة، ممسكةً بالبطاقة بين أناملها.

* * *

تساءلت «مِيا» لبقية حياتها كيف كانت حياتها لتصبح إذا لم تذهب إلى المطعم ذلك اليوم. في وقتٍ ما بدا الأمر كما لو أنه لهو: مجرد طريقة لإشباع فضولها، بالإضافة إلى الحصول على وجبة طيبة. لاحقًا، بالطبع، سوف تدرك أن الأمر غيَّر كل شيءٍ إلى الأبد.

ذلك المساء خطتْ من الشارع الثاني والخمسين إلى ردهة مطعم «فور سيزونز»، مرتدية الثوب الأنيق الوحيد الذي تملكه: الثوب الذي ارتدتْه في زفاف ابنة عمها «ديبي» العام الماضي. لقد نمت منذ ذلك الحين، لذلك كان الثوب قصيرًا للغاية وضيقًا للغاية، وحتى إذا كان مناسبًا فإنه مختلفٌ للغاية عن طراز هذه الردهة الفخمة، بثُريَّاها الضخمة وسجادها الكثيف وغابتها من نباتات الأُصص. حتى الهواء بدا غنيًّا وسميكًا هنا، مثل المخمل، يبتلع طقطقات كعوب السيدات وثرثرات الرجال ذوي البذلات، لذا تمرُّ بصمت سفُنٍ مُنسابة. لم يخبرها «جوزيف رايان» أين تلقاه، لذا وقفت وقفة خرقاء عند أحد الجوانب، تتظاهر بالإعجاب بإحدى اللوحات التي تغطي جدران الردهة الضخمة، محاولةً تجنب لفت انتباه المسؤول عن المطعم، الذي يحوم حول مدخل قاعة الطعام مثل شبحٍ جزِع.

فكرت: خمس دقائق، وإذا لم يحضرا، سوف تذهب إلى المنزل. نسيَت أن ترتدي ساعة، لذا بدأت في العدِّ ببطء، كما كانت تفعل هي و«وارِن» وهما طفلان يلعبان الغميضة. سوف تعد حتى ثلاثمائة، ثم ستعود إلى المنزل وتنسى أن هذا الشيء المجنون قد حدث على الإطلاق. وحينها، بمجرد أن وصلت إلى مائة وثمانية وتسعين، ظهر «جوزيف رايان» عند مرفقها،

مثل نادل، قال:

ـ «بيكاسو»...

ـ ماذا؟

ـ لوحة منسوجة.

هنا في الردهة بدا خجولًا إلى حدٍّ ما، وكادت تنسى التهديد الذي شعرت به في اليوم السابق. تابع:

ـ حسنًا، ليست لوحة منسوجة بالضبط، أعتقد. لقد رسمها على ستارة. طلبوا منه لوحة، لكن لم يكن لديه الوقت ليرسم واحدة، لذا أعطاهم هذه في المقابل. دائمًا ما أُعجبتُ بها.

قالت «مِيا»:

ـ ظننتُ أنك ستحضر زوجتك.

ـ إنها عند الطاولة.

تحرك كما لو كان سيأخذ ذراعها، ثم جاءته فكرة أفضل ووضع يديه في جيبي سترته بدلًا من ذلك. كان الوضع هزليًّا تقريبًا، رجولته النبيلة، هكذا فكرت وهي تتبعه عبر الرواق.

قاعة بيضاء ضخمة ـ طرفتْ بعينيها ـ بركة خضراء بلون حجر اليَشَم الكريم في المركز. أشجارٌ بالداخل، مرصَّعةٌ بزهرٍ وردي، ومتألقةٌ بالأضواء. مثل جِنِّية غابة مخبأة في مركز مبنى إداريٍّ في نيويورك. كل شيء يدور حول الهمهمة الناعمة للأحاديث. شبكة من سلاسل رقيقة متشابكة تغطي النافذة، تتموَّج على الرغم من عدم وجود نسيم. ومن ثم حدث الشيء الغريب. بينما دخلا إلى قاعة الطعام وتقدَّم «جوزيف رايان» من الطاولة في الركن، رأتْ «مِيا» نفسها على نحوٍ ما تجلس إلى الطاولة، في ثوبٍ أنيق أزرق، كأس كوكتيل في يدها. ظنت «مِيا» للحظة أنها تتقدم من مرآة، وتوقَّفت، مرتبكة. ومن ثم نهضت المرأة التي تجلس إلى المنضدة ومدت يدها لتأخذ يد «مِيا».

قالت:

ـ أنا «مادلين».

وشعرت «مِيا» بالإحساس العجيب، فيما التقت يداهما، الناتج عن لمس انعكاس صورتها في بِركة.

* ** *

امتدت بقية الأمسية كما لو أنها حلمٌ من نوعٍ ما. كلما نظرت إلى «مادلين رايان» رأتْ نفسها، لم يتشاركا الشعر الداكن المجعد والملامح المتشابهة فحسب لكن بعضًا من السلوكيات المميزة: الميل نفسه لعض شفتيهما السفليَّتين، عادة جذب إحدى خصلات الشعر المجعدة لأسفل من دون وعي، مثل زنبرك، حتى شحمتَي أذنيهما ثم تركها ترتدُّ عائدةً إلى أعلى. لم تكونا متماثلتين ـ ذقن «مادلين» كان مدبَّبًا أكثر، أنفها أنحف قليلًا، صوتها أعمق، أغنى، تقريبًا أجش ـ لكنهما بدتا متشابهتين لدرجة أنه يمكن اعتبارهما أختين بالخطأ. في وقتٍ متأخرٍ تلك الليلة، بعدما أوصلتها سيارة الأجرة التي استدعاها الزوجان «رايان» إلى المنزل بوقتٍ طِويل، بقيت «مِيا» مستيقظة، تفكر مليًّا في كل ما سمعت.

كيف أن «مادلين» في عمر السابعة عشرة، لم تأتها الدورة الشهرية، وكيف فحصها الطبيب في ذلك الحين واكتشف أنها لا تملك رحِمًا. واحدةٌ من بين خمسة آلاف امرأة، كما شرحت «مادلين»، كان للحالة اسم ألماني طويل، «متلازمة «ماير»» مُلحق به شيءٌ ما، وهو اسمٌ لم تلتقطه «مِيا» كاملًا. كيف أن الوسيلة الوحيدة بالنسبة لهما لإنجاب طفل هي الأم البديلة. كان هذا عام ١٩٨١، ومنذ ثلاثة أعوام هلَّلت عناوين الصحف لمجيء «لويز براون»، أول طفلة أنابيب في العالم، لكن احتمالات نجاح مثل هذا الميلاد كانت لا تزال ضعيفة، ومعظم الناس ما زالوا يرون تخمير الأطفال في صحن «بيتري» باعتباره أمرًا مريبًا. قالت «مادلين»، وهي تدير ساق كأس النبيذ بين أناملها البديعة:

ـ ليس من أجلنا، لا نريد أطفال «فرانكنشتاين»، لا شكرًا.

بدلًا من ذلك، قرر الزوجان «رايان» أن يتَّبِعا طريقةً قديمة الطراز، قديمة، كما أشار «جوزيف»، قِدَم الإنجيل. حيوانٌ منويٌّ من الأب، وبويضة من ـ وتُحمل بواسطة ـ أُمٍّ بدتْ نظيرًا مناسبًا. لقد أعلنا لمدة شهور ـ على نطاق ضيق، كما أضافتْ «مادلين» ـ عن أنهما يبحثان عن أمٍّ بديلة بالخصائص المناسبة، ولم يجدا واحدة. ومن ثمَّ وقعت عينا «جوزيف رايان»، مستقلًّا قطار الأنفاق بعد اجتماع على الغداء، على وجهٍ مألوف على نحوٍ مخيف في الطرف الآخر من العربة، وشعر أن الأمر كان مقدرًا.

قال:

ـ رأينا الأمر، كما لو أنه فرصةٌ لنا لنقدِّم لأحدنا الآخر بعض النَّفع المتبادَل.

نظر هو و«مادلين» لبعضهما البعض، ومنحته «مادلين» أقل إيماءةٍ بالرأس، واعتدل كلاهما قليلًا في جلسته والتفتا إلى «مِيا»، التي أخفضت شوكتها.

قالت «مادلين»:

ـ لا تعتقدي أننا نخوض ذلك الأمر باستخفاف، لقد فكرنا لفترة طويلة.

ولقد كنا نبحث عن المرأة المناسبة تمامًا.

أمالتْ دورق الماء وأعادت ملء كأس «مِيا»:

ـ نظن أن هذه المرأة هي أنتِ.

أجرت «مِيا» الحسابات في غرفتها الآن. عشرة آلاف دولار، عرضاها لتحمل طفلًا مُعافى لهما. قالا لها ذلك كما لو أنهما يحددان شروطًا لعرض وظيفة، يرسمان باقة المزايا بأكثر الطرق جاذبية. أضاف «جوزيف»:

ـ وبالطبع سوف ندفع جميع مصروفاتك الطبية.

عند نهاية العشاء، دفع «جوزيف» عبر المائدة ورقة مطوية. قال:

ـ رقم هاتف منزلنا، فكري في الأمر مليًّا. سوف نصوغ عقدًا من أجلك لتفحصيه. نأمل أن تتصلي بنا.

كان قد دفع الفاتورة بالفعل، التي لم ترها «مِيا» لكنها عرفت أنها لا بد

أن تكون مرتفعةً ارتفاعًا مرعبًا: لقد تناولوا المحار والنبيذ، وأعدَّ رجلٌ يرتدي بذلة «تاكسيدو» لحمًا بصوص التارتار عند مائدتهم، طاويًا الصفار الذهبي ببراعة داخل اللحم الأحمر الياقوتي. طلب «جوزيف» سيارة أجرة لـ«مِيا»، قال مرة أخرى:

ـ نأمل أن تتصلي بنا.

خلفه، خلف النافذة الزجاجية للردهة، أغلقت «مادلين» زر ياقة الفراء لمعطفها. فقط بعد أن أغلق «جوزيف» الباب، ومضت سيارة الأجرة في طريقها إلى وسط المدينة إلى شقة «مِيا» المكتظة، فتحت الورقة المطوية لترى الرقم المذهل مرة أخرى: ١٠٠٠٠ **دولار**. وأسفله، كلمة واحدة: **أرجوكِ**.

في الصباح التالي، ظنت أنه حلمٌ غريب حتى رأت أن الورقة المكرمشة ما زالت على طاولة زينتها. جنون، هكذا فكرت. رحمها ليس شقةً للإيجار. يمكنها بالكاد تخيُّل إنجاب طفل، ناهيك عن التخلي عنه. في ضوء الصباح الرمادي والقوي كالفولاذ، بدت الأمسية الماضية الآن مثل حلم طفولي. هزَّت رأسها، ألقت الملاحظة في درج طاولة زينتها، جذبت زيَّها من أجل العمل.

ثم، بعد عدة أسابيع، علمت «مِيا» أن منحتها الدراسية لن تُجدَّد. فتحت «بولين» و«مال» الباب ومن دون كلام ناولتهما رسالة، مشقوقةً بخشونة لفتحها بإحدى الأصابع.

> الآنسة «رايت» العزيزة: نثقُ في أنكِ قد استفدتِ من عامكِ الأول في كلية نيويورك للفنون الجميلة. على أي حال، نأسف لإبلاغك أنه نظرًا لقيود التمويل، نحن غير قادرين على استمرار مساعدتك المالية للعام الأكاديمي ١٩٨١-١٩٨٢. نأمل بالطبع أنكِ على الرغم من ذلك سوف تستمرين في دراستكِ معنا في العام المقبل و...

قالت «بولين»، ملقيةً الرسالة على طاولة القهوة:
ـ إنهم أغبياء. ليست لديهم فكرة عمَّا يهدرونه.
قالت «مال»:
ـ إنها الولاية.
استعادت الرسالة وأعادتْها إلى داخل مظروفها:
ـ يخفضون التمويل حتى تتمكن الكلية من تغطية المزيد، ويعاني المستفيدون من المِنح الدراسية.
قالت «مِيا»:
ـ الأمر ليس مهمًّا. سوف أحصل على وظيفة أخرى. سوف أدَّخر على مدار الصيف.
على أي حال، فيما استقلت المصعد إلى الطابق السفلي، أراحتْ رأسها في مواجهة جدار المرآة وكبحت دموعًا. ليس بوسعها أخذ ساعاتٍ أكثر من التي تعملها بالفعل وإلا لن يصبح لديها وقتٌ لصفوفها، وكما هي الحال، كانت تغطي نفقاتها بالكاد. إذا عملت بدوامٍ كامل طوال الصيف... أجرتْ حساباتها الذهنية مرة أخرى. إذا لم تجد وظيفةً تدفع ضعف الأجر، لن يمكنها تحمل تكلفة البقاء.
ـ هل أنتِ بخير يا آنسة؟
فُتِح باب المصعد وها هي قد عادت إلى الردهة، البوَّاب اللطيف ينظر إليها من خلال نظارته. خلفه سجادة بلون النبيذ مبسوطة طوال الطريق حتى الأبواب الزجاجية السميكة التي تعزل «فيفث آفينيو» في الخارج. كانت الردهة هادئة مثل مكتبة، لكن خلف هذه الأبواب، عرفت أن هناك أرصفة أسمنتية متصدِّعة وعجلة وصخب مدينةٍ لا ترحم.
قالت:
ـ بخير.
عرفا بعضهما البعض قليلًا الآن، كما يفعل الناس في نيويورك غالبًا:

اسمه «مارتن» ونشأ في حي كوينز ويشجع فريق «مِتس» ـ وليس «يانكيز»، كما أخبرها، لم يشجع «يانكيز» قطُّ ـ ولديه كلبة «داشهند» في المنزل اسمها «روزي». من طرفه، عرف «مارتن» اسم «مِيا» وأنها تحت حماية السيدتين الفنانتين بالأعلى ـ كما يشير بولع إلى «بولين» و«مال» ـ وعلى الرغم من أن «مِيا» أخبرتْه القليل عن حياتها، تكهَّنتْ عينه المتمرسة بالكثير من الكاميرا المستعملة المعلَّقة حول عنقها، والزي الأبيض والأسود الذي ارتدته مرارًا، وحاويات الطعام التي عادةً ما حملتْها إلى المنزل تحت إصرار «مال». قاوم الرغبة المُلحة في التربيت على كتفها ودفع الباب الأمامي ليفتحه بيدٍ واحدة مكسوَّة بقفَّاز.

قال:

ـ ليلةً سعيدة.

وخطتْ «مِيا» إلى «فيفث آفينيو» وتركت المدينة تبتلعها.

١٤

لم تستشِر «مِيا» والديها، أو زميلتيها في السكن، أو حتى «بولين» و«مال». بالنظر إلى الوراء، سوف تدرك أن هذا كان إثباتًا على أنها اتخذتْ قرارها بالفعل. في اليوم التالي لتلقِّي الرسالة من الكلية، طرحت «مِيا» موضوع إمكانية زيادة الأجر على مدير المطعم الصغير. قال لها:

ـ أتمنى لو أمكنني يا حلوتي، لكني لا أستطيع أن أدفع لكن المزيد يا فتيات من دون زيادة الأسعار وخسارة الزبائن.

قال مدير متجر «دِكْ بلِك» الكلام نفسه، وبعد ذلك لم تكلف نفسها حتى بسؤال مالك الحانة. لمدة أسبوع، تملَّصتْ من دعوات «بولين» المتكررة للقدوم إلى العشاء، سوف تشعر «مال»، و«بولين» أيضًا، بما يشغل «مِيا» على الفور. أرسلتْ «مِيا» ملاحظة إلى شقتهما بدلًا من زيارتها المعتادة يوم الأحد، زاعمةً أنها مصابةٌ ببردٍ في المعدة وعليها أن تبقى في المنزل. لمدة أسبوعٍ لم تفكر إلا في مصروفاتها الدراسية، والزوجين «رايان». أفسدت بكرة فيلم كاملة بسحبها خارج العلبة والنور مُضاء، شيءٌ لم تفعله من قبل. أسقطت طبق بيض على العشاء، شقت إصبعها على حافة الطبق المكسورة المسنَّنة، شاهدت سيل الدم يتقطَّر على الخزف الأبيض. مرارًا وتكرارًا طوال اليوم مررت يدها عبر مسطَّح بطنها المنبسط، كما لو أنها قد تجد شيئًا بداخله بوسعه أن يمنحها وضوح الرؤية.

ذات يوم بعد الظهيرة، في فترة راحة من العمل، جذبت بطاقة عمل «جوزيف رايان» ـ تلك التي أعطاها لها في ذلك اليوم الأول ـ من جيبها وتوجهت إلى قطار الأنفاق. ربما كان رجلًا نصَّابًا. كيف تعرف أن هذين الزوجين «رايان» سوف يدفعان ما وعداها به. كيف تعرف حتى أن اسمهما «رايان»؟ لكن في الواقع، قادها العنوان المدوَّن في البطاقة إلى مبنى ««ديكمان» و«ستراوس» و«تانر»» الزجاجيِّ البرَّاق في وول ستريت. ترددت «مِيا» خارج الردهة الزجاجية لعدة دقائق، مشاهدةً انعكاس صور الناس على الرصيف ينسابون فوق ظلال الناس بالداخل ويتجاوزونها. ثم دفعت الباب الدوَّار ثم إلى صف كبائن الهواتف التي حددت الردهة. ألْقمت الشقَّ عشرة سنتات وطلبت الرقم المدوَّن على البطاقة. خلال لحظة أتاها صوتٌ أنثويٌّ.

قالت المرأة:

ـ «ديكمان» و«ستراوس» و«تانر»، مكتب «جوزيف رايان». هل بإمكاني مساعدتك؟

أغلقت «مِيا» الخط ورفعت دليل الهاتف. وجدت ستة أشخاص مسجلين باسم «جوزيف رايان» في «مانهاتن»، لكن ما مِنْ أحدٍ منهم في «ريفر سايد درايف». تركت الدليل يتأرجح عائدًا على سلسلته وبحثت في جيبها عن عشرة سنتاتٍ أخرى. هذه المرة اتصلت بموظفة الدليل، التي زوَّدتْها بعنوان. كان هذا الوقت الذي أوشكتْ فيه ورديتها في الحانة على البدء، لكنها استقلت القطار شمالًا على أي حال، ووجدت نفسها خارج مبنى من الطوب الأحمر من زمن ما قبل الحرب بسقيفةٍ سوداء وبوَّاب. أيًّا كان من يعيش هنا بوسعه بالتأكيد دفع عشرة آلاف دولار مقابل طفل.

بعد ظهيرة اليوم التالي، حين خرجت «مادلين رايان» من المبنى، تبِعتْها «مِيا». اقتفت أثرها لمدة ساعة: طوال الطريق حتى الشارع السادس والثمانين وحول الحي ثم العودة مرة أخرى، لاحظت كيف أومأتْ

«مادلين رايان» للبوَّاب فيما جذب الباب ليفتحه لها، وكيف توقفت على الرصيف، ملتفتةً إلى الخلف لتقول شيئًا جعل البواب يبتسم، مربِّتةً برفق على معصمه قبل أن تمضي في طريقها. لاحظت كيف أبطأت «مادلين» حين مرت بجوار نساء يدفعن عربات أطفال، وكيف ابتسمت للأطفال في تلك العربات، سواء كانوا مبتهجين أو نكدين أو نائمين. كيف ابتسمت وقالت «مرحبًا» للنساء، سألت عن أحوالهن، علَّقتْ على الطقس، على الرغم من ـ كما بوسع «مِيا» أن ترى ـ الجوع العميق في عينيها. أسرعت لتفتح الأبواب لهؤلاء النساء، حتى المربيات اللاتي يدفعن أطفالًا فاتحي البشرة من الواضح أنهم ليسوا أطفالهن، تمسك الباب ليظل مفتوحًا حتى تصبح المرأة والطفل بسلام داخل محل البقالة أو المقهى أو المخبز قبل أن تترك الباب يتأرجح ببطء لينغلق وراءهما بنظرةٍ توَّاقة، حزينةٍ تقريبًا. حين تطقطق أمٌّ ـ مسرعةٌ، على كعبين ـ بجوار «مادلين»، تلتقط «مادلين رايان» لهَّايةَ طفلٍ أُلقيَتْ من العربة وتسابق خلفهما حتى تناولهما إياها. لم يسبق لـ«مِيا» أن لاحظت من قبل العدد الكبير من الأطفال: كانوا في كل مكان، تعجُّ المدينة بهم، تغصُّ الشوارع بخصوبةٍ لا تعرف الخجل، وشعرت بغصةٍ عميقة من الشفقة من أجل «مادلين رايان». توقفت «مادلين رايان» عند كشك زهور، اشترت حزمة من نبات «الفاوانيا» ملفوفة في منديلٍ أخضر. ما زالت البراعم متكوِّرةً في قبضاتٍ صلبة مشدودة. انطلقتْ باتجاه المنزل، وتركتْها «مِيا» تذهب.

في النهاية، قالت لنفسها إن الحسابات هي التي قرَّرت. عرْض الزوجين «رايان» كان كافيًا لتدفع مصروفات ثلاثة فصول دراسية في الكلية. وسوف يشتري لها الوقت لتكسب ما يكفي من المال لتدفع الباقي. إن قامت بالمطلوب، ستستطيع الاستمرار. إذا لم تفعل، لن تستطيع. بصياغة المسألة على هذا النحو، بدا الاختيار واضحًا. وسوف تقوم بعملٍ صالحٍ من أجلهما. كانا شخصين عطوفين ومخلصين، بوسعها أن ترى ذلك.

فكرت كم يرغَبان بشدة في أن يصبح لديهما طفل. بوسعها أن تساعدهما. سوف تساعدهما. كرَّرت هذا لنفسها، مرارًا وتكرارًا، ثم رفعت السماعة لتطلب رقمهما.

* * *

بعد ثلاثة أسابيع، كانت تغادر عيادة إخصائي توليد بخطابٍ يشهد لها بالصحة الجيدة، خلوها من الأمراض المُعدية، وتكوينها التشريحيِّ السليم. مزح الإخصائي وهي تسحب قدميها من الرِّكابين على منضدة الفحص:

ـ وركان ممتازان لولادة طفل، كل شيءٍ يبدو جيدًا بالداخل. إذا أردتِ أن تحمَلي، فلن تواجهكِ أي متاعب.

بعد أسبوعٍ من ذلك، قدمت طلبًا للحصول على إجازة غياب من الكلية لمدة عام. ومن ثمَّ، بمجرد أن بدأ شهر أبريل وأوشكت الدراسة على الانتهاء، وجدت نفسها في غرفة الضيوف في شقة الزوجين «رايان» الأنيقة. اشترت لها «مادلين» رداءً ورديًّا من قماش «التيري». قالت وهي تضعه على الفراش مع خُفَّين منزليَّين:

ـ قطنٌ تركي، أردنا أن نتأكد أنكِ تشعرين بالراحة.

رُتِّب الفراش بملاءة بيضاء ناصعة، كما لو أن «مِيا» ضيفة عزيزة باقية لعدة أيام. بوسعها أن ترى الشمس تلمع على نهر هدسون بالخارج. عبر الردهة، عرفت أن «جوزيف» سوف يكون مشغولًا في غرفة نوم الزوجين «رايان»، يستعد.

كانت هناك طرقة ناعمة على الباب، وأحكمت «مِيا» جذب الرداء حول نفسها. ملابسها مطوية بترتيب على مقعدٍ بذراعين في الركن. طرقت «مادلين» مرة أخرى، ثم فتحت الباب.

سألت:

ـ هل أنتِ جاهزة؟

في يديها صينية إفطار خشبية معها فنجان شاي مُغطًّى ومِحقن يُستخدم

لسقْي الديك الرومي بالعصارة له مضخة صفراء فاقعة. وضعتْها على المنضدة الجانبية للفراش، ثم ـ بارتباك ـ ركعت ووضعت ذراعيها حول «مِيا». همست:

ـ شكرًا لكِ.

حين ذهبت «مادلين»، أخذت «مِيا» نفسًا عميقًا. هل كانت متأكدة؟ رفعت مِحقن الديك الرومي من الصينية: كان دافئًا، لا بد أن «مادلين» غسلته بماء ساخن لتزيل البرودة، كما أدركت «مِيا»، وملأت هذه اللفتة الصغيرة الكريمة عينيها بالدموع. رفعت الغطاء من على الفنجان، أرخت الحزام على رداء الاستحمام الذي ترتديه، واستلقت على الفراش.

بعد نصف ساعة ـ وضَّحت لها «مادلين»: «لا بد أن تبقي ساقيكِ مرتفعتين لعشرين دقيقة على الأقل، لزيادة فرص حدوث الإخصاب» ـ خرجت «مِيا» من غرفة الضيوف لتجد «مادلين» و«جوزيف» في غرفة المعيشة، ممسكَين بيدي بعضهما البعض. كانت قد ارتدت ملابسها، لكن فيما رفعا بصريهما إليها في وقتٍ واحد ـ عيونهما مفتوحة على اتساعها، مثل الأطفال المتوترين ـ راودها شعورٌ مفاجئ بأنها عارية.

قالت:

ـ تم الأمر.

وربَّتت على خصر بنطالها الجينز.

نهضت «مادلين» من على الأريكة في حركة رشيقة وشبكت يد «مِيا» في يدها. قالت:

ـ لا يمكننا أن نشكركِ بما يكفي، نأمل أن يتحقق الأمر.

وضعت كلتا راحتيها على بطن «مِيا»، كما لو أنها تقدم البركة، توترت عضلات «مِيا» وتصلَّبت.

قالت «مادلين»:

ـ سوف أستدعي السيارة، «جُوِي» يمكنه أن يُقلكِ إلى المنزل.

ثم:
ـ بالطبع نعرف أن الأمر سيتطلب عدة محاولات. سوف يتطلب الأمر مثابرة، بالنسبة لنا جميعًا. سنراكِ مجدَّدًا بعد غدٍ؟

فكرت «مِيا» في الصينية التي لا تزال موضوعةً في غرفة الضيوف، في «مادلين» وهي تغسل المحقن والكوب في حوض المطبخ، تعدهما للاستخدام المقبل.

قالت «مِيا»:

ـ بالطبع، بالطبع.

التزمت الهدوء طوال الرحلة العائدة إلى حي جرينتش، بينما ثرثر «جوزيف رايان» عن كيفية لقائه بـ«مادلين»، وأين نشأ، والأمور التي خططاها لطفلهما.

أصبح هذا هو الروتين طوال الصيف. أعطاها إخصائي التوليد رسمًا بيانيًّا لترصد عليه أشد فترات خصوبتها، وخلال ذلك الأسبوع، سوف تزور الزوجين «رايان» يومًا بعد يوم. ثم في الأسبوع التالي، سوف تنتظر، تفحص جسدها بحثًا عن علامة. كل مرة تُصاب بآلام الظهر، نوبات صداع، تقلصات، ثم ـ بالطبع ـ ما مِن طفل.

قالت «مادلين» فيما يشرف يوليو على الانتهاء:

ـ سوف يتطلب الأمر بعض الوقت.

لأربعة شهور الآن، ما مِن حظ.

ـ لقد عرفنا هذا دائمًا. لا يحدث الحمل على الفور.

لكن «مِيا» كانت قلقة. وفقًا للعقد الذي وقعوه، كان الزوجان «رايان» حُرَّين في إلغاء الاتفاق بعد ستة شهور إذا لم يحدث حمل. احتفظت بوظائفها في المطعم الصغير والحانة ومتجر الفنون، وتملصت من أسئلة زملائها الطلاب، العائدين من إجازات الصيف، يشترون مستلزماتهم للفصل الدراسي الجديد، يتساءلون لماذا لم تعد للدراسة. قالت:

ـ أؤجل الدراسة لمدة عام للحصول على المال.

وهو ما كان جوابًا صحيحًا، وهو ما قالته لـ«بولين» و«مال» حين لمَّحتا، بلباقة، إلى منحها قرضًا منعتها كبرياؤها الشديدة من قبوله. لكنها عرفت أيضًا، إذا لم يصل طفل، فلن تحصل على شيء، وسوف تكون قد أضاعت العام بأكمله لقاء لا شيء، من المحتمل أن تصبح إجازة غيابها دائمة.

ثم، في سبتمبر، انتظرت وانتظرت ولم يحدث شيء. ما مِن دم. ما مِن تقلصات. فقط شعور شديد بالتعب، رغبة عارمة في الزحف داخل الفراش واتخاذ جُحرٍ أسفل اللحاف مثل قطة. تقريبًا رقصت «مادلين» سرورًا حين وصلت «مِيا»، بعد يومين، إلى شقتهما وهي لا تزال تشعر بالأعراض نفسها. لفَّت «مادلين» «مِيا» في معطفها، كما لو أن «مِيا» نفسها طفل، وساقتْها إلى داخل المصعد، ثم إلى داخل سيارة أجرة إلى صيدلية في برودواي. من مصفوفة العلب المحيِّرة ذات الأسماء الموثوقة «بريديكتور»، «فاكت»، «أكيو-تست»، اختارت واحدة ووضعتها بين يدي «مِيا».

تبيَّن أن الاختبار كان معقَّدًا. تضمَّن أنبوب اختبار زجاجي في حاملٍ خاص، متدلٍّ فوق مرآة ذات زوايا. كان على «مِيا» أن تضيف بضع قطرات من بولها وتنتظر لمدة ساعة. إذا تكونت حلقة داكنة، كانت حاملًا. جلست هي و«مادلين» في صمت لخمسٍ وأربعين دقيقة، جنبًا إلى جنب على حافة حوض الاستحمام، ثم فجأة تناولت «مادلين» يد «مِيا». همست «انظري»، مائلةً باتجاه مرآة الزينة، ورأت «مِيا» حلقةً مفرغةً حديدية اللون تظهر ببطء في المرآة الصغيرة.

* * *

تغيرت الأمور بسرعة منذ ذلك الحين فصاعدًا. لم تلاحظ زميلتا «مِيا» في السكن أي شيء حتى بدأت تتقيأ في الحمَّام. قالت إحداهما:

ـ عملٌ لطيف.

قالت الأخرى:

ـ لن أقاسي كل ذلك، ولا مقابل مليون دولار.

مرت أسابيع. نقل الزوجان «رايان» «مِيا» إلى شقة استوديو صغيرة ملكهما، مبنى هادئ من دون مصعد يبعد قليلًا عن «وِست إند آفينيو».

قالت «مادلين» لـ«مِيا»:

ـ نؤجرها لكن المستأجرين غادروا للتو. هذه أهدأ بالنسبة للكِ. أرحب. ناسٌ أقل يأتون ويجيئون. وستكونين أقرب كثيرًا إلينا، حين تبدأ الأمور في الحدوث.

تركت «مِيا» عملها في متجر مستلزمات الفنون ـ بدأ بطنها في الظهور ـ لكنها احتفظت بوظيفتيها الأخريين، على الرغم من أنها تركت الزوجين «رايان» يظنان أنها قد توقفت عن العمل. بعد كل موعد مع الطبيب، تزورهما لتطلعهما على آخر المستجدات، وفيما بدأت ملابسها تضيق قدم لها الزوجان «رايان» ملابس جديدة. سوف تقول «مادلين»، مناولةً «مِيا» حقيبة تسوق قماشية مبطَّنة بداخلها ثوب حمل مزين بالزهور:

ـ رأيتُ هذا الثوب، اعتقدتُ أنه سيبدو رائعًا عليكِ.

كانت «مادلين»، كما أدركت «مِيا»، تشتري لـ«مِيا» ملابس الحمل التي كانت لتشتريها لنفسها، وابتسمت «مِيا» وقبِلتها، وارتدت الثوب في الزيارة التالية.

لم تقل شيئًا لوالديها عن أي من هذا، أخبرتهما فقط، مع اقتراب عيد الميلاد، أنها لن تأتي إلى المنزل. زعمت أن الأمر مكلف للغاية، عالمة أنهما لن يسألاها عن الكلية إن لم تأتِ على ذكرها، ولم يفعلا. لكن في نهاية يناير، أخبرت «وارِن» بالحقيقة أخيرًا. قال على الهاتف ذات مساء:

ـ أنت لا تتحدثين عن الدراسة قطُّ.

كانت في شهرها الخامس الآن، وعلى الرغم من أن بوسعها إخفاء الأمر عنه ـ كيف له أن يعرف؟ ـ لم تعجبها فكرة إخفاء الأمر عنه أكثر من ذلك.

قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

ـ «وارِن»، عدني أنك لن تخبر أمي وأبي.
بعد ذلك، كان هناك صمت طويل على الهاتف.
قال:
ـ «مِيا».
وعرفت أنه كان جادًّا، لأنه لا يستخدم اسمها الكامل قطُّ.
ـ لا أصدق أنك ستفعلين شيئًا كهذا.
ـ فكرتُ في الأمر مليًّا.
وضعت «مِيا» يدًا على بطنها، حيث بدأت تشعر مؤخرًا برفرفاتٍ واهنة. سمتها «مادلين» الإحياء فيما وضعت يدها على بشرة «مِيا»، يا له من تلطيفٍ لغويٍّ قديم الطراز، جعل «مِيا» تفكر في الشخصية الهزلية «كوِيكْسيلفِر»، سمكةٌ لدِنة تتحرك بسرعة مفاجئة في أحشائها.
ـ إنهما شخصان صالحان. كريمان. أنا أساعدهما، «رِنْ». إنهما يريدان هذا الطفل بشدة. وهما يساعداني، أيضًا. لقد فعلا الكثير من أجلي.
سأل «وارِن»:
ـ لكن ألا تعتقدين أنه سيكون من الصعب التخلي عنه؟ لا أعتقد أن بإمكاني أن أفعل ذلك.
ـ حسنًا، لست أنت من يفعل ذلك، أليس كذلك؟
قال «وارِن»:
ـ لا تغضبي مني، لو أنكِ سألتِني، لأخبرتُكِ ألا تفعلي ذلك.
قالت «مِيا» مرة أخرى:
ـ فقط لا تخبر أمي وأبي.
قال «وارِن» أخيرًا:
ـ لن أفعل، لكن سوف أخبرك هذا. أنا خال الطفل، ولا يعجبني الأمر.
كان هناك غضبٌ في صوته لم تسمعه من قبل، على الأقل ليس موجَّهًا لها.

بعد ذلك، لم تتحدث هي و«وارِن» لفترة. كل أسبوع، إذا فكرت في مكالمته، قررت ألا تفعل. تساءلت لماذا تهاتفه إن كانا سيتجادلان مرة أخرى؟ سيولد الطفل في غضون عدة شهور، ستعود إلى حياتها القديمة، وستكون الأمور كما كانت. قالت لبطنها حين وكزها الطفل:

ـ لا تتعلق.

لم يكن الأمر واضحًا قطُّ بالنسبة لها، حتى في ذلك الحين، إذا كانت تتحدث إلى الطفل، أو إلى بطنها، أو إلى نفسها.

كانت هي و«وارِن» ما زالا لا يتحدثان حين اتصلت والدتها، مبكرًا جدًّا في الصباح، لتخبرها عن الحادث.

* * *

كان الجو مثلجًا، هذا مقدار ما عرفته. كان هو و«تومي فلاهرتي» عائدين إلى المنزل في وقتٍ متأخرٍ ليلًا ـ أين كانا، لم تقل والدتها ـ ودارت سيارة «تومي» «البويك» مسرعة في منحنى، وانزلقت ثم انقلبت. لن تتذكر «مِيا» التفاصيل؛ أن سقف السيارة قد انسحق إلى الداخل، وأن عمال الطوارئ اضطروا إلى قص «البويك» مثل علبة صفيح، وأن «وارِن» و«تومي» لم يربطا حزامَي الأمان. لن تتذكر، على الأقل لفترة، حال «تومي فلاهرتي» في فراشه بالمستشفى، برئةٍ مثقوبة، وارتجاج في المخ، وسبع عظامٍ مكسورة، على الرغم من أنه نشأ على التل على مقربةٍ منهما، على الرغم من أنه و«وارِن» كانا صديقين لأعوام، على الرغم من أنه كان معجبًا بها ذات مرة. سوف تتذكر فقط أن «وارِن» كان يقود السيارة، وأنه الآن ميت.

كانت تذكرة الطائرة غالية، لكنها لم تتحمل فكرة الانتظار، حتى لو لساعاتٍ قليلة إضافية. أرادت أن يبتلعها المنزل حيث نشأت هي و«وارِن» ولعبا وتجادلا وخطَّطا، حيث لم يعد في انتظارها بعد الآن، المنزل الذي لن يدخله بعد الآن. أرادت أن تغوص بركبتيها في البقعة على جانب الطريق

البارد حيث مات. أرادت أن ترى والديها، ألا تضطر إلى الجلوس وحيدة مع الخدر الفظيع الذي يهدد بابتلاعها.

لكن حين ترجّلتْ من سيارة الأجرة التي أوصلتْها من المطار وجاءت إلى الباب الأمامي، تجمد والداها، محدقَين في انتفاخ بطنها، الذي أصبح كبيرًا لدرجة عدم مقدرتها على إغلاق معطفها. انساقت يد «مِيا» إلى خصرها، كما لو أن راحة يدها سوف تخفي ما كان ينمو في الداخل.

قالت:

ـ أمي، أبي، الأمر ليس كما تعتقدان.

لفَّ صمتٌ طويلٌ المطبخ، مثل شريطٍ رمادي. شعرت «مِيا» أنه امتد لساعاتٍ وساعاتٍ.

قالت والدتها أخيرًا:

ـ أخبريني، أخبريني ماذا نعتقد.

نظرت «مِيا» إلى بطنها، كما لو أنها هي نفسها متحيرةً من وجود الطفل هنا.

ـ أعني. إنه ليس طفلي.

بالداخل، قام الطفل برفسةٍ غاضبة.

قالت والدتها:

ـ ماذا تعنين بأنه ليس طفلك؟ كيف لا يكون طفلك؟

ـ أنا أمٌّ بديلة، أنا أحمله من أجل هذين الزوجين.

وجْدت «مِيا» نفسها تحاول التوضيح: عن الزوجين «رايان»، عن مدى طيبتهما، مدى رغبتهما في طفل، مدى السعادة التي سيكونان عليها. حاولت أن تركز على مدى مساعدتها لهما، كما لو أن هذا عملٌ خيري، عملٌ إيثاريٌّ نقي: مثل التطوع في مطبخٍ لإعداد الحساء للفقراء، أو تبنِّي كلبٍ من المأوى. لكن والدتها فهمت على الفور.

قالت:

ـ هذان الزوجان «رايان»، أفترض أنك تفعلين هذا من أجلهما بسبب الخير الذي في قلبك فحسب؟

اعترفت «مِيا»:

ـ لا، سوف يدفعان لي. حين يولَد الطفل.

أدركت فجأة أنها ما زالت ترتدي وشاحها وقبعتها. دعست طبقةٌ رقيقة من الوحل تقطرت على مشمع الأرضية قشديِّ اللون.

التفتت والدتها واتجهت نحو مدخل الباب، قالت وصوتها يتلاشى فيما خطتْ إلى داخل غرفة المعيشة:

ـ لا أستطيع التعامل مع هذا الأمر الآن، ليس الآن.

توقفت عند السلَّم وقالت بهسيس، بِغِلٍّ صدم «مِيا»:

ـ أخوكِ ميت.. ميت، هل تدركين ذلك؟ بينما تأتين إلى البيت بهذا الشكل؟

ودقت خطواتٌ صاعدةٌ درجات السلَّم.

نظرت «مِيا» إلى والدها. شعرت بالضبط كما كانت تشعر وهي طفلة، إذا كسرت شيئًا أو أفسدت شيئًا ما أو أنفقت على فيلمٍ النقودَ التي خصصتها والدتها للملابس: في تلك الأوقات اعتادت والدتها أن تغضب وتصرخ وتركض إلى غرفتها، تاركةً «مِيا» مع والدها، الذي اعتاد أن يعتصر يدها ويدع الحضن الدافئ يغمرهما مثل الحليب، ويقول بهدوء: «اشتري واحدًا آخر»، أو: «امنحيها ساعةً، ثم اذهبي للاعتذار»، أو أحيانًا يقول ببساطة: «أصلحي الأمر». كانت هذه الطريقة التي يتشاجرون بها دائمًا. لكن هذه المرة لم يتناول والدها يدها. لم يقل لها **أصلحي الأمر**. بدلًا من ذلك، نظر إلى بطنها، كما لو أنه لا يتحمل النظر إلى وجهها. عيناه مغرورقتان وفكه مُطبَق.

قالت أخيرًا:

ـ أبي؟

سوف تفضل الصراخ على هذا الصمت الممتد الحاد كالسكين.

قال:

ـ لا أستطيع أن أصدق أنك ستبيعين طفلك.

ثم، غادر الغرفة هو أيضًا.

* * *

لم يطلبا منها أن ترحل، لكن حتى بعد أن علقت معطفها في خزانة الردهة، ووضعت حقيبتها في غرفة نومها القديمة، لم يتحدثا إليها. على العشاء جلست في مكانها القديم إلى المائدة ووضعت والدتها صحنًا وشوكةً أمامها ومرَّر لها والدها الطاجن الخزفي الذي أحضرته إحدى الجارات، لكنهما لم يقولا لها شيئًا، وحين طرحت أسئلة ـ متى ستُقام الجنازة؟ هل رأيا «وارِن»؟ ـ أجابا بإيجازٍ بقدر الإمكان. استسلمت «مِيا» في النهاية ولفت المكرونة والتونا حول شوكتها. كانت هناك كومةٌ كاملة من الطواجن في الثلاجة، برجٌ مائلٌ من أطباق البايركس للخَبْز مغطاةٌ بورق القصدير. كما لو أن أحدًا لا يعرف ماذا يفعل لمواجهة مثل هذه المأساة سوى صنع أثقل، أسرع، أكثر طبق ركيك يستطيع صنعه، كي يمنح الأسرة الثكلى شيئًا صلبًا للتمسك به. لم يذكر أي منهم، أو ينظر، لمكان «وارِن» الخالي بجوار النافذة.

اختارا كل شيءٍ من دون رأيها، الزهور، والموسيقى، ولون التابوت الذي سيوضَع فيه «وارِن»: خشب الجوز ببطانةٍ حريريةٍ زرقاء. اقترحا، بلباقة، ألا تخرج «مِيا» خارج المنزل، قالا إنها لا بد أنها متعبة، لا يريدانها أن تزِلَّ على الجليد، لكنها فهمت: لا يريدان أن يراها الجيران. حين انتقت «مِيا» قميصًا وربطة عنق من أجل «وارِن» ـ اللذين كان يختارهما دائمًا حين يُجبَر على التأنُّق ـ اختارتْ والدتها شيئًا آخر، القميص الأبيض وربطة العنق المخططة بالأحمر اللذين اشترتهما له حين التحق بالمدرسة الثانوية، اللذين قال إنهما يجعلانه يبدو مثل سمسار البورصة، واللذين لم يلبسهما قطُّ. لم يذكرا في أي لحظة حالتها المثيرة للاهتمام أو وضعها المعقد. لكن حين قالا إنه من

الأفضل إذا لم تحضر الجنازة ـ «فقط لا نريد أن يأخذ أحدٌ فكرةً خاطئة»، كما صاغت والدتها الأمر ـ استسلمت «مِيا». في الليلة السابقة للجنازة، حزمت أشياءها. سحبت حقيبتها القماشية الخشنة من على ظهر الخزانة وأخذت اللحاف من فراشها، وعدة بطاطين قديمة. ثم سارت على أطراف أصابعها عبر الردهة إلى غرفة «وارِن».

ما زال فراشه غير مرتَّب، تساءلت ما إذا كانت والدتها سوف ترتبه مرة أخرى، أو إذا كانت ستنزع عنه الملاءات، ستجرِّد الغرفة، ستطليها باللون الأبيض، وتتظاهر أن شيئًا لم يحدث هناك على الإطلاق. تساءلت ماذا سيفعلان بأغراض «وارِن»؟ هل سيتبرعان بها؟ هل سيحزمانها في صناديق كرتونية ويضعانها في العلِّيَّة، لتصبح متعفنة وبالية وقديمة؟ وقعت عيناها على لوحة ملاحظات «وارِن» على الصورة التي قدمتْها لطلب الالتحاق بكلية الفنون: الصورة المحفورة لهما معًا، طفلان، يتسلقان جبلًا من الركام. نزعت الدبوس المثبت لها وأضافتها لحقيبتها. ثم، على مكتبه، وجدت ما كانت تبحث عنه: مفاتيح سيارة «وارِن».

كان والداها نائمين، تناولتْ والدتها الأقراص المنوِّمة ليلًا لتهدئ أعصابها، والشق أسفل باب غرفة نومهما كان مظلمًا. اشتغلت السيارة «رابِتْ» بهديرٍ مبحوح. أخبرها «وارِن» ذات مرة: «قرقرة سيارة «بورش»، وضربات جولف ناعمة من نوع «فولكس فاجن»». اضطرت إلى جذب المقعد الأمامي بطول المسافة إلى الأمام كي تتمكن من بلوغ دواسة القابض، كانت ساقاه دائمًا أطول من ساقيها. ثم ضغطت على ذراع نقل السرعة، وبعد لحظة من محاولة إجراء النقلة الصحيحة، قادت السيارة إلى الخلف بضغطات متتالية على الدواسة، وتلاشى المنزل المظلم في أنوارها الأمامية بينما تراجعت السيارة خارجةً من ممر السيارات.

قادت طوال الليل ووصلت «أَبَر وِست سايد» عند شروق الشمس. لم يسبق لها أن اضطرت لصف سيارة في مانهاتن من قبل ودارت في الحي

لعشر دقائق قبل أن تنحشر داخل موضع في الشارع الثاني والسبعين. في شقتها، غاصت في فراشها المستعار ولفَّت نفسها باللحاف. عرفت أنه سيمر وقت طويل قبل أن تنام في فراش مريح مثل هذا مرة أخرى. حين استيقظت، كانت شمس ما بعد الظهيرة المتأخرة تغوص بالفعل في نهر هدسون، وعليها أن تعمل. الأغراض التي أحضرتْها معها فحسب، ما هو ملكها حقيقةً، ذهب إلى داخل حقيبتها: ملابسها الضيقة للغاية، حفنة من أثواب «مومو» الواسعة التي اشترتها لنفسها من متجر منظمة «جود ويل»، بعض الألحفة القديمة، بعض الملاءات الباهتة، حفنة من أدوات المائدة. صندوق ملفات يحتوي أفلامًا سلبية، وكاميراتها. طوت أثواب الحمل الفاخرة التي جلبها الزوجان «رايان» بترتيب ووضعتْها في كيس بقالة ورقي.

بمجرد أن انتهت، جلست ومعها قلم وورقة. كانت تفكر فيما سوف تقوله طوال الرحلة الطويلة من بيتسبرج، وفي النهاية قررت أن تكذب. كتبت «ما مِن طريقة سهلة لقول هذا، لقد فقدتُ الطفل. أنا في شدة الخجل وشدة الأسف. أنتما غير مدينين لي بشيءٍ من اتفاقنا، لكنني أشعر أنني مدينةٌ لكما. هذه نقود لتدفع لكما مقابل تكاليف المواعيد الطبية. أرجو أن تكون كافية، إنها كل ما يمكنني توفيره». وضعت ملاحظتها على قمة كومة من الأوراق المالية، تسعمائة دولار من رواتبها المُدَّخرة. ثم حزمتْها في الكيس مع أثواب الحمل.

لم يكن البوَّاب المعتاد في الخدمة تلك الليلة، ولأن معطف «مِيا» مضمومٌ حولها، لم يلاحظ البوَّاب الليليُّ بطنها. قبل الطرد الموجَّه إلى الزوجين «رايان» من دون نظرةٍ واحدةٍ إلى وجهها، وتوجهت «مِيا» عائدةً إلى السيارة «رابِتْ»، المصطفَّة على بُعد عدة مربعات سكنية. في بطنها، ركل الطفل مرةً واحدة، وانقلب، كما لو أنه يأخذ وضعًا مستقرًّا للنوم.

قادت السيارة طوال الليل، عبر نيو جيرسي وبنسلفانيا، مرت أميالٌ من الطريق السريع في الظلام. بينما بدأت الشمس في الشروق، انحرفت «مِيا»

عن الطريق السريع خارج مدينة «إيري» حتى وجدت طريقًا ريفيًّا هادئًا. بمجرد أن أوقفت السيارة بعيدًا عن جانب الطريق، أغلقت جميع الأبواب، تسلقت إلى المقعد الخلفي، ولفَّت نفسها في لحافها القديم. توقعت أن تشبه رائحته رائحة المنظِّف، رائحة المنزل، وحصَّنت نفسها في دوامة من الحنين. لكن اللحاف، الذي تمدد على فراشها من دون أن يلمسه أحد طوال العام الماضي، لم تشبه رائحته أي شيء ـ ليس نظيفًا، ليس متربًا، ما مِن رائحةٍ على الإطلاق ـ وبسحبه فوق رأسها ليقي عينيها من الشمس، راحت «مِيا» في النوم.

قادت السيارة طوال الأسبوع بهذه الطريقة، كما لو أنها محمومة: القيادة حتى أرغمها الإرهاق على التوقف، النوم حتى مكَّنتها الراحة من القيادة مرة أخرى، متجاهلةً الساعة، النور والظلام في كل يوم. توقفت بين الحين والآخر، حين تمر ببلدة، لتشتري الخبز، وزبدة الفول السوداني، والتفاح، ولتملأ الدورق سعة جالون الموضوع في مقعد الراكب بالماء من نافورة شرب. خبأت ألفي دولار داخل مقتنياتها، مدَّخرة من إكرامياتها وأجورها منذ أن جاءت إلى نيويورك: في صندوق الأفلام السالبة، في صندوق لوحة القيادة، في الجانب الأيمن لحمالة صدرها. أوهايو، وإيلينوي، ونبراسكا، ونيفادا. ثم، فجأة، دوَّامةُ سان فرانسيسكو المزدحمة، مَمْخَضَةُ المحيط الهادئ الزرقاء والرمادية والبيضاء أمامها، ولم يعد بوسعها الذهاب إلى أبعد من ذلك.

* * *

وماذا أيضًا؟ وجدت «مِيا» شقة، غرفة للإيجار في «صنْسِت». في منزلٍ كان الجصُّ المطلي به في لون ملح البحر، مالكته متجهمة ومسنَّة، نظرت إلى بطنها وسألتْ: «هل سيأتي زوجٌ غاضبٌ ليطرق بابي في غضون أسبوع؟». خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من حملها، تجوَّلت «مِيا» في المدينة، تمشي حول البحيرة الشاطئية في «جولدن جِايت بارك»، تصعد «كُويْت تاوَر»، تعبر

جسر «جولدن جِايت بريدج» ذات يوم في ضبابٍ كثيف لدرجة أنه أمكنها أن تسمع، لا أن ترى، حركة السيارات المسرعة بجوارها. عكَسَ الضباب حالتها الذهنية تمامًا لدرجة أنها شعرت أنها تسير داخل عقلها: سديمٌ لا شكل له من عاطفةٍ متفشية، شيءٌ ليس بوسعها فهمه، لكنه مليءٌ بأفكارٍ غير واضحة ظهرت من اللامكان، ترعبها، ثم تتراجع إلى البياض مرةً أخرى قبل أن تتأكد حتى ما الذي رأته. لم تبتسم السيدة «ديلاني»، مالكة سكن «مِيا»، لها قطُّ إن تصادف وعبرتا بجوار بعضهما البعض في الرواق، أو إن تصادف والتقتا في المطبخ، لكن بانقضاء الأسابيع، سوف ترجع «مِيا» إلى المنزل لتجد صحنًا في الفرن، وورقة على نضد المطبخ كُتب فيها **لديَّ بقايا طعام. لم أشأ إهدارها.**

حين وُلِدتْ «بيرْل» ـ بعد ظهيرة يومٍ دافئ في مايو على غير العادة، في المستشفى، بعد أربع عشرة ساعة من المخاض ـ أخذت «مِيا» سجل الميلاد من الممرضة. لقد فكرت لشهورٍ بمَ سوف تسمي الطفل، تفحصت ذهنيًا جميع الناس الذين عرفتهم، الكتب التي قرأتها في المدرسة الثانوية. لا شيء بدا مناسبًا حتى تذكرت رواية «الحرف القرمزي»، وخطر لها الاسم المناسب على الفور: «بيرْل». مستديرة، بسيطة، مكتملة مثل مقرعة الجرس. وبالطبع، مولودةٌ في ظروفٍ معقدة. إلى جوار اسم الطفل، وفي سطر «اسم الأم» كتبت، بحروفٍ أنيقة، «مِيا وارِن». ثم مدت يدها إلى مهد الطفل بجوار فراشها وأخذت طفلتها بين ذراعيها.

في الليلة الأولى لعودتها إلى غرفتها المستأجَرة، بكتْ «بيرْل» كثيرًا، حتى بدأت «مِيا» نفسها في البكاء. تساءلت لو أن الزوجين «رايان» ما زالا مستيقظين في نيويورك في شقتهما البراقة، ماذا سيقولان لو رفعت سماعة الهاتف وقالت لهما: «لقد كذبتُ، الطفلة هنا، تعاليا وخذاها». عرفت أنهما سوف يستقلان الطائرة التالية ويصلان إلى بابها، مستعدين لأخذ «بيرْل» خلسة. لم تتمكن من معرفة ما إذا كانت الفكرة رهيبة أم مغريةً أم كليهما،

وانتحبت هي و«بيرْل». ثم سمعت طرقة ناعمة على الباب، وظهرت السيدة «ديلاني» المتجهمة ومدت ذراعيها قائلة:

ـ هاتيها هنا.

قالتها بلهجة سلطوية لدرجة أن «مِيا» ناولتها الصُّرة الطرية من دون تفكير. قالت السيدة «ديلاني» مغلقةً الباب خلفها:

ـ الآن، استلقي واحصلي على قسطٍ من الراحة.

وفي الصمت المفاجئ ارتمتْ «مِيا» على الفراش وسقطت في النوم.

حين استيقظت، جاءت إلى داخل المطبخ غائمة العينين، ثم إلى غرفة المعيشة، حيث جلست السيدة «ديلاني» في بركة من ضوء المصباح تهز الطفلة النائمة.

سألت السيدة «ديلاني» «مِيا»:

ـ هل ارتحتِ؟

وأومأتْ «مِيا»، قالت السيدة «ديلاني»:

ـ جيد.

وأعادت وضع الطفلة بين ذراعَي «مِيا». قالت السيدة «ديلاني»:

ـ خذيها، اعتني بها.

قضت «مِيا» الأسابيع القليلة التالية في السديم نفسه، لكن بدأ شيءٌ ما في التحوُّل. لم تأتِ السيدة «ديلاني» مرة أخرى قطُّ لتأخذ الرضيعة بعيدًا، بغض النظر عن مدة قوة بكاء «بيرْل»، لكن في الأمسيات اعتادت أن تطرق الباب ومعها وعاء من الحساء، أو شطيرة جبن، أو قطعة من رغيف لحم. بقايا الطعام، كما زعمت دائمًا، لكن «مِيا» فهمت الهدية على حقيقتها، وفهمت أيضًا، ما الذي تحاول السيدة «ديلاني» قوله حين تُتبع هذه التَّقْدِمات بجملة فظة:

ـ الإيجار يُستحق يوم الخميس.

أو:

ـ لا تتركي آثار وحل في المدخل.

بلغ عمر «بيرْل» ثلاثة أسابيع ـ ما زالت تشبه رجلًا مسنًّا، بوجهٍ كالقرع ـ وبدأ الضباب في الانقشاع للتو، حين وصلت مكالمة «مال».

بمجرد أن استقرت «مِيا» أرسلت رسالة إلى «بولين» و«مال»، بعنوانها الجديد ورقم هاتفها. أخبرتهما: «أنا بخير، لكنني لن أعود إلى نيويورك. يمكنكما الاتصال بي هنا إذا احتجتما لذلك». والآن، احتاجت «مال» للاتصال بها. قبل عدة أسابيع، بدا أن «بولين» بدأت تعاني من نوبات صداع. أعراض غريبة. قالت «مال»:

ـ هالات. قالت إنني أبدو مثل الملاك، بهالةٍ من الضوء تحيط بي من كل جانب.

أظهر الفحص بالمسح ورمًا بحجم كرة جولف في دماغها.

قالت «مال» بعد سكتةٍ طويلة:

ـ أعتقد، إذا أردتِ رؤيتها فربما يجب أن تحضري على الفور.

ذلك المساء، حجزت «مِيا» تذكرة طيران، ثاني تذكرة تشتريها على الإطلاق. أنفقت معظم مدخراتها لتشتريها، لكن رحلة بالحافلة عبر البلاد سوف تستغرق أيامًا. وقتٌ طويل للغاية. وصلت إلى شقة «بولين» و«مال» بحقيبة ظهر مدلّاة من على كتفيها و«بيرْل» بين ذراعيها. «بولين»، التي صارت أنحف لفقدها عشرين كيلو جرامًا من وزنها، بدت مثل نسخةٍ أكثر تركيزًا من نفسها: ضاوِيةً، نوعًا ما، مشذَّبةً إلى جوهرها.

أمضين ما بعد الظهيرة معًا، «مال» و«بولين» تناغيان الرضيعة، و«مِيا» تقضي الليل، للمرة الأولى والأخيرة، في غرفة ضيوفهما مع «بيرْل» إلى جوارها. في الصباح استيقظت مبكرة لترضع «بيرْل» على الأريكة في غرفة الضيوف وجاءت «بولين».

قالت «بولين»:

ـ ابقي.

كانت عيناها براقتين بريقًا محمومًا، وأرادت «مِيا» أن تنهض وتطوي «بولين» بين ذراعيها. لكن «بولين» أشارت لها أن تجلس وتناولت كاميرتها. قالت:

ـ أرجوكِ، أودُّ أن ألتقط صورةً لكليكما.

استنفدت بكرةً كاملة، تعرُّضًا ضوئيًّا بعد آخر، ثم جاءت «مال» بإبريق من الشاي وشال لكتفَي «بولين»، ووضعت «بولين» الكاميرا بعيدًا. بحلول الوقت الذي استقلت فيه «مِيا» الطائرة إلى سان فرانسيسكو ذلك المساء، و«بيرْل» بين ذراعيها، نسيت كل شيء عن الأمر. لقد قالت لها «بولين» فيما تحتضنها مودِّعة:

ـ افعلي كل ما يتطلبه الأمر.

للمرة الأولى، قبَّلت «بولين» «مِيا» على الخد:

ـ أنا أتوقع أشياء عظيمة منكِ.

استخدامها للزمن المضارع ـ كما لو أن هذا مجرد وداع عادي، كما لو أنها، «بولين»، لديها كل التوقع لمشاهدة مسيرة «مِيا» المهنية تتبدى أمامها على مر عقود ـ حبس صوت «مِيا» في حلقها. جذبتْ «بولين» إليها واستنشقت شذاها، عطرها المميَّز من اللافندر والكافور، والتفتت بعيدًا مرة أخرى قبل أن تراها «بولين» تبكي.

بعد أسبوع ونصف، هاتفت «مال» «مِيا»، المكالمة التي علمت «مِيا» أنها آتية. أحد عشر يومًا، هكذا فكرت. لقد عرفت أن الأمر سيحدث سريعًا، لكنها لم تستطع التصديق تمامًا أن «بولين» كانت على قيد الحياة قبل أحد عشر يومًا. كان الجو ما زال دافئًا، يونيو. حتى إن صفحة التقويم لم تتغير. ثم، بعد عدة أسابيع، وصل طردٌ في البريد. قرأت الملاحظة بخطٍّ «مال» ذي الزوايا: «لقد انتقتْ هذه لإرسالها لكِ». في الداخل كانت هناك عشر صورٍ مطبوعة، بمقاس ثمانية في عشرة، بالأسود والأبيض، كلٌّ منها تتوهج

كما لو أنها مُضاءة من الخلف بهذه الطريقة الغريبة التي تميِّز أعمال «بولين» كافة. «مِيا» تهدهد «بيرْل» بين ذراعيها. «مِيا» ترفع «بيرْل» عاليًا فوق رأسها. «مِيا» تُرضع «بيرْل»، وطيَّةٌ بلوزة «مِيا» تخفي فقط كرة ثديها الشاحبة. توقيع «بولين» الذي لا تخطئه عين على ظهر كل صورة. وملاحظة مشبوكةٌ بكارت شخصي:

> «أنيتا» سوف تبيع هذه الصور من أجلك إذا احتجتِ إلى المال. أرسلي لها عملكِ، حين تصبحين مستعدة. أخبرتُها أن تتوقع اتصالكِ.
>
> «ب.»

بعد ذلك، بدأت «مِيا» في التقاط الصور مرة أخرى. لساعاتٍ في المرة الواحدة، «بيرْل» مربوطةٌ إلى ظهر «مِيا» بحمالة كتف ابتكرتْها من بلوزة قديمة. أغلب مدخراتها قد نفد الآن، وكل بكرة فيلم كانت ثمينة، لذلك عملتْ بحرص، تؤطِّر الصورة مرارًا وتكرارًا قبل أن تلتقطها. بعد كل ضغطة على غالق العدسة تفكر في «بولين». بحلول وقت الصيف، أصبح لديها سبع لقطات اعتقدت أن بها شيئًا ما، كما كانت «بولين» دائمًا تصف اللقطات.

لم توافق «أنيتا» تمامًا. واعدة، كما كتبتْ ردًّا على الصور المطبوعة التي أرسلتْها «مِيا». **لكن ليس بعد. قومي بالمزيد من المجازفات.** ردًّا على ذلك، أرسلتْ إليها «مِيا» أولى صور «بولين». كتبتْ «مِيا» **إذن أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، امنحيني وقتًا لهذا الأمر بقدر استطاعتكِ. لا تعطي اسمي لأي شخص.** «أنيتا»، بعد مزادٍ ساخن، حصلت لـ«مِيا» على ما يساوي عامين من الوقت، حتى بعد خصم عمولتها البالغة خمسين بالمائة. (سوف تجعل الأمر يستحق، سوف تمر خمسة عشر عامًا قبل أن تبيع صورةً أخرى، لمواجهة فاتورة المستشفى الخاصة بـ«بيرْل» لإصابتها بالتهابٍ رئوي). في غضون عام، أرسلتْ «مِيا» لـ«أنيتا» مجموعة أخرى من الصور المطبوعة ـ كلٌّ منها

يؤرِّخ الاضمحلال البطيء لشيءٍ ما: شجرة حور ميتة، منزلٌ محكومٌ بالإزالة، سيارةٌ صدِئة ـ التي كانت مستعدة لتحمل مسؤوليتها.

قالت «أنيتا» لـ«مِيا» حين هاتفتْها بعد شهر:

ـ مبارك، لقد بعتُ إحداها، تلك التي تحتوي السيارة. أربعمائة دولار. ليس كثيرًا ولكنها بداية.

اعتبرت «مِيا» ما حدث علامةً. منذ فترة تحلم بالصحاري، بالصبار والبراح والسماوات الحمراء. بدأتْ صورٌ جديدة تتشكَّل في ذهنها. قالتْ:

ـ سأهاتفكِ في غضون أسبوع أو اثنين، وأخبركِ إلى أين تحوِّلين النقود.

راقبت السيدة «ديلاني» من نافذة غرفة المعيشة بينما تعبِّئ «مِيا» صندوق السيارة «رابِتْ»، تضع مهد «بيرْل» المتنقل بوضع ثابت في أرضيَّة المقعد الأمامي. ما أثار ذهول «مِيا»، حين حرَّرت مفتاح المنزل من حلقة المفاتيح وأعادته للسيدة «ديلاني»، جذبتها السيدة «ديلاني» إلى عناقٍ لم تعهده منها «مِيا».

قالت السيدة «ديلاني» بصوتٍ غليظ:

ـ لم أخبركِ عن ابنتي قطُّ، أليس كذلك؟

ثم قبل أن تتمكن «مِيا» من الكلام، أخذت السيدة «ديلاني» المفتاح وهرعت إلى درجات السلَّم الأمامي، أُغلِقت البوابة المعدنية مجلجلةً خلفها.

فكرتْ «مِيا» في هذا الأمر طوال قيادتها الطويلة، حتى خارج مدينة «بروفو» حيث قررت التوقف، أولى المحطات العديدة التي ستتوقف فيها هي و«بيرْل» على مدار الأعوام. طوال الطريق الطويل، ناغتْ «بيرْل» من مهدها إلى جوار «مِيا»، كما لو أنها واثقة، حتى في هذه السِّن الصغيرة، أنهما متجهتان إلى أداء أمورٍ عظيمة ومهمة، كما لو أن بوسعها أن ترى كل الطريق عبر البلاد وخلال الزمن إلى كل شيءٍ آتٍ في طريقهما.

١٥

لم يكن بوسع السيدة «ريتشاردسون»، بالطبع، معرفة كل هذا. عرفت فقط أساسيات القصة التي أخبرها بها الزوجان «رايت»: أن «مِيا» قد ظهرت، ببطنٍ منتفخ، زاعمةً أنها أمٌّ بديلة لزوجين يُدعيان «رايان»، لم يتمكن الزوجان «رايت» من تذكُّر أسمائهما الأولى. قال السيد «رايت»:

ـ «جايمي»، «جوني»، شيءٌ من هذا القبيل. قالت إنه شخصٌ ما في وول ستريت. شخصٌ لديه كثيرٌ من المال.

اعترفت السيدة «رايت»:

ـ لم أكن واثقةً أن الأمر صحيح، اعتقدتُ أنها ربما تكون في ورطةٍ وحسب، أنها كانت تكذب علينا. لكن بعد ذلك اتصل ذلك المحامي.

بعد أسابيع من مغادرة «مِيا»، اتصل محامٍ بالزوجين «رايت»، يسأل إذا كانت لديهما طريقة للاتصال بها. تذكرت السيدة «رايت»:

ـ أرسلَ بطاقة عمل، في حال أرسلتْ عنوانها لنا في أي وقت. لكننا لم نسمع منها قطُّ مرة أخرى.

ربَّتتْ ركن عينها مرة أخرى بمنديل.

بعد قليل من البحث، وجدت السيدة «رايت» بطاقة المحامي ونسخت السيدة «ريتشاردسون» العنوان. **«توماس رايلي»، «رايلي» و«شوارتز» شركاء في المحاماة.** كود المنطقة ٢١٢، العنوان في الشارع الثالث والخمسين.

شكرت السيدة «ريتشاردسون» الزوجين «رايت»، وحين ألَحَّتْ عليها السيدة «رايت» ببعض الكعك الإضافي، رفضت السيدة «ريتشاردسون»، مُحرَجة. عرض الزوجان «رايت» أن يُعيراها بعض صور «وارِن» في زيٍّ الكرة أيضًا، ربما تودُّ الجريدة أن تنشرها مع المقال، كما اقترحا. أضافت السيدة «رايت»:

ـ ما دمنا سنستعيدها، إنها النُّسخ الوحيدة التي نملكها.

خمش الشعور بالذنب خلف عنق السيدة «ريتشاردسون» مثل عنكبوت. إنهما يبدوان شخصين طيبين، هذان الزوجان «رايت»، شخصان طيبان عانيا الكثير، شخصان طيبان بوسعهما أن يكونا جيرانها في «شايكِر هايتْس». قالت:

ـ إذا أرادت الجريدة الصور، سأعاود الاتصال بكما.

كانت هذه هي الحقيقة على الأقل، كما قالت لنفسها.

قالت عند الباب، وعنَتْ ما قالته:

ـ أنا آسفة لكل ما عانيتماه.

ثم قالت بعد تردد:

ـ إذا نجحتما في أي وقت في العثور على مكان ابنتكما، هل ترغبان في التواصل معها مرة أخرى؟

قالت السيدة «رايت»:

ـ ربما، فكرنا في توظيف محققٍ لإيجادها، لنرى إذا كان بإمكاننا العثور على أي أدلة. لكن بدا لنا أنها إذا أرادت أن يُعثَر عليها، لاتصلت بنا. إنها تعرف أين نعيش، رقم هاتفنا هو نفسه كما كان طوال حياتنا. لا بد أنها تعتقد أننا ما زلنا غاضبين منها.

سألت السيدة «ريتشاردسون» من دون تفكير:

ـ هل أنتما غاضبان منها؟

ولم يُجب أي من السيد أو السيدة «رايت».

* * *

كان عمر رقم مؤسسة المحاماة ستة عشر عامًا، لكن السيدة «ريتشاردسون» قررت أن الأمر يستحق المحاولة. بعد العودة إلى فندقها، طلبت الرقم، وارتاحت كثيرًا عندما أجابت سكرتيرة على الفور تقريبًا.

قالت المرأة:

ـ «رايلي» و«شوارتز» و«هندرسون».

بدأت السيدة «ريتشاردسون» بقولها:

ـ مرحبًا، أتصل بشأن قضية عمل عليها السيد «رايلي» منذ بعض الوقت.

صمتت، ثم قالت مفكرةً بسرعة:

ـ لديَّ بعض المعلومات التي يعتقد موكلي أنها ذات صلة. لكن قبل منح أي معلومات، أود التأكد أن السيد «رايلي» ما زال يمثل الزوجين «رايان». كما تتصورين، هذه المعلومات بالغة الحساسية.

صمتت السكرتيرة، ثم قالت:

ـ ما القضية التي قلتِ إنكِ معنيَّةٌ بها؟

ـ قضية الزوجين «رايان». المعلومات التي لديَّ تتعلق بامرأة تُدعى «مِيا رايت».

كان هناك صوت فتح درجٍ وحفيف ملفات. حبست السيدة «ريتشاردسون» أنفاسها.

ـ ها نحن ذا. «جوزيف» و«مادلين رايان». نعم، السيد «رايلي» ما زال موَكَّلًا عنهما، مع أن...

صمتتْ.

ـ هذا الملف لم يعد نشِطًا منذ وقتٍ طويل. لكن السيد «رايلي» في المكتب حاليًّا وسيسرني أن أوصلك به. ذكريني باسمكِ؟

أغلقت السيدة «ريتشاردسون» الخط. كان قلبها يخفق. ثم، بعد عدة دقائق من التفكير المتروِّي، قلَّبت مفكرة العناوين الخاصة بها وطلبت رقم صديقها «مايكل»، الذي عمل في جريدة «نيويورك تايمز». التقيا

في الجامعة، للعمل في جريدة الجامعة «دنيسونيان»، وعلى الرغم من أن «مايكل» قفز من هناك إلى جريدة «ستانفورد أدفوكيت» ثم سريعًا إلى مكتب الأخبار في «التايمز»، بينما عادت هي إلى الديار واشتغلت على نطاقٍ محلي، فإنهما ظلَّا على اتصال. ذات مرة، كانت واثقة أنه واقعٌ في حبها، على الرغم من أنه لم يقل أي شيءٍ عن ذلك قطُّ، وكلاهما متزوجٌ منذ أعوامٍ الآن. رُشِّح مؤخرًا لنيل جائزة «بوليتزر»، على الرغم من أنه خسر لصالح شخص ما من وكالة «أسوشْيِيتِدْ برِس» نشر تقريرًا عن عمليات القتل في رواندا.

قالت:

ـ «مايكل»، هل بوسعك أن تسدي لي صنيعًا؟

بعد أسبوع، عاود «مايكل» الاتصال وأكد ما ارتابت بشأنه بالفعل. بواسطة «خفة يدٍ صحفية» هو فقط من يعرفها، تمكن من العثور على فواتير مستشفى باسم «مِيا رايت» في ١٩٨١، في مستشفى «سانت إليزابيث» في وسط «مانهاتن». سددها «جوزيف رايان»، وتوقف عن سدادها في فبراير ١٩٨٢، حين كانت «مِيا» حاملًا في الشهر السادس، وإذا كان لدى السيدة «ريتشاردسون» أي شكوك حول أصل «بيرْل»، فقد تلاشت. سوف يتعين عليها أن تفكر ـ إذا فكرت في أي شيء ـ فيما تفعله بهذه المعلومات. الزوجان المسكينان «رايان»: يريدان طفلًا بشدة لدرجة أن يتخذا هذه الخطوات للحصول عليه. نعم، عرفت شيئًا ما عن هذا الأمر، هكذا اعتقدت، مفكرةً في «ليندا» و«مارك ماكولا». لكنها شعرت بوخزة تعاطف مع «مِيا»، أيضًا، تعاطفٌ لم تشعر به من قبل ولم تتوقع أن تشعر به: إلى أي مدى ينبغي أن يكون التفكير في التخلي عن طفلك معذِّبًا.

ماذا كانت لتفعل إذا وُضِعت في هذا الموقف؟ سوف تسأل السيدة «ريتشاردسون» نفسها هذا السؤال مرارًا وتكرارًا، قبل مكالمة «مايكل» ولمدة أسابيع ـ وشهور ـ بعد ذلك. كل مرة، ووجِهت بذلك الخيار المستحيل،

وتوصلت إلى النتيجة نفسها. لم أكن لأسمح لنفسي بأن أصبح في هذا الموقف، هكذا قالت لنفسها. لكنت أخذت خيارات أفضل منذ البداية.

في الوقت الحالي، وضعت السيدة «ريتشاردسون» أوراقها في حافظة ملفاتها، التي سمَّتها سرًّا «إم دبليو». غدًا سوف تقود سيارتها عائدةً إلى الديار.

* * *

في الطريق إلى خارج العيادة، واجهت «ليكسي» صعوبةً في تفهم ما حدث لها، ما حدث لها للتو. هرول جسدها وساقاها بثقة إلى الأمام بينما انجرف رأسها إلى الخلف مثل بالون لا وجهة له. لقد كانت حاملًا والآن هي ليست حاملًا. كان هناك شيءٌ حيٌّ بداخلها والآن لا يوجد شيء. عميقًا في بطنها شعرت بتشنجٍ غامض وبقطرات رطبة في فوط صحية سميكة أعطتها لها الممرضة. بقيةَ عبوة الفوط كانت في حقيبتها، مع زجاجة مسكِّن «أدفيل». أخبرتها الممرضة:

ـ سوف تحتاجين إلى هذا فيما بعد، حين يزول مفعول المخدر.

تناولت «بيرْل» ذراع «ليكسي» قائلة:

ـ هل أنتِ بخير؟

أومأت «ليكسي» ودار موقف السيارات حول نفسه وهبط على جانبه. أمسكت «بيرْل» بـ«ليكسي» فيما بدأت تميل.

ـ حسنًا. تعالي. كدنا نصل.

اقتضت الخطة الأصلية أن تقود «بيرْل» السيارة لتوصل «ليكسي» إلى المنزل. لن تعود والدتها قبل ما بعد ظهيرة الغد، وبحلول ذلك الوقت، كما افترضت «ليكسي»، ستعود إلى الوضع الطبيعي، مستعدة للتظاهر أنه لم يحدث شيء. لكن كان واضحًا لـ«بيرْل»، فيما قادت «ليكسي» إلى المقعد الأمامي في السيارة «الإكسبلورر»، أن «ليكسي» لم تكن في حالة تسمح لها بالعودة إلى المنزل. كانت مصابة بالدوار بسبب المخدر، وفي النهاية، اضطرت «بيرْل» لربط حزام أمان «ليكسي».

قالت:

ـ حسنًا، سنذهب إلى منزلي.

سألتْ «ليكسي»:

ـ ماذا عن والدتكِ؟

وحين قالت «بيرْل»:

ـ بوسعها كتمان سرٍّ.

بدا ذلك كأكثر شيءٍ حزين سمعتْه «ليكسي» من قبل، وانفجرت بالبكاء.

تجاوز الوقت الظهيرة مباشرةً حين دخلتا المنزل في «وينسلو»، و«مِيا» ـ التي تقص شجرة قيقب من إعلان في مجلة باستخدام سكين مدببة من طراز «إكس-آكتو» ـ رفعت بصرها متنبهة فيما دخلتا المطبخ. لدى رؤية المشرط في يدي «مِيا»، بدأت «ليكسي» ـ التي هدأت في نهاية رحلة القيادة ـ بالبكاء مرة أخرى. ما جعل الجميع يشعر بالمفاجأة، حتى «مِيا» نفسها، أنها جذبت «ليكسي» بين ذراعيها.

ـ أنت بخير، سيكون كل شيءٍ على ما يُرام.

لم تكن «ليكسي» واثقةً تمامًا، فيما بعد، ما إذا كانت قد أخبرت «مِيا» بما حدث، أو أن «بيرْل» فعلت ذلك، أو أن «مِيا» ببساطة حدست الأمر بنفسها. كل ما ستتذكره أن «مِيا» كانت تضمها بشدة، بشدة بالغة لدرجة أن العالم توقف عن الدوران أخيرًا، أن «مِيا» تضعها في فراشٍ ليِّنٍ منخفض، تبيَّن أنه، فراش «مِيا» الخاص.

في الواقع، كانت لدى «مِيا» شكوك بالفعل حول وضع «ليكسي». على الرغم من أن «برايان» اعتاد أن يرمي الواقيات التي استخدماها في المرحاض وأن يضغط زر صندوق الطرد، وجدت «مِيا» غلاف الواقي مكوَّرًا في لفافةٍ من المناديل في سلة قمامة غرفة «ليكسي» مرات قليلة. بعد ظهيرة أحد الأيام، حين عادت «مِيا» إلى منزل عائلة «ريتشاردسون» لاستعادة حقيبتها التي نسيتها ذلك الصباح، تعثرت في حذاء التنس مقاس

١٢ الخاص بـ«برايان» في المدخل تمامًا بجوار صندل «ليكسي» سميك النعل. لم يكن هناك أثرٌ لكليهما، لكن «مِيا» التقطت حقيبتها من على النَّضد الذي يتوسط المطبخ وأسرعت خارجة، نصف خائفة ممَّا يمكن أن تسمعه من الطابق العلوي، مغلقةً الباب بهدوء آملةً أن الصوت لن يصل إليهما. كلما رأتْ «مِيا» «ليكسي»، صُدمت لكونها شابة إلى حد مرعب، ولم ترغب «مِيا» في معرفة ما الذي تنوي «ليكسي» فعله على وجه الدقة، ولا ـ بالتالي ـ ما قد تنوي «بيرْل» فعله أيضًا.

لذلك حين ظهرت «ليكسي» عند المدخل، نصف مستندة على ذراع «بيرْل»، استوعبت «مِيا» وجه «ليكسي» الشاحب والضارب إلى اللون الرمادي، استمارة الخروج من العيادة ما زالت في يدها، الكيس البلاستيكي المملوء بالفوط الصحية السميكة متدلٍّ من معصم «بيرْل»، وفهمت «مِيا» على الفور ما حدث. لو طلب منها شخص ما، منذ شهر أو حتى أسبوع مضى، أن تخمن بماذا ستشعر في تلك اللحظة المستقبلية، لربما توقعت شيئًا من الشماتة، أو على الأقل لحظةً من الشعور بالتفوق الأخلاقي. في اللحظة الحالية، على أي حال، لم تشعر بشيء سوى طوفان من التعاطف العميق مع «ليكسي»، بسبب المأزق الذي وجدت نفسها فيه، بسبب الألم ـ الجسدي والنفسي ـ الذي يجب أن تقاتل وهي تشعر به لتخرج من هذا المأزق.

استيقظت «ليكسي» مستكينة تحت لحافٍ أبيض هش. كان الوقت منتصف ما بعد الظهيرة، والستائر مسدلة، لكن تُرِك مصباحٌ مضاءٌ في الركن، وتثنَّت منشفة فوق ظُلَّة المصباح لتقليل شدة إضاءته، ووخزتْها مراعاة ذلك. للمرة الثالثة في هذا اليوم، وجدت نفسها تنتحب، ثم كانت «مِيا» هنا، جالسةً على جانب الفراش، تمسِّد ظهر «ليكسي».

قالت «مِيا» لـ«ليكسي»:

ـ لا بأس.

وعلى الرغم من أنها لم تقل شيئًا آخر، فقط لدى سماع هذه العبارة ـ لا بأس، لا بأس ـ ازدادت سهولة تنفس «ليكسي». استقرت «مِيا» متصالبة الساقين على الأرض وناولت «ليكسي» منديلًا، وأدركت «ليكسي» أن الفراش لم يكن ببساطة منخفضًا: إنه مرتبةٌ موضوعةٌ على سجادة. نظفت أنفها. لم يكن هناك صندوق قمامة في نطاق الرؤية، لكن «مِيا» مدت يدها، وبعد لحظة من الإحراج ناولتها «ليكسي» المنديل الرطب.

ـ لقد نمتِ وقتًا طويلًا. هذا حسن. هل تعتقدين أن بوسعك أكل شيءٍ ما؟

في المطبخ، وضعتْ ميا صحنًا عميقًا من الحساء أمام «ليكسي»، ورفعت «ليكسي» ملعقةً إلى شفتيها: حساء الدجاج بالمكرونة، مالح، ساخنٌ لدرجة أنه قد يحرق. لم يكن هناك أثرٌ لـ«بيرْل»، لكن الساعة على الموقد أشارت إلى ٣:١٥. مر موعد الخروج من المدرسة منذ فترة قليلة. لا بد أن «بيرْل» أخبرت والدتها بكل شيء، كما فكرت «ليكسي».

بادرت بقولها:

ـ لم يكن من المفترض أن يحدث هذا.

شعرت بحاجة شديدة لتبرِّر نفسها، لتتأكد أن «مِيا» لن تفكر فيها تفكيرًا سيئًا. في تلك اللحظة، صعدت «بيرْل» إلى الشقة. كان وجهها متورِّدًا وتلهث قليلًا.

قالت:

ـ استعرتُ دراجة «مودي»، كان عليَّ أن أعود إلى المنزل وأتأكد أنكِ بخير.

بدأت «ليكسي»:

ـ أنتِ لم...

وهزت «بيرْل» رأسها. قالت:

ـ بالطبع لم أخبره، قلت إنني وعدتُ أن أعود إلى المنزل مبكرًا لأساعد أمي في شيءٍ ما.

https://t.me/fantazynov

أصابها هذا بالتوتر، كم أصبح من السهل الكذب على «مودي» مرة أخرى، لكنها نحَّت الإحساس جانبًا، كما لو أنها تزيل خيوط عنكبوت.

ـ كيف حالكِ؟

قالت «مِيا»:

ـ سوف تكون بخير.

وربتت على يد «ليكسي» قائلة:

ـ أنا متأكدة من ذلك.

بعد عشر دقائق، بينما تضع «مِيا» زُبدية الحساء في الحوض لتنقعها، سُمع صوت خطواتٍ صاعدةً السلَّم، وصلت «إيزي». كانت فترات ما بعد الظهيرة وقتها الخاص مع «مِيا»، وقضت «إيزي» آخر الحصص القليلة في اليوم تتوقع ما يمكن أن تعمل عليه «مِيا»، مفكرةً في أشياء لمشاركتها. تجمَّدت «إيزي» عند المدخل عندما رأت «ليكسي»:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

تجهَّمت «ليكسي» قائلة:

ـ أتيت لأقضي الوقت مع «بيرْل».

ثم صرخت:

ـ هل لديكِ مشكلة في ذلك؟

حولت «إيزي» عينيها من «ليكسي» إلى «بيرْل» في شكٍّ عميق. لا تأتي أختها قطُّ إلى المنزل في «وينسلو»، إنها تفضل أكثر أن تقضي وقتها مرتاحة في غرفة التسلية في منزل عائلة «ريتشاردسون»، حيث المقاعد المريحة والتلفزيون الكبير والكثير من الوجبات الخفيفة و«الدايت كولا». ما مِن تلفزيون هنا، حتى إنه ما مِن أريكة. الأمر ليس من شِيَم «ليكسي» بالمرَّة. لماذا ستقابل «بيرْل» هنا بدلًا من هناك؟ ومع ذلك ها هي «ليكسي»، تبدو شاحبة وغير واثقة وربما محمرَّة العينين قليلًا، كل ذلك ليس من شِيَم «ليكسي» أيضًا.

قالت «بيْرل»:

ـ أنا أساعد «ليكسي» في ورقتها البحثية للغة الإنجليزية، اعتقدنا أننا سنعمل أفضل هنا.

قالت «مِيا»:

ـ لا بأس يا «إيزي»، لكن للعلم، بما أن الفتاتَين هنا فلن أعمل اليوم. غدًا، حسنًا؟

ثم، حين ترددت «إيزي»، قالت «مِيا»:

ـ غدًا، أعدكِ. بعد المدرسة. تمامًا كما هي الحال دائمًا.

ضغطت مرفق «إيزي» قليلًا كما لو أنها تديرها باتجاه مدخل الباب، وعادت «إيزي» أدراجها بنظرةٍ ساخطة لـ«ليكسي»، هابطةً السلَّم بخطوات ثقيلة. خلال لحظة، سمعن صوت الباب يُغلق خلفها.

غمغمت «ليكسي»:

ـ إنها غاضبةٌ مني للغاية، حسنًا، ما الجديد في ذلك؟

الآن، برحيل «إيزي»، شعرت «ليكسي» أنها مستنزَفة، واسترخت متراجعةً في كرسيها، تاركةً ذيل الحصان ينسدل على ظهر الكرسي.

نظرت إليها «بيْرل»:

ـ لا تبدين بخير تمامًا.

قالت «مِيا» بهدوء:

ـ عودي إلى الفراش، لقد عانيتِ كثيرًا اليوم.

في غرفة النوم، وضعتْ «مِيا» «ليكسي» على المرتبة مرة أخرى وفردت اللحاف فوقها وربَّتتْ ظهرها بلطف، كما لو أنها طفلة. كان ذلك مهدِّئًا على نحوٍ غريب.

قالت «ليكسي»:

ـ يا للمصيبة، المكالمة المسجلة. سيعرف والداي أنني تغيبت عن المدرسة.

تأخذ مدرسة «شايكِرِ هايتْس» الحضورَ على محمل الجد: في بداية كل صف دراسي، يملأ معلِّم استمارة «سكرانتون» تضع علامة على اسم أي طالبٍ غائب. في المكتب الرئيسي، تُمرِّر سكرتيرة أوراق الحضور عبر آلة وتصدر رسالة مسجلة إلى هاتف منزل الوالدين، منبهةً إيَّاهما إلى أطفالهما الغائبين.

قالت «مِيا»:

ـ أنا اتصلتُ بالمدرسة، بعد أن وصلتِ أنتِ و«بيرْل» إلى هنا. قلتُ إنكِ لا تشعرين أنكِ بخير وأنكِ ستغيبين طوال اليوم وغدًا.

شعرت «ليكسي» كما لو أن رأسها صُنع من الخشب.

غمغمت «ليكسي»، رافعةً نفسها على معصميها. بدأت الغرفة تتذبذب.

ـ لكنكِ بحاجة إلى أحد الوالدين ليعتذر عنكِ.

وضعت «مِيا» يدها على كتف «ليكسي» ودفعتها برفق إلى أسفل:

ـ أخبرتُهم أنني والدتكِ. كيف سيميزون الصوت؟

فكرت «ليكسي» أن صوت «مِيا» هادئ للغاية. كما لو أنها تعرف كيف تفلت من أي ورطة. سمعتْها «ليكسي» تقول:

ـ ارتاحي.

ونامت «ليكسي» على الفور تقريبًا.

حين استيقظت مرة أخرى، كان الوقت متأخرًا في المساء. استلقت في العتمة، تشاهد السماء وهي تُظلم، حتى طرقت «مِيا» الباب حاملةً كوب شاي خزفيًّا يتصاعد منه البخار. قالت:

ـ ظننتُ أنك ربما تشعرين بالعطش.

وقبِلت «ليكسي» الكوب وأخذت رشفةً ممتنَّة. نعناع. تحت أناملها كان الكوب الخزفي صلبًا ومريحًا، مثل كتفٍ قوية دافئة.

قالت «مِيا»:

ـ اتصلتُ بوالدكِ.

تذكرتْ «ليكسي» فجأة أن والدتها من المفترض أن تصل إلى المنزل بعد ظهيرة اليوم التالي.

همستْ:

ـ يا للمصيبة، هل أخبرتِه؟

ـ أخبرتُه أنك ستقضين الليلة هنا. أن «بيرْل» قد طلبتْ منكِ النوم هنا.

بعد لحظة، قالت «ليكسي»:

ـ شكرًا.

ـ يمكنك البقاء ما دمت احتجت إلى ذلك. لكنني أراهن أنكِ ستكونين مستعدة للذهاب إلى المنزل غدًا.

أدارت «ليكسي» الكوب الخزفي ببطء بين راحتيها.

ـ ثم؟

ـ أمَّا ما تفعلينه، ومن تخبرينه، فهو أمرٌ متروكٌ لكِ.

نهضتْ «مِيا» لتغادر، لكن «ليكسي» أمسكت يدها في فزع.

تجرعت رشفة الشاي، قالت:

ـ انتظري، هل تعتقدين أنني ارتكبتُ خطأً فادحًا؟ هل تعتقدين أنني شخصٌ بغيض؟

لم تمنح «ليكسي» «مِيا» قدرًا كبيرًا من الاعتبار، لكن فجأة شعرت «ليكسي» أن من المهم معرفة إذا ما رفضتْها «مِيا». في مواجهة لطف «مِيا»، لم يكن بوسع «ليكسي» أن تحتمل الأمر إذا ما رفضتْها.

جلست «مِيا» مرة أخرى، ما زالت تمسك يد «ليكسي»:

ـ أوه «ليكسي»، لقد كنتِ في موقفٍ بالغ الصعوبة. موقفٍ لا يريد أحد أن يكون فيه.

ـ لكن ماذا إذا اخترتُ التصرف الخطأ؟

توقفت «ليكسي»، مغلقةً عينيها، محاولةً أن تشعر بتلك الشرارة من الحياة التي كانت متيقنةً من طفوها بحركة دائرية في أحشائها من قبل.

ـ ربما وجب عليَّ أن أحتفظ به. ربما وجب عليَّ أن أخبر «برايان». ربما كان بإمكاننا أن نجعل الأمر ينجح.

سألتْ «مِيا»:

ـ هل كنتِ مستعدة لأن تصبحي أمًّا صالحة؟ الأمَّ التي تريدينها؟ الأمَّ التي يستحقها طفل؟

جلستا صامتتين لعدة لحظات، يد «مِيا» دافئةٌ على يد «ليكسي». شعرتْ «ليكسي» بحاجةٍ مُلحة لأن تميل برأسها على كتف «مِيا»، وبعد لحظة، فعلتْ ذلك. للمرة الأولى، تساءلتْ «ليكسي» كيف ستكون الحال لو أنها تنشأ مثل «بيرْل»، أن تكون «مِيا» أمها، أن تكون هذه الحياة حياتها. جعلتها هذه الفكرة تصاب بالدوار قليلًا.

قالت «مِيا» بنعومة:

ـ سوف تشعرين دائمًا بالحزن حيال ما حدث. لكن هذا لا يعني أنكِ اتخذتِ الخيار الخطأ. إنه فقط شيءٌ ينبغي أن تحمليه.

أجلستْ «مِيا» «ليكسي» إلى الخلف برفق وربَّتتْ على كتفها، ثم انحنت لتلتقط الكوب الخزفي الفارغ.

ثابرت «ليكسي»:

ـ لكن هل تعتقدين أنني اتخذت الخيار الخطأ؟

شعرتْ أن «مِيا» تعرف الإجابة.

توقفت «مِيا»، إحدى يديها على مقبض الباب. قالت:

ـ لا أعرف يا «ليكسي»، أعتقد أنكِ الوحيدة التي بوسعها معرفة ذلك.

أُغلق الباب بنعومةٍ خلفها.

* * *

حين فتحت «ليكسي» عينيها، كان الوقت مبكرًا. لم يكن هناك أثرٌ لأي أحد، لكن أحدهم أطفأ المصباح، ووضع كأس ماء إلى جانب فراشها.

كانت «بيرْل» في المطبخ، تتناول زُبديةً من حبوب الإفطار.

قالت لـ«ليكسي»:

ـ تبدين أفضل، هل أنتِ بخير؟

ـ في طريقي لأكون بخير.

جلستْ «ليكسي» بحذرٍ شديد على الكرسي الآخر غير المطابق في مواجهة «بيزْل». قالت:

ـ أين أمكِ؟

ـ في منزلكِ، ذهبتْ لتنظف مبكرًا. لديها وردية غداء في المطعم اليوم.

تذكرتْ «بيزْل» فجأة آراء «ليكسي» حول قضية «ماكولا» وقررتْ ألا تذكر سبب النشاط غير المعتاد: كانت «بيبي» ستقابل محاميها للإعداد لجلسة الاستماع، التي ستبدأ بعد أقل من أسبوعين، وطلبتْ من «مِيا» أن تغطي مكانها في العمل. بدلًا من ذلك دفعت علبة حبوب الإفطار باتجاه «ليكسي»، التي أمالتها نحوها وأخذت حفنة.

ـ هل نامت على الأرض؟

ـ معي.

ـ آسفة.

هزت «بيزْل» كتفيها:

ـ لا بأس. نحن معتادتان على ذلك. أحيانًا لا نملك مساحةً لفراشَين.

زلقتْ زُبديةً عبر الطاولة. قالت:

ـ لا تأكلي من العلبة، اسكبي القليل فيها. غريبة الأطوار.

بدتْ «ليكسي» أصغر سنًّا على نحوٍ ما، ولم تتمكن «بيزْل» من معرفة ما إذا كان ذلك بسبب نور الصباح، ناعم وأصفر شاحب، أم «ليكسي» نفسها ـ من دون مساحيق تجميل، شعرها منسدلٌ حول وجهها ـ أم غرابة هذه اللحظة، لحظة تناول «ليكسي» الإفطار في مطبخ «بيزْل»، بعد ما مرَّتا به معًا خلال اليوم السابق.

حركت «ليكسي» حبوب الإفطار في الزُّبدية:

ـ كانت أملِ لطيفة حقًّا معي الليلة الماضية.
قالت «بيرْل» بوخزة فخر:
ـ أمي بالفعل لطيفة.
ـ اعتقدتُ دائمًا أنها لا تحبني.
ـ حسنًا...
فكرت «بيرْل»، هي أيضًا، كان لديها الشعور نفسه، لكن بإمكانها الإحساس بأن هذا الشعور قد تغيَّر. تابعت:
ـ لا أعتقد أنكما تعرفان بعضكما البعض.
سألتْ «ليكسي» أخيرًا:
ـ هل تعتقدين أنها تحبني الآن؟
ابتسمت «بيرْل»:
ـ ربما.
ونهضت «ليكسي»، ألقت ذراعها حول «بيرْل»، وقبَّلت خدها.
في الليلة السابقة، بينما استلقت «مِيا» و«بيرْل» جنبًا إلى جنب على فراش «بيرْل» الصغير، مدت «مِيا» يدها لتدلِّك ظهر ابنتها، شيءٌ لم تفعله منذ سنوات. حين كانت «بيرْل» صغيرة، غالبًا ما تشاركتا فراشًا: كان من الأسهل إيجاد مرتبةٍ واحدة بدلًا من اثنتين، بالطبع، لكن كانت هناك راحةٌ كبيرة في أن تكونا متقاربتين، مثل حيواناتٍ صغيرة تتخذ مأوى عميقًا في جحرها. بينما نمت «بيرْل» لتصبح أطول، أصبحت مشاركة فراش أقل قابليةٍ للتنفيذ، ومرَّ وقتٌ طويل منذ استلقتا معًا على هذا النحو.
غمغمت «مِيا»:
ـ مسكينةٌ «ليكسي»، إنها في موضعٍ صعب.
كان هناك شيءٌ شعرتْ أنها بحاجةٍ لقوله، لكنها لم تكن متأكدة من الطريقة، وبعد لحظة بادرت ببساطة:
ـ هل أنتِ... هل...

سكتتْ.

ـ لم نَخُض هذا الحديث حقًّا من قبل.

ابتعدت «بيرْل» واعتدلت فجأةً على ظهرها:

ـ يا إلهي. أمي، دعينا لا نفعل ذلك.

ـ أودُّ التأكد فقط من أنكِ تعرفين كيف تتخذين احتياطاتك.

حكَّت «مِيا» خدشًا في إبهامها، جرحته في اليوم السابق، وهي تعمل على شيءٍ ما.

ـ أعرف أنكِ و«مودي» متقاربان.

شعرت «مِيا» أن جسد «بيرْل» بأكمله يصبح شديد التصلب، ثم، فجأة، يرتخي مرةً أخرى.

قالت «بيرْل»:

ـ أمي، أنا و«مودي» مجرد صديقين.

ـ لكن ربما ذات يوم ستريدان أن تكونا أكثر من ذلك. أعرف كيف تجري الأمور...

صمتت «مِيا». لم تعرف، أدركتْ فجأة، أنها لم تعرف كيف جرت الأمور على الإطلاق. عندما كانت مراهقة كان لديها الكثير من الأصدقاء، بعضهم فتيان، لكن ما مِن صداقةٍ مقرَّبة مثل الصداقة البادية بين ابنتها و«مودي». لقد كانا معًا دائمًا، بدا أنهما يكملان جُمل بعضهما البعض، ألقيا دعابات داخلية بلهجة تخصهما، وتشاركا إحالاتٍ أحيانًا فهمتْها بالكاد. أكثر من مرة رأت «مِيا» «بيرْل» تميل بلامبالاة لتصلح ياقة «مودي»، في ذلك اليوم، رأت «مودي» يمد يده ليلتقط ورقة شجر ضالة من شعر «بيرْل» بحنانٍ ليس بوسعها تسميته بأي شيءٍ غير الحب. لكن «مِيا» نفسها لم تشعر بهذا تجاه أي أحد، ليس وهي مراهقة، ليس عندما كانت في كلية الفنون، ليس منذ ذلك الحين. طرأ لها أنه باستثناء أخيها، حين كانا طفلين، لم يسبق لها قطُّ رؤية رجلٍ عارٍ. الأكثر من ذلك: أنها لم تلمس

قطُّ أي أحد وشعرت بهذا الدفء، هذا التوتر الكهربائي عند القُرب من شخصٍ آخر. الأمر الوحيد الذي منحها ذلك الشعور هو الفن، ثم، بالطبع، «بيرْل». ليس لديها شيءٌ مفيد لتقوله بهذا الشأن، كما اعتقدت، وتعاظم الصمت بينهما.

ـ أمي.

لم تتمكن «مِيا» في الظلام من معرفة ما إذا كانت «بيرْل» جادَّة أم مبتسمة.

ـ لستِ بحاجةٍ إلى القلق. أعدكِ. لا شيء بيني وبين «مودي».

انقلبت على جانبها، بعيدًا عن «مِيا»، تغلف الوسادة الآن صوت «بيرْل»:

ـ لقد حصلتُ على امتياز في صف الصحة. أعرف كل هذه الأمور.

كانت هذه هي الحقيقة، لم تكن هناك كلمة واحدة كاذبة فيما قالته. الإغفال، كما قررت «بيرْل»، ليس مثل الكذب. شعرتْ بـ«مِيا» تدلّك ظهرها مرة أخرى، المداعبة اللطيفة نفسها التي أخبرتها وهي طفلة أنها ليست وحيدة، وأن والدتها كانت معها، ممَّا يعني أن كل شيءٍ كان على ما يُرام. كما حدث طوال تلك السنوات الماضية، جعلتْها المداعبة تخلد للنوم على الفور.

بعد أن بدأت «بيرْل» تَغُطُّ بنعومة، حافظت «مِيا» على يديها في مكانهما، كما لو أنها نحَّاتٌ يشكِّل لوحَي كتفي «بيرْل». بوسع «مِيا» الشعور بقلب «بيرْل» يخفق دائمًا بضعف تحت راحتيها. مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن تركتْها «بيرْل» تقترب منها لهذه الدرجة. فكرتَ «مِيا» أن الوالدين يتعلمان الصمود تجاه الإقلال من لمس أولادهما شيئًا فشيئًا. حين كانت «بيرْل» رضيعة، كانت دائمةَ التشبُّث بـ«مِيا»، ارتدت «مِيا» «بيرْل» في حمَّالة لأنها تبكي كلما تركتها. نادرًا ما مرَّت لحظةٌ من اليوم من دون أن تكونا متعانقتين. وبينما كبرت «بيرْل» في العمر ظلت متشبثةً بساق والدتها، ثم بخصرها، ثم بيدها، كما لو أن هناك شيئًا ما في والدتها أرادت «بيرْل» أن تتشرَّبه عبر البشرة. حتى حين امتلكت فراشها الخاص،

اعتادت أن تزحف إلى فراش «مِيا» في منتصف الليل وتتخذ جُحرًا أسفل اللحاف المصنوع من رقع القماش، وفي الصباح تستيقظان متشابكتين، ذراع «مِيا» أسفل رأس «بيرْل»، أو ساقا «بيرْل» ملقاتان على بطن «مِيا». الآن، حين أصبحت «بيرْل» مراهقة، أصبحت مداعباتها نادرة ـ قبلةٌ سريعةٌ على الخد، عناقٌ بذراعٍ واحدة، بنصف قلب ـ وأصبحت جميع هذه المداعبات أغلى على النفس بسبب ندرتها. كانت هذه طبيعة الأمور، فكرت «مِيا»: لكن ما مدى مشقَّتها على النفس. الاحتضان العرَضِيُّ، رأسٌ مال للحظةٍ على كتفكَ، حين كان ما أردت أكثر من أي شيءٍ أن تضغطها إليك وأن تضمها بشدة لدرجة أن تنصهرا معًا ولا يمكن فصلكما أبدًا. كان الأمر مثل تدريب نفسكَ على شم رائحة التفاحة فحسب، في حين أن ما أردْته حقًّا هو أن تفترسها، أن تغرز أسنانك فيها وتلتهمها، بالبذور، بالقلب، وبكل شيء.

* * *

بعد أن ذهبتْ «بيرْل» إلى المدرسة، بقيتْ «ليكسي» في المنزل على طريق «وينسلو» طوال الصباح. استلقت على الفراش وانجرفت إلى النوم، كانت لا تزال نائمة حين عادت «مِيا» إلى المنزل من المطعم ومعها حاويتان من الفوم فيهما بقايا مكرونة وفكرة جديدة. حين رنَّ الهاتف في الثانية مساء، موقظًا «ليكسي» أخيرًا، كانت «مِيا» قد عادت إلى الطاولة ترسم بقلم رصاص على قطعة من الورق.

قالت «مِيا» ممسكة بالسماعة بينما خرجت «ليكسي» إلى غرفة المعيشة:

ـ أعرف يا «بيبي»، لكن لا يمكنك أن تتركي هذا الأمر ينال منكِ. سوف تكون جلسة الاستماع أسوأ من ذلك. هذا فقط قمة جبل الجليد.

نظرت إلى «ليكسي» ثم عادت إلى الهاتف:

ـ سيكون الأمر على ما يرام. خذي نفسًا عميقًا. سأتصل بكِ فيما بعد.

سألتْ «ليكسي» حين أغلقت «مِيا» الخط:

ـ هل كانت هذه.. والدة «ميرابيل»؟
لم تستطع تذكُّر اسم الطفلة الأصلي، ممَّا أشعرها بالحرج.
ـ إنها صديقتي.
عادت «مِيا» إلى مكانها عند الطاولة وجذبتْ «ليكسي» كرسيًّا إلى جوارها.
ـ كان هناك مقالٌ في الجريدة اليوم ذكر عنها أمورًا قاسية، أشار إلى أنها أمٌّ غير مؤهلة.
نظرت إلى «ليكسي» قائلة:
ـ ربما عرفتِ هذا بالفعل، لأن والدكِ يمثِّل الزوجين «ماكولا».
تورَّدتْ «ليكسي». كان والدها شديد الانشغال مؤخرًا، يبقى في مكتبه لوقتٍ متأخر للتحضير لجلسة الاستماع، التي تقترب سريعًا، لكنها كانت مشغولة للغاية مع «برايان»، بالجامعة، وبزيارة العيادة وكل ما أدى إليها، كي تولي الأمر اهتمامًا كبيرًا.
قالت «ليكسي» بتصنُّع:
ـ أنا لم أعرف شيئًا.
ثم:
ـ هل هي كذلك؟ أعني، أمٌّ غير مؤهلة؟
التقطت «مِيا» قلمها الرصاص وعادت إلى رسمها مرة أخرى. شبكة، كما اعتقدت «ليكسي»، لا، إنه قفص. قالت «مِيا»:
ـ هل كانت كذلك من قبل؟ ربما. لقد كانت في موقفٍ عصيب.
ـ لكنها هجرت رضيعتها.
كان هذا شيئًا سمعتْ «ليكسي» والدتها تقوله عددًا من المرات ـ في الهاتف مع السيدة «ماكولا»، وفي أي وقت ذُكرت فيه القضية ـ يكفي لتثبيته في ذهنها كحقيقة.
قالت «مِيا»:

ـ أعتقد أنها كانت تحاول أن تفعل ما هو أفضل من أجل الطفلة. لقد عرفتْ أنها لم تستطِع تولي الأمور.

خربشت «مِيا» ملاحظة سريعة في ركن رسمها. تابعتْ:

ـ السؤال هو ما إذا كانت الأمور لا تزال على حالها، ما إذا كان يجب أن تحصل على فرصة أخرى.

ـ وهل تعتقدين أنها يجب أن تحصل على فرصة أخرى؟

لم تُجِبْ «مِيا» للحظة. ثم قالت:

ـ أغلب الوقت، كل شخص يستحق فرصة أخرى. جميعنا نرتكب أفعالًا نندم عليها بين الحين والآخر. يجب عليكِ فقط أن تحمليها معكِ.

غرقت «ليكسي» في الصمت. من دون وعي، زحفتْ إحدى يديها إلى أسفل بطنها، حيث بدأ وجعٌ ما يتفتح.

قالت أخيرًا:

ـ من الأفضل أن أعود إلى المنزل؛ المدرسة على وشك الانتهاء، ومن المحتمل أن والدتي سوف تعود الآن.

مسحت «مِيا» فتات الممحاة من الطاولة ونهضت. قالت بلطفٍ جعل «ليكسي» تشعر بالوجع:

ـ هل أنتِ مستعدة؟

قالت «ليكسي»:

ـ لا، لكن هل سأكون مستعدة أبدًا؟

نهضت قائلة:

ـ شكرًا على... حسنًا. شكرًا.

سألت «مِيا» بينما جمعت «ليكسي» أغراضها:

ـ هل ستخبرينها؟

فكرت «ليكسي»:

ـ لا أعرف، ربما. ليس الآن. لكن ربما يومًا ما.

جذبت مفاتيح سيارتها من جيبها وحملت حقيبتها. أسفل الحقيبة كانت استمارة مغادرة العيادة وردية اللون. توقفت «ليكسي»، ثم كوَّرتْها وألقتْها في صندوق القمامة، ثم رحلتْ.

١٦

كانت «مِيا» على حق: بحلول وقت بدء جلسة الاستماع، كانت هناك سلسلة من المقالات الصحفية ـ مطبوعة ومتلفزة ـ حول «بيبي تشاو» وأهليَّتها لتكون أُمًّا. صورتْها بعض هذه المقالات كمهاجرةٍ كادحة جاءت بحثًا عن فرصة وهزمتْها ـ لوقت مؤقت، كما أصرَّ مؤيدوها ـ العوائقُ والظروف. كانت مقالاتٌ أخرى أقل لطفًا: كانت «بيبي» غير مستقرة، لا يُعتمد عليها، مثالًا لأسوأ أنواع الأمهات. في الأسبوع الأخير من مارس، فيما بدأت جلسة الاستماع، ازدحمت درجات سلَّم مبنى المحكمة بالصحفيين ومراسلي الصحافة الصفراء على حد سواء، الجميع مسعورون للحصول على شذراتٍ من أي شيء ظهر من الشهادة.

لأن جلسة الاستماع ظلت خاصة، مثل جميع الإجراءات في محكمة الأسرة، تمكنت المقالات الصحفية من أن تظل مثيرة وبسيطة، أثارت نقاشًا بسيطًا عند كلا الجانبين. فقط هؤلاء الموجودون في قاعة الاستماع ـ الزوجان «ماكولا»، محاميهما، السيد «ريتشاردسون»، «إد ليم»، «بيبي» والقاضي نفسه ـ استمعوا لجميع ما حدث، بكل تعقيداته الفوضوية.

وكان ما حدث معقدًا. كان شاقًّا على نحوٍ رهيب، بطيئًا على نحوٍ فاجع، قصة حميمية على نحوٍ مؤلم تكشَّفت على مدار ذلك الأسبوع، ذهابًا وإيابًا

بين السيد «ريتشاردسون» و«إد ليم»: أحدهما يوضح وجهة نظر موكِّله، والآخر يلتقطها بخبرة ويقلبها بأناقة رأسًا على عقب.

* * *

حين عُثر على الطفلة، كانت تعاني من نقص التغذية. كان يافوخها غائصًا، وهي علامةٌ دالةٌ على الجفاف، وضلوعها والعظام الصغيرة في عمودها الفقري باديةٌ أسفل بشرتها، مثل سلسلة من الخرز. في عمر شهرين، كانت تزن ثمانية باوندات فقط.

لكن الطفلة رفضت أن ترضع. حاولت «بيبي» مرارًا وتكرارًا حتى تشققت حلمتاها ونزفتا دمًا. لقد بكت، ثدياها متصلبان بحليب لم تستطع إرضاعه لطفلتها، الرضيعة تصرخ في حضنها، تشيح بوجهها الصغير في شراسة، وعند صوت صرخات الطفلة تدفق الحليب الوردي من ثديي «بيبي» وتقطر في حضنها. بعد أسبوعين من هذا، جفَّ حليب «بيبي». لقد أنفقت آخر سبعة دولارات بحوزتها على حليب الأطفال ثم فرغت محفظتها إلا من ورقة مزيفة بمليون دولار أعطاها أحدهم لها في العمل، من أجل الحظ السعيد.

دلَّ طفحٌ جلديٌّ حاد مكان الحفاض على بشرة الطفلة على أنها وُضعت في حفاض متسخ لساعات ـ إن لم يكن لأيام ـ من دون انقطاع.

لكن «بيبي» لم يكن لديها مال للحفاضات، تذكَّر أنها أنفقت آخر سبعة دولارات بحوزتها على حليب الأطفال. لقد فعلت ما بوسعها. لقد نزعت الحفاضات المتسخة، كشطتها لتنظفها قدر استطاعتها، أعادت تثبيتها حول خصر طفلتها. لقد دهنت الفازلين ـ الشيء الوحيد الذي لديها ـ على البقع الحمراء الغاضبة التي تفتحت على ردفَي طفلتها.

سمع الجيران الطفلة تصرخ لساعاتٍ من دون انقطاع. «طوال النهار، طوال الليل»، قال الجار في الشقة رقم «3B»: «تصرخ حين غادرتُ إلى العمل

صباحًا. تصرخ حين عدتُ إلى المنزل ليلًا». لقد فكر في استدعاء الشرطة، لكنه لم يشأ التدخل. «آثرتُ الاهتمام بشؤوني».

لكن «بيبي» بكت أيضًا. نعم، لقد استلقت وانتحبت، أحيانًا والطفلة مستلقية عبر صدر «بيبي»، تمسّد ظهر الطفلة وشعرها على نحوٍ محموم، أحيانًا بمفردها، على الأرض بجوار درج منضدة الزينة الذي استخدمته كمهدٍ للطفلة، بينما ناحت الطفلة بجوارها، يتصاعد صوتاهما إلى السطح في تناغم مؤلم.

لم تسْعَ «بيبي» لطلب المساعدة من إخصائي نفسي أو طبيب خلال شهر ونصف من أمومتها المضطربة.

كان عليها أن تفعل ذلك، هذا صحيح. لكن لم تكن لديها أي فكرة إلى أين تتجه. لغتها الإنجليزية متوسطة في أفضل حالاتها، فهمها لما تقرأه في أدنى حالاته. لم تعرف أين تجد موظفي الخدمة الاجتماعية الذين ربما أمكنهم مساعدتها، لم تعرف حتى أنهم موجودون. لم تعرف كيف تتقدم بطلب للرعاية الاجتماعية. لم تعرف أن الرعاية الاجتماعية ممكنة. حين نظرت إلى الأسفل، لم تجد شبكة أمان، رأت فقط غابة من ناطحات السحاب المنتصبة مثل الإبر التي سوف تُخوْزقها. هل يمكنك لومها لأنها دسّتْ طفلتها على إفريزٍ آمن بينما هوَتْ هي نفسها؟

تركت «بيبي» طفلتها مبكرًا في صباح يوم ٥ يناير ١٩٩٧، عند مركز الإطفاء الأول على طريق «كينزمان». تلك الليلة هبطت درجة الحرارة إلى إحدى وثلاثين درجة فهرنهايت. مع الرياح الباردة، بلغت درجة الحرارة سبع عشرة درجة. في الثانية والنصف صباحًا، حين فتح رجال الإطفاء الباب واكتشفوا الطفلة، مستلقية في صندوق من الكارتون، كان الثلج قد بدأ يتساقط للتو، وكل شيء مغطّى بغبارٍ فضيٍّ بلوري.

على الرغم من أن الطقس كان شديد البرودة بالفعل حين وضعت «بيبي» طفلتها على درجات سلّم مركز الإطفاء، فإن الطفلة كانت ترتدي ثلاثة قمصان وبنطالَين ومُقمَّطةً في أربع

بطاطين، كل قطعة ملابس أطفال امتلكتْها «بيبي». دُسَّتْ يدا الطفلة الصغيرتان بالداخل لإبقائهما دافئتين وسُحِبت طيَّةٌ من البطانية فوق رأسها لتحميها من الرياح. بحسب أفضل تقديرات الجميع، فقد ظلت بالخارج لعشرين دقيقة تقريبًا حين فتح رئيس مركز الإطفاء الباب، وربما ظلت في الثلج لدقيقتين. بدأ قدرٌ قليل فقط من الثلج يلتصق بالبطانية، مما جعلها تبدو وكأنما رُشَّت بالسكَّر، أو غُمست في أحجار الماس.

قضت «بيبي» في البلاد عامين فقط بحلول وقت ولادة ابنتها، وعامًا بالكاد في كليفلاند. شغلت ثلاث شقق في الوقت الذي قضته في كليفلاند، فسخت العقد في إحداها وتأخرت وعجزت عن سداد الإيجار كاملًا في أخرى، ولم تشغل قطُّ وظيفة تدفع أكثر من الحد الأدنى للراتب.

لقد كانت مُحرَجة، كل شهر، لأنها متأخرة. في أحد الشهور دفعت الإيجار كاملًا ثم لم يتبقَّ معها مالٌ كافٍ للبقالة وللكهرباء: يا له من أمر، أن تختار بين الجوع أو الظلام. بعد ذلك، قررت أن تدفع ما تستطيع دفعه، وفي الأيام التي تحصل فيها على إكراميات جيدة، كتبت اسمها على قطعة ورق، وطوت عشرين دولارًا بداخلها، وزحلقتها تحت باب مالك شقتها. تتبَّعت الرصيد على مظروفٍ قديم كان دائمًا بالخارج على نضد المطبخ. جرى الحساب كما يلي:

سبتمبر باقي ١٠٠ $

٨/ ٩ دفعتُ ٢٠ $

١٣/ ٩ دفعتُ ٢٠ $

١٨/ ٩ دفعتُ ٢٠ $

أكتوبر باقي ٨٠ $ لذلك فالباقي الآن ١٢٠ $

٣/ ١٠ دفعتُ ٢٠ $

١٤/ ١٠ دفعتُ ٢٠ $

٢٦/ ١٠ دفعتُ ٢٠ $

نوفمبر باقي ٧٠ $ لذلك فالباقي الآن ١٣٠ $

بمجرد تأخرها عن الدفع، كيف كان بوسعها أن تسدد ما تراكم عليها؟ وما النوع الآخر من الوظائف الذي بوسعها الحصول عليه، بمعرفتها القليلة بالإنجليزية، وعدم امتلاكها حتى ما يعادل شهادة التعليم العام؟

أثناء حملها، وحتى وقتٍ قصير قبل تركها لطفلتها، عملت «بيبي» في مطعم حيث قُبِض على أحد الطُّهاة بتهمة ترويج الهيروين. قبل ذلك الوقت، ارتاب عددٌ من العاملين الآخرين في وجود شيءٍ ما بينهما. كانت هناك مغازلة. في مناسبة واحدة على الأقل، قام الطاهي موضوع النقاش بتوصيل «بيبي» إلى المنزل في آخر الليل. أليس من المحتمل أن «بيبي»، مع هذا الزميل المشكوك في أمره، قد تورطت في شيءٍ غير مشروع؟

الطاهي، «فيني»، قد روَّج الهيروين بالفعل. هذا شيءٌ لا يمكن إنكاره. لكن اهتمامه بـ«بيبي» كان أفلاطونيًّا بحتًا. لقد أشفق عليها، مشاهدًا بطنها ينتفخ، عارفًا أن حبيبها الجبان قد تركها من دون مددٍ أو سند. قبل ذلك بعشرة شهور، استقلت أخته القارب نفسه، وكل ليلة، حين عاد إلى الشقة التي يتشاركانها مع والدتهما، بدت «تيريسا» أكثر كآبة، يصرخ الطفل في حضنها أو يسترخي على كتفها كرجلٍ مُسن، يبدو كلاهما على الأريكة مُسنَّين ومرهقَين. هل من عجبٍ أنه حين كان يرى «بيبي» كل صباح، سوف يشعر قلبه بغصَّة؟ هل من الخطأ بالنسبة له أن يمزح معها؟ محاولًا جعلها تبتسم بما أنه لم يعد بإمكانه أن يجعل أخته تبتسم؟ أن يوصلها إلى المنزل حين رأى قدميها تتورمان حتى كادت أربطة حذائها أن تتفكك؟

بالنسبة لـ«بيبي»: رأت «فيني» جذابًا، هذا صحيح. لكن انجذابها منبعه إلى حدٍّ كبير لطفُه معها، وفكرة أن يلمسها رجل-أي رجل- والطفلة تخبط بكعبيها داخلها ملأتْها بالنفور. حين قبض رجال الشرطة على «فيني»، شعرت «بيبي» بحزنٍ عميقٍ من أجله، كما لو أنه أخٌ لن تراه مرةً أخرى.

وظيفة «بيبي» الحالية كنادلة تتيح لها الحد الأدنى من الراتب الذي قررته الولاية للعاملين الحاصلين على إكراميات: ٢,٣٥ دولار للساعة. عن خمسين ساعة أسبوعيًّا بالإضافة إلى الإكراميات، سيصبح متوسط دخلها كل شهر ٣١٧,٥٠ دولار. هل تأمل منطقيًّا أن تعول طفلة؟ وأن توفر جميع احتياجاتها، بهذا الدخل؟ ألن تُجبَر على اللجوء للرعاية الاجتماعية، وقسائم الطعام، ووجبات الغداء المدرسية، ألن تصبح هي وطفلتها مستنزفتَين لموارد المجتمع؟

> لكن سوف يكون هناك حبٌّ أيضًا، الكثير من الحب. مع وجود ذلك، يمكنك تدبر أمرك بأقل القليل. كان الدخل كافيًا للأساسيات: إيجار، طعام، ملابس. كيف تزن حب أمٍّ في مواجهة تكلفة تنشئة طفلة؟

كان من الواضح تمامًا، أن «مارك» و«ليندا ماكولا» لديهما جميع الموارد الضرورية لتنشئة طفلة. السيد «ماكولا» لديه وظيفة ثابتة جيدة الأجر، والسيدة «ماكولا» أمٌّ بدوام كامل للطفلة وتخطط أن تظل هكذا إلى أجلٍ غير مسمى. امتلكا منزلهما الخاص في حيٍّ آمنٍ، ثري. في الإجمال كانا في المجموعة السكانية المئوية السادسة والتسعين من الناحية المالية. بينما كانت الطفلة في عهدتهما، ارتدَت ملابس جيدة، وتغذَّت جيدًا، واعتُنِيَ بها جيدًا، وخضعت لفحوصاتٍ طبية منتظمة، هناك قدرٌ كبير من الاندماج الاجتماعي، وقدرٌ كبيرٌ من الإثراء، مثلًا: وقت القصة في المكتبة، وسباحة الرُّضَّع، ودروس «أمي وأنا» الموسيقية. لقد فُحِص منزل «ماكولا» بصرامة وشُهِد له أنه خالٍ من معدن الرصاص.

فضلًا عن ذلك، أظهر الزوجان «ماكولا» أنفسهما على أنهما مكرَّسان بالكامل لتنشئة طفل. أظهرت السجلات أنهما قد حاولا إنجاب طفل لمدة عشر سنوات، وانتظرا عملية التبني لأربع سنواتٍ أخرى. لقد سعيا لمشورة كل طبيب استشاري في منطقة كليفلاند الكبرى - بمن فيهم أطباء

الخصوبة في مستشفى كليفلاند - ثم تعاملا مع أشهر وكالة للتبني في الولاية. ألا يشير هذا إلى أنهما سوف يمنحان الطفلة أفضل رعاية مُحبة ممكنة، مع كل فرصة؟

لكن الطفلة لديها أمٌّ بالفعل. تتدفق دماؤها في عروق الطفلة. من التي حملت الطفلة في رحمها لشهور؟ من التي شعرتْ بركل الطفلة وتحركها في أحشائها؟ من التي ولدت الطفلة في مخاض استمر لإحدى وعشرين ساعة حتى شقت طريقها ووجهها لأعلى صارخةً في الإضاءة الساطعة لغرفة الولادة؟ من التي انفجرت دامعة منتشية لدى سماعها صوت طفلتها للمرة الأولى، التي - حتى قبل أن تمسح الممرضات الطفلة لتنظيفها، حتى قبل أن يقطعن الحبل السُّري - لمستْ كل جزء في طفلتها، فتحتَي أنفها الدقيقتَين المتوهجتَين، الظلال الضعيفة لحاجبيها، باطن قدميها الذي له ملمس الرحم، تتيقن من أنها حاضرةٌ بالكامل، تحفظها عن ظهر غيب.

هل تجب إعادة الحضانة إلى «بيبي»، سوف تُنشئ طفلتها، بالطبع، كأُمٍّ عزباء عاملة. من الذي سيعتني بالطفلة إذا كانت «بيبي» في العمل؟ ألن تكون الطفلة أفضل حالًا في منزل مع والدين - أحدهما لا يعمل وسوف يكون بالمنزل ينشئ الطفلة طوال الوقت - بدلًا من مركز الرعاية النهارية لمعظم اليوم؟ ألن تكون الطفلة أفضل حالًا في منزلٍ مع أمٍّ وأب؟ أظهرت الدراسات أهمية وجود شخصية ذكر قوي في حياة الطفل؟

تم التعرُّض لهذا الأمر مرارًا وتكرارًا: ما الذي جعل امرأةً ما أُمًّا؟ البيولوجيا وحدها أم الحب؟

* * *

في قاعة المحكمة، كان السيد «ريتشاردسون» ممتنًّا لأن أحدًا لم يسمع ما قيل في اليوم الأخير، حين استُدعِيَت السيدة «ماكولا» للحديث. جاءت إلى المقدمة - في محكمة الأسرة، لم تكن هناك منصة للشاهد، فقط كرسي، موضوع إلى

جوار القاضي ـ وجلستْ، وكان بإمكانه أن يرى مدى عصبيتها بالطريقة التي صالبت بها كاحليها وفكت تصالبهما، بالطريقة التي لم تتمكن بها من الاستقرار على موضع يديها، على ذراعَي الكرسي أم على قماش تنورتها المرتخي. لم يصدمه من قبل أن منصة الشاهد في المحكمة، بكل رسميتها ومهابتها، أخفتكَ من الخصر حتى القدمين: أن العالم على الأقل لن يرى قدميك تتململان، أنه بقدر ما قد يُحكم عليك، على الأقل لن يُحكم على قدميك.

أخذ «إد ليم» وقته في بذل الجهد لسؤالها. كان رجلًا طويلًا، خاصةً بالنسبة لآسيوي: ست أقدام، نحيلًا وممشوقًا، مع بنية لاعب كرة سلة، كان بالفعل قد لعب في مركز الهجوم الأمامي في فريق منتخب «شايكِر» في الستينيات. فصَلتْه عن السيدة «ماكولا» ثلاثة أعوام فقط في المدرسة، طوال حياتيهما من مقيمي «شايكِر» وخريجيها، وقبل هذه القضية تذكَّرَها فقط كطالبة في السنة الأولى، خجولًا، وممتلئة الجسم قليلًا، وذات شعر بُني ذهبي طويل. كان أحد طالبَين آسيويَّين فقط في دفعته، الأخرى كانت «سوسي تشانج»، قال الأطفال مازحين إنهما سوف يكبران ويتزوجان بعضهما بعضًا. لم يفعلا، بالطبع، رحلت «سوسي» إلى ولاية أوريجون بعد التخرج مباشرة، لكن في النهاية قابل «إد» بالفعل فتاة صينية لطيفة في الجامعة وتزوجها، طفلة من الجيل الأول مثله. على أي حال، لم تتذكر السيدة «ماكولا» شيئًا من هذا، ولم تتذكر حتى «سوسي تشانج»، التي كانت إحدى فتيات فريق التشجيع لمدة عام إلى جوارها.

قال «إد ليم»، واضعًا قلمه على طاولته:

ـ الآن، سيدة «ماكولا»، لقد قضيتِ كل حياتكِ هنا في «شايكِر»، هل هذا صحيح؟

أقرَّت السيدة «ماكولا» بأن هذا صحيح:

ـ مدرسة «شايكِر هايتْس» الثانوية، دفعة ١٩٧١.

ـ هل ارتدتِ مدارس «شايكِر» حتى تخرُّجكِ؟

ـ من الروضة. في مدرسة «بوليفارد»، حين كانت لا تزال من الروضة حتى الصف الثامن. ثم المدرسة الثانوية بالطبع.
ـ ثم التحقتِ بجامعة «أوهايو»؟
ـ نعم، دفعة ١٩٧٥.
ـ وبعد ذلك عدتِ إلى «شايكِر هايتْس». مباشرة؟
ـ نعم، لقد عُرِضتْ عليَّ وظيفةٌ هنا، أنا وزوجي ـ خطيبي في ذلك الوقت ـ عرفنا أننا نودُّ أن ننشئ عائلةً هنا.
ألقت نظرةً سريعة على السيد «ريتشاردسون» عند طاولته، ومنحها أبسط إيماءة. لقد تحدثنا عن هذا في التحضير للجلسة: التركيز كان على تذكير القاضي، كلما أمكن ذلك، بمدى رغبتها هي والسيد «ماكولا» في هذه الطفلة، مدى كونهما عائلة مهتمَّة، مدى تكريس أنفسهما للصغيرة «ميرابيل».
ـ إذن فقد عشتِ كامل حياتكِ حقًّا في ولاية أوهايو.
جلس «إد ليم» على ذراع كرسيِّه. قال:
ـ والدا «ماي لينج»، كما نعرف جميعًا الآن، جاءا من جوانجدونج. أو ربما تعرفينها بـ«كانتون»؟ هل ذهبتِ إلى هناك من قبل؟
تململت السيدة «ماكولا» في جلستها:
ـ نحن نخطط بالطبع لأخذ «ميرابيل» إلى هناك في رحلة تراثيَّة، حين تصبح أكبر قليلًا.
ـ هل تتحدثين اللهجة الكانتونية؟
هزت السيدة «ماكولا» رأسها.
ـ «الماندرين»، «الشانجهاينية»، «التايشانية»، أي لهجة من لهجات اللغة الصينية؟
ضغط السيد «ريتشاردسون» على قلمه بانزعاج. اعتقد أن «إد ليم» كان يتفاخر الآن.
سأل «إد ليم»:

ـ هل درستِ الثقافة الصينية على الإطلاق؟ التاريخ الصيني؟
قالت السيدة «ماكولا»:
ـ بالطبع سوف نتعلم كل شيء عن ذلك. من المهم لنا جدًّا أن تظل «ميرابيل» متصلةً بثقافتها الأصلية. لكننا نعتقد أن أهم شيء أن يكون لديها بيتٌ مُحب، مع والدين مُحبين.
نظرت للسيد «ريتشاردسون» مرة أخرى، مسرورة لأنها نجحت في التعامل مع هذا الأمر. لقد قال إنكما والدان اثنان، يمكن أن يشكِّل هذا ميزة كبرى على أمٍّ عزباء.
قال «إد ليم»:
ـ من الواضح أنكِ والسيد «ماكولا» مُحبان للغاية. لا أعتقد أن لدى أي أحد أي شكوك حول ذلك.
ابتسم «إد ليم» للسيدة «ماكولا»، وتصلَّب السيد «ريتشاردسون» في جلسته. عرف ما يكفي عن المحامين ليعرف متى يوشكون على إغلاق الفخ.
ـ الآن، ما الذي ستفعلينه بالضبط لتبقي «ماي لينج» «متصلةً بثقافة مولدها»، كما صُغتِ الأمر؟
كانت هناك سكتةٌ طويلة.
ـ ربما كان هذا سؤالًا كبيرًا. دعينا نعود إلى الوراء. لقد كانت «ماي لينج» معكِ لمدة أربعة عشر شهرًا الآن؟ ماذا فعلتِ، في الوقت الذي قضتْه معكِ، لوصلها بثقافتها الصينية؟
ـ حسنًا.
سكتةٌ أخرى، طويلةٌ للغاية هذه المرة. أراد السيد «ريتشاردسون» أن تقول السيدة «ماكولا» شيئًا، أي شيء.
ـ «بيرْل أوفْ ذي أوريَنْت» أحد مطاعمنا المفضلة. نحاول أن نصطحبها إلى هناك مرة في الشهر. أعتقد أنه من الجيد بالنسبة لها أن تسمع بعض اللغة الصينية، لإدخالها إلى أذنيها. أن تنشأ وهي تشعر أن

هذا طبيعي. وبالطبع أنا متأكدة أنها سوف تحب الطعام بمجرد أن تصبح أكبر سنًّا.

خيَّم صمتٌ مثيرٌ للتثاؤب على قاعة المحكمة. شعرت السيدة «ماكولا» بالحاجة لملئه:

ـ ربما سنأخذ درسًا في الطهي الصيني في مركز الترفيه ونتعلم معًا، حين تصبح أكبر سنًّا.

لم يقل «إد ليم» شيئًا، وتابعت السيدة «ماكولا» هذرها بعصبية:

ـ نحن نحاول أن نكون شديدَي الحساسية تجاه هذه القضايا بقدر استطاعتنا.

جاء الإلهام:

ـ مثلما أردنا في عيد ميلادها الأول أن نحضر لها دمية على شكل دب، واحدٌ بإمكانها أن تحتفظ به كقيمةٍ موروثة. كان هناك دب بُني، دب قطبي، ودب باندا، وفكرنا في الأمر واستقر قرارنا على الباندا. اعتقدنا أنها ربما تشعر بأنها أكثر ارتباطًا به.

سأل «إد ليم»:

ـ هل تمتلك «ماي لينج» أي دُمى؟

قهقهت السيدة «ماكولا»:

ـ بالطبع، الكثير جدًّا منها. إنها تحبها. تمامًا مثل أي فتاة صغيرة. نحن نشتري لها دُمى، وأختي تشتري لها دُمى، وأصدقاؤنا يشترون لها دُمى...

قهقهت مرة أخرى، وتصلب فك السيد «ريتشاردسون».

ـ لا بد أن لديها دزينة أو أكثر.

ثابر «إد ليم»:

ـ وما أشكال الدُّمى؟

تقطب حاجبا السيدة «ماكولا». قالت:

ـ إنها.. إنها دُمى. بعضها على شكل أطفال، بعضها فتيات صغيرات...

كان من الواضح أنها لم تفهم السؤال.

ـ بعضها يتناول زجاجات الرضاعة، وبعضها، يمكنك تغيير أثوابها، وإحداها تغلق عينيها حين تُرقدها، وأغلبها يمكنك أن تصفف شعرها...

ـ وما لون شعرها؟

فكرت السيدة «ماكولا» للحظة.

ـ حسنًا.. أشقر. أغلبها. واحدة لديها شعرٌ بُني أو ربما اثنتان.

ـ ماذا عن الدُّمية التي تغلق عينيها؟ ما لون عينيها؟

ـ أزرق.

صالبت السيدة «ماكولا» ساقيها، ثم فكت تصالبهما مرة أخرى.

ـ لكن هذا لا يعني أي شيء. انظر إلى محلات الألعاب، أغلب الدُّمى شقراء وزرقاء العينين. أعني، هذا هو الأمر المعتاد فحسب.

كرر «إد ليم»:

ـ الأمر المعتاد.

وراود السيدة «ماكولا» الشعور بأنه قد تم الإيقاع بها، على الرغم من أنها لم تكن متأكدة من السبب.

أصرتْ:

ـ إنه ليس شيئًا عنصريًّا. إنهم فقط يريدون صنع فتاة عامة صغيرة. تعرف، واحدة جذابة بالنسبة للجميع.

ـ لكنها لا تشبه الجميع، أليس كذلك؟ إنها لا تشبه «ماي لينج».

نهض «إد ليم»، فجأة، مرتفعًا فوق قاعة المحكمة:

ـ هل تمتلك «ماي لينج» أي دُمى آسيوية، بمعنى أي دُمى تشبهها؟

ـ لا.. لكن حين تصبح أكبر سنًّا، وتصبح مستعدة، يمكننا أن نشتري لها «باربي» صينية.

سأل «إد ليم»:

ـ هل سبق لكِ أن رأيتِ «باربي» صينية؟

تورَّدت السيدة «ماكولا»:

ـ حسنًا.. أنا لم أبحث عن واحدةٍ من قبل حتى الآن. لكن لا بد من وجود واحدة.

ـ لا تُوجد واحدة، شركة «ماتِل» لم تصنع واحدة.

كانت «مونيك»، ابنة «إد ليم»، طالبة في السنة الثالثة الثانوية الآن، ولكن بينما كبرت، لاحظ هو وزوجته باكتئاب أنه لا توجد دُمى تشبهها. في عمر العاشرة، بدأت «مونيك» تستغرق في تأمل كاتالوج لطلب الدُّمى بالبريد كما لو أنه كتاب، دُمى باهظة الثمن، لها أسماء وقصص وأزياء تاريخية، مفصَّلة بسخف وباهظة الثمن على نحوٍ أسخف. سوف تخبرهما: فيما تتبع إصبعها الخط الخارجي للدُّمية الشقراء التي تشبه «جيني كوين» بالفعل: وجه حلو بغرةٍ كثيفة، ممتلئة الجسم قليلًا.

ـ «جيني كوين» لديها هذه الدُّمية. ولقد صنعوا للتو دُمية جديدة حمراء الشعر. سوف تحضرها أمها لأختها «سارة» في عيد «الهاناكاه».

«سارة كوين» لديها شعرٌ أحمر مشتعل، لون عملة معدنية في شمس الصيف. لكن ليست هناك دُمية ذات شعر أسود، ناهيك عن وجهٍ يشبه وجه «مونيك» من قريب أو بعيد. لقد ذهب «إد ليم» إلى أربعة متاجر ألعاب مختلفة باحثًا عن دمية صينية، سوف يحضرها لابنته، مهما كان السعر، لكن لا يوجد شيء كهذا.

ذهب بعيدًا إلى حدِّ الكتابة لشركة «ماتل»، سائلًا إياهم إذا كانت هناك دمية «باربي» صينية، وقد أجابوا بنعم، أنهم قدموا «باربي شرقية» وأرسلوا له منشورًا دعائيًّا. نظر إلى هذا المنشور لوقت طويل، إلى زيِّ «باربي» الغريب غير المتجانس، المصنوع من الساتان الأحمر والذهبي ولا يشبه أي شيء رآه على امرأة صينية أو يابانية أو كورية، على شعرها الأسود الطويل حتى الخصر وعينيها المائلتين. **أنا من هونج كونج**، هكذا قال المنشور الدعائي. **إنها في الشرق، أو الشرق الأقصى. في أرجاء الشرق،**

يتسوق الناس في أسواق في الهواء الطلق حيث البضائع مثل الأسماك، الخضراوات، الحرير، والتوابل معروضة على الملأ. في العام السابق، ذهب بصحبة زوجته و«مونيك» في رحلة إلى هونج كونج، التي صدمتهم، في المقام الأول، كوسادة دبابيس من ناطحات السحاب المتلألئة. من مركز تجاري زجاجي عملاق، اشترى كنزة من الكشمير ذات لون رمادي فاتح ارتداها أسفل سترة بذلته في الأيام الباردة. تعالوا لزيارة الشرق. أعرف أنكم ستجدونه غريبًا ومثيرًا للاهتمام.

في النهاية، رمى المنشور الدعائي. لقد سمع من أصدقاء لديهم أطفالٌ أصغر سنًّا، أن خط إنتاج الدُّمى الباهظة لديه الآن دُمية آسيوية للبيع - وبعض الدُّمى السوداء، أيضًا - لكنه لم يرها قطُّ. بلغت «مونيك» السابعة عشرة من عمرها الآن، وكبرت على امتلاك الدُّمى منذ وقت طويل.

الآن، عودةً إلى قاعة المحكمة، خطا «إد ليم» بضع خطوات:

- ماذا عن الكتب، ما نوع الكتب التي تقرئينها مع «ماي لينج»؟

بدأت السيدة «ماكولا» تفكر:

- حسنًا. نقرأ لها كثيرًا من الأعمال الكلاسيكية، «تصبح على خير أيها القمر» بالطبع، و«الأرنب «بات»»، إنها تحبه، و«مادلين»، و«إلويز»، و«توتٌ أزرق من أجل سال». لقد احتفظتُ بجميع كتبي المفضلة منذ أن كنتُ طفلة، وإنه لأمرٌ عزيز جدًّا مشاركتها مع «ميرابيل».

- هل لديكِ أي كتب تبرز شخصياتٍ صينية؟

كانت السيدة «ماكولا» مستعدة لهذا السؤال:

- نعم، في الحقيقة، لدينا. لدينا «الإخوة الصينيون الخمسة»، إنه إعادة سرد لحكاية شعبية صينية شهيرة.

- أعرف هذا الكتاب.

ابتسم «إد ليم» مرة أخرى، وتصلبت كتفا السيد «ريتشاردسون». كان يتعلم أنه كلما ابتسم «إد ليم» يجب عليك أن تأخذ حذرك. لا يمكنك أن

تعرف ما يفكر فيه حقًّا، هكذا فكر السيد «ريتشاردسون»، ثم، اغتمَّ على الفور، يا له من شيء فظيع، احمرَّ وجهه. كان «إد ليم» يسأل:

ـ ما شكل هؤلاء الإخوة الصينيين الخمسة في الكتاب؟

تلعثمت السيدة «ماكولا»:

ـ إنهم.. إنهم مرسومون. جميعهم متشابهون.. أعني، يشبهون بعضهم البعض كثيرًا، إنهم إخوة، هذا الجزء من القصة، لا أحد بإمكانه التفرقة بينهم...

ـ يصففون شعورهم على شكل ذيول الخنازير، أليس كذلك؟ وقبعات العمال غير المهَرَة الصغيرة؟ عيونٌ مائلة؟

لم ينتظر «إد ليم» أن تجيب السيدة «ماكولا». لقد رأت ابنته هذا الكتاب في مكتبة المدرسة في الصف الثاني وعادت إلى المنزل مضطربة بشدة. **أبي، هل تشبه عيناي ذلك الشكل؟**

ـ ليست صورة الشعب الصيني التي أريد أن تتكوَّن لدى «ماي لينج» في عام ١٩٩٨. ماذا عنكِ؟

أصرَّت السيدة «ماكولا»:

ـ إنها قصة قديمة للغاية، إنهم يرتدون أزياءً تقليدية.

ـ هل هناك كتب أخرى يا سيدة «ماكولا»؟ أي كتبٍ أخرى بها شخصياتٌ صينية؟

عضت السيدة «ماكولا» شفتها:

ـ لم أبحث عنها بالفعل.

اعترفت:

ـ لم أفكر في الأمر.

قال «إد ليم»:

ـ يمكنني أن أوفر عليكِ بعض الوقت. لا يوجد منها الكثير بالفعل. إذن فـ«ماي لينج» ليست لديها دُمى تشبهها، ولا كتب بها أناس يشبهونها.

خطا «إد ليم» خطوات قليلة إضافية. بعد عقدين من الزمان تقريبًا، سوف يطرح آخرون هذا السؤال، سوف يتحدثون عن الكتب باعتبارها مرايا ونوافذ، و«إد ليم»، المُتعب في ذلك الوقت، سوف يجد نفسه محبَطًا بقدر ما كان ممتنًّا. سوف يفكر، **لقد عرفنا دائمًا، ما الذي أخّركم كل هذا الوقت؟**

الآن، في قاعة المحكمة، توقف «إد ليم» أمام كرسي السيدة «ماكولا». قال:

ـ أنتِ وزوجكِ لا تتحدثان الصينية أو لا تعرفان الكثير عن الثقافة والتاريخ الصينيين. لم تفكرا، وفقًا لشهادتكِ الخاصة، عن المظهر الكُلِّي لهوية «ماي لينج». أليس من العدل القول إنه إذا ظلت «ماي لينج» معكِ ومع السيد «ماكولا»، فسوف تصبح منفصلة عمليًّا عن ثقافة مولدها.

عند هذه النقطة، انفجرت السيدة «ماكولا» بالدموع. في تلك الأسابيع المبكرة أطعمت «ميرابيل» كل أربع ساعات، حملتْها كلما بكتْ، وشاهدتْها تنمو حتى مدَّد كعباها بذلة الأطفال حديثي الولادة حتى كادت تتمزق. إنها هي من فحصت وزن «ميرابيل» بانتظام، التي طهت البازلاء والبطاطا الحلوة والسبانخ الطازجة على البخار وهرستْها وأطعمتْها لـ«ميرابيل» بملء ملاعق صغيرة بحجم الدُّمى. حين ارتفعت حرارتها، كانت السيدة «ماكولا» من فردت منشفة باردة على جبهة «ميرابيل»، السيدة «ماكولا» من ضغطت شفتها على ذلك الحاجب الصغير لتختبر حرارته. وحين تبين أن عدوى أصابت الأذن كانت السبب، كانت السيدة «ماكولا» هي من وضعت المضاد الحيوي نقطةً بنقطة في فم «ميرابيل» الوردي الصغير وتركتها تلعقه مثل قطة صغيرة. لم يكن بوسع السيدة «ماكولا»، كما فكرت وهي تنحني لتقبِّل وجنة الطفلة المتورِّدة، أن تحب تلك الطفلة أكثر لو أنها أتت من لحمها نفسه. طوال الليل ـ لأن «ميرابيل» المحمومة لا تنام إلا إن حُملت ـ جعلت من ذراعيها مهدًا لـ«ميرابيل» وسارت بها بطول الغرفة. بحلول الصباح كانت قد سارت لأربعة أميال. لقد كانت هي التي، بعد

الإفطار، بعد وقت الحمَّام، وفي الفراش، داعبت بطن الطفلة الليِّن حتى تغرغر الطفلة بالضحك. لقد كانت هي التي أمسكتْ ذراعَي «ميرابيل» فيما تترنَّح لتعتدل في وقفتِها، إنها هي التي تمد لها «ميرابيل» ذراعيها حين تكون متألمة، أو خائفة، أو وحيدة. سوف تعرف السيدة «ماكولا» «ميرابيل» في الظلام الحالك بصرخة واحدة من صوتها، لا، بلمسة واحدة من يدها. لا، بنفسٍ واحدٍ من رائحتها.

أصرت السيدة «ماكولا» الآن:

ـ ليس لزامًا.. ليس لزامًا أن نكون خبيرَين في الثقافة الصينية. الأمر اللازم الوحيد أننا نحب «ميرابيل»، ونحن نحبها بالفعل. نريد أن نمنحها حياةً أفضل.

استمرت في البكاء، وصرفها القاضي.

قال السيد «ريتشاردسون» بينما جلست إلى جواره:

ـ كل شيءٍ على ما يُرام، لقد أحسنتِ صنعًا.

في الداخل، على أي حال، حتى هو كان قد بدأ يشعر برجفةٍ واهنةٍ من الشك. بالطبع كانت «ميرابيل» لتحصل على حياة جيدة مع «مارك» و«ليندا». ما من شكٍّ في ذلك. لكن هل سيكون شيء ما مفقودًا من حياتها إذا نشأتْ معهما؟ أصبح السيد «ريتشاردسون» فجأة شديد الوعي بـ«ميرابيل»، بالوزن الهائل لهذا العالم المعقد على هذا الشخص الضعيف شديد الصِّغر.

أدلى السيد «ريتشاردسون» ببيانٍ مقتضب مُهدِّئ على درجات مبنى المحكمة، حين أوقفهما الصحفيون، عن ثقته في العملية. قال:

ـ لديَّ ثقة تامة في القاضي «راينبِك»، أنه سوف يزِنُ كل الأمور ويتخذ قرارًا عادلًا.

لم يظهر على الزوجين «ماكولا» أنهما لاحظا ذلك التحول الخفي في نبرة صوته، في البيانات الأسبق كان يتحدث ببعض القوة عن كيف كان وجوب حصولهما على الحضانة واضحًا، كيف كان ظاهرًا أنهما سوف ينشئانها

تنشئة أفضل، كيف كان جليًّا أن «ميرابيل» تنتمي إلى الزوجين «ماكولا» (أصرَّ قائلًا إنها فرد من عائلة «ماكولا»). وكذلك لم تلاحظ الجريدة، التي نشرت قصصًا صحفية بعنوان محامي الوالدين بالتبني واثقٌ من الفوز. كان السيد «ريتشاردسون»، على أي حال، أقل ثقةً بكثير مما جعلتْه القصص الصحفية يبدو عليه.

على العشاء في ذلك المساء، حين سألت السيدة «ريتشاردسون» كيف سارت جلسة الاستماع، قال القليل. قال:

ـ «ليندا» شهدت اليوم، كان «إد ليم» شديد القسوة عليها. لم يبدُ الأمر جيدًا.

قصد أنه لم يبدُ جيدًا بالنسبة للسيدة «ماكولا»، لكن فيما تغادر الكلمات فمه خطرت له فكرة، طريقة لقلب الوضع كله، فيما بعد في ذلك المساء سوف يهاتف مَن تربطه بهم علاقاتٌ في الجريدة. في الصباح التالي، سوف تنشر جريدة «بلاين ديلر» تقريرًا صحفيًّا يذكر تكتيكات «إد ليم» «العدائية»، كيف أنه ضايق المسكينة السيدة «ماكولا» بإلحاح إلى درجة الدموع. رجالٌ مثله، كما ستشير القصة الصحفية، ليس من المفترض أن يفقدوا برودهم، على الرغم من أن القصة لم تحدد ما إذا كانت «مثله» قصدَت المحامين أم شيئًا مختلفًا تمامًا. لكن الحقيقة كانت ـ كما أقر السيد «ريتشاردسون» ـ أن رجلًا آسيويًّا غاضبًا لم يكن ما يتوقعه الجمهور، ولهذا كان غير مثير للأعصاب. بوسع الرجال الآسيويين أن يكونوا حمقى وغير أكفاء وسخفاء، مثل شخصية «لونج دَك دونج» الكوميدية، أو في أفضل الأحوال ليسوا مصدر تهديد ويتصرفون كالمهرجين بعض الشيء، مثل «جاكي تشان». لكن ليس مسموحًا لهم أن يكونوا غاضبين أو فصيحي اللسان أو أقوياء. وربما هذا صحيح، كما فكر السيد «ريتشاردسون» بعد ارتياح. بمجرد نشر القصة، أيَّد عدد من الناس الذين كانوا محايدين الزوجين «ماكولا»، وفتر شغف بعض الذين أيدوا «بيبي».

في الوقت الحالي، ما زالت الفكرة تتشكَّل في ذهنه، كل ما قاله:
ـ سوف نرى كيف ستتحوَّل الأمور.
قالت «ليكسي» فجأة من الطرف البعيد للمائدة:
ـ أشعر بالحزن من أجلها، أقصد «بيبي»، لا بد أنها تشعر بشعورٍ مريعٍ للغاية.
قالت «إيزي»:
ـ أنا آسفة، هل هذه «بيبي» نفسها التي أشرتِ إليها الشهر الماضي على أنها أمٌّ مهملة.
تورَّدتْ «ليكسي»، اعترفت:
ـ كان عليها أن تعتني أكثر بطفلتها، لكنني لا أعرف. أتساءل إذا كانت تورطتْ في موقف أكبر من قدرتها على الاحتمال. إذا لم تكن تعرف ما تقحم نفسها فيه.
قاطعت السيدة «ريتشاردسون» الحوار:
ـ ولهذا لا يجب أن يُؤخذ الحمل باستخفاف، هل تسمعانني؟ «ألكساندرا جرايس»، «إيزابيل ماري»؟
رفعتْ طبق الفاصوليا الخضراء وجلبت لنفسها ملء ملعقة من اللوز المنثور.
ـ بالطبع إنجاب طفل أمرٌ صعب. إنه يغير الحياة. من الواضح أن «بيبي» لم تكن مستعدة له، عمليًّا وعاطفيًّا. وهذه أفضل حجة لإعطاء الطفلة إلى «ليندا» و«مارك».
قالت «ليكسي»:
ـ إذن غلطةٌ واحدة، وينتهي الأمر؟ لستُ مستعدة لإنجاب طفل. لكن لو أنني...
ترددتْ.
ـ لو أنني حملتُ، هل ستجعلينني أتخلى عنه أيضًا؟

ـ «ليكسي»، هذا لن يحدث. لقد ربيناكِ ليكون لديكِ فهمٌ أكبر من هذا.
أعادت والدتها وضع الطبق في منتصف المائدة وفردت الفاصوليا الخضراء بشوكتها.
قالت «إيزي» لـ«ليكسي»:
ـ حسنًا، أحدهم كبر قلبه بمقدار ثلاث درجات اليوم، ماذا بكِ؟
قالت «ليكسي»:
ـ لا شيء، أنا فقط أقول. إنه موقفٌ معقد، هذا كل شيء.
تنحنحت. قالت:
ـ كان «برايان» يقول إن والديه حتى لا يتفقان بخصوص الأمر.
أدار «مودي» عينيه قائلًا:
ـ القضية التي مزقت العائلات في جميع أرجاء كليفلاند.
قال السيد «ريتشاردسون»:
ـ من حق «جون» و«ديبورا» أن تكون لهما آراؤهما، مثل أي شخص على هذه الطاولة.
طافت نظرته بأرجاء الغرفة.
ـ «تريب»، ما الذي سمعتُه عن الهاتريك في مباراة الأمس؟
على أي حال، بعد العشاء، كانت أفكار السيد «ريتشاردسون» لا تزال غائمة. سأل السيدة «ريتشاردسون» فيما يخليان الطاولة:
ـ هل تعتقدين، أن «مارك» و«ليندا» يعرفان كيف ينشئان طفلةً صينية؟
حدَّقتْ به السيدة «ريتشاردسون»، قالت بتصلب، مكدسةً الصحون في غسالة الأطباق:
ـ الأمر مثل تنشئة أي طفل آخر، كما يجب أن أعتقد. لماذا بحق الله سيكون الأمر مختلفًا؟
أزال السيد «ريتشاردسون» بقايا المكرونة من الصحن التالي في وحدة تصريف البقايا وناولها إياه. اعترف قائلًا:

ـ بالتأكيد تتشابه أسس تنشئتها مع أسس تنشئة أي طفل آخر، لكن أعني، حين تكبر تلك الفتاة الصغيرة، سوف يصبح لديها كثيرٌ من الأسئلة؛ من هي، ومن أين جاءت، سوف تريد أن تعرف معلومات عن أصلها. هل سيكونان قادرين على تعليمها ذلك؟

لوَّحت السيدة «ريتشاردسون» بيدٍ رافضة، نافضةً بضع قطرات من صوص طبق اللحم البقري على النَّضد:

ـ توجد مصادر لهذه المعلومات. لا أفهم لماذا لا يستطيعان التعلم معها. ألن يوثق ذلك الرباط بينهم؟ التعلم عن الثقافة الصينية معًا؟

استعادت ذكريات طفولة واضحة عن «ليندا» وهي تُقَمِّطُ دُميتها «راجِدي آن» في وشاح قديم وتضعها برفقٍ في الفراش. عرفت السيدة «ريتشاردسون» أكثر من أي أحد، كم أرادت «ليندا ماكولا» بعنف دائمًا أن يكون لديها طفل، إلى أي مدى سرى ذلك التَّوق لكي تصبح أُمًّا ـ ذلك الدور السحري، الرائع، المرعب ـ في صديقتها. اعتقدت السيدة «ريتشاردسون» أن «مِيا» وجب عليها أن تفهم ذلك أكثر من أي أحد: ألم ترَ ذلك في الزوجين «رايان»؟ ألم تشعر به، ربما، بنفسها؟ أليس هذا سبب فِرارها بـ«بيرْل»؟ مسحت النَّضد بإبهامها، ملطِّخةً الجرانيت. قالت:

ـ بصراحة، أعتقد أن هذا شيءٌ هائل بالنسبة لـ«ميرابيل». سوف تُربَّى في منزلٍ لا يرى العِرق حقًّا. لا يكترث لشكلها ولو بمقدار ذرَّة. أحيانًا أفكرُ، ما الذي يمكن أن يكون أفضل من ذلك؟

قالت بعنف:

ـ إن الأمر سوف يكون أفضل بهذه الطريقة، ربما يجب أن يُمنح كل طفل عند ولادته إلى عائلةٍ من عِرقٍ مختلف كي تربيه. ربما سوف يحل هذا قضية العنصرية مرة واحدة وإلى الأبد.

أغلقت غسالة الأطباق بصوتٍ مجلجل وغادرت الغرفة، الأطباق بداخلها ما زالت تدمدم في أثرها. تناول السيد «ريتشاردسون» إسفنجة ومسح النَّضد

اللزج لتنظيفه. كان يجب أن يعرف أن عليه ألا يأتي على ذكر الأمر، كما أدركَ: الأمرُ شخصيٌّ للغاية بالنسبة لها، لم تستطِع أن ترى بوضوح، كانت قريبة للغاية لدرجة أنها لم تدركْ حتى مدى عدم وضوح رؤيتها. الأمر بسيطٌ بالنسبة لها: «بيبي تشاو» أمٌّ فقيرة، «ليندا ماكولا» أمٌّ صالحة. واحدةٌ اتبعت القواعد، وواحدةٌ لم تفعل. لكن مشكلة القواعد، كما تأمَّل السيد «ريتشاردسون»، أنها تضمنت طريقة صحيحة وطريقة خاطئة لأداء الأمور. في الحقيقة، أغلب الأحيان كانت هناك طرقٌ ببساطة، ليس منها ما هو خطأ تمامًا أو صحيح تمامًا، وما من شيء يخبرك على وجه اليقين على أي جانبَي الخط وقفتَ. لقد أُعجب دومًا بمثالية زوجته، بإيمانها بأن العالم يمكن أن يصبح أفضل، يمكن أن يصبح منظمًا، يمكن حتى أن يصبح أكثر كمالًا. للمرة الأولى، تساءل إذا كان الأمر نفسه يمكن أن يكون صحيحًا بالنسبة له.

١٧

على أي حال، سرعان ما أصبح واضحًا أن السيد «ريتشاردسون» ليس الطرف المتخبِّط الوحيد. بدا القاضي غير قادر على اتخاذ قراره أيضًا. مرَّ أسبوعٌ بعد جلسة الاستماع، ثم اثنان، من دون أن يُتَّخذ قرار. في منتصف أبريل، حان موعد متابعة «ليكسي» في العيادة، وممَّا فاجأ كلًّا من «مِيا» و«بيرْل»، طلبت من «مِيا» مرافقتها.

وعدتْ «ليكسي» «مِيا»:

ـ لستِ مضطرةً لفعل أي شيء، فقط سوف أشعر بأنني أفضل لو كنتِ معي.

كانت الجدية في صوتها مُقنعة، وبعد ظهيرة يوم الزيارة، بعد الدورة الشهرية العاشرة، صفَّتْ «ليكسي» سيارتها «الإكسبلورر» خارج المنزل على طريق «وينسلو». شغلت «مِيا» السيارة «رابِتْ» وركبت «ليكسي» في مقعد الراكب وقادتا السيارة مبتعدتين معًا، كما لو أنها «بيرْل» حقًّا، كما لو أن «مِيا» والدة «ليكسي» حقًّا تأخذها في تلك المهمة الأشد حميمية.

في الحقيقة، منذ زيارة العيادة، شعرت «بيرْل» بتبادل غريب: كما لو أنه، بينما نامت هي و«ليكسي» تحت السقف نفسه، أخذت «ليكسي» مكانها على نحوٍ ما وأخذت هي مكان «ليكسي» ولم تعودا منفصلتين تمامًا. عادت «ليكسي» إلى المنزل مرتديةً تيشيرتًا مستعارًا، و«بيرْل»، التي

تشاهد «ليكسي» تمشي خارجة من الباب مرتديةً ملابسها الخاصة، انتابها شعورٌ غريب برؤية نفسها تمشي مبتعدة. في الصباح التالي، وجدت قميص «ليكسي» على الفراش: غسلته «مِيا» وطوته بعناية، من المفترض أنه متروكٌ هنا لإعادته إلى المدرسة. بدلًا من أن تدسه «بيرْل» في حقيبتها، ارتدته، وفي هذا الجلد المستعار شعرت أنها أجمل، أسرع بديهةً، حتى إنها كانت وقحة قليلًا في صف اللغة الإنجليزية، ممَّا أثار تعجب زملائها ومعلمها بالقدر نفسه. حين قرع الجرس، أعاد بعض الأطفال النظر إليها، منبهرين، كما لو أنهم يلاحظونها للمرة الأولى. إذن هذا هو شعور أن تكون «ليكسي»، هكذا فكرت «بيرْل». عادت «ليكسي» نفسها إلى المدرسة، سقيمة وخافتة وبحلقات داكنة تحت عينيها، لكنها في وضع مستقيم. قالت لـ«بيرْل» بمودَّة:

ـ سرقتِ قميصي، يا قذرة.

ثم:

ـ يبدو جميلًا عليكِ.

بعد ذلك بأيام، أُعيد القميص واستُرِدَّ قميصها، ما زالت «بيرْل» تشعر بثقة «ليكسي» تفور في عروقها. لذا، الآن، قررت «بيرْل» أن تغتنم الفرصة حين قُدِّم لها منزلٌ نادرًا ما يكون خاليًا. تركت ملاحظة في خزانة «تريب»، وأخبرت «مودي» أنها قد وعدت أن تساعد والدتها بالمنزل طوال فترة ما بعد الظهيرة. في هذه الأثناء، أخبرت «مِيا» «إيزي» أن لديها وردية عمل في المطعم، قالت: «اذهبي وافعلي شيئًا لطيفًا، سوف أراكِ غدًا، حسنًا؟»، لذا لم يكن هناك أحدٌ حين وصل «تريب» و«بيرْل» إلى المنزل على طريق «وينسلو» بعد المدرسة وصعدا إلى الطابق العلوي إلى غرفة نومها. كانت المرة الأولى التي وُجد فيها «تريب» في منزلها، وبالنسبة لها بدا الأمر بالغ الأهمية، أن تكون قادرةً على الاستلقاء معه في مكانٍ من اختيارها، بدلًا من الاستلقاء على الأريكة القديمة البالية في قبو «تيم مايكلز»، محاطةً بـ«البلاي ستيشن» ومنضدة هوكي الهواء وكؤوس «تيم» القديمة لكرة

القدم، جميع الأشياء المتنوعة الخاصة بحياة شخصٍ آخر. سوف يكون اللقاء في مساحتها الخاصة، في فراشها الخاص، وفي ذلك الصباح، فيما ترتبه بعناية، سوف تشعر بتوهجٍ دافئ في قاعدة حلقها، مفكرةً في رأس «تريب» الراقد على وسادتها.

«مودي»، الذي تُرِكَ ليفعل ما يشاء، أغلق خزانته للتو وكان متوجِّهًا إلى المنزل حين سمع شخصًا ما ينادي اسمه. كان «تيم مايكلز»، وحقيبة الجيم معلقةٌ على كتفه. كان «تيم» طويلًا وقاسيًا ولم يكن قطُّ لطيفًا تجاه «مودي»: منذ سنوات، حين كان «تيم» و«تريب» أكثر تقاربًا وكان يأتي إلى منزل عائلة «ريتشاردسون» بين الحين والآخر ليلعب ألعابَ الفيديو، لقَّب «تيم» «مودي» بـ«جِايك»: ««جِايك» أحضر لي علبة «كولا» أخرى»، ««جِايك»، حرِّك رأسك الكبير، أنت تسد الطريق أمام عينيَّ». جرؤ «مودي» على أن يعتقد أنه أمرٌ ودود، لكنه سمع الكلمة فيما بعد في المدرسة وفهم ما تعنيه بعاميَّة «شايكِر». كانت فرقة «دايف ماثيوز باند» «دُوبْ»، والمغني «برايان آدمز» «جِايك». إن لم تذهب إلى ما هو أبعد من مداعبة جسد فتاة فأنت «دوب»، إن لم تلمس فتاة أصلًا فأنت «جِايك». بعد ذلك، سوف يظل «مودي» في الطابق العلوي كلما جاء «تيم»، وكان «مودي» مسرورًا بلؤم حين بدأ «تيم» و«تريب» بالتباعد. الآن هذا «تيم» ينادي «مودي» باسمه ـ اسمه الحقيقي ـ ويهرول هابطًا من جناح المسرح باتجاهه.

قال «تيم» حين وصل إلى «مودي»:

ـ يا صاحِ، هل تعرف أي شيء عن فتاة أخيك الغامضة؟

استغرق «مودي» لحظة ليفهم السؤال:

ـ فتاة غامضة؟

ـ لقد كان يُحضر فتاةً ما إلى منزلي في أوقات ما بعد الظهيرة حين أكون في التمرين. ألن تخبرني من هي؟

نقل «تيم» حقيبته إلى الكتف الأخرى:

ـ «تريب» ليس رجلًا غامضًا حقًّا، تعرف ماذا أعني؟ أتصور إما إنها شيءٌ هزليٌّ تمامًا أو إنه حقًّا معجبٌ بها.

سكت «مودي». كان «تيم» أحمق، لكنه لم يكن متوهِّمًا. لم يكن من النوع الذي يختلق الأمور. بدأ شكٌّ يتكوَّن في ذهن «مودي». قال:

ـ ألا تعرف أي شيءٍ عنها؟

ـ لا شيء. بدأ الأمر منذ نحو شهرين. أكاد أستجيب لإغراء أن أذهب إلى هناك بعد ظهيرة أحد الأيام وأمسك بهما متلبِّسَين. ألم يقل لك أي شيء؟

قال «مودي»:

ـ إنه لا يقول لي أي شيء على الإطلاق.

ودفع الباب ليفتحه وخرج إلى المرجة الأمامية.

كان لا يزال متضايقًا حين وصل إلى المنزل ووجد «إيزي» تقرأ على الأريكة. قال:

ـ ماذا تفعلين بالمنزل مبكرًا هكذا؟

قالت «إيزي»:

ـ «مِيا» لديها وظيفتها الأخرى بعد الظهر.

قلبت صفحة. تابعت:

ـ أين الجميع؟ أليست «بيرْل» معك؟

لم يُجب «مودي». اتخذ الشك شكلًا صلبًا غير مريح. أخبرته «بيرْل»: «مشروعٌ جديد تعمل أمي عليه، إنها فقط تحتاج مجموعة إضافية من الأيدي». وها هي «إيزي» ـ وهي مجموعةٌ جيدة تمامًا من الأيدي الإضافية ـ بالمنزل، تخبره أن «مِيا» خرجت. من دون أن يجيب «إيزي»، أسقط حقيبة كتبه على منضدة القهوة وتوجَّه إلى الجراج ليأخذ دراجته.

طوال الطريق إلى المنزل المزدوج على طريق «وينسلو»، أخبر نفسه أنه يتخيل أشياء. أنه ما مِن شيء يجري هنا، أن كل هذا من قبيل المصادفة.

لكن هناك، كما توقع تمامًا، كانت سيارة «تريب»، مصطفَّة في الجهة المقابلة للمنزل. ظل «مودي» هناك، محدِّقًا في نافذة «بيرْل»، لمدةٍ شعر أنها ساعات، محاولًا ألا يفكر فيما يحدث بالداخل، لكنه كان غير قادرٍ على الإشاحة ببصره. بدا بريئًا للغاية، هذا المنزل الحجري الصغير المتواضع، ببابه الأبيض النظيف، شجرة الخوخ في الفناء الأمامي منتفشة بالأزهار الوردية الناعمة.

حين بزغ «تريب» و«بيرْل» كانا متشابكي الأيدي، لكن ليس هذا ما صدمه. كانت هناك أريحية بينهما، كان «مودي» متأكدًا، أنها تأتي فقط من الارتياح الحميمي مع جسد شخصٍ آخر. الطريقة التي تدافعت بها كتفاهما فيما يهبطان الممشى. الطريقة التي انحنت بها «بيرْل» لتغلق سحَّاب حقيبة ظهر «تريب»، الطريقة التي انحنى بها ليسوِّي خصلة مجعدة شاردة من على وجهها. ثم رفع كلاهما بصره ورأيا «مودي»، منفرج الساقين على دراجته ومتجمدًا. قبل أن يستجيب أي منهما، ضغط قدمه على البدَّال وأسرع مبتعدًا.

لم يخطر لـ«مودي» على الإطلاق أن يواجه أخاه، هذا فقط ما توقعه من «تريب». كل غضبه كان مدَّخرًا لـ«بيرْل»، ولاحقًا بعد الظهيرة، حين صعدت على أطراف أصابعها وطرقت بابه، لم يكن في حالة مزاجية لسماع أعذارها.

قالت بمجرد أن أغلقت الباب:

ـ لقد حدث الأمر وحسب.

عرف «مودي» مِن صوتها أنها كانت تقول الحقيقة، وأشعره هذا ببعض الارتياح. أدار عينيه استخفافًا لأنها بدت مشابهة لشخصية في مسلسل سخيف للمراهقين، وعاد لضبط جيتاره.

قال:

ـ أيًّا كان، أعني، إذا أردتِ أن تضاجعي أخي الفاشل...

أجفلتْ «بيرْل»، وعلى الرغم منه، سكت.

ـ تعلمين أنه يستغلك وحسب، أليس كذلك؟
قال بعد لحظة:
ـ هذا ما يفعله. لم يكن جادًّا بشأن أي أحد. إنه عادة ما يُصاب بالملل ويمضي قدُمًا.
لزمت «بيرْل» صمتًا متحديًا. كانت متأكدة أن الأمر مختلفٌ هذه المرة. كان كلاهما مُحِقًّا: يُصاب «تريب» بالملل بسهولة، ونادرًا ما فكر في الفتيات بمجرد أن يغِبْنَ عن ناظريه. لكنه لم يصادف فتاةً مثل «بيرْل» من قبل، التي لم تُحرَج لكونها ذكية، التي لم تتَّسِق تمامًا مع عالم «شايكِر هايتْس» المنظَّم، سواء عرفتْ ذلك أم لا. على مدار الشهرين الماضيين تسلَّلت إلى ذهنه في جميع ساعات اليوم: في معمل الكيمياء، وأثناء التمرين، وفي الليل حين اعتاد أن يسقط نائمًا سريعًا وأن يرى أحلامًا تافهة. بدت الفتيات اللاتي نشأ معهن في «شايكِر» ـ والفتيان أيضًا، لمزيد من التوضيح ـ هادفات للغاية: كنَّ طموحاتٍ للغاية، واثقاتٍ للغاية، كنَّ متيقناتٍ للغاية تجاه كل شيء. كنَّ، كما اعتقد، يشبهن إلى حدٍّ ما أختَيه ووالدته: مقتنعات للغاية أن ثمة صوابًا وخطأً بشأن كل شيء، متأكدات أنهن ميَّزن أحدهما من الآخر. كانت «بيرْل» أذكى من أي منهن ومع ذلك بدت متصالحةً مع كل شيءٍ لا تعرفه: تتسكع بارتياح في المساحات الرمادية. تفكر في الأمور الكبرى، كما اكتشف، وفي أوقات ما بعد الظهيرة تلك، بعدما يكونان معًا، انتهيا إلى الكلام عن الأمور الكبرى: مدى استيائه لأنه و«مودي» لا يتفقان (قال: «نحن أخوان، أليس من المفترض أن نكون صديقَين؟»). كيف أنه ليس متأكدًا، في عمر السابعة عشرة، ماذا يريد أن يفعل في المستقبل: كان الجميع يسألون، من المفترض أن يفكر في الجامعة، من المفترض أن يعرف الآن، وهو لم يعرف، على الإطلاق. هناك وقت، كما طمْأنَتْه «بيرْل»، دائمًا هناك مزيدٌ من الوقت. وجوده مع «بيرْل» جعله يشعر أن العالم أكبر، حتى إن وجود «بيرْل» معه جعلها تشعر أنها أكثر ثباتًا على الأرض، أقل تجريدًا، أكثر حقيقيَّةً.

قالت أخيرًا:

ـ أنت مخطئٌ بشأنه.

قال «مودي»:

ـ لا بأس، أظن إذا كنتِ لا تمانعين أن تصبحي آخر غزواته. فقط اعتقدتُ أن لديكِ احترامًا لنفسكِ أكثر من ذلك.

عرف أنه إذا نظر إلى أعلى سوف يرى الألم في عيني «بيرْل»، لذلك أبقى عينيه موجهتين إلى الجيتار في حضنه. قال:

ـ اعتقدتُ أنكِ أذكى من الفاسقات اللاتي يوافقن عادةً على فعلها معه.

ضرب أحد الأوتار بإبهامه، وكز أحد مفاتيح الضبط ليصبح الصوت أعلى. أكمل:

ـ لكن لا أظن ذلك.

قالت «بيرْل»:

ـ على الأقل هناك أحدٌ ما يريدني. على الأقل لن أقضي فترة المدرسة الثانوية كعذراء محبَطة.

قاومت «بيرْل» الحاجة المُلحة لعبور الغرفة وانتزاع الجيتار من يدي «مودي» وتحطيمه على المكتب:

ـ ولمعلوماتك، أنا لستُ غزوة. أتعلم شيئًا؟ أنا التي بدأتُ الأمر معه.

لم يرَ «مودي» «بيرْل» غاضبةً من قبل، وممَّا أحرجه أن ردَّ فعله الأول كان انطلاق دموعه. لم يعرف بالضبط ماذا يريد أن يقول ـ أنا آسف، لم أقصد ذلك ـ فقط الندم العميق على ما آلتْ إليه الأمور بينهما، الرغبة اليائسة والمستحيلة لعودة الأمور لما كانت عليه. بدلًا من ذلك عضَّ الجانب الداخلي من وجنته ليمنع نفسه من البكاء، حتى انتشر طعم الدم المالح الحاد على لسانه.

قال أخيرًا:

ـ أيًّا كان، فقط أسدي إليَّ معروفًا ودعينا لا نتكلم عن الأمر. حسنًا؟

كما تبيَّن، عنى هذا أنهما توقفا عن الكلام تمامًا. الصباح التالي، سارا

منفصلين إلى المدرسة للمرة الأولى، اتخذا مقاعد على الجانبين المتقابلين في الفصل في الحصة الأولى وفي كل الحصص بعد ذلك.

قال «مودي» لنفسه، إن «بيرْل» خيبت أمله أكثر من أي شيءٍ آخر. إنها بعد كل شيء، كانت ضحلةً بما يكفي لتختار «تريب»، من بين كل الناس. لم يتوقع «مودي» أن تختاره هو، بالطبع لا، إنه، «مودي»، ليس ذلك النوع من الرجال الذي تُعجب به الفتيات. لكن «تريب»، هذا اختيار لا يمكن مغفرته. شعر كما لو أنه غطس في بحيرة صافية واكتشف أنها بركةٌ ضحلة، بعمق الركبة. ماذا فعلتْ؟ حسنًا، لقد وقفْتَ مرة أخرى. غسلتَ ركبتيك الملطختين بالطين وسحبْتَ قدمك خارج الوحل. وأصبحتَ أكثر حذرًا بعد ذلك. عرفْتَ، من الآن فصاعدًا، أن العالم كان مكانًا أصغر ممَّا توقعْتَه.

في منتصف درس الجبر، حين كانت «بيْرل» في الحمَّام ولا أحد يراه، فتح حقيبة كتبها وأخرج دفتر «مولسكين» الأسود الصغير الذي أعطاه لها منذ شهور. كما كان يشك، الدفتر لم يُفتح. في ذلك المساء وحيدًا في غرفته، مزَّق الصفحات بملء كفيه، كوَّرها وألقاها في صندوق القمامة. حين تكدس بالورق المتجعد، أسقط الغلاف الجلدي ـ فارغ مثل القشرة المنتزعة من كوز الذُّرة ـ على القمة وركل الصندوق تحت مكتبه. لم تلحظ حتى أن الدفتر مفقود، وعلى نحوٍ ما، آلَمَهُ ذلك أكثر من أي شيء.

* * *

في هذه الأثناء، كانت «ليكسي» تمر بمشكلاتٍ رومانسية خاصة بها. منذ عودتها إلى المنزل من العيادة، ترددت ـ ترددًا مفهومًا ـ بشأن النوم مع «برايان» مرة أخرى، وبدأ الإنهاك يظهر. لم تقل له شيئًا عن الإجهاض، وبقي الأمر بينهما مثل ستارٍ حاجبٍ للضوء، مضببًا كل شيء.

تذمَّر ذات يومٍ بعد الظهيرة ـ حين انحنى ليقبِّلها وأدارتْ وجهها لتقدم له وجنتها ـ مرة أخرى:

ـ ماذا بكِ؟ هل تعانين من متلازمة ما قبل الحيض مرة أخرى؟
توردتْ «ليكسي» قائلة:
ـ الرجال، تعتقدون أن كل شيء يدور حول الهرمونات. الهرمونات والدورات الشهرية. إذا تعرَّض الرجال إلى الدورات الشهرية، صدقني، سوف تكونون جميعًا متكوِّرين على الأرض بسبب التقلصات.
ـ حسنًا، إذا كنتِ غاضبةً مني، فقط أخبريني ما الذي تعتقدين أنني فعلت. أنا لستُ قارئ أفكارٍ لعينًا، يا «ليكس». لن أعتذر عن شيء أجهله.
ـ من قال إنني أريد اعتذارًا؟
انخفضت عينا «ليكسي» إلى يديها، كما لو أنها سوف تجد ملاحظةً مخربشةً على راحتيها، مثل ورقة غش لترشدها.
ـ من قال حتى إنني غاضبة منك؟
ـ إذا لم تكوني غاضبة، لماذا تتصرفين كأنك كذلك؟
ـ أنا فقط أريد بعض المساحة، هذا كل شيء. لا يتعيَّن عليك أن تضع يديكَ عليَّ طوال الوقت.
ضرب «برايان» بيديه على عجلة القيادة:
ـ مساحة، طوال الشهر الماضي لم أمنحكِ شيئًا سوى المساحة. أنتِ حتى لم تقبِّليني منذ نحو أسبوع. ما مقدار المساحة الإضافية التي تحتاجينها؟
ـ ربما كلها.
خرجت الكلمات من فم «ليكسي» مثل الحجارة:
ـ سوف أذهب إلى «ييل» وأنت سوف تذهب إلى «برينستون»، ربما الأمر أفضل على هذا النحو.
خيَّم صمتٌ مصدومٌ على السيارة بينما حلَّل كلٌّ من «برايان» و«ليكسي» ما قالتْه للتو.
قال «برايان» أخيرًا:
ـ أهذا ما تريدين؟ حسنًا. انتهينا، إذن.

ضغط زر فتح أبواب السيارة:

ـ أراكِ بالجوار.

علَّقت «ليكسي» حقيبة كتبها على كتفها وترجَّلتْ من السيارة. كانت السيارة مصطفَّة في شارعٍ جانبيٍّ هادئ، موضع اختاراه غالبًا حين أرادا أن يقضيا وقتًا وحدهما. فكرت بينها وبين نفسها، إنه لن يقود مبتعدًا، لا يمكن أن تكون هذه هي طريقة إنهاء الأمر. لكن بمجرد أن صفعت الباب لإغلاقه، شغَّل «برايان» السيارة بصوتٍ مزمجر وقاد مبتعدًا. لم ينظر إلى الخلف، على الرغم من أن «ليكسي» رأت نظرةً خاطفة من عينيه في مرآة الرؤية الخلفية، مرةً واحدة فقط، قبل أن يدور حول المنعطف.

من دون أن تفكر إلى أين تذهب، بدأتْ تسير: هابطةً الرصيف، ثم حول المنعطف، ثم خارجةً إلى الطريق الرئيسي، مسارات غالبًا ما قادتْ سيارتها فيها لكن نادرًا ما سارت فيها من قبل. لقد كانت هي و«برايان» صديقين منذ الصف الثامن، تواعدا ما يقرب من عامين. فكرت في كل شيءٍ فعلاه معًا؛ الصراخ من أعلى المدرجات في مباريات فريق «إنديانز»، ومشاهدة الألعاب النارية التي تطلقها المدينة عاليًا في سماء ليل الرابع من يوليو أثناء وجودهما في موقف سيارات المدرسة المتوسطة. وحفل «لمِّ الشمل»، حين وضع «برايان» سوارًا من الورد حول معصمها، وطعام إيطالي في مطعم «جيوفاني» لم يعرف أي منهما كيف ينطق اسمه، والرقص في الجيم على أغنيات فرقة «فيوجيز» حتى صارا مرصَّعين بحبَّات العرق، ثم مضمومة بين ذراعيه على أغنية «لا أريد أن أفوِّت شيئًا»، متقاربين للغاية لدرجة امتزاج عَرقهما. الآن ذهب كل ذلك. سارت متتبِّعةً منحنى الطريق، متوقفةً بين الحين والآخر فقط لتسمح للسيارات بالمرور بها، ثم وجدتْ أن قدميها قد أخذتاها إلى مكانٍ ما لم تتوقَّعه، لكنها شعرتْ أنه المكان الوحيد الذي أرادت أن توجد فيه: ليس المنزل، لكن المنزل المزدوج على طريق «وينسلو». من خلال نافذة الطابق العلويِّ استطاعت أن ترى «مِيا» تعمل بِجِد على شيءٍ ما، وعرفتْ

«ليكسي» أن «مِيا» ستقول لها الكلام الصحيح، سوف تمنحها المساحة لتفكر في ما حدث مليًّا، للتعامل معه، ومع ما سوف يحدث لاحقًا، لماذا تركتْ من اعتقدت أنه حبيبٌ مثالي، علاقةٌ مثالية، كيف تداعى كل شيءٍ فجأة؟

حين صعدت «ليكسي» السلَّم وفتحت الباب المؤدي إلى المطبخ، كانت «إيزي» هناك أيضًا، جالسةً على الطاولة إلى جوار «مِيا»، تطوي قصاصاتٍ من الورق على هيئة طائر الكُركي. استقرت حفناتٌ منها من جميع الأحجام على الطاولة بالفعل، مبعثرة عبرها مثل نثار الورق الملوَّن في الحفلات. رمقت «إيزي» «ليكسي» بنظرةٍ عدائية، لكن قبل أن تتمكن من فتح فمها، قاطعتها «مِيا»:

ـ «ليكسي»، أنا مسرورة لمجيئكِ.

جذبتْ كرسيًّا واستقرت «ليكسي» عليه، وجهها جامدٌ للغاية لدرجة أنه حتى «إيزي» أمكنها أن تعرف أن شيئًا ما على غير ما يُرام. بدت «ليكسي» تقريبًا كما لو أنها على وشك أن تكون مريضةً. لم يسبق لـ«إيزي» أن رأتْ أختها على هذا الشكل من قبل.

سألت «إيزي»:

ـ هل أنتِ بخير؟

قالت «ليكسي» عبر شفتين جافَّتين:

ـ بخير، أنا بخير.

قالت «مِيا»، معتصرةً كتف «ليكسي»:

ـ أنت بخير، سوف تكونين بخير.

سحبت قدحًا خزفيًّا إضافيًّا من خزانة المطبخ وشغلت الغلَّاية.

قالت «ليكسي» من دون أن تواجه عيني «إيزي»:

ـ قبل أن تسألي، أنا و«برايان» انفصلنا.

قالت «إيزي»:

ـ أنا آسفة.

ووجدت أنها تعني ما قالت بالفعل. كان «برايان» دائمًا لطيفًا معها، سمح لها بمرافقتهما مرة أو اثنتين لتناول الحليب المخفوق في متجر «يورْز ترُولي» حين بدأ و«ليكسي» المواعدة، عندما كانت هي لا تزال في المدرسة المتوسطة، واعتاد أن يوصلها إلى المنزل بين الحين والآخر إذا مرَّ بها وهي تسير. نظرت إلى «ليكسي»، ثم إلى «مِيا». قالت:

ـ هل تودان.. أن أغادر؟

عند الموقد، تظاهرت «مِيا» بالانشغال بفتح عبوة شاي. هزّت «ليكسي» رأسها. قالت:

ـ ابقي، لا بأس. أنا بخير. فقط.. ابقي.

بعد لحظة، مرَّرت «إيزي» مربعًا من الورق على الطاولة، أخذتْه «ليكسي» وبدأت باتباع خطوات أختها: تطوي طيَّةً فوق طيَّة، للخلف، إلى المنتصف، إلى الخارج، حتى أمسكت أخيرًا بالأركان وسحبت طائر كُركي تفتَّح مثل زهرة شاحبة في يدها.

* * *

أخبر السيد «ريتشاردسون» السيدة «ريتشاردسون» في الأسبوع الأخير من أبريل:

ـ القاضي «راينبِك» غير مستعد بعد لاتخاذ قرار.

كان «هارولد راينبِك» في التاسعة والستين من عمره، رماديَّ الشعر، مشجعًا لرياضة الملاكمة منذ وقتٍ طويل، وصيادًا متحمسًا يعد الصيد ترفيهًا، لكنه كان رجلًا حسَّاسًا أيضًا، ومدركًا جيدًا لتعقيدات القضية العاطفية المستعصية. على مدار الشهر الماضي، منذ أن انتهتْ جلسة الاستماع، قضى في الواقع ليالي مستيقظًا لساعاتٍ يفكر بشأن «ماي لينج ـ ميرابيل»، كما استعاد اسمها، محاولًا بدقة أن يكون عادلًا، كلما سمع أحد الاسمين ألحق به الاسم الثاني في ذهنه، وبالنسبة له امتزج الاسمان تمامًا ليصبحا اسمًا واحدًا. لأن الطفلة نفسها كانت في رعاية جليسة أطفال وليست حاضرة ـ

يصبح الأطفال متعكري المزاج علنيًّا في جلسات الاستماع الطويلة - كبَّر «إد ليم» صورةً ووضعها على طاولته، وأصبح جميع من في المحكمة يحدقون فيها كل يوم. نتيجة لذلك، تصوَّر القاضي وجهها الصغير وهو يفكر في شهادة كل يوم، وكلما فكر في الأمر أصبحت القضية غير قابلةٍ للبتِّ فيها. شعر بتعاطف كبير مفاجئ مع الملك سليمان، وكل صباح، بنومٍ ناقص وذهنٍ مكدود، وجَّه صياحه - ظالمًا - إلى موظفيه وسكرتيرته من دون حتى أن يدرك السبب.

قالت السيدة «ماكولا» للسيدة «ريتشاردسون» حول كوبٍ من القهوة مفعمٍ بالرثاء:

- إنه عذاب.

كانتا، كالعادة، في منزل «ماكولا» لتجنُّب تفحص الآخرين لهما.

- ماذا يريد أيضًا؟ كيف يمكن أن يكون هذا قرارًا صعبًا؟

طقطق الجهاز المراقب للطفلة على الطاولة بجوارهما، وضبطت السيدة «ماكولا» الصوت ليصبح أعلى قليلًا. صمتتا، وملأ الصوت الهادئ لتنفُّس نوم «ميرابيل» المطبخ.

سألت السيدة «ريتشاردسون»:

- هل يمكنكِ التفكير في أي شيءٍ آخر تخبرين به القاضي؟ أشياء قد تعطي مضمونًا أكثر. عوامل أخرى كي يزِنَها؟

مالت إلى الأمام:

- هل يمكنكِ التفكير في أي شيءٍ آخر لم تأتِ أنتِ و«بيل» على ذكره؟ أسباب تجعلكما الاختيار الصحيح للحضانة؟ أو...

ترددت، ثم اندفعت على أي حال:

- أو أسباب أخرى من المحتمل أن تجعل «بيبي» غير مؤهلة؟ أي شيء على الإطلاق.

قضمت السيدة «ماكولا» أحد أظافرها. كانت هذه عادةً تمارسها أثناء

توتُّرها وهي طفلة، ولاحظت السيدة «ريتشاردسون» أنها أصبحت تمارسها مرة أخرى مؤخرًا. بدأت السيدة «ماكولا»:

ـ حسنًا...

ثم توقفت.

ـ ربما الأمر ليس صحيحًا.

قالت السيدة «ريتشاردسون» بلطف:

ـ قد تكون هذه فرصتك الأخيرة يا «ليندا».

ـ إنه مجرد شك. ليس لديَّ أي إثبات.

تنهدت السيدة «ماكولا»:

ـ منذ نحو ثلاثة شهور، لاحظتُ أن «بيبي» بدت أكثر سمنة. أصبح وجهها أكثر وأكثر استدارة، لاحظتُ على وجه الخصوص، حين جاءت مع موظفة الخدمة الاجتماعية لتأخذ «ميرابيل». وصدرها... وأخبرتْني موظفة الخدمة الاجتماعية شيئًا غريبًا، قالت إنه في إحدى الزيارات في حينها، اضطرت «بيبي» للإسراع إلى الحمَّام فجأة. كنَّ في المكتبة وفجأة ناولت «أدريان» الطفلة وانطلقت. قالت «أدريان» إنها سمعت «بيبي» تتقيأ.

نظرت السيدة «ماكولا» إلى السيدة «ريتشاردسون»:

ـ جعلني الأمر أتساءل أنها ربما كانت حاملًا. بدت مرهقةً للغاية على نحوٍ لا يُصدَّق في ذلك الحين، أيضًا. لديَّ فقط هذا الحدس. هناك مظهرٌ تكتسبه النساء، يمكنكِ رؤيته، إذا تأملتِ. كل هذه السنوات، كل هذا الوقت الذي كنا نحاول فيه، وواحدةٌ بعد أخرى من صديقاتي تحمل، كل مرة، عرفتُ قبل أن يخبرنني، عرفتُ كل مرةٍ كنتِ حاملًا فيها، ألم أفعل، يا «إيلينا»؟

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ فعلتِ، كل مرةٍ، عرفتِ. قبل أن أتفوَّه بكلمة.

- ثم، منذ شهر، عادت فجأةً إلى طبيعتها. تسطَّح وجهها مرة أخرى. عادت لتصبح نحيلة ومستقيمة مثل سكةٍ حديدية. تساءلتُ..

أخذت السيدة «ماكولا» نفسًا عميقًا:

- تساءلتُ عن احتمال أنها كانت حاملًا، ثم أنهت الحمل.

تراجعت السيدة «ريتشاردسون» في مقعدها:

- إجهاض؟ هذا اتهامٌ خطير.

أصرت السيدة «ماكولا»:

- أنا لا أتهم. أخبرتكِ، ليس لديَّ إثبات. مجرد شك. وأنتِ قلتِ أي شيء.

فكرت السيدة «ريتشاردسون»:

- ربما. القيام بالإجهاض لا يجعل منها أمًّا سيئة، بالطبع. على الرغم من أنه من المحتمل أن يقلب الرأي العام ضدها، إذا ذاع الخبر. لا يحب الناس السماع عن عمليات الإجهاض. وعملية إجهاضٍ أثناء محاولة استعادة طفلةٍ تخليتِ عنها؟

نقرت بأصابعها على الطاولة:

- على الأقل، سوف يشير هذا إلى أنها كانت غير حريصةٍ بما يكفي لتحمل مرة أخرى.

تناولت يد السيدة «ماكولا» واعتصرتْها:

- سأبحث في الأمر. لأرى إن كان هناك أي شيء قد يساعد. إذا كان هناك شيء، يمكننا أن نثيره مع القاضي.

تنهدت السيدة «ماكولا»:

- «إيلينا»، أنتِ دائمًا تعرفين ماذا تفعلين. ماذا بحق الله كنتُ لأفعل من دونك؟

قالت السيدة «ريتشاردسون» وهي تجمع حقيبتها:

- لا تقولي أي شيء لـ«بيل» أو «مارك»، لا تجعلينا نرفع آمالهما بعد. ثقي بي. سأتولى كل شيء.

في الحقيقة، لم تكن «بيبي» حاملًا. بسبب توتر جلسة الاستماع الوشيكة، ومع طواقم الأخبار التي تصور خارج المطعم في أحد الأيام، وصحفيٌّ يستوقفها في الشارع ليدفع بميكروفون في وجهها في يومٍ آخر، ومع قصة صحفية حول القضية يومًا بعد يوم، وتذمُّر رئيسها في العمل بشأن الوقت الذي تضطر لاقتطاعه من أجل جلسة الاستماع، استسلمت إلى شهوات التهام الوجبات السريعة: بسكوت «أوريو»، البطاطس المقلية، ذات مرة كيس كامل من قشرة لحم الخنزير، انتفخت بقدر خمسة عشر باوندًا في شهر. أخذت ساعاتٍ إضافية لتعوض الوقت الذي اقتطعته، تعمل حتى الساعة الثانية أو الثالثة في الليالي التي تغلق المطعم فيها، وتعود في التاسعة لتفتحه في الصباح التالي. استقر ذلك الوقت، في ذاكرتها، ضبابيًّا. ثم أصيبت بتسمم الطعام ـ علبة من بقايا الطعام ظلت وقتًا طويلًا في الثلاجة ـ وتقيأت في المكتبة، على مرأى من موظفة الخدمة الاجتماعية. لم تستطع تناول الطعام لأيامٍ بعد ذلك، وحين تعافتْ، وجدت أنها، مع كون جلسة الاستماع بعد مجرد أسابيع، كانت عصبية جدًّا لدرجة أنها لم تأكل. بحلول وقت بدء جلسة الاستماع فقدت الخمسة عشر باوندًا الإضافية فضلًا عن عشرة باوندات زيادة.

على أي حال، لم تعرف السيدة «ريتشاردسون» أيًّا من هذا. مع عدم وجود طريقة لتنفي الأمر، بدأت، على نحوٍ منطقيٍّ بما يكفي، بالبحث عن دليل لتؤكده. ذكَّرت نفسها أن بإمكانها اكتشاف أي شيء. حتى لو لم تعرفه بنفسها، لديها علاقات. في الصباح التالي، بحثت في مجموعة الكروت الشخصية المرتبة هجائيًّا حتى وصلت لحرف الميم: «**مانويل، إليزابيث**».

كانت هي و«إليزابيث مانويل» زميلتَي سكن في السنة الأولى في الجامعة، وعلى الرغم من أنهما وجدتا زميلات سكنٍ أخريات في السنوات اللاحقة، فقد ظلَّتا على اتصال، خلال التخرج وبعده. أعادتا التواصل حين انتقلت «إليزابيث» إلى كليفلاند وأصبحت رئيسة عيادة طبية شرق «شايكِر هايتْس» مباشرة، العيادة الوحيدة على الجانب الشرقي، التي تصادف أنها تجري عمليات الإجهاض.

كان ثمة أمر صغير أرادت السيدة «ريتشاردسون» السؤال عنه: شيءٌ صغير، محظور، غير قانونيٍّ قليلًا. هل بإمكانها فحص سجلات العيادة، ورؤية ما إذا كان اسم «بيبي تشاو» ظهر في قائمة عمليات الإجهاض الحديثة؟ أكدت السيدة «ريتشاردسون» لصديقتها، وهي تمسك سماعة الهاتف بكتفها وتتحقق للمرة الثانية من إغلاق باب مكتبها:

ـ هذا غير رسمي، ليس للنشر.

قالت «إليزابيث مانويل» وهي تغلق باب مكتبها:

ـ «إيلينا»، تعلمين أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ـ يجب ألا يكون الأمر ذا بال، لن يعرف أحد.

ـ إنه أمرٌ سرِّي. هل تعلمين قدر الغرامات الواقعة على من يفعل ذلك؟ ناهيكِ عن أخلاقيات المهنة.

كانت «إليزابيث مانويل» صديقة السيدة «ريتشاردسون» لأعوامٍ كثيرة، وتدين للسيدة «ريتشاردسون» بمعروفٍ كبير، على الرغم من أن «إليزابيث» نفسها كرهت أن تصوغ الأمر بهذه الطريقة. لقد عُرفت في جامعة «دنيسون» باسم «بيتسي»، فتاة خجول لدرجة الألم من مدينة ديتون، ارتاحت للفرار من الاستفزاز المستمر في المدرسة الثانوية، ارتعبت لأنها رأت أن الحال قد تستمر في الجامعة. في عمر الثامنة عشرة، كانت «إليزابيث مانويل» هدفًا سهلًا للسخرية: نظارات تنزلق دائمًا إلى طرف أنفها، جبهة بارزة مع حب الشباب، ملابس رثَّة وغير ملائمة. بدت زميلة سكنها الجديدة مثل الفتيات المُختالات اللاتي جعلن المدرسة الثانوية بائسة: مليحة، ملابسها أنيقة، متصالحة مع العالم بطريقةٍ ما، في تلك الليلة الأولى ظلت «إليزابيث» تبكي حتى نامت.

لكن «إيلينا» أخذتْها تحت جناحها وحوَّلتْها؛ أعارتها أحمر شفاه وغسولًا للبشرة من إنتاج «نوكزِما»، أخذتْها للتسوق، علَّمتْها طرقًا جديدة لتصفيف شعرها. عرفت «إليزابيث» ثقةً جديدة أيضًا عندما سارت إلى غرفة الدراسة مع «إيلينا»، وجلست بجوارها في قاعة الطعام. بدأت بالتحدث كما تحدثت

«إيلينا» ـ كما لو أنها عرفت أن الناس أرادوا سماع أفكارها ـ وبالظهور بقامة أطول كما لو أنها راقصة. بحلول وقت تخرُّجهما، أصبحت «إليزابيث» شخصًا مختلفًا، «ليز مانويل»، التي ترتدي بذلات وكعوبًا عالية ونظاراتٍ مصمَّمة حسب مقاييس الوجه جعلتها تبدو تقريبًا بالذكاء الذي كانت عليه، شخصًا سوف يدير عيادة طبية بسهولة. في الأعوام التي تلت ذلك، استمرت «إيلينا» ـ أصبحت الآن السيدة «ريتشاردسون» ـ في عرض المساعدة على «إليزابيث». مع علاقاتها المحلية العديدة، تدخَّلت بتزكيةٍ جيدة حين تقدمت «إليزابيث» بطلب التوظف إلى العيادة، وبعد حصولها على الوظيفة وانتقالها إلى البلدة، قدَّمتْها السيدة «ريتشاردسون» إلى جميع أنواع الناس، على المستويين المهني والشخصي. في الحقيقة، قابلتْ «إليزابيث» زوجها في حفل كوكتيل أقامه الزوجان «ريتشاردسون» منذ عدة أعوام، كان زميل عمل للسيد «ريتشاردسون». لم يسبق للسيدة «ريتشاردسون» أن سألت، أو حتى لمَّحت، إلى رد المعروف، وكانت كلتاهما حريصتين على إدراك هذا.

سألت السيدة «ريتشاردسون» فجأة:

ـ بالمناسبة، كيف حال «دريك»؟ و«ماكنزي»؟

ـ إنهما بخير. كلاهما. «دريك» يجتهد في العمل للغاية، بالطبع.

تعجبت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ لا أصدق أن «ماكنزي» عمرها عشر سنوات بالفعل. كيف تتواءم في مدرسة «لوريل»؟

ـ إنها تحبها. يبدو أنها أكثر ثقةً الآن. أعتقد أن المدرسة أحدثت فرقًا حقيقيًّا، أن تكون في مدرسةٍ للفتيات، هل تفهمين؟

سكتت «إليزابيث مانويل»، ثم تابعتْ:

ـ شكرًا مرة أخرى للتدخل بتزكِيَتِها.

ـ «بيتسي»! لا تكوني سخيفة. لقد كان من دواعي سروري.

نقرت السيدة «ريتشاردسون» بقلمها على سطح مكتبها.

ـ ما نفع الأصدقاء إذن؟
ـ تفهمين يا «إيلينا»، أودُّ مساعدتك. فقط إذا اكتشف أحد...
ـ بالطبع لا يمكنكِ أن تُريني أي شيء. بالطبع لا. لكن أعني، إذا أتيتُ واصطحبتُكِ لنتغدى معًا، وتصادف أن نظرتُ من فوق كتفك على قائمة الشهور القليلة الماضية، لا يمكن أن يقول أحدٌ إنكِ أريتِني أي شيء عمدًا، أليس كذلك؟
سألت «إليزابيث»:
ـ وماذا لو كان اسم تلك المرأة موجودًا هناك؟ ما نفع ذلك؟ ليس بوسع «بيل» استخدامه في المحكمة.
ـ إذا كان الاسم موجودًا سوف يبحث «بيل» عن دليلٍ آخر. أعرف أنه صنيعٌ ضخم، يا «بيتسي». إنه فقط يحتاج إلى معرفة إذا كان الأمر يستحق مزيدًا من التنقيب. وإذا لم يكن؟ لن يتعدَّى الأمر ذلك.
تنهدتْ «إليزابيث مانويل». قالت أخيرًا:
ـ حسنًا، أنا مشغولةٌ للأيام القليلة المقبلة، لكن ماذا عن يوم الخميس؟
رتَّبت المرأتان في جدوليهما موعدًا للغداء، وأغلقت السيدة «ريتشاردسون» الخط. سوف يتضح لها الأمر قريبًا. فكرت، المرأة المسكينة، مفكرةً في «بيبي» بكرمٍ جديد. إذا أجرت عملية إجهاض، من يمكنه لومها؟ في منتصف قضية الحضانة هذه، ومع وظيفة لا مجال فيها للتقدم، وبعد ما مرت به مع الحمل الأول. فكرت السيدة «ريتشاردسون» أنه ما مِن امرأة تُجري عملية إجهاضٍ من دون ندم، عمليات الإجهاض كانت الحل الأخير، إذا لم يكن هناك خيارٌ أفضل. لا، لم تستطع السيدة «ريتشاردسون» أن تلوم «بيبي»، مع أنها ما زالت تأمل أن يحتفظ الزوجان «ماكولا» بالطفلة. لكن بإمكان «بيبي» دائمًا أن تنجب طفلًا آخر، بمجرد أن تلملم شتات حياتها، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون»، بينما فتحت باب مكتبها مرةً أخرى.

١٨

دامت حالة السيدة «ريتشاردسون» المزاجية الخيِّرة تجاه «بيبي» حتى موعد غدائها مع «إليزابيث مانويل».

قالت السيدة «ريتشاردسون» بينما اندفعت فجأة إلى المكتب يوم الخميس:

ـ «بيتسي»، لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ للغاية. متى كنَّا معًا آخر مرة؟

ـ لا أستطيع التذكُّر. حفل العيد في العام الماضي، ربما. كيف حال أطفالك؟

أخذت السيدة «ريتشاردسون» وقتًا قصيرًا لتتفاخر: خطَّطت «ليكسي» لجامعة «ييل»، ومباراة «اللاكروس» الأخيرة لـ«تريب»، ودرجات «مودي» الجيدة. كالعادة، أغفلت موضوع «إيزي»، لكن «إليزابيث» لم تلاحظ. حتى تلك اللحظة نفسها التي قررت فيها أن تساعد «إيلينا»، فعلت «إيلينا» الكثير من أجلها، بعد كل شيء، وعلى أي حال، لن تتوقف «إيلينا ريتشاردسون» أبدًا حتى حصلت على ما أرادت. حتى إن «إليزابيث» تمادت لدرجة أنها فتحت السجلات التي طلبتْها «إيلينا»، قائمة بكل المرضى الذين كان لديهم إجراءٌ ما في العيادة في الشهور القليلة الماضية، كانوا في نافذة منفصلة على شاشة «إليزابيث»، خلف جدول البيانات الإلكتروني الخاص بالميزانية. لكن الآن، بينما كانت

«إيلينا» تثرثر عن أطفالها الرائعين، وقضية زوجها البارزة، وتصميم الحديقة الجديد الذي يخططون لتنفيذه في الفناء الخلفي بمجرد مجيء الصيف، غيرت «إليزابيث» رأيها. لقد نسيتْ، حتى أصبحتا وجهًا لوجه، كيف تحدثت «إيلينا» إليها غالبًا كما لو كانت طفلة، كما لو كانت هي، «إيلينا»، الخبيرة في كل شيء و«إليزابيث» عليها أن تدوِّن الملاحظات. حسنًا، لم تكن طفلة. كان هذا مكتبها، عيادتها. بحكم العادة التقطت قلمًا على مرأى من «إيلينا»، ثم وضعتْه جانبًا.

كانت السيدة «ريتشاردسون» تقول:

ـ سوف يكون غريبًا أن يظل ثلاثة منهم فقط بالمنزل في العام المقبل، وبالطبع «بيل» أجهد نفسه في العمل على هذه القضية. هل تتذكرين «ليندا» و«مارك» من بعض حفلاتنا، لا؟ أوصتْ «ليندا» بجليسة الكلاب تلك من أجلك قبل عامين. نأمل جميعًا أن ينتهي الأمر قريبًا، ويتسنَّى لهما الاحتفاظ بطفلتهما إلى الأبد.

نهضت «إليزابيث». قالت وهي تمد يدها إلى حقيبتها:

ـ جاهزةٌ للغداء؟

لكن السيدة «ريتشاردسون» لم تتحرك من جلستها. قالت:

ـ هناك ذلك الشيء الذي أردتُ نصيحتكِ بشأنه، يا «بيتسي»، أتذكرين؟

بيدٍ واحدة دفعت الباب لإغلاقه.

جلست «إليزابيث» مرة أخرى وتنهدت. كما لو أن «إيلينا» قد نسيَت ما أرادت. قالت «إليزابيث»:

ـ «إيلينا»، أنا آسفة. لا أستطيع.

قالت السيدة «ريتشاردسون» بهدوء:

ـ «بيتسي»، نظرة واحدة سريعة. هذا كل شيء. فقط لمعرفة حتى إذا كان هناك أي شيء لاكتشافه.

ـ ليس الأمر أنني لا أودُّ مساعدتكِ...

ـ لن أُعرِّضكِ لأي مخاطرة أبدًا. لن أستخدم هذه المعلومات أبدًا. هذا فقط لنرى لو أننا نحتاج إلى مواصلة التنقيب.

ـ لسوف أحب أن أساعدكِ يا «إيلينا». لكنني فكرتُ في الأمر مليًّا، و...

ـ «بيتسي»، كم مرةً خاطرنا بأنفسنا من أجل بعضنا البعض؟ ما مقدار ما فعلناه من أجل إحدانا الأخرى؟

فكرت السيدة «ريتشاردسون»، «بيتسي مانويل» كانت دائمًا هيَّابة. احتاجتْ دائمًا دفعةً جيدة لفعل أي شيء، حتى الأشياء التي أرادتْ فعلها. يجب عليكَ أن تعطيها إذنًا لكل شيءٍ صغير: لتضع أحمر شفاه، لتشتري ثوبًا جميلًا، لترفع يدها في غرفة الدرس. شخصيةٌ ضعيفة. احتاجت إلى يدٍ قوية.

جلست «إليزابيث» باستقامةٍ أكبر قليلًا. قالت:

ـ هذه معلوماتٌ سرية، أنا آسفة.

ـ «بيتسي». أنا مضطرة للاعتراف بأنني متألمة، لأنكِ لا تثقين بي بعد كل تلك السنوات من الصداقة.

بدأت «إليزابيث» بقولها:

ـ الأمر لا يتعلق بالثقة.

لكن السيدة «ريتشاردسون» تابعت كما لو أنها لم تُقاطَع. فكرت، بعد كل ما فعلتْه من أجل «بيتسي». لقد رعتْها مثل والدة وأخرجتْها من صدفتِها وها هي «بيتسي» الآن، على مكتبها الكبير في غرفة مكتبها الأنيقة تشغل وظيفتها التي ساعدتْها «إيلينا» للحصول عليها، ليستْ راغبةً حتى في منحها معروفًا صغيرًا.

فتحت السيدة «ريتشاردسون» حقيبتها وأخرجت أنبوب أحمر شفاه ذهبيًّا ومرآة بحجم راحة اليد. قالت:

ـ حسنًا، لقد وثقتِ في نصيحتي طوال فترة الجامعة، أليس كذلك؟ وحين أخبرتكِ أنكِ يجب أن تأتي إلى حفل عيد الميلاد الذي نقيمه طوال تلك الأعوام الماضية؟ وثقتِ بي حين قلتُ لكِ إنكِ يجب أن

تتصلي بـ«دريك» بدلًا من انتظاره ليتصل بكِ. وأصبحت مخطوبة ـ مفاجأة! ـ بحلول الفالانتاين.

بضرباتٍ صغيرة دقيقة تتبعت الخطوط المحددة لفمها وضغطت الأنبوب لإغلاقه.

ـ لقد حصلتِ على زوجٍ وطفلةٍ لأنك وثقت بي، لذلك سأقول إن الثقة بي نفعتك في كل مرة من قبل.

أكَّد هذا شيئًا ارتابت فيه «إليزابيث» منذ وقتٍ طويل: كل تلك السنوات، كانت «إيلينا» تبني رصيدًا. ربما أرادت المساعدة بصدق، ربما كانت مدفوعةً بالطيبة. لكن حتى مع ذلك، لقد كانت تحتفظ بحسابٍ جارٍ لكل شيء فعلتْه لـ«إليزابيث»، أيضًا، كل دعمٍ قليلٍ قدَّمَتْه، والآن تتوقع أن تستردَّ ما دفعتْ. أدركت «إليزابيث» فجأة أنَّ «إيلينا» ظنت أن لها دَينًا في ذلك، ظنت أنها مسألة عدل، حول الحصول على ما تستحقه حسب القواعد.

قالت «إليزابيث»:

ـ آمل أنكِ لا تخططين للحصول على الفضل كاملًا بخصوص زواجي.

أُخِذَت السيدة «ريتشاردسون» للنبرة الحادة في صوت «إليزابيث»، وبدأت بقولها:

ـ بالطبع أنا لم أقصد أن...

ـ تعرفين أنني سوف أساعدك بأي طريقةٍ أستطيعها. لكن هناك قوانين. وأخلاقيات، يا «إيلينا». أنا أشعر بخيبة الأمل لمجرد أنكِ طلبتِ شيئًا كهذا. لقد كنتِ دائمًا مهتمةً بشأن ما هو صواب وما هو خطأ.

تلاقتْ أعينهما من فوق المكتب، ولم ترَ السيدة «ريتشاردسون» من قبل نظرة «بيتسي» واضحةً وثابتةً وغاضبةً بهذا القدر. لم تتحدث أي منهما، وفي فجوة الصمت تلك، رنَّ الهاتف على المكتب. احتفظت «إليزابيث» بالتحديق للحظة ثم رفعت السماعة.

ـ «إليزابيث مانويل».

غمغمةٌ خافتةٌ من الطرف الآخر للخط.

ـ لقد لحقتَ بي للتو. كنتُ على وشك الخروج للغداء.

مزيدٌ من الغمغمة. ممَّا تبيَّن لأذن السيدة «ريتشاردسون»، بدا صوتًا معتذِرًا بضعف.

ـ «إيريك»، لا أريد أعذارًا، فقط أريد أن يتم هذا الأمر. لا، لقد انتظرت لأكثر من أسبوع، لا أريد الانتظار لدقيقةٍ أخرى. مهلًا، سوف أنزل حالًا.

أغلقت «إليزابيث» الخط والتفتت إلى السيدة «ريتشاردسون»:

ـ يجب أن أسرع إلى الطابق السفلي، هناك تقرير كنت أتوقع الحصول عليه ولا بد أن أدفعه عند كل خطوة على الطريق. أحد الجوانب السَّارة لكونكِ المديرة.

نهضتْ. قالت:

ـ سوف أستغرق بضع دقائق فقط. وحين أعود، سوف نذهب إلى الغداء. أنا أتضوَّر جوعًا، ولديَّ اجتماعٌ في الواحدة والنصف.

حين غادرت، جلست السيدة «ريتشاردسون» مذهولة. هل كانت هذه حقًّا «بيتسي مانويل» تتحدث إليها بهذه الطريقة؟ مُلمحةً إلى أنها كانت تتصرف بلا أخلاقية! وهذه الملاحظة الساخرة الأخيرة عن **كونكِ المديرة**، كما لو كانت «بيتسي» تذكر السيدة «ريتشاردسون» بمدى أهميتها، كما لو أنها تقول **أنا أهمُّ منكِ الآن**. في حين ساعدتها السيدة «ريتشاردسون» في الحصول على هذه الوظيفة نفسها. ضغطت السيدة «ريتشاردسون» شفتيها معًا. لقد دُفِع باب المكتب، لا أحد بالخارج يمكنه رؤية ما بالداخل. دارت حول المكتب سريعًا إلى مقعد «إليزابيث» ودفعت الماوس على لوحته، وومضت الشاشة السوداء لكمبيوتر «إليزابيث» عائدةً إلى الحياة: جدولٌ إلكتروني يعرض مصروفات العام الحالي. توقفت السيدة «ريتشاردسون». بالتأكيد لدى العيادة قاعدة بيانات بسجلات المرضى. بضغطة قلَّصت الجدول الإلكتروني وكالسحر كانت هناك: نافذةٌ بقائمة المرضى في الفترة

التي أرادتْها تمامًا. إذن فقد غيَّرتْ «بيتسي» رأيها في اللحظة الأخيرة، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون» بلمحة من العجرفة. ماذا قالت عنها دائمًا؟ شخصية ضعيفة.

انحنت السيدة «ريتشاردسون» على المكتب وتصفحت سريعًا عبر القائمة. لم يكن هناك «بيبي تشاو». لكن كان هناك اسمٌ في أسفل القائمة، في بدايات مارس، استرعى انتباه السيدة «ريتشاردسون». «بيرْل وارِن».

بعد ست دقائق، عادت «إليزابيث مانويل» لتجد السيدة «ريتشاردسون» وقد عادت إلى جلستها، رزينةً، وقورًا، ما عدا يدًا واحدة متشبثة بذراع الكرسي. كانت قد أعادت فتح الجدول الإلكتروني وأعادت الشاشة إلى وضع السكون، وإذا جلست «إليزابيث» مرة أخرى إلى مكتبها، لن تلاحظ أي شيء في غير مكانه. سوف تغلق القائمة بارتياح، فخورةً بنفسها لأنها صمدت في وجه «إيلينا ريتشاردسون» أخيرًا.

ـ جاهزةٌ للغداء، يا «إيلينا»؟

حول طبق السبانخ بالجبن المطبوخ والزنجبيل ودجاج «تِكَّا ماسالا» بصلصة الكاري، وضعت السيدة «ريتشاردسون» يدها على ذراع «إليزابيث»:

ـ نحن صديقتان منذ مدة طويلة يا «بيتسي». أكره أن أفكر أن شيئًا كهذا سوف يحول بيننا. أتمنى أن يمر الأمر من دون أن أقول إنني أفهم تمامًا، ولن آخذ بهذا موقفًا ضدكِ أبدًا.

قالت «إليزابيث» فيما تطعن قطعة دجاج بشوكتها:

ـ بالطبع لا.

لقد كانت «إيلينا» متخشبة وباردة قليلًا منذ مغادرتهما المكتب. فكرت «إليزابيث» أن «إيلينا ريتشاردسون» كانت دائمًا هكذا، ساحرة ومعطاءة ودائمًا ما تقول أشياء لطيفة، ثم إذا أرادت منك شيئًا كانت متأكدة أنكَ لن ترفض. حسنًا، لقد فعلت «إليزابيث» المستحيل: لقد رفضت. سألت:

ـ هل ما زالت «ليكسي» تمارس التمثيل المسرحي؟

ولبقية الوجبة تبادلتا ثرثرة سطحية عن القواسم المشتركة لحياتيهما: الأطفال، حركة المرور، الطقس. في الحقيقة، سوف يكون هذا آخر غداء على الإطلاق تتناوله المرأتان معًا، على الرغم من أنهما ستظلان محتفظتين بمحبة قلبية تجاه بعضهما البعض لما تبقّى من حياتيهما.

إذن فـ«بيرْل» الصغيرة البريئة لم تكن بريئةً على الرغم من كل شيء، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون» في طريق عودتها إلى المكتب. لم يكن هناك شكٌّ في ذهنها حول هوية الأب، بالطبع. لقد ارتابت لوقتٍ طويل في أن علاقة «بيرْل» و«مودي» كانت أكثر من ودودة ـ لا يقضي فتى وفتاة وقتًا طويلًا للغاية معًا من دون حدوث شيءٍ ما ـ وكانت مذعورة. كيف أمكنهما أن يكونا بهذا الإهمال؟ عرفت إلى أي مدى تشدِّد «شايكِر» بخصوص الثقافة الجنسية، لقد كانت في لجنة مجلس المدرسة منذ عامين، حين اشتكتْ إحدى أولياء الأمور من أنه قد طُلِب من ابنتها أن تضع واقيًا على موزة أثناء صف الصحة، من أجل التدريب. قالت السيدة «ريتشاردسون» حينها إن المراهقين سوف يمارسون الجنس، إنها طبيعة السِّن، إنها الهرمونات، لا يمكننا منع ذلك، أفضل شيءٍ يمكننا فعله أن نعلِّمهم أن يحتاطوا. الآن، على أي حال، أصبحت هذه الرؤية ساذجة بعنف. تساءلتْ كيف أمكنهما أن يكونا غير مسؤولين إلى هذه الدرجة؟ السؤال الأكثر إلحاحًا: كيف نجحا في إخفاء الأمر عنها؟ كيف أمكن حدوث ذلك تحت سمعها وبصرها؟

فكرت للحظة في الذهاب إلى المدرسة، وجذبهما خارج الفصل، مطالبةً بمعرفة كيف أمكنهما أن يكونا بهذا الغباء. قررت أنه من الأفضل عدم عمل فضيحة. سوف يعرف الجميع. كانت متأكدة من أن الفتيات في «شايكِر» أجرين عمليات إجهاض بين حين وآخر ـ كنَّ مراهقاتٍ على الرغم من كل شيء ـ لكن بالطبع كان كل شيءٍ يبقى طيَّ الكتمان. لا أحد يرغب في إذاعة فشله في تحمل المسؤولية. سوف يتكلم الجميع، وعرفت كيف ستتطاير

الشائعات. سوف تصمك طوال الحياة. سوف تتحدث إلى «مودي» هذا المساء، بمجرد وصولها إلى المنزل.

هناك في مكتبها، كانت قد نزعت معطفها حين رنَّ الهاتف، قالت:

- «بيل»، ما الذي يحدث؟

كان صوت السيد «ريتشاردسون» مكتومًا، وهناك كثير من الهياج في الخلفية.

- توصل القاضي «راينِك» إلى قراره للتو. استدعانا منذ نحو ساعة. لم نتوقع هذا على الإطلاق.

سعل بخفة:

- سوف تبقى مع «مارك» و«ليندا». لقد ربحنا.

غاصت السيدة «ريتشاردسون» في مقعدها. فكرتْ أن «ليندا» لا بد أن تكون سعيدة للغاية. في الوقت نفسه، تلوَّى ثعبان رفيع من خيبة الأمل متخذًا طريقه عبر صدرها. لقد كانت تتطلع للتفتيش في ماضي «بيبي»، لتسليم السلاح السري الذي سوف ينهي الأمور إلى الأبد. لكنها لن تحتاج إلى ذلك بعد الآن.

- هذا رائع.

- إنهما فرحان إلى جوار بعضهما. استقبلت «بيبي تشاو» الأمر بصعوبة مع ذلك، انفجرت في الصراخ. اضطر حاجب المحكمة إلى مرافقتها إلى الخارج.

سكت. ثم تابع:

- المرأة المسكينة. لا أستطيع سوى الشعور بالحزن من أجلها.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

- لقد تخلَّت عن طفلتها في المقام الأول.

كان هذا بالضبط ما ظلت تقوله طوال الستة شهور الماضية، لكنه بدا هذه المرة أقل إقناعًا.

سعلت بخفة:

ـ أين «مارك» و«ليندا»؟

ـ إنهما يستعدان لمؤتمرٍ صحفي. طار الخبر إلى فرق الأخبار وأخذوا يظهرون ويحاصروننا، لذا قلنا إنهما سوف يدليان ببيانٍ في الساعة الثالثة. لذا من الأفضل أن أذهب.

أفلت السيد «ريتشاردسون» تنهيدة عميقة:

ـ لكن الأمر انتهى. إنها هناك الآن. عليهما فقط أن يتماسكا حتى تخمد القصة ثم بوسعهم جميعًا العودة إلى عيش حياتهم.

قالت السيدة «ريتشاردسون» مرة أخرى:

ـ هذا رائع.

استقرت الأخبار عن «بيرْل» و«مودي» فوق كتفيها كحقيبة ثقيلة، وأرادت بشدة أن تفشي الأمر لزوجها من دون تفكير، أن تشارك بعضًا من ثقلها، لكنها نحَّت الأمر جانبًا. قالت لنفسها إن هذه لم تكن اللحظة المناسبة، أخرجت «مودي» من ذهنها بحزم. كانت هذه لحظة الاحتفال بـ«ليندا».

قالت:

ـ سوف آتي إلى مبنى المحكمة، قلتَ الساعة الثالثة؟

في الجانب الآخر من البلدة، في المنزل الصغير على طريق «وينسلو»، كانت «بيبي» تبكي على طاولة مطبخ «مِيا». بمجرد إعلان الحكم، سمعت عويلًا فظيعًا، حادًّا لدرجة أنها صفقت يديها على أذنيها وانهارت متكورة. فقط حين تناول حاجب المحكمة ذراعها ليصطحبها إلى خارج القاعة أدركتْ أن النواح كان يأتي من فمها. أخذها الحاجب، الذي لديه ابنةٌ في عمر «بيبي»، إلى غرفة انتظار، وضغط كوبًا من القهوة الفاترة في يديها. ابتلعتْه «بيبي»، بجرعاتٍ متتاليةٍ ملء فمها، تحفر بأسنانها في حافة «الستيروفوم» المصنوع منه الكوب كلما شعرت بصرخة تتصاعد في حنجرتها مرةً أخرى، وبحلول وقت انتهاء القهوة، تمزق الكوب تقريبًا إلى قطع. لم تكن لديها

حتى كلمات، فقط شعور، شعور أجوف فظيع، كما لو أن كل شيءٍ في أحشائها قد جرِّف نيًّا.

حين أنهت القهوة وهدأتْ، تصيَّد الحاجب قطع الفوم من يديها بلطف وألقاها بعيدًا. ثم قادها إلى الخارج عبر مخرجٍ خلفي، حيث كانت سيارة أجرة تنتظر. قال للسائق مناولًا إياه ورقتين بعشرين دولارًا من محفظته الخاصة:

ـ اصطحبْها إلى أي مكانٍ تريد.

قال لـ«بيبي»:

ـ سوف تكونين بخير، يا عزيزتي. سوف تكونين على ما يرام. يدبر الله الأمور بطرقٍ لا نفهمها. تفاءلي خيرًا.

أغلق باب سيارة الأجرة وتوجَّه عائدًا إلى الداخل، وهو يهزُّ رأسه. بهذه الطريقة استطاعت «بيبي» تجنب جميع كاميرات الأخبار وطواقمها التي تكتَّلت أمام المدخل الأمامي، المؤتمر الصحفي الذي تحضَّر له الزوجان «ماكولا» ذلك اليوم بعد الظهيرة، المراسلين الذين أملوا أن يسألوها ما إذا كانت، في ضوء هذا القرار، ستحاول أن تنجب طفلًا آخر. بدلًا من ذلك، راغ «إدليم» من أسئلتهم، وأسرعت سيارة الأجرة بعيدًا إلى أعلى «ستوكس بوليفارد» باتجاه «شايكِر هايتْس»، و«بيبي»، منهارة في مواجهة النافذة ورأسها بين يديها، أيضًا فوَّتت اللمحة الأخيرة من ابنتها، التي حملتْها موظفة الخدمة الاجتماعية بإدارة الأطفال والأُسَر عبر القاعة إلى غرفة الانتظار ووضعتْها بين يدي السيدة «ماكولا» المنتظِرة.

بعد ذلك بخمسٍ وأربعين دقيقة ـ كان هناك زحامٌ مروري ـ توقفت سيارة الأجرة عند المنزل الصغير على طريق «وينسلو». ما زالت «مِيا» بالمنزل، تحاول إنهاء قطعة كانت تعمل عليها، وألقتْ نظرةً واحدة على «بيبي» وفهمت ماذا حدث. سوف تعرف «مِيا» التفاصيل لاحقًا، بعض التفاصيل من «بيبي» نفسها حين تهدأ، وتفاصيل أخرى من القصص الإخبارية التي سوف تُبَثُّ

تلك الليلة، ومقالات الصحف التي سوف تُطبع في الصباح التالي. الوصاية الكاملة للولاية، مع التوصية بتعجيل تبنِّي الزوجين «ماكولا» للطفلة. إنهاء حقوق الزيارة. أمر قضائي يمنع المزيد من التواصل بين «بيبي» وابنتها من دون موافقة الزوجين «ماكولا» المستبعَدة. في الوقت الحالي، احتضنت «مِيا» «بيبي» ببساطة وأخذتْها إلى المطبخ، وضعتْ كوبًا من الشاي الساخن أمامها، وتركتْها تبكي.

بدأت الأخبار بالانتشار للتو في المدرسة الثانوية فيما دقَّ الجرس الأخير. تلقَّتْ «مونيك ليم» رسالة على البيجر من والدها، تلقَّت «سارة هندريكس» ـ التي يعمل والدها في القناة ٥ ـ رسالة أخرى على البيجر الخاص بها، وانتقل الخبر من هناك. على أي حال، لم تعلم «إيزي» شيئًا من هذا حتى وصلت إلى منزل «مِيا» بعد المدرسة، سمحت لنفسها بالدخول عبر الباب الجانبي غير المغلق كالعادة، وصعدت إلى الطابق العلوي لترى «بيبي» متكوِّمة عند طاولة المطبخ.

همستْ «إيزي» على الرغم من أنها عرفت بالفعل:

ـ ماذا حدث؟

لم ترَ من قبل شخصًا بالغًا يبكي هكذا، بصوتٍ كالحيوان. بكاء متهورًا. كما لو أنه لم يعد هناك شيءٌ أكثر من ذلك تخسره. لأعوامٍ بعد ذلك، سوف تستيقظ أحيانًا في الليل، قلبها يخفق، معتقدةً أنها تسمع ذلك الصوت المُعَذَّب مرة أخرى.

قفزت «مِيا» وساقتْ «إيزي» في اتجاه الرجوع إلى السلَّم، مغلقةً باب المطبخ خلفها. همست «إيزي»:

ـ هل.. ستموت؟

كان سؤالًا سخيفًا، لكنها في تلك اللحظة كانت مرتعبةً بصدق أن هذه قد تكون الحقيقة. فكرت «إيزي» أنه إذا استطاعت روحٌ أن تغادر جسدًا، فهذا هو الصوت الذي ستصدره: مثل صياح مسمارٍ يُجذب من خشبٍ

قديم. على نحوٍ غريزي، جثمت «إيزي» على «مِيا» ودفنتْ وجهها في وجه «مِيا».

قالت «مِيا»:

ـ إنها لن تموت.

وضعت «مِيا» ذراعيها حول «إيزي» وعانقتها بشدة.

قالت «إيزي»:

ـ لكن هل ستكون بخير؟

ـ سوف تنجو، إذا كان هذا ما تعنينه.

مسَّدت «مِيا» شعر «إيزي»، الذي انتفش من تحت أصابعها مثل ريشاتٍ من الدخان. لقد كان مثل شعر «بيرْل»، مثلما كان شعر «مِيا» وهي فتاة صغيرة: كلما حاولتَ تسويته أصرَّ على الانبعاث حُرًّا.

ـ سوف تتخطى هذا. لأنها يجب أن تفعل.

ـ لكن كيف؟

لم تستطِع «إيزي» أن تصدق أن أحدًا بوسعه تحمُّل هذا النوع من الألم والنجاة.

ـ لا أعرف، بصدق. لكنها سوف تفعل. أحيانًا، فقط حين تفكرين أن كل شيءٍ قد ضاع، تجدين طريقةً.

أجهدت «مِيا» ذهنها من أجل التوضيح:

ـ مثلما يحدث بعد حريقٍ في البراري. رأيتُ واحدًا، منذ أعوامٍ خَلَتْ، حين كُنَّا في نبراسكا. يبدو كأنه نهاية العالم. الأرض كلها حُرِقتْ واسودَّتْ وضاع كلُّ شيءٍ أخضر. لكن بعد الاحتراق تصبح التربة أغنى، ويصبح بإمكان أشياء جديدة أن تنمو.

أمسكتْ بـ«إيزي» على مدِّ ذراع، مسحت خدها بطرف إصبع، سوَّت شعرها لمرةٍ أخيرة. قالت:

ـ الناس هكذا، أيضًا، كما تعرفين. يبدأون من جديد. يجدون طريقة.

أومأتْ «إيزي» واستدارت لترحل، ثم استدارت مرة أخرى. قالت:

ـ أخبريها أنني آسفة للغاية.

أومأتْ «مِيا»:

ـ أراكِ غدًا، حسنًا؟

* * *

في تلك الأثناء، عادت «ليكسي» و«مودي» إلى المنزل ليجدا رسالة على المجيب الآلي تخبرهما أن القضية انتهت. قال صوت أمهما الساكن: **اطلبا بيتزا. هناك نقود في الدرج أسفل دليل الهاتف. سوف أعود إلى المنزل بعد التقدم بقصتي الصحفية. لن يعود والدكم إلى المنزل إلا متأخرًا، إنه ينهي بعض الأعمال الورقية بعد جلسة الاستماع.** تساءل «مودي» هل عرفت «بيرْل» بعد، لكنهما يتحدثان بالكاد بعد انفصالهما، وانسحب إلى غرفته محاولًا عدم التفكير فيما تفعله «بيرْل» الآن. ولقد خمَّن، أن «بيرْل» بالخارج مع «تريب» هذا اليوم بعد الظهيرة، وعلمت الخبر فقط حين عادت إلى المنزل بعد عدة ساعات لتجد «بيبي» ـ هادئةً الآن ـ ما زالت عند طاولة المطبخ.

أخبرتْها «مِيا» بهدوء:

ـ انتهى الأمر.

وكان هذا كل ما احتاجت إلى قوله.

قالت «بيرْل»:

ـ أنا آسفة حقًّا يا «بيبي»، أنا.. أنا آسفة للغاية.

لم تنظر «بيبي» إلى أعلى حتى، واختفت «بيرْل» في غرفة نومها وأغلقت الباب خلفها.

جلست «مِيا» و«بيبي» في صمتٍ لبعض الوقت، حتى حل الظلام تمامًا ونهضتْ «بيبي» لترحل.

قالت «مِيا» لـ«بيبي» ممسكةً يدها:

ـ سوف تظل دائمًا ابنتكِ يا «بيبي». سوف تظلين دائمًا والدتها. لن يغيِّر شيءٌ هذا أبدًا.

قبَّلتْ «بيبي» على وجنتها وتركتْها ترحل. لم تقُل «بيبي» شيئًا، لم تقُل شيئًا قطُّ طوال هذا الوقت، وتساءلتْ «مِيا» ما إذا توجَّب عليها السؤال فيمَ تفكر «بيبي»، ما إذا توجَّب على «مِيا» دفع «بيبي» إلى البقاء، ما إذا كانت «بيبي» ستصبح بخير. فكرت «مِيا» أنها لو كانت في مكان «بيبي» لسوف تفضل ألا تُرغم على الكلام، وانتصرت الكياسة. سوف تدرك «مِيا» لاحقًا أنه لا بد أن «بيبي» سمعت ما قالته على نحوٍ مختلف. أنه لا بد أنها سمعت في هذه الكلمات إذنًا ممنوحًا. تساءلت «مِيا» هل كانت «بيبي» لتخبرها بما تخطط له إذا ضغطت عليها أكثر، وما إذا كانت ستحاول أن تمنع «بيبي»، أو أنها ستساعدها، إذا عرفتْ. حتى بعد أعوام لاحقة، لن تقدر على إجابة هذا السؤال بما يرضيها.

* * *

استغرق المؤتمر الصحفي وقتًا أطول من المتوقَّع، جميع طواقم الأخبار تقريبًا كانت لديها أسئلة للزوجين «ماكولا»، وبقي الزوجان «ماكولا»، المنبهران بحظهما الحسن، حتى جاوبا عنها جميعًا. هل كانا مرتاحين لانتهاء المحنة؟ نعم، بالطبع كانا كذلك. ما هي خططهما للأيام القليلة المقبلة؟ سوف يحصلان على بعض الوقت لأنفسهما، الآن وقد عادت «ميرابيل» لتبقى بالمنزل. إنهما يتطلعان للحياة معًا كعائلة. ما الذي سوف يعدانه لوجبة «ميرابيل» الأولى بعد عودتها إلى المنزل؟ أجابت السيدة «ماكولا»: وجبتها المفضلة، مكرونة وجبن. متى ستنتهي عملية التبني؟ قريبًا جدًّا، كما أملا.

رفعت مراسلة من القناة ١٩، في خلفية الحشد، يدها. هل يشعران بأي تعاطف مع «بيبي تشاو»، التي لن يتسنَّى لها رؤية ابنتها مرة أخرى؟

تصلَّبت السيدة «ماكولا»، قالت على نحوٍ قاطع:

ـ لتتذكَّر أن «بيبي تشاو» لم تكن قادرة على رعاية «ميرابيل»، وأنها تخلَّت عنها، وأنها أولتْ ظهرها لمسؤوليتها كأمٍّ. بالطبع يحزنني أن يضطر أي شخص للمرور بأمرٍ كهذا. لكن الشيء المهم أن المحكمة قررت أن «مارك» وأنا الوالدان الأفضل ملاءمة لـ«ميرابيل»، وأن «ميرابيل» الآن سيكون لها منزلٌ دائمٌ ومستقر. أعتقد أن هذا يوضح الكثير. ألا تعتقدين ذلك؟

بحلول الوقت الذي اختُتِم فيه المؤتمر، وأخذ الزوجان «ماكولا» «ميرابيل» إلى المنزل إلى الأبد. كانت الساعة تقترب من الخامسة والنصف. لم تستطع السيدة «ريتشاردسون» أن تكتب قصة جريدة «صَن برِس» الصحفية عن القرار لأن زوجها منخرطٌ في القضية، ولذلك أُسنِدت القصة لـ«سام ليفي» بدلًا منها. بدلًا منه، غطت السيدة «ريتشاردسون» السبق الصحفي المعتاد لـ«سام» عن سياسات المدينة. بلغت الساعة التاسعة تقريبًا حين قدمت السيدة «ريتشاردسون» قصصها الصحفية أخيرًا ووصلت إلى المنزل. كان أطفالها قد تفرقوا إلى شؤونهم الخاصة. سيارتا «ليكسي» و«تريب» ليستا موجودتين، ووجدت السيدة «ريتشاردسون» ورقة على نضد المطبخ: **أمي، ذهبتُ إلى منزل «سيرينا»، سأعود نحو الساعة الحادية عشرة.** لا توجد ورقة من «تريب»، لكن كان هذا معتادًا: لم يترك «تريب» قطُّ ملاحظات. في العادة كان هذا مصدر انزعاج، لكن هذه المرة وجدت السيدة «ريتشاردسون» نفسها مرتاحة: مع وجود كثير من الناس في منزل عائلة «ريتشاردسون»، كان هناك عادة جمهور، وهي لا تحتاج إلى جمهور هذه الليلة.

في الطابق العلوي، وجدت باب غرفة «إيزي» مغلقًا، تنوح موسيقى من الداخل. لقد صعدت إلى الطابق العلوي حتى قبل وصول البيتزا وظلت في غرفتها منذ ذلك الحين، تفكر في «بيبي»، كيف بدت ممزَّقةً تمامًا. أراد جزءٌ منها أن يصرخ، ولهذا وضعت أسطوانة لـ«توري آموس» في مشغِّل الأسطوانات، ورفعت الصوت، وتركتها تصرخ نيابةً عنها.

وأراد جزءٌ منها أن يبكي ـ على الرغم من أنها لا تبكي قطُّ، لم تبكِ منذ سنوات. استلقت في منتصف فراشها وأنشبت أظافرها في راحتي يدها بشدة لدرجة أنها تركت صفًّا من الأهِلَّة، لتمنع الدموع من الانهمار. بحلول الوقت الذي مرت به والدتها بباب غرفتها وعبر الردهة، إلى غرفة «مودي»، كانت قد استمعت إلى الألبوم أربع مرات وعلى وشك البدء في المرة الخامسة.

في يومٍ عادي، كانت السيدة «ريتشاردسون» ستفتح الباب، وتطلب من «إيزي» أن تخفض الصوت، وتتفوه ببعض التعليقات الناقدة عن مدى ما بدت عليه موسيقى «إيزي» دائمًا من كآبةٍ وغضب. اليوم، على أي حال، كان لدى السيدة «ريتشاردسون» شيءٌ أهم في ذهنها. بدلًا من ذلك، ذهبت إلى آخر الرواق إلى غرفة «مودي» وطرقت الباب. قالت:

ـ أريد أن أتحدث إليك.

كان «مودي» متمدِّدًا على فراشه، الجيتار إلى جواره، يخربش في دفتر. قال من دون أن يرفع عينيه:

ـ ماذا؟

لم يجشِّم نفسه عناء الاعتدال عندما دخلت والدته، ممَّا ضايقها أكثر. أغلقت الباب وسارت إلى الفراش وانتزعت الدفتر من يده. قالت:

ـ انظر إليَّ حين أتحدث إليك، لقد اكتشفتُ الأمر، أنت تفهم. هل ظننتَ أنني لن أفعل؟

حدَّق «مودي»:

ـ اكتشفتِ ماذا؟

أغلقت السيدة «ريتشاردسون» الدفتر بقوة. قالت:

ـ هل ظننتَ أنني كنتُ عمياء؟ هل ظننتَ أنني حتى لن ألاحظ؟ كلاكما تتسللان خفيةً طوال هذا الوقت. أنا لستُ غبية يا «مودي». عرفتُ بالطبع ما كنتما تفعلان. ظننتُ أنكما ستكونان مسؤولين أكثر قليلًا من ذلك.

في غرفة «إيزي»، أُوقِفَت الموسيقى. لكن لم يلاحظ «مودي» ولا والدته ذلك.

دفع «مودي» نفسه ببطء إلى وضع الجلوس:

ـ ما الذي تتحدثين عنه؟

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أنا أعرف، بشأن «بيرْل». بشأن الطفل.

أخبرتْها الصدمة على وجه «مودي»، وصمته الذاهل، كل شيء. أدركتْ أنه لم يعرف.

ـ ألم تُخبرك؟

تاهتْ نظرة «مودي» عن تركيزها من على وجهها ببطء، مثل قاربٍ منجرف. قالت السيدة «ريتشاردسون» وهي تغوص في الفراش إلى جواره:

ـ إنها لم تُخبرك، أجرتْ «بيرْل» عملية إجهاض.

شعرتْ بوخزة من الذنب. تساءلتْ، هل كانت الأمور لتختلف إذا عرف؟ حين لم يقل «مودي» شيئًا، انحنت السيدة «ريتشاردسون» لتتناول يده. قالت:

ـ اعتقدتُ أنكَ عرفت. افترضتُ أنكما تحدثتما في الأمر وقررتما إنهاءه.

جذب «مودي» يده بعيدًا ببطء وبرود. قال:

ـ أعتقد أنكِ جئت إلى الابن الخطأ.

كان دور السيدة «ريتشاردسون» لتشعر بالذهول.

ـ لا يوجد شيء بيني وبين «بيرْل».

ضحك، مع سعلة قصيرة مريرة:

ـ لماذا لا تذهبين لسؤال «تريب»؟ إنه هو من يضاجعها.

بيدٍ واحدة أخذ الدفتر من حضن والدته وفتحه مرة أخرى، مركزًا على خط يده على الصفحة لمنع الدموع من الفِرار. كان الأمر حقيقيًا بالنسبة له الآن، بطريقةٍ لم تتحقق من قبل. لقد كانت «بيرْل» مع «تريب»، لقد مارس الحب معها، تركتْه يفعل، لقد حدث هذا. على أي حال، لم تلاحظ السيدة

«ريتشاردسون». نهضت، شاعرة بدوار، واتجهت أسفل الردهة إلى غرفتها الخاصة لتفكر في الأمور مليًّا. «تريب»؟ تساءلت. هل يمكن هذا؟ لم تكن هي ولا «مودي» واعيَين بالهدوء المفاجئ في غرفة «إيزي»، أن باب «إيزي» كان مفتوحًا الآن بمقدار ضئيل، أن «إيزي» أيضًا، كانت تجلس في صمتٍ مذهول، تستوعب ما سمعتْه للتو.

* * *

ذهبت السيدة «ريتشاردسون» إلى العمل مبكرًا صباح الجمعة، مغادرةً قبل موعدها بنصف ساعة لتجنب مواجهة أي من أطفالها. في الليلة السابقة، عادت «ليكسي» إلى المنزل قرب منتصف الليل، عاد «تريب» متأخرًا بعد ذلك، وعلى الرغم من أنها عادةً ما وبَّختهم للبقاء بالخارج لوقتٍ متأخر في عشيَّةِ يومٍ دراسيٍّ، ظلت بدلًا من ذلك في غرفتها، متجاهلةً محاولاتهم للتَّخفِّي على السلَّم. كانت تحاول فهم كل شيء. بسبب التوتر الإضافي سمحتْ لنفسها بكأسٍ ثانيةٍ من النبيذ، الذي أصبح دافئًا. «تريب»، و«بيرْل»؟ فهمت، بالطبع، لماذا تقع «بيرْل» في هوى «تريب» ـ عادةً ما فعلت الفتيات ذلك ـ لكن ما الذي قد يراه «تريب» في «بيرْل» كان مسألةً أخرى. راحتْ في النوم وهي متحيِّرة، واستيقظت من دون أن تستقر على شيء. لم يكن «تريب»، كما تأمَّلت فيما ترجع إلى الخلف خارجةً من الجراج، ذلك النوع من الفتيان الذي يقع في هوى فتياتٍ جادَّاتٍ مثقفاتٍ مثل «بيرْل». بوسع السيدة «ريتشاردسون» الاعتراف بهذا، حتى باعتبارها والدته، حتى باعتبارها تعشقه. كان مهتمًّا فقط بالأمور السطحية، ابنها الجميل، المرح، الضَّحِل، وعلى السطح لم يمكنها أن ترى ما جذبه في «بيرْل». إذن هل امتلكت «بيرْل» أعماقًا خفيَّة؟ أم هل امتلكها «تريب»؟ شغلتْها هذه الفكرة طوال الطريق إلى مكتبها.

فكرت طوال الصباح فيما تفعله. هل تواجه «تريب»؟ هل تواجه «بيرْل»؟ هل تواجههما معًا؟ لم تتحدث هي وزوجها إلى أطفالهما عن حيواتهما

الجنسية، كان لها حديثٌ مع «ليكسي» و«إيزي»، حين بدأت دوراتهما الشهرية، عن مسؤولياتهما. («نقاط ضعفهما»، كما صححت لها «إيزي»، وغادرت الغرفة). لكن بوجهٍ عام افترضت أن أطفالها كانوا نبهاء بما يكفي ليتخذوا قراراتهم الخاصة، أن المدرسة سلَّحتْهم جيدًا بالمعرفة. إذا كانوا يعتزمون فعل أشياء ـ كما فكرتْ في الأمور بصيغةٍ تلطيفية ـ لم تحتَج، ولم تُرِد، أن تعرف. أن تقف في وجه «تريب» وتلك الفتاة وتقول، أنا أعرف ما كنتما تفعلانه، بدا الأمر مُخزيًا كما لو أنها قامت بتعريتهما.

في النهاية، قبل الظهر، وجدت نفسها تستقل سيارتها وتقودها إلى المنزل الصغير على طريق «وينسلو». عرفت أن «مِيا» سوف تكون هناك، تعمل على صورها الفوتوجرافية. فتحت السيدة «ريتشاردسون» الباب الجانبي المشترك ودخلت من دون أن تطرق الباب. كان هذا منزلها، بعد كل شيء، ليس منزل «مِيا»، تمتلك السيدة «ريتشاردسون» الحق باعتبارها المالكة. كانت شقة الطابق السفلي صامتة، الساعة الحادية عشرة والسيد «يانج» في العمل. في الطابق العلوي، على أي حال، أمكنها أن تسمع «مِيا» في المطبخ، دمدمة غلَّايةٍ توشك على الغليان، صافرة تنبعث إلى الحياة ثم تخمد كما لو أن أحدهم رفعها من على الموقد. صعدت السيدة «ريتشاردسون» السلَّم إلى الطابق الثاني، ملاحظةً مشمَّع الأرضية الذي قد بدأ يتقشَّر عند أركان درجات السلَّم. لا بد من إصلاح ذلك، هكذا فكرت. سوف تجرِّد السلَّم بأكمله ـ لا، الشقة بأكملها ـ تُجرِّدها تمامًا وتُعيد تغطيتها.

كان الباب المُفضي إلى شقة الطابق العلوي غير مغلق، ونظرتْ «مِيا» إلى أعلى، متنبِّهةً، بينما دخلت السيدة «ريتشاردسون» إلى المطبخ.

قالت «مِيا»:

ـ لم أتوقَّع زيارة من أي أحد.

أصدرت الغلاية أنةً خافتةً فيما وضعتْها «مِيا» على عين الموقد الساخنة.

ـ هل أنتِ بحاجة إلى شيءٍ ما؟

مسحتْ نظرة السيدة «ريتشاردسون» الشقة: الحوض المحتوي على أطباق إفطار «بيرْل» التي ما زالت مكدسةً فوق المصرف، الوسائد المصفوفة التي تُعامل على أنها أريكة، الباب نصف المفتوح لغرفة نوم «مِيا»، حيث المرتبة موضوعة على سجادة. كانت حياةً مثيرةً للشفقة، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون»، كان لديهما أقل القليل. ثم وقعت عيناها على شيءٍ مألوف، مطوي على ظهر أحد كرسيَّي المطبخ غير المتماثلين: سترة «إيزي». تركتْها «إيزي» هناك في زيارتها الأخيرة، وأهانت لمحة الإهمال العفويِّ تلك السيدة «ريتشاردسون». كما لو أن «إيزي» عاشت هنا، كما لو أن هذا منزلها، كما لو أنها ابنة «مِيا»، ليست ابنتها.

قالت:

ـ عرفتُ دائمًا أن هناك أمرًا ما بشأنكِ.

ـ المعذرة؟

لم تُجِب السيدة «ريتشاردسون» على الفور. إنه ليس حتى فراشًا حقيقيًّا، هكذا فكرت. إنها ليست حتى أريكةً حقيقية. **ما نوع المرأة الراشدة التي تجلس على الأرض، تنام على الأرض؟ أي نوعٍ من الحياة هذا؟**

قالت وهي تحدق في طاولة المطبخ، حيث ألصقت «مِيا» بحرص صورةً لكلبٍ ورجلٍ معًا:

ـ أفترض أنكِ ظننتِ أن بوسعكِ الاختباء. أفترض أنكِ ظننتِ أنه لن يعرف أحدٌ أبدًا.

بدأتْ «مِيا» بقولها، وقد أطبقتْ مفاصلها على مقبض قدحها الخزفي:

ـ لا أعرف عن أي شيءٍ تتكلمين.

ـ لا تعرفين؟ أنا متأكدة أن «جوزيف» و«مادلين رايان» يعرفان.

صمتتْ «مِيا».

ـ أنا متأكدة أنهما سيودَّان معرفة مكانك. كذلك والداكِ. أنا متأكدة أنهما سيودَّان معرفة مكان «بيرْل»، أيضًا.

رمقت السيدة «ريتشاردسون» «مِيا» بنظرة:

ـ لا تحاولي الكذب بخصوص الأمر. أنتِ كاذبةٌ بارعة، لكنني أعرف كل شيء عما فعلتِ.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أنا لم أقل أي شيءٍ تقريبًا. فكرتُ، أن ما مضى قد مضى. ربما عاشتْ حياةً جديدة. لكنني أرى أنكِ أنشأتِ ابنتكِ لتكون عديمة المسؤولية الأخلاقية مثلكِ تمامًا.

اتسعتْ عينا «مِيا»:

ـ «بيرْل»، ما الذي تتحدثين عنه؟

ـ يا لكِ من منافقة. سرقتِ طفل هذين الزوجين ثم تحاولين أخذ طفلٍ بعيدًا من الزوجين «ماكولا».

ـ «بيرْل» طفلتي.

رفعت السيدة «ريتشاردسون» أحد حاجبيها:

ـ لقد حصلتِ على بعض المساعدة في إنجابها، أليس كذلك؟ أنا و«ليندا ماكولا» صديقتان منذ أربعين عامًا. إنها مثل أختٍ لي. ولا أحد يستحق طفلًا مثلها.

ـ إنها ليست مسألة استحقاق. أنا فقط أعتقد أن أمًّا لديها حقٌّ في تنشئة طفلتها.

ـ تعتقدين ذلك؟ أم إن هذا فقط ما تقولينه لنفسك كي تتمكني من النوم ليلًا.

تورَّدتْ «مِيا»:

ـ إذا كان بوسع «ماي لينج» أن تختار، ألا تعتقدين أنها سوف تختار البقاء مع أمِّها الحقيقية؟ الأمُّ التي ولدتْها؟

ـ ربما.

نظرت السيدة «ريتشاردسون» لـ«مِيا» عن قُرب. قالت:

ـ الزوجان «رايان» ثريَّان. لقد أرادا طفلًا بشدة. سيمنحانها حياةً رائعة. إذا تسنَّى لـ«بيرْل» الاختيار، هل تظنين أنها ستختار البقاء معكِ؟ أن تحيا كمتشردة؟

قالت «مِيا» فجأة:

ـ يزعجكِ الأمر، أليس كذلك؟ أعتقد أنك لا تستطيعين التخيُّل. لماذا يختار أي أحدٍ حياةً مختلفة عن التي لديكِ. لم قد يريد أي أحدٍ شيئًا آخر غير منزلٍ كبير بمرجةٍ كبيرة، وسيارة فاخرة، ووظيفة في مكتب. لماذا سيختار أي أحد أي شيءٍ مختلف غير الذي اخترتِهِ.

كان دورها الآن لتتفحص السيدة «ريتشاردسون»، كما لو أن مفتاح فهمها مُشَفَّرٌ في وجهها.

ـ يرعبكِ الأمر. أنكِ فوَّتِّ فرصةً ما. أنكِ تخلَّيتِ عن شيءٍ لم تعلمي أنكِ أردتِه.

ارتسمت ابتسامةٌ ضيقة، مشفقة، حادة على ركني شفتي «مِيا»:

ـ ماذا كان؟ هل كان فتًى؟ هل كان نداءً داخليًّا للعمل بمهنةٍ ما؟ أم كانت حياةً كاملة؟

أفسدت السيدة «ريتشاردسون» ترتيب المقتطفات المنسقة لصور «مِيا» الفوتوجرافية على الطاولة. تحت يديها قطعٌ من كلب وقطعٌ من رجُل انفصلت واختلطت وأُعيدَ تشكيلها.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ أعتقد أنه حان الوقت كي تمضي في طريقك.

بيدٍ واحدة رفعتْ سترة «إيزي» من الكرسي ونفضتها من الغبار، كما لو أنها متسخة:

ـ بحلول الغد.

وضعتْ ورقة مطوية بمائة دولار على نضد المطبخ:

ـ لا بد أن هذا أكثر من تعويض عن إيجار الشهر. سنعتبره تعادلًا.

ـ لماذا تفعلين ذلك؟

اتجهت السيدة «ريتشاردسون» نحو الباب. قالت:

ـ اسألي ابنتكِ.

وأُغلِق الباب خلفها.

١٩

بعد ظهيرة الجمعة، حين دقَّ الجرس بعد الساعة الواحدة مباشرة، استقرت «بيرْل» في الحصة السابعة ووضعت حقيبتها بجوار مقعدها. سوف تقابل «تريب» في سيارته بعد المدرسة، لقد وضع ورقة تحوي ملاحظة في خزانتها هذا الصباح. وضعتْ «ليكسي» ورقة أخرى بعد الغداء: **السينما هذه الليلة؟ فيلم «ديب إمباكت»**؟ كان هذا كافيًا تقريبًا لجعلها تنسى أنها و«مودي» ليسا صديقين بعد الآن. ما زالا يريان بعضهما البعض كل يوم في الفصل، لكنه في أغلب الأيام كان يقفز بمجرد أن يسمع رنين جرس المدرسة، ويندفع خارجًا قبل حتى أن تجد هي الفرصة لتُغلق حافظة أوراقها. الآن ها هو في الجانب الآخر من الممر، ينحني فوق نسخته من «عطيل». تساءلتْ ما إذا كانا سيعودان إلى الوضع الطبيعي مرة أخرى، إذا كانت الأمور ستعود إلى عهدها بينهما مرة أخرى. الجنس يغيِّر الأشياء، كما أدركتْ، ليس فقط بينكَ وبين الشخص الآخر، لكن بينكَ وبين الجميع.

كانت لا تزال تقلِّب هذا التصور على وجوهه في ذهنها حين دقَّ جرس هاتف الفصل. كان الاتصال عادةً عبارة عن سؤالٍ من المكتب الرئيسي بخصوص شيءٍ ما؛ ورقة حضورٍ في غير مكانها، عذر من أجل طالبٍ متأخر، لذلك لم تكترث حتى أغلقت السيدة «توماس» الخط وانحنت بجوارها.

قالت بنعومة:
ـ «بيرْل»، يقول المكتب إن والدتكِ جاءت لتُقلكِ. قالوا أن تأخذي أشياءكِ معكِ.
عادتْ إلى السبورة، حيث أخذت تكتب الخطوط العريضة للفصل الثالث من المسرحية. واحتارت «بيرْل» بشأن الأمر فيما تحزم كتبها في الحقيبة. أكان هناك موعدٌ نسيتْه؟ أكان هذا نوعًا من الحالاتِ الاضطرارية؟ بدافع الغريزة، سدَّدت نظرةً سريعة إلى «مودي» في المقعد التالي، أقرب شيءٍ إلى محادثة بينهما منذ أسابيع. لكن بدا أن «مودي» ليست لديه أي فكرة بقدْر «بيرْل»، وآخر شيءٍ تذكَّرتْه فيما غادرت الفصل كان وجهه، لحظتهما المشتركة من الحيرة.
خرجت من باب جناح العلوم ورأت والدتها وقد ركنت بجوار الرصيف، مستندةً بظهرها على «الرابِتْ» الصفراء الصغيرة، منتظرةً إياها.
قالت «مِيا»:
ـ ها أنتِ ذي.
ـ أمي، ماذا تفعلين هنا؟
نظرت «بيرْل» من فوق كتفها، في رد فعلٍ عالميٍّ لكل المراهقين الذين يواجهونَ أهلهم في مكانٍ عام.
فتحتْ «مِيا» سحَّاب حقيبة «بيرْل» وألقتْ نظرةً خاطفةً داخلها:
ـ هل لديكِ أي شيءٍ مهم في خزانتكِ؟ محفظتكِ؟ أي أوراق؟ حسنًا، هيا بنا.
استدارت باتجاه السيارة، وهزَّت «بيرْل» جسدها لتتحرَّر منها.
ـ أمي، لا أستطيع. لديَّ امتحان أحياء قصير في الحصة التالية. وسأقابل.. سأقابل أحدهم بعد المدرسة. سوف أراكِ في المنزل. حسنًا؟
قالت «مِيا»:
ـ ليس هذا ما قصدته.

ولاحظتْ «بيرْل» التجعيدة بين حاجبي والدتها التي تعني أنها كانت شديدة القلق.

ـ أعني أننا يجب أن نرحل. اليوم.

ـ ماذا؟

نظرت «بيرْل» حولها. تمدَّدت الساحة البيضاوية هادئةً وخضراء أمامهما. كان الجميع بالداخل، في الفصل، ما عدا بعض طلابٍ متجمعين ـ خارج حدود المدرسة ـ عند مثلث إشارة المرور القريب، يدخنون. بدا كل شيءٍ عاديًّا للغاية.

ـ أنا لا أريد الرحيل.

ـ أعرف يا عزيزتي. لكن يجب أن نفعل.

في كل مرة قبل الآن، حين قررت والدتها الرحيل، شعرت «بيرْل» على الأكثر بوخزةٍ من الندم، دائمًا بشأن أشياء تافهة: ولدٌ أُعجِبتْ به على البُعد، مقعدٌ معيَّنٌ في المتنزه أو ركنٌ هادئ أو كتابٌ في مكتبة كرهتْ أن تخلِّفهُ وراءها. غالبًا ما شعرتْ بالراحة، على أي حال: أن بإمكانها أن تنسَلَّ من هذه الحياة وتبدأ حياةً جديدة؛ كأفعى تطرح جلدها. هذه المرة كان كل ما انفجر في داخلها مزيجًا من الالتياع والغضب.

قالت بصوتٍ غليظ:

ـ لقد وعدتِ أننا سنبقى. أمي. لديَّ أصدقاءٌ هنا. لديَّ...

نظرتْ حولها، كما لو أن أحدًا من أطفال «ريتشاردسون» قد يظهر. لكن «ليكسي» كانت بعيدة في القاعة الاجتماعية تنهي غداءها. «مودي» هناك في فصل اللغة الإنجليزية يناقش «عطيل». و«تريب»، «تريب» سوف ينتظرها بعد المدرسة في الجانب الآخر من الساحة البيضاوية. إذا لم تظهر، سوف يقود مبتعدًا. راودتْها فكرةٌ جامحة: إذا أمكنها فقط الركض إلى منزل «ريتشاردسون»، سوف تكون بأمان. سوف تساعدها السيدة «ريتشاردسون»، كانت «بيرْل» واثقة من ذلك. سوف تؤويها عائلة «ريتشاردسون». لن تدعها عائلة «ريتشاردسون» ترحل.

ـ أرجوكِ يا أمي. أرجوكِ. أرجوكِ ألا نرحل.
ـ أنا لا أريد ذلك. لكن يجب علينا أن نرحل.
مدَّت «مِيا» يدها. للحظة، تخيلتْ «بيرْل» نفسها تتحوَّل إلى شجرة. مُجَذِّرَةً نفسها عميقًا للغاية في تلك البقعة لدرجة أن لا شيء يمكنه انتزاعها من مكانها.
قالت والدتها:
ـ «بيرْل» عزيزتي، أنا آسفة للغاية. إنه وقت الرحيل.
تناولتْ يد «مِيا»، وأصبحتْ «بيرْل»، المنتزَعة من جذورها، حرةً، وتبعتْ والدتها إلى السيارة.

* * *

حين عادتا إلى المنزل على طريق «وينسلو»، كانت بعض المقتنيات قد حُزِمتْ بالفعل: جُرِّدَت الأريكة من بطانيتها وفُكِّكَتْ إلى كومة من الوسائد، وُضِعت الصور المطبوعة المتنوعة التي ثبتتْها «مِيا» على الجدار في صندوق. كانت «مِيا» تحزم الأمتعة بسرعة، ماهرةً بصورةٍ غير محتملة في حشر عدد كبير من الأغراض في مساحة ضيقة. خلال عامهما في «شايكِر»، على أي حال، اقْتَنتا أغراضًا أكثر مما اقْتَنتاه من قبل على الإطلاق، وهذه المرة سوف تحتاجان لترك كثيرٍ من الأغراض خلفهما.
اعترفت «مِيا»، واضعةً مفاتيحها على الطاولة:
ـ ظننتُ أنني سأكون قد انتهيتُ الآن. لكن يجب أن أُنهي شيئًا ما. اطوي ملابسكِ. أي شيءٍ تتسع له حقيبتك القماشية.
قالت «بيرْل»:
ـ لقد وعدتِ.
في الشرنقة الآمنة لمنزلهما ـ منزلهما الحقيقي، كما بدأت تفكر فيه ـ بدأت الدموع بالانهمار، بمصاحبة نوبة مختنقة من الغضب:
ـ قلتِ إننا سوف نستقر. قلتِ إن هذا كان المكان المنشود.

توقفت «مِيا» ووضعتْ ذراعًا حول «بيرْل»، قالت:
ـ أعرف أنني فعلت. لقد وعدتُ. وأنا آسفة. لقد حدث شيءٌ ما...
ـ لن أرحل.
ركلتْ «بيرْل» حذاءها على الأرض وسارت بخطواتٍ ثقيلة إلى غرفة المعيشة. سمعت «مِيا» باب غرفة «بيرْل» يُصفع. متنهدةً، التقطت «مِيا» حذاء «بيرْل» الرياضي من الكعبين وتوجهت إلى أسفل الرواق. ارتمتْ «بيرْل» في فراشها، كتاب الرياضيات منبسطٌ أمامها، تخرج بتوتر دفترًا من حقيبتها. تمثيليةٌ غاضبة.
ـ حان الوقت.
ـ يجب أن أُؤدِّي واجبي المنزلي.
ـ يجب أن نحزم الأغراض.
أغلقت «مِيا» الكتاب بلطف.
ـ ثم يجب أن نرحل.
انتزعت «بيرْل» الكتاب من يد والدتها وقذفته إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث ترك لطخة سوداء على الجدار. بعد ذلك قذفت دفترها، وقلمها الجاف، وكتاب التاريخ، وكومة من بطاقات الملاحظات، حتى رقدت حقيبة كتبها متجعدةً على الأرض مثل جلدٍ متساقط وتبعثر كل ما كان بداخلها. جلست «مِيا» بهدوء بجوار «بيرْل»، منتظرةً. لم تعد «بيرْل» تبكي. حلَّ مكان دموعها وجهٌ بارد، خالٍ من التعبير وفكٌّ متصلب.
قالت «مِيا» أخيرًا:
ـ اعتقدتُ أن بوسعنا البقاء، أيضًا.
ـ لماذا؟
جذبتْ «بيرْل» ركبتيها إلى صدرها ولفَّتْ ذراعيها حولهما ووجهت إلى والدتها نظرةً ساخطة:
ـ لن أرحل حتى تخبريني لماذا.

ـ حسنًا، هذا عادل.

تنهدت «مِيا». جلست بجوار «بيرْل» على الفراش وسوَّت غطاء الفراش أسفلهما. كان الوقت بعد الظهيرة. كان اليوم مشمسًا. بالخارج، هَدَلَتْ حمامةٌ، ارتفعت الهمهمة المنخفضة لإحدى آلات جزِّ العشب، ألقتْ غيمةٌ عابرةٌ ظلها عليهما للحظة، ثم انجرفت بعيدًا. ببساطةٍ كما لو أنه يومٌ عادي.

ـ لقد كنتُ أفكر في كيفية إخبارك منذ زمن طويل. أطول مما يمكنك أن تتخيلي.

أصبحت «بيرْل» ساكنةً تمامًا الآن، عيناها مثبَّتتان على والدتها، منتظرةً بصبر، واعيةً إلى أنها سوف تعلم الآن شيئًا شديد الأهمية. فكرت «مِيا» في «جوزيف رايان»، جالسًا إلى الطاولة في مواجهتها تلك الليلة على العشاء، منتظرًا أن يعلم جوابها.

قالت، وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

ـ دعيني أخبرك أولًا، عن خالك «وارِن».

* * *

حين انتهت «مِيا»، جلست «بيرْل» بهدوء، متتبعةً خطوط خياطة اللحاف التي انتشرت عليه حلزونيًّا. أخبرتْ «مِيا» «بيرْل» الخطوط العريضة لكل شيء، على الرغم من أنهما عرفتا أن جميع التفاصيل سوف تأتي خلال وقتٍ طويل. سوف تنساب شيئًا فشيئًا، ذكرياتٌ تظهر فجأةً على السطح، يستحثُّها أصغر خيط، بالطريقة التي غالبًا ما تتبعها الذكريات. لسنواتٍ بعد ذلك، ستقع عينا «مِيا» على منزلٍ أصفر بينما تقودان بجواره، أو شاحنة إصلاح محطمة، أو ترى طفلين يتسلقان سفح تلٍّ، وسوف تقول: «هل أخبرتُكِ من قبل...» وسوف تنتبه «بيرْل» فجأة، مستعدةً لجمع كِسرةٍ لامعةٍ صغيرةٍ أخرى من تاريخها. توصلتْ «بيرْل» إلى فهم أن كل شيء كان شيئًا مثل المالانهاية. ربما لا تقتربان أبدًا، لكن ربما تتقدمان

إلى نقطة حيث عرفت كل ما احتاجت إلى معرفته من أجل كل المقاصد والأهداف. سوف يستغرق الأمر ببساطة وقتًا وصبرًا. في الوقت الحالي، عرفت ما فيه الكفاية.

سألتْ والدتها:

ـ لماذا تخبريني هذا؟ أعني، لماذا تخبريني هذا الآن.

أخذتْ «مِيا» نفسًا عميقًا. كيف تشرح لأحدهم ـ كيف توضِّح لطفل، طفلٍ تحبه ـ أن شخصًا عشقه ذلك الطفل لم يكن جديرًا بالثقة؟ حاولتْ. حاولتْ جهدها لتوضِّح، وشاهدت الحيرةَ تغمرُ وجه «بيرْل»، ثم الألم. لم تتمكن «بيرْل» من فهم الأمر: السيدة «ريتشاردسون»، التي دائمًا ما كانت طيبة معها، التي قالت كثيرًا من الأشياء اللطيفة عنها. التي فتن مظهرها المشرق، البرَّاق «بيرْل» بانعكاسها.

قالت «مِيا» أخيرًا:

ـ إنها مُحِقَّةٌ على الرغم من ذلك. كان الزوجان «رايان» سيمنحانكِ حياةً رائعة. كانا سيُحبَّانكِ. والسيد «رايان» هو والدكِ.

لم يسبق لها أن قالت هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ قطُّ، بل لم تسمح لنفسها بالتفكير في هذه الكلمات، وكان لهذه الكلمات مذاقٌ غريبٌ على لسانها. قالتها مرة أخرى:

ـ والدكِ.

من ركنِ عينها شاهدت «بيرْل» تلفظ الكلمات لنفسها، كما لو أنها تجرِّبها. سألتْ «مِيا»:

ـ هل تريدين مقابلتهما؟ يمكننا القيادة إلى نيويورك. لن يكون العثور عليهما صعبًا.

فكرت «بيرْل» في هذا لوقتٍ طويل.

قالت:

ـ ليس الآن. ربما يومًا ما. لكن ليس الآن.

مالت بين ذراعَي والدتها، كما كانت تفعل وهي طفلة، تدسُّ نفسها بدقة تحت ذقن والدتها. قالت بعد لحظة:

ـ وماذا بشأن والديكِ؟

ـ والداي؟

ـ هل ما زالا موجودين؟ هل تعرفين أين هما؟

تردَّدتْ «مِيا»، قالت:

ـ نعم، أعتقد أنني أعرف. هل تريدين مقابلتهما؟

أمالت «بيرْل» رأسها إلى أحد الجانبين، بلفتة ذكَّرتْ «مِيا» بـ«وارِن» بقوةٍ شديدة ممَّا جعلها تلتقط نفَسها. قالت «بيرْل»:

ـ يومًا ما، يومًا ما ربما نذهب ونراهما معًا.

أمسكتْ «مِيا» «بيرْل» للحظة، دفنت أنفها في مفرق شعر «بيرْل». كل مرة فعلت هذا، أراحها إلى أي مدى كانت رائحة «بيرْل» لا تتغير قطُّ. ظنت «مِيا» فجأة، أن رائحة «بيرْل» هي رائحة المنزل، كما لو أن المنزل لم يكن مكانًا قطُّ، بل كان دائمًا هذا الشخص الصغير الذي حملتْه إلى جوارها.

قالت:

ـ والآن، من الأفضل أن نحزم الأغراض.

كانت الساعة الثالثة والنصف. خرج الطلاب من المدرسة، هكذا فكرت «بيرْل» فيما بدأت بحزم ملابسها. سيكون «مودي» قد وصل إلى المنزل للتو. سيكون «تريب» قد فقد الأمل في مجيئها الآن، أم سينتظرها؟ إن لم تظهر، هل سيأتي للبحث عنها؟ إنها لم تخبر والدتها عن «تريب» بعد، لم تكن واثقةً، بعدُ، إذا كانت ستخبرها أبدًا.

كانت هناك طرقةٌ على الباب الجانبي. بالنسبة لـ«بيرْل»، بدا الأمر كما لو أنها استدعتْ «تريب» بذهنها، والتفتت إلى «مِيا»، متسعة العينين.

قالت «مِيا»:

ـ سأذهب لأرى من بالباب، ابقي هنا بالأعلى. استمري في حزم الأغراض.

إذا كانت السيدة «ريتشاردسون»، كما ظنت... لكن لا، إنها «إيزي»، تقف متحيِّرةً في ممر السيارات.

قالت:

ـ لماذا الباب مغلق؟

لشهورٍ كانت تأتي لمساعدة «مِيا» كل يوم بعد الظهيرة، ولم يكن الباب الجانبي مغلقًا قطُّ قبل ذلك. لقد كان مفتوحًا لها ـ لجميع أطفال «ريتشاردسون»، كما خطر لها الآن ـ في أي لحظة من اليوم، أيًّا كانت مشكلتها.

ـ كنتُ.. كنتُ مشغولة بشيءٍ ما.

لقد نسيت «مِيا» كل شيءٍ عن «إيزي»، وحاولت التفكير في عذرٍ مقنع.

ـ هل ما زالت «بيبي» هنا؟

كان هذا الشيء الوحيد الذي استطاعت «إيزي» أن تظن أنه سبب غلق «مِيا» بابها في وجهها وتصرفها.

ـ لا، لقد ذهبت إلى المنزل. أنا فقط.. كنتُ مشغولة.

ـ حسنًا.

تراجعت «إيزي» نصف خطوة من المدخل، وأصدر الباب السلكيُّ الخارجي، الذي كانت تبقيه مفتوحًا بقدمها، صيحةً خافتة.

ـ حسنًا، هل «بيرْل» هنا؟ أنا.. أنا أردتُ أن أخبرها شيئًا.

حاولت «إيزي» اللحاق بـ«بيرْل» طوال اليوم، في الحقيقة، لقد حاولت أن تتصل بها في الليلة السابقة، لكنها سمعت فقط إشارة الخط المشغول. أثناء محاولة «مِيا» مواساة «بيبي»، أزالت الهاتف من وصلته، ونسيت أن تعيده إلى مكانه. حاولت «إيزي» مرارًا وتكرارًا، حتى ما بعد منتصف الليل، مقررةً في النهاية أنها ستعثر على «بيرْل» في المدرسة في الصباح. شعرت

«إيزي» أن «بيرْل» يجب أن تعرف ما قاله «مودي» عنها، أن والدتها عرفت بشأن «تريب». لكن «إيزي» لم تعرف المسارات التي تأخذها «بيرْل» من فصلٍ إلى فصل، هل ستأخذ السلَّم الرئيسي، بازدحامه بالطلبة، أو السلَّم الخلفي الذي أدى إلى أسفل إلى جناح اللغة الإنجليزية؟ هل ستأكل في الكافيتريا، أم في رواق «الإجرِس» بالأسفل، أم بالخارج على المرجة في مكانٍ ما؟ كل مرةٍ خمَّنتْ خطأً، وأُحبطت «إيزي» لتضييع «بيرْل» مرةً بعد أخرى، حتى أكثر إحباطًا بسبب كيف بدت معرفتها بـ«بيرْل» قاصرة. عاهدت «إيزي» نفسها أنها ستجد «بيرْل» مباشرة بعد المدرسة وتخبرها كل شيء.

الآن، وجهًا لوجه مع «مِيا»، كان بوسع «إيزي» أن تعرف أن شيئًا ما ليس على ما يرام، لكنها لم تكن متأكدة ما هو. هل عرفت «مِيا» بالفعل؟ هل «بيرْل» في ورطة؟ هل «مِيا»، لسببٍ ما، غاضبةٌ من «إيزي» أيضًا؟

خفضت «مِيا» بصرها إلى وجه «إيزي» القلِق ولم تعرف ما إذا كان الكذب أم قول الحقيقة سوف يؤلمها أكثر. قررت ألا تقول شيئًا.

قالت:

ـ سوف أخبرها أنكِ مررتِ، حسنًا؟

قالت «إيزي» مرة أخرى:

ـ حسنًا.

بيدٍ واحدةٍ على مقبض الباب اختلست النظر من خلال شعرها إلى «مِيا» بالأعلى. تساءلت «إيزي» هل ارتكبتْ خطأً ما، هل أغضبتْ «مِيا»؟ دائمًا ما قالت «ليكسي» إن وجه «إيزي» ليس جامدًا، وهذا صحيح: لم تكلف «إيزي» نفسها قطُّ عناء إخفاء مشاعرها، حتى إنها لم تعرف كيف تفعل ذلك. بدت صغيرة للغاية في هذه اللحظة، مرتبكة للغاية وضعيفة ووحيدة، وهذا، ما جعل «مِيا» تشعر أنها خذلتْها أكثر من أي شيءٍ آخر.

قالت «مِيا»:

ـ هل تذكرين ما قلتُه لكِ ذلك اليوم؟ عن حرائق البراري؟ أنكِ تحتاجين أحيانًا إلى حرق كل شيءٍ عن آخره والبدء من جديد؟

أومأتْ «إيزي».

قالت «مِيا»:

ـ حسنًا.

خيمت لحظة طويلةٌ بينهما. لم تستطِع «مِيا» التفكير في طريقة لقول «وداعًا».

ختمتْ قولها:

ـ فقط تذكري هذا، أحيانًا تحتاجين إلى البدء من الصفر. هل بإمكانك فهم ذلك؟

لم تكن «إيزي» واثقةً أنها فهمتْ، لكنها أومأتْ مرةً أخرى.

قالت «إيزي»:

ـ أراكِ غدًا.

وتصدَّع قلب «مِيا». بدلًا من الرد، جذبتْ «مِيا» «إيزي» بين ذراعيها وقبَّلتها على قمة رأسها، الموضع نفسه حيث اعتادتْ تقبيل «بيرْل». قالت:

ـ أراكِ قريبًا.

سمعت «بيرْل» الباب يُغلق، لكن مرت لحظات قبل عودة «مِيا» إلى الطابق العلوي. خطواتها بطيئة وثقيلة على درجات السلَّم.

سألت «بيرْل»، على الرغم من أنها كوَّنتْ فكرة جيدة الآن:

ـ من كان ذلك؟

قالت «مِيا»:

ـ «إيزي»، لكنها رحلت.

واستدارت «مِيا» إلى غرفتها لتحزم الأغراض.

لقد فعلتا هذا مرات عديدة من قبل: قدحان متراكبان، مجموعة أدوات المائدة الخاصة بهما محبوسةٌ بداخلهما، القدحان في زُبديتين، الزُّبديتان

في قِدر، القدر في مقلاة، الكل ملفوف في كيس بقالة ورقي ومحشو بأي طعام يمكن حفظه، غلاف أسطواني من البسكوت الهش، برطمان من زُبدة الفول السوداني، نصف رغيف من الخبز. كيس آخر احتوى شامبو، قطعة صابون، أنبوبة معجون أسنان. حشرت «مِيا» حقيبتيهما القماشيتين في موضع الأقدام في السيارة ومددت كومة من البطاطين عليها. وضعت كاميرتها ومستلزماتها في صندوق السيارة، مع الأطباق ومستلزمات النظافة. كل شيءٍ آخر، الطاولة ذات الأرجل المتحركة التي طلتاها باللون الأزرق، والكرسيَّان غير المتماثلين، وفراش «بيرْل»، ومرتبة «مِيا»، وكتلة الوسائد التي سمَّتاها أريكة، سوف يُخلَّفُ وراءهما.

حلَّ الظلام تقريبًا بحلول وقت انتهائهما، وظلت «بيرْل» تفكر في «تريب» و«ليكسي» و«مودي» و«إيزي». سيكونون في المنزل الآن، في منزلهم الجميل. سيتساءل «تريب» لماذا لم تأتِ للقائه. لن تتسنَّى لها رؤيته مرة أخرى أبدًا، هكذا فكرت، وشعرت بحريق في حلقها. ستكون «ليكسي» جاثمةً على نضد المطبخ، تلفُّ إحدى خصلات شعرها حول إصبعها، تتساءل عن مكان «بيرْل». و«مودي»، لن تواتيهما فرصةٌ كي يتصالحا أبدًا.

قالت فيما وضعتْ والدتها أغراضهما الأخيرة في كيس بقالة ورقي:

ـ هذا ليس عدلًا.

اتفقت «مِيا» معها:

ـ نعم، ليس عدلًا.

انتظرت «بيرْل» أن يلي ذلك مقولةٌ أبويَّةٌ مبتذَلة: **الحياة ليست عادلة**، أو **العدل لا يعني الصواب دائمًا**. بدلًا من ذلك ضمَّتْ «مِيا» «بيرْل» لبرهة، قبَّلتْها على جانب رأسها، ثم ناولتْها كيس البقالة.

ـ اذهبي وضعي هذا في السيارة.

حين عادت «بيرْل»، وجدت والدتها في المطبخ تضع مظروفًا عاديًّا من ورق «المانيلا» على نضد المطبخ.

سألتْ «بيرْل»، مهتمَّةً على الرغم منها:

ـ ما هذا؟

قالت «مِيا»:

ـ شيءٌ لعائلة «ريتشاردسون»، وداعٌ، كما أعتقد.

ـ رسالة؟ هل بوسعي قراءتها؟

ـ لا. بعض الصور الفوتوجرافية.

ـ هل ستتركينها هنا فحسب؟

لم تعتد «بيرْل» قطُّ أن تترك والدتها أيًّا من أعمالها خلفها. إذا غادرتا شقةً ما، أخذتا كل ما يخصهما حقيقةً معهما، وكانت صور «مِيا» الأكثر أهمية. ذات مرة، حين لم تكن لديهما مساحةٌ كافية في صندوق السيارة «رابِتْ»، تخلصت «مِيا» من نصف ملابسهما لتحصل على مساحة.

تناولت «مِيا» مفاتيحها من على نضد المطبخ، قالت:

ـ إنها ليست ملكي.

أصرت «بيرْل»:

ـ ملك مَن إذن؟

قالت «مِيا»:

ـ بعض الصور، تنتمي للشخص الذي التقطها. وبعضها تنتمي للشخص الذي فيها. هل أنتِ جاهزة؟

أطفأت «مِيا» الأنوار.

* * *

عبر البلدة، جلست «بيبي» على الرصيف في ظل سيارة «بي إم دبليو» وراقبت منزل «ماكولا» عبر الشارع. كانت تجلس هناك منذ بعض الوقت، والساعة الآن السابعة والنصف، وبالداخل، لا بد أن ابنتها تأخذ حمَّامها. عرفتْ «بيبي» أن «ليندا ماكولا» أحبَّت الالتزام بالجدول. أخبرتها أكثر من مرة: «أجد دائمًا أن العادات المنتظمة تحقق حياةً أهدأ»، خاصةً في الأيام التي

تأخرت فيها «بيبي» عن مواعيد زيارتها. كما لو أنها، كما اعتقدت «بيبي»، كما لو أنها فقط تقدم لها رأيها الخاص حول الموضوع، خاليًا من الأحكام، كما لو أنها تعبر عن تفضيلها للتفاح على الكمثرى.

أضاء النور في حمَّام الطابق العلوي، وتصورت «بيبي» الأمر: «ماي لينج» متمسكةٌ بالحافة البورسلين البيضاء لحوض الاستحمام، إحدى يديها ممدودةٌ للمس الماء فيما انهمر من الصنبور. كان الشارع هادئًا الآن، تتوهج الأنوار بنعومة في غرف المعيشة، ومضةٌ عرَضيةٌ من تلفزيون، لكن حين أغلقت «بيبي» عينيها كان بوسعها تقريبًا سماع ابنتها تضحك فيما تناثر رذاذ الماء على وجهها. دائمًا ما أحبت «ماي لينج» الماء، حتى في تلك الأيام الجائعة، كانت تهدأ إذا أنزلتْها «بيبي» في حوض المطبخ للاستحمام، وحين فقدت «بيبي» الطاقة حتى لفعل هذا ـ خوفًا من أن تتلوَّى «ماي لينج» من يديها، خوفًا من أن تتهاوى ببساطة على مشمع الأرضية البالي وتترك الطفلة تنزلق أسفل سطح الماء ـ صرخت «ماي لينج» أكثر من ذي قبل. كانت «بيبي» واثقة أن السيدة «ماكولا» لديها مجموعة من منتجات الاستحمام تحت تصرفها: كل تلك المستحضرات من الغسول السائل والصابون والكريمات المصنوعة خصيصًا للأطفال، الغنية بزُبدة الشِّيا وزيت اللوز واللافندر. ستكون تلك المستحضرات مصطفة على حافة حوض الاستحمام ـ لا، على الرف الزجاجي الفاخر، بمأمن من متناول اليدين الصغيرتين المُحِبَّتين للاستطلاع ـ وسوف تكون هناك ألعاب، أيضًا، صناديق من الألعاب، ليس فقط كوب زبادي قديم لغسل شعرها، لكن بطَّات، وضفادع بزنبرك، ودلافين، وقوارب، وطائرات. نسخٌ منمنمةٌ من الحياة المدهشة التي ستحظى بها «ماي لينج» مع الزوجين «ماكولا».

بعد الاستحمام، سوف تلفُّ السيدة «ماكولا» «ماي لينج» بمنشفةٍ زغبةٍ بيضاء حتى سرتها، منشفة فاخرة لدرجة أن السيدة «ماكولا» حين تفكها ستكون هناك نسخة مثالية لطفلة صغيرة. سوف تُمشِّط شعر «ماي لينج» ـ

الذي كان أملس وهو جاف لكنه مموَّجٌ وهو مبتلّ، تمامًا مثل شعر أمها ـ وتساير أطرافها الرطبة لتدخلها في بيجامة. ثم سوف تعطي «ماي لينج» زجاجة الحليب وتضعها في الفراش. شاهدت «بيبي» النور ينطفئ في الحمَّام، وبعد برهة، رأت النور في خلفية المنزل، يضيء غرفة «ماي لينج». سوف تخلد «ماي لينج» إلى النوم، دافئةً ومترعةً بالحليب، في ذلك المهد المريح، مستكينةً أسفل غطاءٍ منسوجٍ باليد، جدارُ مهدها ممتص للصدمات ليقيها من الشرائح الصلبة في الجوانب. سوف تخلد «ماي لينج» للنوم وسوف تضيء السيدة «ماكولا» المصباح الليلي وتغلق الباب، وحين تأوي هي نفسها إلى الفراش، سوف تتطلع إلى الصباح بالفعل، حين تدخل وتجد ابنة «بيبي» هناك في انتظارها.

أحنت «بيبي» رأسها على السيارة «البي إم دبليو» وانتظرت حتى انطفأ النور في غرفة ابنتها.

* * *

عادت «إيزي» من منزل «مِيا» إلى منزلٍ خالٍ. ما زال والداها، بالطبع، في العمل، لكن عادةً ما كان أحد أشقائها موجودًا. تساءلت أين «ليكسي»؟ أين «مودي»؟ قررت أن «تريب» لا بد أنه بالخارج مع «بيرْل»، أملَتْ أن تلحق بـ«بيرْل» قبل أن تصل السيدة «ريتشاردسون» إلى المنزل.

كما حدث، عاد «تريب» و«مودي» إلى المنزل في وقتٍ سابق، «مودي» بعد المدرسة مباشرة، وعلى غير المتوقَّع، «تريب» بعده بفترةٍ قصيرة. بدا «تريب» نكِدًا وفي حالة مضطربة، وارتاب «مودي» ـ عن حق ـ أن «تريب» خطط للقاء «بيرْل» وسار شيءٌ ما على نحوٍ خاطئ.

ـ يومٌ سيئ؟

أصدر «تريب» صوت شخير.

مضى «مودي» يقول، مطقطقًا بلسانه:

ـ جعلتْك تنتظر ولم تأتِ، أمرٌ مقيتٌ يا رجل. لكن أعني، ماذا توقعت؟

قال «تريب»، ملتفتًا إلى «مودي» أخيرًا:

ـ ما الذي تتكلم عنه؟

وشعر «مودي» بحماسةٍ لئيمة لاستخدامه كهدف لقذائفه. قال:

ـ هل اعتقدتَ أنك الوحيد؟ هل تعتقد أن أي فتاةٍ غبية بما يكفي لتحتفظ بنفسها من أجلك؟ أنا فقط لا أصدق أنك لم تفهم في وقتٍ أسبق.

ضحك «مودي»، ثم حان دور «تريب» لينقضَّ عليه. لم يتشاجرا هكذا منذ سنوات، منذ كانا صبية، وبإحساس مفاجئ بالارتياح ضحك «مودي» مرة أخرى فيما ضربه «تريب» بشدة في المعدة وانقلبا على الأرض. تشاجرا لبضع لحظات على البلاط، تركت أحذيتهما خطوطًا على أبواب خزانة المطبخ، ثم تغلَّب «تريب» على «مودي» بمسكة رأس وانتهى القتال.

هسَّ «تريب» قائلًا:

ـ اخرس، فقط اخرس أيها الحقير.

منذ أن قبَّل «بيرْل» للمرة الأولى تساءل ما الذي جذبها إليه، تساءل ما إذا قررت ـ عاجلًا أم آجلًا ـ أنها ارتكبت خطأً باختياره. كان الأمر كما لو أن «مودي» اختلس النظر إلى دماغه وتحدث بمخاوفه بصوتٍ عالٍ.

أصدر «مودي» أصواتًا متقطعة مصحوبة بالبصاق وكلمات غير مفهومة وجذب ذراع «تريب»، وأخيرًا أفلته «تريب» واندفع إلى الخارج. بعد نصف ساعة من القيادة بلا هدف، توجَّه إلى منزل «دان سيمون». في الأيام التي سبقت علاقته بـ«بيرْل»، قضى و«دان» وبعض زملائهما في فريق الهوكي ساعاتٍ متحدِّبين حول لعبة «نينتندو» الخاصة بـ«دان» يلعبون «جولدن آي»، وفي هذا اليوم بعد الظهيرة أمل أن تلهيه غشاوة لعبة الفيديو عمَّا قاله «مودي»، عن التساؤل عمَّا إذا كان قوله صحيحًا. توجَّه «مودي»، في هذه الأثناء، إلى بحيرة «هورسْشُو»، حيث فكر في جميع الأشياء التي تمنى لو أنه قالها لأخيه، اليوم وعلى مدى جميع الأعوام.

«إيزي»، وحيدةً في المنزل، قلَّبت كلمات «مِيا» على وجوهها مرارًا

وتكرارًا في ذهنها. **أحيانًا تحتاجين إلى البدء من الصفر**. في الساعة الخامسة، لم تصل «مِيا» بعد لإعداد العشاء، وتنامى إحساسٌ بالجزع في تجويف معدة «إيزي». اشتد هذا الإحساس حين اتصلت والدتها في الخامسة والنصف. قالت:

ـ لن تستطيع «مِيا» الحضور اليوم. سوف أحضر بعض الطعام الصيني في طريق عودتي إلى المنزل.

حين عاد «مودي» أخيرًا إلى المنزل، بعد السادسة بقليل، هرعت إلى الطابق السفلي. سألت:

ـ أين الجميع؟

هز «مودي» كتفيه متجاهلًا السؤال نازعًا قميصه «الفلانيل» وملقيًا به على الأريكة. لقد جلس لساعاتٍ عند البحيرة، ملقيًا بالأحجار في الماء، مفكرًا في «بيرْل» وأخيه. فكر بغضب، **انظر ماذا فعلتَ بها، كيف أمكنك أن تعرِّضها لذلك؟** لقد ألقى كل ما وجد من أحجار ومع ذلك لم يكن هذا كافيًا. قال لـ«إيزي»:

ـ كيف لي أن أعرف؟ من المحتمل أن «ليكسي» عند «سيرينا»، ومن يعلم أين «تريب» الداعر.

سكت.

ـ لماذا تهتمين بالأمر؟ اعتقدتُ أنكِ تحبين البقاء بمفردك.

ـ كنت أبحث عن «بيرْل». هل رأيتَها؟

ـ رأيتها في درس اللغة الإنجليزية.

ذهب «مودي» إلى المطبخ ليحصل على علبة صودا، و«إيزي» في عقبه.

ـ لم أرَها منذ ذلك الحين. غادرت الفصل مبكرًا.

أخذ جرعة.

اقترحت «إيزي»:

ـ من المحتمل أنها مع «تريب»؟

https://t.me/fantazynov

ابتلع «مودي» وسكت. استغلت «إيزي»، ملاحِظةً أنه لم يعارضها، الموقف لصالحها:

ـ هل الأمر صحيح، ما قلتَه الليلة الماضية عن «بيرْل» و«تريب»؟

ـ فيما يبدو.

ـ لماذا أخبرتَ أمي؟

ـ لم أعتقد أنه سر.

وضع «مودي» علبة الصودا على نضد المطبخ.

ـ لم يكونا بارعين في إخفائه، وليست وظيفتي أن أكذب من أجلهما.

ـ قالت أمي...

ترددت «إيزي».

ـ قالت أمي إن «بيرْل» أجرت عملية إجهاض.

ـ هذا ما قالته.

ـ لم تُجْرِ «بيرْل» عملية إجهاض.

ـ كيف لكِ أن تعلمي؟

ـ لأن...

لم تتمكن «إيزي» من التوضيح، لكنها كانت واثقةً من أنها مُحقَّةٌ بشأن هذا الأمر. «تريب» و«بيرْل»، هذا أمرٌ بوسعها تصديقه. لقد رأت «بيرْل» تراقب «تريب» لشهور، مثل فأرٍ يراقب قطًّا، يتوق إلى أن يُلتَهَم. لكن «بيرْل» حامل؟ استعادت ذكرياتها عنها. هل بدت «بيرْل» غير عادية على الإطلاق؟

تجمدت «إيزي». تذكرت يوم أن ذهبت إلى «مِيا» وكانت «ليكسي» هناك. ماذا قالت «ليكسي»؟ إنها جاءت لرؤية «بيرْل»، إن «بيرْل» كانت تساعدها في كتابة مقال. «ليكسي»، المصفَّفة الشعر عادةً، كانت شعثاء وسقيمة، شعرها على هيئة ذيل حصان متهدِّل، وكانت «مِيا» سريعة للغاية في إبعاد «إيزي». استعادت «إيزي» ذكرياتها الأقدم من ذلك. «ليكسي»،

عائدةٌ إلى المنزل بعد ظهيرة اليوم التالي مرتديةً تيشيرت «بيرْل» الأخضر المفضل، الذي يحمل «جون لِنون». تشبثت إحدى يديها بكيسٍ بلاستيكي يحتوي شيئًا ما بداخله. لقد بقيت في غرفتها طوال المساء، مفوِّتةً العشاء ـ مرةً أخرى، ليس من شيَم «ليكسي»، التي تمتَّعتْ بشهية طيبة ـ وظلَّت في حالة مزاجية نكِدة لأسابيع بعد ذلك. فكرت «إيزي» أن أختها بدت حتى الآن أقل انفعالًا، أقل اجتماعيَّةً، كما لو أن صمامًا لتنظيم تدفق الهواء قد أغلق. وانفصلتْ هي و«برايان».

قالت «إيزي» مرة أخرى:

ـ أين «ليكسي»؟

ـ أخبرتكِ. أعتقد أنها في منزل «سيرينا».

جذب «مودي» ذراع «إيزي». قال:

ـ لا تتحدثي عن «تريب» و«بيرْل»، حسنًا؟ لا أعتقد أن «ليكسي» تعرف.

هزَّت «إيزي» نفسها لتتحرر:

ـ يا لك من أحمق لعين. لم تكن «بيرْل» حاملًا. هل تدرك أن أمي وأمها من المحتمل أن يقتلاها، وأنت من ألقيتها إلى حتفها من دون سبب؟

شحب «مودي»، لكن للحظة فحسب. ثم هز رأسه:

ـ لا آبه. لقد استحقَّتْ ذلك.

حدقت «إيزي»:

ـ استحقَّت ذلك؟

ـ لقد كانت تتسلل خلسةً مع «تريب». «تريب»، من دون كل الناس يا «إيزي». إنها حتى لم تكترث أن...

توقف، كما لو أنه ضغط بقوة شديدة على كدمةٍ طازجة.

ـ انظري، لقد قررت أن تضاجع أيًّا كان. إنها تستحق كل ما تحصل عليه.

ـ لا أستطيع تصديقك.

لم تَرَ «إيزي» أخاها يتصرف على هذا النحو من قبل. «مودي»، الذي

كان دائمًا أكثر أفراد عائلتها مراعاةً لشعور الآخرين، «مودي»، الذي دائمًا ما وقف بجانبها حتى إذا اختارت ألا تأخذ بنصيحته. «مودي»، الشخص الوحيد في عائلتها الذي دائمًا ما وثقت أنه يرى الأشياء بوضوح أكثر ممَّا استطاعتْ هي.

قالت:

ـ أنت تدرك أن أمي من المحتمل أن تلوم «مِيا» على كل هذا.

تحوَّل «مودي». قال:

ـ حسنًا، ربما توجَّب عليها مراقبة ابنتها عن كثب. ربما توجَّب عليها تربية ابنتها لتصبح أكثر تحملًا للمسؤولية.

مد يده لعلبة الصودا، لكن «إيزي» وصلت إليها أولًا. اصطدم المعدن البارد بعظم وجنته، وضرب رذاذ الشراب الفوَّار والرغوة وجهه. حين تمكن من الرؤية مرة أخرى، كانت «إيزي» قد رحلت، وهو بمفرده، باستثناء علبة الصودا المتدحرجة ببطء بعيدًا عبر بلاط المطبخ المبتَل.

* * *

كان منزل «سيرينا» يقع على طريق «شايكِر بوليفارد»، بجوار المدرسة المتوسطة، على بُعد ما يقرب من ميلَين. بعد أربعين دقيقة، فتحت «سيرينا» الباب استجابة لرنين الجرس، لتجد «إيزي»، منقطعة الأنفاس، على الدرجات الأمامية.

قالت «ليكسي»، هابطةً السلَّم خلف «سيرينا»:

ـ ماذا تفعلين هنا، أيتها المعتوهة؟

قالت «إيزي»:

ـ أحتاج إلى أن أسألكِ عن شيءٍ ما.

ـ ألم تسمعي عن الهاتف؟

ـ اخرسي، الأمر مهم.

جذبت «إيزي» أختها من ذراعها إلى غرفة المعيشة، وتراجعت «سيرينا»،

التي تعرف كيف تمضي العلاقة بين أفراد عائلة «ريتشاردسون»، إلى المطبخ لتمنحهما بعض الخصوصية.

قالت «ليكسي» حين صارتا بمفردهما:

ـ ماذا؟

قالت «إيزي»:

ـ هل أجريتِ عملية إجهاض؟

انخفض صوت «ليكسي» إلى همسة:

ـ ماذا؟

ـ حين كانت أمي خارج البلدة. هل فعلتِ؟

ـ ليس ذلك من شأنكِ أيتها الحقيرة.

استدارت «ليكسي» لتتركها، لكن «إيزي» أسرعت قائلة:

ـ لقد فعلتِ، أليس كذلك. تلك المرة التي قلتِ فيها إنكِ نمتِ في منزل «بيرْل».

ـ إنها ليست جريمة يا «إيزي». آلاف الناس يفعلونها.

ـ هل ذهبت «بيرْل» معكِ؟

تنهدت «ليكسي»:

ـ لقد قادت بي السيارة. وقبل أن تبدئي بلعب دور الصالحة والمتمسكة بالأخلاق...

ـ أنا لا أكترث لأخلاقياتك يا «ليكس».

أزاحت «إيزي» خصلة من شعرها انسدلت على وجهها بنفاد صبر:

ـ تعتقد أمي أن «بيرْل» هي التي أجرت عملية إجهاض.

ـ «بيرْل»؟

ضحكت «ليكسي»:

ـ عفوًا، هذا مضحك. «بيرْل» الصغيرة، العذرية، البريئة.

ـ لا بد أنها تعتقد ذلك لسبب ما.

قالت «ليكسي»:
ـ لقد حجزتُ موعدًا تحت اسم «بيرْل»، أيًّا كان، فهي لم تمانع.
التفتت لتذهب، ثم دارت على عقبيها مرة أخرى:
ـ إياكِ أن تخبري أي أحدٍ عن هذا. «مودي»، أو «أمي»، أو أي أحد، هل فهمتِ؟
قالت «إيزي»:
ـ أنتِ أنانيةٌ عاهرة.
من دون أن تقول وداعًا، دفعت «ليكسي» إلى الرواق الأمامي، حيث كادت أن تصطدم بـ«سيرينا» في طريقها إلى الباب.
استغرقت أربعين دقيقة أخرى سيرًا على القدمين لتبلغ المنزل الصغير على طريق «وينسلو»، وبحلول وقت وصولها إلى هناك عرفت أن هناك خطبًا ما. جميع الأنوار مطفأةٌ بالطابق العلوي ولم يكن هناك أثر للسيارة «رابِتْ» في ممر السيارات. ترددت للحظة على الممشى الأمامي، وهي تضرب شجرة الخوخ، حيث كانت الزهور المتفتحة تذبل وتتحوَّل إلى اللون البُني. ثم دارت إلى جانب المنزل ودقت الجرس حتى أجاب السيد «يانج».
قالت:
ـ هل «مِيا» هنا؟ أو «بيرْل»؟
هزَّ السيد «يانج» رأسه:
ـ تغادران ربما منذ خمس، أو عشر دقائق.
صار قلب «إيزي» رصاصيًّا وباردًا. سألت على الرغم من أنها عرفت الحقيقة بالفعل: لقد فقدتْهما، لقد رحلتا.
ـ هل قالتا إلى أين هما ذاهبتان؟
هزَّ السيد «يانج» رأسه مرة أخرى:
ـ إنهما لا تخبراني.
لقد اختلس النظر من وراء الستائر في الوقت المناسب ليرى «مِيا»

و«بيرْل» تتراجعان بحرص في ممر السيارات، السيارة «رابِتْ» متكدِّسة إلى أعلى بالحقائب والصناديق، قادتا بعيدًا في الظلمة المتنامية. فكَّر بحزن، لقد كانتا طيبتَين، وتمنى لهما رحلةً آمنة، أينما توجهتا.

رسالة، فكرت «إيزي» بجموح، لا بد من وجود رسالة. لن تغادر «مِيا» من دون وداع. قالت:

ـ هل يمكنني الصعود وتفقُّد شقتهما من أجل شيءٍ ما؟ أعِدُ أنني لن أكلفك عناء أي شيء.

ـ هل لديكِ مفتاح؟

فتح السيد «يانج» الباب وترك «إيزي» تصعد السلَّم إلى أعلى.

ـ ربما الباب مغلق.

وقد كان بالفعل، طرقت «إيزي» الباب عدة مرات وهزَّت مقبض الباب قبل أن تستسلم وتعود أدراجها إلى أسفل.

قال السيد «يانج»:

ـ ليس لديَّ مفتاح.

أبقى الباب السلكيَّ الخارجي مفتوحًا فيما اندفعت «إيزي» إلى الخارج.

ـ اسألي أمكِ، لديها المفتاح.

استغرقت «إيزي» خمسًا وعشرين دقيقة لتسير إلى المنزل، حيث ـ على الرغم من أنها لن تعرف أبدًا ـ تركت «مِيا» و«بيرْل» مفاتيحهما قبل ذلك بفترة قصيرة فحسب. استغرق الأمر نصف ساعة أخرى لتجد مفاتيح والدتها الإضافية الخاصة بالمنزل على طريق «وينسلو» في درج متنوعات في المطبخ. تحركت بهدوء، متجاهلةً علبة الكرتون نصف الملتهَمة من مكرونة «لو مين» والدجاج بالبرتقال المتروكة على نضد المطبخ من أجلها، حريصةً على عدم مقاطعة إخوتها أو والديها، المتفرقين في هذا الوقت في أركان المنزل المختلفة. بحلول وقت عودتها إلى طريق «وينسلو»، كانت الساعة التاسعة والنصف، وذهب السيد «يانج» ـ الذي يستيقظ في أيام العمل في

٤:١٥ كي يقود حافلة المدرسة في مسارها، والذي أحب أن يتبع جدولًا منتظمًا ـ إلى الفراش بالفعل. لذا لم يسمع أحدٌ «إيزي» تدخل من الباب الجانبي، وتفتح قفل الباب المؤدي إلى شقة «مِيا» و«بيرْل»، وتخطو إلى الداخل أخيرًا، عارفةً في أعماقها أنها تأخرت كثيرًا، وأنهما رحلتا إلى الأبد.

في التاسعة من صباح اليوم التالي، كان منزل عائلة «ريتشاردسون» خاليًا تقريبًا أيضًا. ذهب السيد «ريتشاردسون» إلى المكتب ليتدارك الأعمال المتأخرة، كما فعل عادةً في صباحات السبت، أخَّرتْه التطورات الحديثة في قضية «ماكولا» عن كل شيءٍ آخر. كانت «ليكسي» نائمة في الجانب الآخر من البلدة في فراش «سيرينا» الضخم. خرج كل من «تريب» و«مودي»: «تريب» ليلهي نفسه في مباراة خفيفة غير رسمية في المركز الاجتماعي، «مودي» على دراجته إلى منزل «بيرْل»، حيث نوى أن يعتذر، لكن بدلًا من ذلك ـ ممَّا أدى لارتياعه ـ وجد بابًا مغلقًا وما من سيارة «فولكس فاجن». وفي صباحات السبت، عرفت «إيزي»، أن السيدة «ريتشاردسون» دائمًا ما ذهبت إلى حمَّام سباحة مركز الترفيه من أجل دورات السباحة. كانت والدتها أسيرة العادات لدرجة أنها لم تكلف نفسها عناء النظر في غرفتها. أيقنتْ أن المنزل لها وحدها.

كان الأمر ظالمًا، برمَّته، ظالمًا بشدة: كانت هذه هي الفكرة الوحيدة التي نبضت في ذهن «إيزي» طوال الليل. أن «مِيا» و«بيرْل» اضطرتا للرحيل، أنهما أخيرًا وجدتا منزلًا ثم طُرِدَتا منه. أطيب أناسٍ عرفتهم، أكثرهم مراعاةً، أشدهم إخلاصًا، وقد رحَّلتْهما عائلتها بعيدًا. صنَّفت الخيانات العديدة في ذهنها. لقد كذبت «ليكسي»، لقد استخدمت «بيرْل». استغلها «تريب». خانها «مودي»، عمدًا. والدها كان سارق أطفال. ووالدتها: حسنًا، لقد كانت والدتها أصل كل شيء.

فكرت في منزل «مِيا»، يتوهج ذهبيًّا ودافئًا. شعرت «إيزي» طوال حياتها بالجمود والغضب، والدتها دائمًا تنتقدها، «ليكسي» و«تريب» دائمًا يسخران

منها. لم يكن هذا من شِيَم «مِيا». مع «مِيا» كانت «إيزي» مختلفة، اختلافًا لم تكن تعرف أنها قد تستطيع تحقيقه: في حضور «مِيا» المتقبِّل أصبحت «إيزي» محبة للاستطلاع وطيبة ومنفتحة، كما لو أنها تحت تأثير تعويذةٍ سحرية. لقد شعرت، أخيرًا، أن بإمكانها التحدث من دون الاصطدام مباشرة بالقشرة الصلبة لحياتها المحمية، كما لو أنها رأت فجأة أن الجدران المصمتة التي قيَّدتها كانت في الحقيقة قضبانًا، بمسافاتٍ واسعة فيما بينها بما يكفي لتنزلق عبرها. حاولت الآن تخيُّل العودة إلى الحياة كما كانت من قبل: حياة في منزلها الجميل، المنظم بمثالية، المؤثَّث بوفرة، حيث قُصَّ العشب دائمًا، وكُنست أوراق الأشجار الساقطة على الأرض، ولا توجد أبدًا، على الإطلاق، أي قمامة على مرأى البصر، في حيِّهم الجميل، المنظم بمثالية، حيث كل مرجةٍ بها شجرة، والشوارع منحنية كي لا يقود أحدٌ بسرعة كبيرة، وكل منزلٍ متناغمٌ مع المنزل الذي يليه، في مدينتهم الجميلة، المنظمة بمثالية، حيث يتوافق الجميع ويتبع القواعد وكل شيءٍ يجب أن يكون جميلًا ومثاليًّا من الخارج، مهما كانت الفوضى الكامنة بالداخل. ليس بإمكانها التظاهر بأن شيئًا لم يحدث. لقد فتحت «مِيا» بابًا بداخل «إيزي» ولا يمكن إغلاقه مرةً أخرى.

ثم فكرت في أول يومٍ قابلت فيه «مِيا»، السؤال الذي سألتْها «مِيا» إياه: **ماذا ستفعلين بهذا الشأن؟** كانت المرة الأولى التي شعرت فيها «إيزي» أن **بإمكانها** فعل شيء بشأن أي شيء. الآن تذكرت ما قالته لها «مِيا» في المرة الأخيرة التي رأت فيها إحداهما الأخرى، الكلمات التي ظل صداها يتردد في رأس «إيزي» منذ ذلك الحين: كيف أنكِ تحتاجين أحيانًا إلى البدء من الصفر. أرضٌ محروقة، هكذا قالت «مِيا»، وفي هذه اللحظة قررت «إيزي» ما ستفعل.

لقد قضت الليل تخطط والآن حان الوقت، لم تفكر على الإطلاق. كان الأمر كما لو أنها تقف خارج نفسها، تشاهد شخصًا آخر يفعل هذه الأفعال.

https://t.me/fantazynov

احتفظ والدهم دائمًا بصفيحة من الوقود في الجراج، ليملأ جرافة الثلج، وليشغل المولِّد الكهربائي إذا انقطعت الكهرباء خلال عاصفة ما. باستخدام صفيحة رسمت «إيزي» دائرة أنيقة في فراش أختها، ثم في فراشَي أخويها. صنع الوقود لطخةً داكنةً زيتية على لحاف «ليكسي» ذي الزهور، على وسادة «تريب»، على ملاءات «مودي» المتكوِّمة. بحلول وقت انتهائها في غرفة «مودي» فرغت الصفيحة، لذا أرضت نفسها بوضع الصفيحة خارج باب غرفة نوم والديها المغلق. ثم أعادت وضع مفاتيح منزل «وينسلو» في درج المتنوعات وأخذت علبة الثقاب.

قالت «مِيا»، تذكري، تحتاجين أحيانًا إلى حرق كل شيءٍ عن آخره والبدء من جديد. بعد الاحتراق تصبح التربة أغنى، ويصبح بإمكان أشياء جديدة أن تنمو. الناس هكذا، أيضًا. يبدأون من جديد. يجدون طريقة. فكرت «إيزي» في «مِيا» الآن وبدأت عيناها تحترقان، حكت عود الثقاب الأول بجانب الصندوق. على كتفها حقيبة كتبها محشوةٌ بمجموعة مختلفة من الملابس، جميع النقود التي تملكها. فكرتْ، ليس بوسعهما الابتعاد كثيرًا. ما زال هناك وقت للعثور عليهما. تقشَّر الورق الرمليُّ تحت رأس عود الثقاب مثل أظافر على سبورة طبشورية، ثم كانت هناك نفحةٌ من رائحة الكبريت واشتعلت قمة عود الثقاب متوهجة، ألقته «إيزي» على لحاف أختها ذي الزهور وركضت خارج الباب.

٢٠

بعد مغادرة سيارات الإطفاء، كانت قشرة منزل «ريتشاردسون» متصدعة ومسودَّة وينبعث منها البخار بلطف، شدت السيدة «ريتشاردسون» رداء استحمامها حول نفسها بإحكام وقيَّمت الموقف. كان هناك السيد «ريتشاردسون» على ما كان ممشاهم الأمامي، يتشاور مع رئيس مركز الإطفاء ورجُلَي شرطة. كانت هناك «ليكسي» و«تريب» و«مودي»، جاثمين على سقف سيارة «ليكسي» على الجانب الآخر من الشارع، مراقبين والديهم، منتظرين للتعليمات. لم يغِب عن السيدة «ريتشاردسون» أن «إيزي» كانت مفقودة، وهذا ـ كما هي واثقة ـ ما كان زوجها يناقشه مع رجُلَي الشرطة الآن. سوف يعطيهما وصفًا، طالبًا منهما المساعدة في العثور عليها. «إيزابيل ماري ريتشاردسون»، فكرت السيدة «ريتشاردسون» بمزيج من السخط والعار. ماذا فعلتِ بحق الله؟ قالتها كثيرًا لرجال الشرطة، لرجال الإطفاء، لأطفالها ولزوجها الذي يشعر بالخزي. قالت:

ـ طائشة، كيف أمكنها فعل هذا؟

من خلفها، وضع أحد رجال الإطفاء بقايا الجركن المتفحم في سيارة الإطفاء، لإرسالها إلى شركة التأمين، لم يكن لديها شك.

غمغمت «ليكسي» قائلةً لـ«تريب»:

ـ حين تعود «إيزي»، سوف تذبحها أمي.

لم ترَ السيدة «ريتشاردسون» الحل الواضح حتى سأل رئيس مركز الإطفاء أين سيقيمون؟

قالت:

ـ في منزلنا المؤجَّر، على طريق «وينسلو» قرب «لينفيلد».

قالت فقط لزوجها وأطفالها المشدوهين:

ـ لقد خلا بالأمس.

قاموا ببعض المناورات كي يحتوي ممر السيارات الضيق في منزل «وينسلو» سياراتهم الثلاث، بينما صفَّت «ليكسي» سيارتها «الإكسبلورر» في النهاية بجوار الرصيف، انتاب السيدة «ريتشاردسون» خوفٌ مفاجئ ألا تكون الشقة خالية بعد كل شيء: أنهم ربما يصعدون إلى الطابق العلوي ويفتحون الباب ويجدون «مِيا» و«بيرْل» ما زالتا هناك، تتناولان غداءهما بهدوء عند الطاولة، ترفضان الرحيل. أو ربما خلَّفتْ «مِيا» وراءها بيانًا من نوعٍ ما: فوضى يجب تنظيفها، نوافذ مكسورة أو جدرانًا مهشمة، إصبعًا وسطى أخيرة توجهها إلى مالكة سكنها. لكن حين صفَّت عائلة «ريتشاردسون» السيارات الأربع أخيرًا وصعدوا درجات السلَّم في موكب ـ ممَّا أثار دهشة السيد «يانج» الشديدة ـ لم يكن هناك أثر لأي أحدٍ بالأعلى، فقط بضع قطع من الأثاث المتروك. أومأت السيدة «ريتشاردسون» في موافقة وارتياح.

غمغمت «ليكسي»:

ـ إنه يبدو شديد الاختلاف.

وبدا كذلك بالفعل. تجمع أطفال «ريتشاردسون» الباقون معًا عند مدخل الباب بين غرفة المعيشة والمطبخ، متقاربين للغاية لدرجة أن أكتافهم تلامست تقريبًا. في المطبخ كانت الخزائن فارغة، الكرسيان غير المتماثلين مدفوعان بأناقة أسفل الطاولة متحركة الأرجل. فكر «مودي» في المرات العديدة التي جلس فيها إلى تلك الطاولة بجوار «بيرْل»، يؤديان واجباتهما

المنزلية، يتناولان زُبديةً من حبوب الإفطار. مسحت «ليكسي» غرفة المعيشة بعينيها: فقط بعض الوسائد الملقاة على السجادة، جدرانٌ عارية الآن إلا من بعض فجوات متناثرة خلَّفتْها دبابيس الرسم. نظر «تريب» باتجاه غرفة النوم، حيث تمكن من رؤية فراش «بيرْل» عبر الباب المفتوح، مجردًا من ملاءاته وبطانياته، مقلَّصًا الآن إلى مرتبةٍ عارية وإطار.

قابلةٌ للاستخدام على نحوٍ مثالي، هكذا فكرت السيدة «ريتشاردسون». غرفتا نوم، واحدة للبالغين وواحدة للولدين. الفتاتان ـ لأنها ما زالت واثقة أن «إيزي» سوف تعود لتصبح معهم بعد وقت قصير ـ بإمكانهما النوم في الشرفة المغلقة. حمَّام واحدٌ ونصف، حسنًا، سوف يتشاركون. سوف يدوم الأمر لفترة قصيرة فحسب، حتى يتمكنوا من إيجاد شيءٍ مناسبٍ أكثر، حتى يمكن إصلاح منزلهم.

نادت «ليكسي» من المطبخ:

ـ أمي، أمي انظري إلى هذا.

استقر على نضد المطبخ مظروفٌ كبيرٌ من ورق «المانيلا»، سميكٌ بما يحتويه من أوراق. ربما تُرِك هنا بالخطأ، بعض أعمال «مِيا» الورقية أو أعمال «بيرْل» المدرسية، ربما، أُغفل أثناء مغادرتهما متسرعتين. حتى قبل أن تلمسه السيدة «ريتشاردسون»، عرفت أن هذا ليس صحيحًا. كان ملمس الورق مثل الساتان تحت أناملها، الطرف القلَّاب للمظروف مثبتٌ بعناية لكنه ليس مُلصقًا، وفيما تفحصت انفتح المثبت بأحد الأظافر وفُتح المظروف، تجمع أفراد عائلة «ريتشاردسون» الباقون حولها ليروا ما يحتويه.

كانت هناك واحدة لكلٍّ منهم. كدَّستْها «مِيا» بعناية في الداخل: أنصاف صور شخصية، أنصاف أمنيات، مُلتقطة على الورق. كلٌّ من أفراد عائلة «ريتشاردسون»، فيما فردتْها السيدة «ريتشاردسون» على الطاولة في صف، عرف كل واحد منهم أي صورة تنتمي له، تعرَّف عليها على الفور، كما لو أنه تعرف على وجهه. بالنسبة للآخرين كانت مجرد صورة ما، لكن بالنسبة لكل

واحد منهم كانت حميمية على نحوٍ لا يُحتمل، مثل التقاط لمحةٍ لجسدك العاري في المرآة.

ورقةٌ مقطعةٌ إلى شرائح رفيعةٍ مثل أعواد الثقاب، منسوجة لتشكِّل شبكة. تدلَّى في تشابكها: حجرٌ كرويٌّ ثقيل. قُطعت الورقة إلى جذاذاتٍ لا يمكن قراءة ما كُتب عليها، لكن «ليكسي» تعرَّفت على لونها الوردي الشاحب على الفور؛ استمارة الخروج من زيارتها للعيادة. على أحد الشرائط لاح النصف الأسفل من توقيعها، لا، توقيعها المزوَّر: اسم «بيرْل» مكتوب بخط «ليكسي». لقد تركت الاستمارة في منزل «مِيا»، وحوَّلتْها «مِيا» من أجلها. رأت «ليكسي»، وهي تلمس الصورة، أسفل ثقل الحجر، أن الشبكة المعقدة انتفخت لكنها لم تنكسر. كان شيئًا وجب عليها أن تحمله، هكذا قالت لها «مِيا»، وللمرة الأولى، شعرت أنها ربما استطاعت ذلك.

سترةٌ واقيةٌ للصدر خاصة بلعبة الهوكي، ملقاةٌ في التراب، مشقوقةٌ عبر المنتصف، مُمْطرةٌ بوابلٍ من الثقوب. استخدمتْ «مِيا» مطرقةً وحفنة من المسامير المستخدمة للأسطُح، دقَّت المسامير في البلاستيك الأبيض السميك مثل الأسهم، ثم انتزعتها. لقد فكرت بينما صنعت كل ثقب أنه لا بأس أن تكون ضعيفًا. لا بأس أن تستغرق وقتًا وترى ما الذي ينمو. لقد ملأت سترة «تريب» الواقية بالتربة ونثرت بذورًا عليها وروتْها بصبر لمدة أسبوع حتى خرجتْ من كل ثقب ومضاتٌ من اللون الأخضر متبرعمة إلى أعلى عبر الشَّق: نباتاتٌ متسلِّقةٌ رفيعة، أوراقٌ ملتفةٌ صغيرة تأخذ طريقها الدُّودِيَّ للخروج عاليًا في النور. حياةٌ هشةٌ ناعمة تنبعث من داخل قشرةٍ صلبة.

سربٌ من طيور «الأوريجامي» المنمنمة يحلِّق في الهواء، الأكبر في حجم راحة يد مفتوحة، الأصغر في حجم ظفر إصبع، جميعها مخططةٌ بسطور ورق الملاحظات. تعرف «مودي» عليها على الفور، حتى قبل أن يرى التجعيدات الخفيفة التي انتشرت في كلٍّ منها: الصفحات من دفتر ملاحظات «بيرْل» الصغير، الذي أعطاه لها ثم استردَّه، الذي أتلفه وجعَّده

وألقاه بعيدًا. على الرغم من أن «مِيا» فردت الصفحات، ظلت التجعيدات متموجةً عبر أجنحة الطيور كما لو أن الريح تنفش ريشها. تمددت الطيور فوق صورة سماء مثل أوراق زهورٍ متناثرة، تحلِّق مبتعدة عن أرضيةٍ جلديةٍ خشنة نحو شيءٍ أعلى وأفضل. أنتَ أيضًا، هكذا فكرت «مِيا» وهي تضع الطيور واحدًا فواحدًا في سمائها الورقية.

جاءت فكرة الصورة التالية حين وجدت «مِيا»، وهي تكنس، أحد مثبتات ياقات السيد «ريتشاردسون» تحت منضدة الزينة. احتفظت به: لديه الكثير من مثبتات الياقات، ملء صندوقٍ كامل على منضدة الزينة الخاصة به، كل يوم يدسُّ واحدًا في طرف كل ياقة ليبقيها متيبسة. بإدارة الشريط الفولاذي الصغير بين أصابعها مرارًا وتكرارًا، تذكرت تجربة قامت بها في صفِّ العلوم وهي طفلة. حكَّتْه بمغناطيس ثم جعلتْه يطفو فوق طبق مملوء بالماء، تركتْه يدور حتى استقر ببطء ورأسه متجه إلى الشمال. تسبب التعرُّض الطويل للضوء في غشاوة على شكل قوس، مثل جناحَي فراشة شبحيَّين، ثم ظهر خط المثبت البراق كما لو أنه وجد اتجاهه وبقي ساكنًا. لمس السيد «ريتشاردسون»، وهو ينظر إلى السهم الفضي مستقيمًا ولامعًا وواثقًا في الماء الغائم، ياقة قميصه، تساءل أي اتجاه يواجه الآن.

وأخيرًا، وممَّا أذهل السيدة «ريتشاردسون» أكثر من الجميع، ورقةٌ مقصوصةٌ على شكل قفص طيور، ممزقة، كما لو أن شيئًا شديد القوة بالداخل انفجر ليتحرر. بالنظر عن قُرب، وجدت أنه مصنوع من ورق الصحف. استخرجت «مِيا» كل كلمة بتشريحها بدقة مستخدمةً شفرة لتشكِّل الفجوات بين القضبان. كانت السيدة «ريتشاردسون» واثقة أنه أحد مقالاتها، مع فقد كل الكلمات لم تكن هناك طريقة لمعرفة أي مقالٍ هو: المقال عن جمع تبرعات مركز الطبيعة، أم التقرير عن رواق الأعمدة الجديد في المركز الاجتماعي، أم تقدُّم مشروع «مواطنون في دوريَّة المراقبة»، أي واحد من المقالات التي أنتجتْها بآلية مخلصة على مر الأعوام، أيٍ من القصص الصحفية التي، على

الرغم من مقاصدها، بَنَتْ جسم مسيرتها المهنية. كل شظية قضيب انحنت برشاقة إلى الخارج، مثل بتلة زهرة الأقحوان، وفي مركز القفص الفارغ رقدت ريشةٌ ذهبيةٌ صغيرة. شيءٌ ما هرب من هذا القفص. شيءٌ عثر على جناحيه. لم تستطع «مِيا»، وهي تجمع هذه الصورة، أن تفكر في أمنيةٍ أفضل للسيدة «ريتشاردسون».

لم يدركوا أن إحدى الصور مفقودة حتى رفعت السيدة «ريتشاردسون» الصورة الأخيرة لتكشف عن باقة من الصور السلبية. كانت الرسالة واضحة: لن تحاول «مِيا» بيع الصور، لن تشاركها أو تحتفظ بها من أجل أي سطوة مستقبلية. بدا أن كومة الصور تقول **هذه الصور لكم، هذه الصور أنتم. افعلوا بها ما تشاءون.** بالداخل كانت صورهم الشخصية، مقلوبة ومعكوسة، كل لون داكن فاتح، وكل فاتح داكن. لكن إحداها لم تطابق أيًّا من الصور المطبوعة في الصندوق: أخذت «إيزي» تلك الصورة المطبوعة في الليلة السابقة، حين أتت إلى الشقة الخالية ووجدت أن «مِيا» و«بيرْل» رحلتا وقد تركتا مظروف الصور خلفهما فقط كرسالة وداع. عرفت أنها صورتها على الفور: وردةٌ سوداء أُلقيت على مربع متصدعٍ من بلاطات الرصيف، البتلات مقصوصة من حذاء جلدي أسود طويل الرقبة، حذاؤها المحبوب، الذي جعلها تشعر بالشراسة، الذي ألقتْه والدتها بعيدًا؛ البتلات الخارجية من موضع أصابع القدمين المقشور، البتلات الداخلية الأكثر قتامة من لسان الحذاء. مُدِّد رباط حذاء، ذو طرف متآكل، طوليًّا ليمثِّل ساق الزهرة. قصاصاتٌ صفراء من غرز الخياطة، فُتقت من حول النعل، لتشكِّل الخيوط الرقيقة لقلب الزهرة. حُوِّلت الصلابة إلى لين، بل أجمل. دسَّت «إيزي» الصورة في حقيبتها قبل إغلاق المظروف مرة أخرى وإطفاء الأنوار وقفل الباب خلفها. تمكنت عائلتها، التي لم تُترك لها سوى الصورة السلبية، أن ترى انعكاسها شديد الصِّغَر: زهرة شاحبة تخبو لصالح قمرٍ أبيض بداخلها، خلفها لوح رمادي داكن مثل سماء ليليةٍ غائمة.

https://t.me/fantazynov

لم يفحص السيد «ريتشاردسون» البريد الصوتي على هاتفه المحمول حتى وقتٍ متأخرٍ من بعد ظهيرة ذلك اليوم ووصله الخبر. في التسجيل المشوَّش، كان «مارك ماكولا» ينشُجُ بِشدة لدرجة أن السيد «ريتشاردسون» فهمه بالكاد. في الليلة السابقة، سقط «مارك» و«ليندا» ـ مرهقَين من جلسة النطق بالحكم، والمؤتمر الصحفي، والتحدي الذي فرضته المحنة بأكملها ـ في ذلك النوع من النوم الذي لم يحصلا عليه منذ شهور: نومٌ عميق، خالٍ من الأحلام، وغير متقطع. في الصباح استيقظا مترنِّحَين، ثملَين بسبب القدر الكبير من الراحة، وألقت السيدة «ماكولا» نظرة على الساعة على المنضدة الجانبية وأدركت أنها العاشرة والنصف. عادة ما أيقظتهما «ميرابيل» عند شروق الشمس، باكيةً طلبًا للإفطار، طلبًا لحفاضةٍ جديدة، وعرفت السيدة «ماكولا» بمجرد أن رأتْ أرقام الساعة الحمراء أن شيئًا ما على غير ما يرام بالتأكيد. قفزت من الفراش وجرتْ إلى غرفة «ميرابيل» من دون حتى أن ترتدي خُفَّيها ورداءها، سمعها «مارك ماكولا» ـ الذي ما زال يطرف بعينيه بسبب نور الصباح القوي ـ تصرخ من الغرفة الأخرى. كان المهد خاليًا. اختفت «ميرابيل».

مر يومٌ كامل حتى تمكنت الشرطة من جمع أجزاء الأدلة معًا واكتشاف ما حدث: الباب المنزلق غير المُقفل المؤدي إلى الفناء الخلفي ـ إنه حيٌّ آمن، ليس ذلك النوع من الأماكن الخطرة ـ رتاجه من الداخل والخارج مُغطًى ببصمات الأصابع. غياب «بيبي» من العمل، شقة «بيبي» الخالية، وأخيرًا، تذكرة، حُجِزَتْ باسم «بيبي»، لرحلة طيران إلى «كانتون» الساعة ١١:٢٠ في الليلة السابقة. بعد ذلك، لم يكن هناك أمل تقريبًا، كما قيل للزوجين «ماكولا»، أن يتمكنا من تتبُّعها. الصين دولةٌ كبيرة، كما قال لهما مفتش الشرطة من دون أدنى أثر للسخرية. سوف تكون «بيبي» قد وصلت «كانتون» بحلول ذلك الوقت ومن يعرف إلى أين عساها تذهب؟ إبرةٌ في كومِ قشٍّ. بإمكانكما حرق كل أموالكما، كما قال لهما المفتش، في محاولة تعقُّبِها.

بعد نحو عام ـ حين أُعيد تقريبًا بناء منزل عائلة «ريتشاردسون» الجديد، وأنفق الزوجان «ماكولا»، ليس جميع أموالهما، لكن عشرات آلافٍ من الدولارات، على المحققين ومنازعات دبلوماسية انتهت إلى نتيجة هزيلة ـ تناولت السيدة «ماكولا» والسيدة «ريتشاردسون» الغداء معًا في مطعم «سافرون باتش». لقد تقابلتا خلال شهور الاضطراب الماضية كما تقابلتا خلال عقودٍ من النجاحات والإخفاقات، وسوف تستمران في المقابلة خلال أمجادٍ وكبواتٍ عديدةٍ مقبلة. أخبرت السيدة «ماكولا» السيدة «ريتشاردسون» فيما غرفت دجاج «تِكًّا ماسالا» بصلصة الكاري فوق هضبةٍ من الأرز:

ـ «مارك» وأنا تقدمنا بطلب تبني طفلة من الصين.

قالت السيدة «ريتشاردسون»:

ـ هذا رائع.

ـ قالت وكيلة التبني إننا مرشحان مثاليان. إنها تعتقد أنهم سيجدون طفلة متوافقةً معنا في غضون ستة شهور.

أخذت السيدة «ماكولا» رشفة ماء. تابعت:

ـ قالت إنه بمجيء الطفلة من الصين، فإن احتمالات محاولة عائلتها أن تسترد الحضانة منعدمة تقريبًا.

مالت السيدة «ريتشاردسون» فوق الطاولة لتعتصر يد صديقتها القديمة، قالت:

ـ ستكون طفلةً محظوظةً للغاية.

كان هذا ما سيطارد السيدة «ماكولا» أكثر من أي شيء آخر: أن «ميرابيل» لم تصرخ حين مدت «بيبي» يدها إلى المهد ورفعتْها وأخذتْها بعيدًا. على الرغم من كل شيء ـ على الرغم من الطعام المُعد بالمنزل والألعاب وسهر الليالي والحب، الكثير من الحب، حبٌّ أكثر من الذي استطاعت السيدة «ماكولا» أن تتخيل أنه ممكن ـ على الرغم من كل ذلك، لقد شعرت «ميرابيل» أن ذراعَي «بيبي» كانتا مكانًا آمنًا، مكانًا تنتمي إليه. هذه الطفلة التالية، كما

قالت لنفسها، القادمة من ملجأ الأيتام، لن تعرف أبدًا أمًّا أخرى. شعرت السيدة «ماكولا» بالدوار بالفعل بحب هذه الطفلة التي لم تقابلها بعد. حاولتْ ألا تفكر في «ميرابيل»، الابنة التي فقدتْها، تحيا بالخارج هناك في مكانٍ ما، حياةً أجنبيةً أخرى.

* * *

في تلك الليلة الأخيرة، فيما توقفتا بعيدًا عن منزل عائلة «ريتشاردسون»، أسقطت «بيرْل» المفاتيح في صندوق بريد عائلة «ريتشاردسون» مصدرةً صليلًا وعادت إلى داخل السيارة وأخيرًا نطقت السؤال الذي كان متعلقًا بطرف لسانها:

ـ ماذا لو كانت هذه الصور هي التي سوف تجعلكِ مشهورة؟

لن يحدث، سوف تكون هذه هي الفكرة التي بدأت تلمع في ذهن «مِيا» فيما أضاءت الأنوار الأمامية، لمحة من فكرة، لم تتماسك بعد لتكوِّن صورة، ناهيك عن أن تكوِّن كلمات. كما حدث، لن يبيع أفراد عائلة «ريتشاردسون» تلك الصور. سوف يحتفظون بها وسوف تتخذ الصور مكانة إرثٍ عائليٍّ مُربك، شيء سوف تتساءل الأجيال القادمة بشأنه حين يُعثر على ذلك الصندوق الذي يعلوه الغبار في العلِّيَّة ويُفتح: من أين أتت هذه الصور، من الذي صنعها، ما المقصود بها؟

في الوقت الحالي، خفَّفت «مِيا» سرعة السيارة:

ـ إذن فسأدين لهم بالكثير، أكثر بكثير من سعر الصور.

وجهت السيارة «رابِتْ» مرورًا ببركة البط، عبر مسارات مركز «فان أَكِن» التجاري ومحطة قطارات «رابِد»، باتجاه طريق «وارنسفيل»، الذي سيأخذهما إلى الطريق السريع، بعيدًا خارج كليفلاند.

قالت «بيرْل»:

ـ أتمنى لو كانت لديَّ فرصة كي أقول وداعًا.

فكرت «بيرْل» في «مودي»، و«ليكسي»، و«تريب»، في الخيوط التي

ما زالت تربطها بكلٍّ منهم في اتجاهاتٍ مختلفة. على مرِّ الأعوام، على مدار حياتها، سوف تحاول مرارًا أن تفك تشابك هذه الخيوط، وتجد كل مرة أنها مجدولةٌ على نحوٍ ميؤوسٍ منه.

ـ و«إيزي»، أتمنى لو تسنَّت لي رؤيتها لمرةٍ واحدةٍ أخيرة.

كانت «مِيا» هادئة، تفكر في «إيزي» أيضًا. قالت أخيرًا:

ـ مسكينةٌ «إيزي»، إنها تريد بشدة أن تخرج من هناك.

بدأت الفكرة تتشكَّل في ذهن «بيرْل» في شكل حلقاتٍ ذهبيةٍ جامحة. قالت:

ـ بإمكاننا أن نعود ونأخذها. بإمكاني تسلُّق الشرفة الخلفية والدَّقّ على نافذتها و...

قالت «مِيا»:

ـ عزيزتي، «إيزي» في الخامسة عشرة من عمرها فحسب. هناك قواعد بشأن هذا النوع من الأمور.

لكن فيما أسرعت السيارة إلى آخر طريق «وارنسفيل» وباتجاه طريق «I-480»، سمحت «مِيا» لنفسها بتخيُّلٍ قصير. سوف تقودان على طريقٍ ذي حارتين، طريق فرعي ما، من النوع الذي تفضله «مِيا»: النوع الذي يتثنى عبر بلداتٍ صغيرة مكوَّنة من متجرٍ ومقهى ومحطة وقود. سوف يمور الغبار في الهواء فيما يمران بها، مثل غيماتٍ ذهبية. سوف تدوران حول منحنى وتخرجان من ذلك الضباب الذهبي، سوف تريان قوامًا مظلَّلًا بجانب الطريق، ذراعًا ممتدة، إبهامًا يشير إلى أعلى. سوف تُبطئ «مِيا» السيارة، وفيما يستقر الغبار سوف تريان شعرها أولًا، فورة من ذهبٍ على ذهب، تتعرفان على هذا الشعر الجامح، ذلك الجموح الذهبي، حتى قبل أن تريا وجهها، حتى قبل أن تتوقفا وتفتحا الباب على اتساعه وتسمحا لها بالركوب.

* * *

في صباح السبت، فيما استقلت «مِيا» و«بيرْل» السيارة إلى ولاية آيوا، استقلَّت «إيزي» ـ رائحة الدخان الخفيفة ما زالت في شعرها ـ إحدى حافلات شركة «جرايهاوند» متجهة إلى بيتسبرج. عبر البلدة يتجمع أفراد عائلتها الآن على ضفة بركة البط، يراقبون رجال الإطفاء وهم يغمرون منزل «ريتشاردسون»، لهبًا تلو لهب. لديها عنوانٌ، مطويٌّ في جيبها الخلفي، وجدته في ملفات والدتها، التي فتشتْها بسرعة في وقتٍ متأخرٍ الليلة الماضية، بعد حزم حقيبتها. «"جورج" و"ريجينا رايت". بيڤِل بارك، بنسلفانيا». كان هناك رقم هاتف، أيضًا، لكن «إيزي» عرفت أن مكالمة هاتفية لن تمنحها الإجابات التي احتاجتْها. كان الملف على مكتب والدتها ـ الذي كُتِب عليه بأناقة «إم دبليو» بخط والدتها الدقيق ـ ممتلئًا تمامًا، ولقد قرأت «إيزي» كل شيء، جالسة في ضوء المصباح على كرسي مكتب والدتها، فيما نام الجميع بهدوء في الطابق العلوي. أسفل عنوان الزوجين «رايت» نسخت «إيزي» عنوانًا آخر: «أنيتا ريس»، معرض «ريس» للفنون. كان في مكان ما في مدينة نيويورك. عرفت «إيزي» أن «مِيا» قد بدأت هناك حين لم تكن أكبر بكثير من «إيزي». تساءلت كيف ستبدو المدينة.

ربما سيساعدها أحد هؤلاء الناس في العثور على «مِيا»، أينما كان المكان الذي توجهت إليه. ربما سيعيدونها إلى والديها. وإذا فعلوا؟ سوف ترحل مرة أخرى. سوف ترحل مرةً أخرى وأخرى حتى تصبح كبيرة بما يكفي كي لا يتمكن أحدٌ من إعادتها. سوف تظل تبحث حتى تجد ما كانت تبحث عنه. أغرتْها بيتسبرج بالمجيء، ومن بعدها نيويورك: ماضي «مِيا»، لكنه مستقبلها. سوف تقودانها إلى «مِيا» بطريقةٍ ما.

الآن، مستقرةٌ في مقعد ومسندةٌ رأسها على النافذة، تخيلت كيف سيجري الأمر. سوف تقع عيناها على «مِيا» من الخلف أولًا، لكن بالطبع سوف تتعرف «إيزي» عليها على الفور. عرفت هيئة «مِيا» مثل شكلٍ تتبَّعتْه مرارًا وتكرارًا حتى حفظتْه عن ظهر قلب. سوف تجد «مِيا» وحين تلتفت

«مِيا» سوف تفتح ذراعيها، سوف تضمها وتأخذها معها، أينما ذهبتْ «مِيا» بعد ذلك.

* * *

في تلك الليلة الأخيرة، حين وطَّنت السيدة «ريتشاردسون» نفسها للنوم في منزل «وينسلو» للمرة الأولى، بدأت تفكر، كما سوف تفعل لمدة طويلة، في أصغر أطفالها. كان ضجيج المنزل غريبًا عليها ـ همهمة الثلاجة، الهدير الخافت للفرن بالطابق السفلي، صرير غصنٍ يضرب السطح الإردوازي بالأعلى ـ نهضت وذهبت إلى الخارج وجلست على درجات سلَّم المنزل المزدوج الصغير، رداء استحمامها ملفوفٌ بإحكام حولها. تحت قدميها كان مدخل المنزل الأسمنتي باردًا ورطبًا قليلًا، كما لو أن ضبابًا قد انقشع للتو.

طوال اليوم وجهت غضبها تجاه «إيزي»، داخليًّا وعلانية. لقد قالت إنها طفلةٌ جاحدة. كيف أمكنها أن تفعل هذا. ماذا ستفعل السيدة «ريتشاردسون» حين يجدون «إيزي». سوف تُعاقَب مدى الحياة. سوف تُرسل إلى مدرسةٍ داخلية، مدرسة عسكرية، دير. لقد كان لديها ميلٌ لتدع الشرطة تتصرف معها: لتدعها تتعلم العواقب في السجن. اعتاد زوج السيدة «ريتشاردسون» وأطفالها على ثوراتها وهياجها على «إيزي»، أومأوا بهدوء، تركوها تهذي. لكن هذه المرة كانت مختلفة عن المرات الأخرى. هذه المرة، تجاوزت «إيزي» كل الحدود، والآن ـ صار كل فرد في العائلة يدرك ببطء ـ أنها قد لا تعود أبدًا.

كانت الشرطة تبحث عن «إيزي» بالطبع، لقد نشروا تنبيهًا بشأنها باعتبارها طفلة هاربة ومن المحتمل تعرُّضها للخطر، وفي الأيام المقبلة سوف تعطيهم السيدة «ريتشاردسون» صورًا من أجل النشرات والملصقات، سوف تتعقَّب أصدقاء «إيزي» وزملاء صفها واحدًا واحدًا، بحثًا عن قرائن حول المكان الذي ربما تكون ذهبت إليه. لكن أولئك الذين ربما عرفوا، كما أدركت،

https://t.me/fantazynov

قد رحلوا بالفعل. بدت المنازل في الشارع كله مثل أي منازل أخرى، لكن بداخلها هناك أناس قد يكونون سعداء، أو يتخذون ملجأً، أو يعدون أنفسهم لمأساة الخروج إلى العالم، بحثًا عن شيءٍ أفضل. حيواتٌ كثيرة لن تعرف عنها شيئًا أبدًا، تجري خلف هذه الأبواب.

كان الوقت قُرب منتصف الليل، مرت سيارة مسرعة على طريق «وينسلو»، نورها العالي مضاء، كما لو أن ثمة مكانًا مهمًّا يجب أن تكون فيه، ثم اختفت في العتمة. ربما بدت السيدة «ريتشاردسون» مجنونةً بالنسبة للجيران، كما اعتقدت، بجلوسها في الخارج على درجات السلَّم في الظلام، لكنها للمرة الأولى لم تكترث. الغضب الذي كان لديها تأجَّج طوال اليوم واحترق حتى لم يبقَ هناك شيءٌ منه، مثلما تخبو حرارة ما بعد الظهيرة بينما يحل المساء، تاركًا إياها بفكرةٍ واحدة، باردة ومتبلورة وثاقبة مثل نجمة: رحلت «إيزي». كل شيءٍ أحنقها بشأن «إيزي»، حتى قبل أن تأخذ أول أنفاسها، قد تجذَّر في هذا الخوف الواحد، خوف السيدة «ريتشاردسون» أنها قد تفقد «إيزي». والآن فقدتْها. تصاعد نواحٌ هزيلٌ من حلقها، حادٌّ كنصل سكين.

للمرة الأولى، بدأ قلبها يتحطم، تفكر في طفلتها في الخارج هناك، في العالم. «إيزي»: الطفلة التي سبَّبتْ لها السيدة «ريتشاردسون» الكثير من المتاعب، التي أقلقتْها كثيرًا، التي لم تتوقف قطُّ عن إقلاقها والقلق عليها، الطفلة التي وجَّهتْها طاقتها التي لا تهدأ، أخيرًا، إلى الهروب. تلك الطفلة التي اعتقدت السيدة «ريتشاردسون» أنها نقيضتها، لكن تلك الطفلة، عميقًا في داخلها، قد ورثت وحملت وغذَّت تلك الشرارة التي أخمدتْها والدتها منذ زمنٍ طويل، ذلك اليقين المتَّقد نفسه بأنها عرفت الصواب من الخطأ. فكرت السيدة «ريتشاردسون»، كما ستفعل غالبًا لأعوام عديدة، في الصورة التي رأتْها ذلك اليوم، ذات الريشة الذهبية الوحيدة بداخلها: أكانت صورةً شخصية لها، أم لابنتها؟ أكانت هي الطائر الذي ضرب ما في طريقه ليتحرر، أم إنها كانت القفص؟

سوف تجد الشرطة «إيزي»، هكذا قالت السيدة «ريتشاردسون» لنفسها. سوف يجدون «إيزي» وسوف تكفِّر السيدة «ريتشاردسون» عن أخطائها. لم تكن متأكدة كيف، لكنها كانت واثقة أنها ستفعل. وإذا لم تستطع الشرطة العثور على «إيزي»؟ إذن سوف تبحث عن «إيزي» بنفسها. مهما استغرق ذلك من الوقت، إلى الأبد إذا احتاج الأمر. ربما تمر السنوات وربما تتغيران، كلتاهما، لكنها متأكدة أنها ستظل تعرف طفلتها، تمامًا كما تعرف نفسها، مهما طال الزمن. كانت واثقة من هذا. سوف تنفق شهورًا، أعوامًا، ما تبقى من حياتها تبحث عن ابنتها، تفتش في وجه كل امرأة شابة قابلتْها مهما استغرق ذلك من الوقت، تفتش عن شرارة الألفة في وجوه الغرباء.

https://t.me/fantazynov

شكر وعرفان

حين كنتُ في جولة لترويج كتاب «كل شيءٍ لم أخبرك به قطٌّ»، سأل واحد من الجمهور ذات مرة: «لقد أحصيتُ العدد، ولقد شكرتِ خمسة وستين فردًا في صفحة الشكر والعرفان، لماذا شكرتِ هذا العدد الكبير من الناس؟» وضَّحتُ أنه على الرغم من أن اسمي هو الوحيد على الغلاف، فقد ساعدني كثير جدًّا من الناس طوال الطريق، وهذا الكتاب لم يكن ليوجد من دونهم. وهذا الأمر أكثر صدقًا حتى في المرة الثانية.

شكرًا كما هي الحال دائمًا لوكيلة أعمالي الخارقة «جولي باربِر» ولكل شخص في «ذا بوك جروب»، أنا شديدة الامتنان لأنني جزءٌ من «بارِر ناشن»، مُحرِّرتي ثابتة الجَنان «فيرجينيا سميث يونْس»، التي جعلت هذا الكتاب أفضل وأغنى بتوجيهاتها الخبيرة، و«جاين كافولينا» التي صححت جدولي الزمني وحروفي المائلة بصبرٍ فائق. «جوليانا كِيان»، و«آن بادمان»، و«سارة هَتسون»، و«ماثيو بويد»، و«سكوت مويرز»، و«آن جودوف»، و«كاثرين كورت»، و«باتريك نولان»، و«مادلين ماكينتوش»، والفريق الكامل في دار «بينجوين برِس» و«بينجوين بوكس» الذين قاموا بعملٍ رائع لإخراج هذا الكتاب إلى العالم، شكرًا لمساندتي مرةً أخرى.

مجموعة الكتابة المخلصة التي أنتمي إليها، «التشانكي مانكيز» («تشِب تشيك»، و«كالفن هينيك»، و«جينيفر دي ليون»، و«سونيا لارسون»،

و«ألكساندريا مارزانو ـ ليسنيفتش»، و«ويتني شارِر»، و«آدم ستيوماكر»، و«جرايس تالوسان»، و«بيكي توتش») كانوا القراء الأوائل لهذا الكتاب، ساعدني تشجيعهم على الانتهاء، وكانت سلاسل رسائلنا الإلكترونية أكثر شبهًا بشرايين الحياة. «آيلِت آميتاي»، و«آن ستامشكين»، وجماعتي لماجستير الفنون الجميلة: كما هي الحال دائمًا، أنتم في المقدمة. «جِس هابِرلي» و«دانييل لازارين»، أُرسلُ إليكما شاحنةً ملأى بـ«دوناتس». وأصدقائي من غير الكُتَّاب حافظوا عليَّ عاقلةً ومُتَّزنةً أثناء هذه الرحلة المجنونة، بالتحديد، لا أستطيع أن أصدق أن «كايتي كامبِل»، و«سامانثا تشاين»، و«آني زو» ما زِلْنَ يتحمَّلنَني.

شكرٌ كبيرٌ لقُرائي، قُرَّاء هذه الرواية والرواية الأولى. إلى هؤلاء الذين راسلوني إلكترونيًّا، وكاتَبوني، وأعطوني يدًا بيد ملاحظاتٍ أثناء جلسات القراءة، أو تبادلوا معي الحديث على طاولة التوقيع: شكرًا لكم. ليس بوسعي إخباركم عن مدى امتناني. كثيرٌ من الشكر لأصدقائي على تويتر أيضًا: أنتم تُذَكِّرونني كل يوم إلى أي مدى يستطيع الناس أن يكونوا أذكياء، مرِحين، وطيبين.

وأخيرًا، الشكر الأكبر والأخير لعائلتي. شجع كلٌّ من «لِيلي» و«إيفون إنْج» عادتي في الكتابة منذ أيامي المبكرة، لم أكُن لأصبح هنا لولاكما، مجازيًّا أو حرفيًّا. آمن زوجي، «مات»، أن الكتابة كانت وظيفتي قبل أن أؤمن أنا بوقتٍ طويل، وظلَّ يخبرني ذلك. شكرًا لكل شيءٍ فعلتَهُ. وابني، ما زال أعظم إبداعاتي: «فلتكُن هذي الأبيات»، لكنني أبذل قصارى جهدي.

الكاتبة

سيليسْت إنْج كاتبة أمريكية، وُلدت في بيتسبرج، بولاية بنسلفانيا، عام ١٩٨٠. ونشأت في بيتسبرج وشايكِر هايتس، بولاية أوهايو. تخرجت في جامعة «هارفارد»، وحصلت على ماجستير الآداب من جامعة «ميشيجان». صدرت روايتها الأولى «كل شيء لم أخبرك به قطُّ» عام ٢٠١٤، ودخلت قائمة الأكثر مبيعًا طبقًا لـ«النيويورك تايمز»، وحصلت على جائزة «ماساتشوستس للكتاب» وجائزة «أليكس». صدرت روايتها الثانية «حرائق صغيرة في كل مكان» عام ٢٠١٧، ودخلت أيضًا فور صدورها قائمة الأكثر مبيعًا طبقًا لـ«النيويورك تايمز»، وحصلت على جائزة «أوهايوانا» للكتاب، وعُدَّت أفضل كتاب صدر في عام ٢٠١٧. تُرجمت كتاباتها إلى أكثر من ثلاثين لغة. تعيش الآن في كامبريدج، بولاية ماساتشوستس.

https://t.me/fantazynov

المترجمة

سها السباعي مترجمة مصرية، وُلدت في القاهرة عام ١٩٧٤. حصلت على درجة الليسانس من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة. ترجمت: «رحلة هاملت العربية ـ أمير شكسبير وشبح عبد الناصر» تأليف «مارجريت ليتفين»، و«قراءات في أعمال نوال السعداوي» تأليف «إرنست إيمونيو» و«مورين إيك»، ورواية «حُب» تأليف «هانة أورستافيك» (ترجمة مشتركة مع شيرين عبد الوهاب).



https://t.me/fantazynov

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

https://t.me/fantazynov

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

https://t.me/fantazynov